التعريف بالمصطلح الشريف

تأليف

القاضي ابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى
٧٠٠هـ - ٧٤٩هـ

عني بتحقيقه وضبطه وتعليق حواشيه
محمد حسين شمس الدين

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

مؤلف الكتاب

هو أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يحيىٰ بن فضل الله بن مُجلِّي بن دَعْجان بن خلف بن نصر... القُرشي العَدَوي العُمري. يتصل نسبه بعمر بن الخطاب ولذلك عُرف بالعُمريّ[1].

ولد العمري بدمشق ثالث شوَّال سنة ٧٠٠ هـ[2]. قرأ العربية أولاً على الشيخ كمال الدين ابن قاضي شُهْبَة، ثم على قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم، وتفقه على قاضي القضاة شهاب الدين بن المجد عبد الله، وعلى الشيخ برهان الدين، وقرأ الأحكام الصغرىٰ على الشيخ تقيّ الدين بن تيميَّة، والعَروض على الشيخ شمس الدين

(١) يقول العمري إن عشيرته أصلها من قريش، وتتحدَّر من عمر بن الخطاب. وقد وصلت هذه العشيرة في الأصل إلى مصر أيام الخليفة الفائز (٥٤٩ ـ ٥٥٥هـ / ١١٥٤ ـ ١١٦٠ م) عندما كان الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك (٤٩٥ ـ ٥٥٦ هـ/ ١١٠١ ـ ١١٦١م) يتولى الوزارة. وكان القادمون جماعة من آل عَديّ بن كعب، وهو البطن القرشي الذي ينتمي إليه عمر بن الخطاب. ومن بين هؤلاء بيوت من آل عمر على رأسهم خلف بن نصر العمري ـ من سلالة ابن الخطاب ـ وهو الجدّ الأعلى للمؤلف ابن فضل الله.

ويشيد العمري بالعلاقة الطيبة التي كانت تربط جدَّه هذا بطلائع بن رُزِّيك ـ على مخالفة المعتقد. وربما كان هذا التقليد المتوارث في أسرته عن حسن علاقتها بالفاطميين وراء موقفه الإيجابيّ من الدولة الفاطمية، بخلاف كثير من المؤرخين والأدباء. وقد تمثل هذا في قصيدة أثنىٰ عليهم فيها، حفظها لنا السيوطي في «حُسن المحاضرة».

(انظر: مسالك الأبصار: المقدمة بقلم المحققة كرافولسكي ـ وقلائد الجُمان للقلقشندي: ١٣٩ ـ ١٤٠).

(٢) كذا في النجوم الزاهرة وفوات الوفيات. وفي تاريخ الإسلام للذهبي والمنهل الصافي: سنة ٦٩٧ هـ.

الصائغ وعلاء الدين الوداعي، وقرأ جملة من المعاني والبيان على العلامة شهاب الدين محمود الحلبي، والأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهاني، وأخذ اللغة عن الشيخ أثير الدين[1].

نشأ العمري في أسرة ذات عَراقة أدبية، تولّى عدد من أفرادها وظيفة «صاحب ديوان الإنشاء» لأكثر من قرن من الزمان؛ وهؤلاء هم:

القاضي محيي الدين يحيى بن فضل الله المتوفى سنة ٧٣٨ هـ ـ وهو والد المؤلف.

القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله المتوفى سنة ٧١٧ هـ.

القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله المتوفى سنة ٧٠٦ هـ.

القاضي بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله المتوفى سنة ٧٤٦ هـ.

القاضي شهاب الدين أحمد بن محيي الدين بن فضل الله المتوفى سنة ٧٤٩ هـ.

القاضي علاء الدين علي بن محيي الدين بن فضل الله المتوفى سنة ٧٦٩ هـ.

القاضي بدر الدين محمد بن علاء الدين علي المتوفى سنة ٧٩٦ هـ؛ وهو آخر من ولي من بني فضل الله كتابة السرّ ببلاد مصر[2]. وإلى هذا الأخير يرجع الفضل في إدخال القلقشندي إلى ديوان الإنشاء، وفي توجيهه لكتابة مؤلفه الجليل: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. وكان القلقشندي قبل هذا قد كتب مقامة في تقريظ المقر البدريّ سمّاها: «الكواكب الدرِّية في المناقب البدريَّة»، وهي نواة كتابه «صبح الأعشى»[3].

وبالعودة إلى كاتبنا وأسرته نقول إنّ تلك النشأة المتميزة ـ في ميادين الأدب وكتابة الإنشاء، وفي أجواء أسرته من آل فضل الله ـ جعلت منه، على حدِّ تعبير الشيخ صلاح الدين الصفدي[4]: «أحدَ الأدباء الكَمَلة الذين رأيتهم؛ وأعني بالكَمَلة: الذين

---

(١) انظر: فوات الوفيات: ١/١٥٩.

(٢) النجوم الزاهرة: ٩/٣١٦ ـ وانظر وفيات السنوات المذكورة في الأجزاء: ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١١ تجد تراجم المذكورين.

(٣) صبح الأعشى: ١/٣٤ ـ ومقدمتنا لصبح الأعشى: طبعة دار الكتب العلمية.

(٤) الوافي بالوفيات: ٨/٢٥٢ وما بعدها.

يقومون بالأدب علماً وعملاً في النظم والنثر، ومعرفة بتراجم أهل عصره ومن تقدّمهم على اختلاف طبقاتهم، وبخطوط الأفاضل وأشياخ الكتابة». قال: «ثم إنه مُشاركٌ من رأيته من الكَمَلة في أشياء، وينفرد عنهم بأشياء بلغ فيها الغاية، لأنه جوَّد فن الإنشاء والنثر، وهو فيه آية، والنظم وسائر فنونه، والترسُّل البارع عن الملوك؛ ولم أرَ من يعرف تواريخ الملوك المُغل من لَدُن جنكيزخان وهلمَّ جرّاً معرفته، وكذلك ملوك الهند والأتراك. أما معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها فإنه فيها إمام وقته، وكذلك معرفة الاصطرلاب وحلّ التقويم وصور الكواكب. وقد أذن له العلامة شمس الدين الأصفهاني في الإفتاء على مذهب الإمام الشافعيّ».

عمل شهاب الدين في ديوان الإنشاء مع والده لما كان هذا الأخير كاتب السرّ بدمشق، في أيام سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة. ولما انتقل والده إلى كتابة السِّر بمصر انتقل معه وصار هو الذي يقرأ البريد على الملك الناصر وينفِّذ المهمات؛ وقد استمر في ذلك طوال مدة عمل والده، نيابةً عنه، بسبب كبر سنّه[1]. غير أن السلطان ما لبث أن تغيَّر عليه وصرفه سنة ٧٣٨ هـ، وأقام مكانه أخاه علاء الدين عليّاً[2]. وتوجَّه شهاب الدين إلى دمشق وبقي فيها حتى وفاته تاسع ذي الحجَّة سنة ٧٤٩ هـ[3].

---

(١) نقل في النجوم الزاهرة عن الصفدي قوله في محيي الدين بن فضل الله، والد شهاب الدين أحمد: «ولم أرَ في عمري من كتب النُسخ وخرَّج التخاريج والحواشي أحلى وأظرف ولا ألطف منه. لكن القاضي محيي الدين هذا رعشت يده وأرتجّت كتابته أخيراً. قال: ولم أرَ في عمري من نال سعادته في مثل أولاده وأملاكه ووظائفه وعمره». ـ النجوم الزاهرة: ٩/٣١٦.

(٢) لم تذكر لنا المصادر سبب تغيُّر السلطان عليه؛ غير أن ما ذكر عن موقفه الإيجابي من الفاطميين ومديحه لهم في قصيدة نقلها السيوطي ما يدعو للتأمل. كما أن انصرافه عن ديوان الإنشاء كان في نفس السنة التي توفي فيها والده أي سنة ٧٣٨ هـ. ولعلَّ مكانة والده المميَّزة لدى السلطان كانت تحول دون إصابته بغضب السلطان. وقد نقل صاحب النجوم الزاهرة عن الصفدي قوله: «وكان السلطان قد بالغ أخيراً في احترامه (أي محيي الدين بن فضل الله) وتعظيمه، وكتب له في أيام الأمير سيف الدين ألُجاي الدوادار توقيعاً «بالجناب العالي» يقبِّل الأرض، واستعفى من ذلك وكشطها وقال: ما يصلح لمتعمِّم أن يُعدَّى به «المجلس العالي».

(٣) ذكر المؤرخون سنين مختلفة لوفاته؛ فقد جعله ابن إياس في وفيات سنة ٧٥٥ هـ؛ وذكر جرجي زيدان أن وفاته كانت سنة ٧٤٨ هـ. غير أن ما ذكره ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة: ١٠/٣٣٤ هو أكثرها

وقد كان لانصراف الملك الناصر عنه أثرٌ بالغ المرارة في نفسه، مما ولَّد لديه اتجاهاً قوياً للانصراف عن الكتابة وميلاً إلى الانكفاء. كيف لا؟ وهو إمام زمانه في الترسُّل والكتابة الديوانية(١) والمعرفة بأحوال المسالك والممالك. وقد أشار العمري إلى تلك المرارة في مقدمته لكتابنا هذا بقوله: «هذا وقد خلعت ذلك الرداء المعار، ومات سلطاننا رحمه الله وزال ذلك الستار؛ وقد أهملت هذا الفنَّ حتى نسيتُه». ويقول في خاتمة الكتاب: «وإعراضي عن هذه الصناعة التي قلَّت منها البضاعة، وعلمت أن إنفاق رأس مالي من العمر فيها كان إضاعة». ولعلَّه بعد تركه ديوان الإنشاء بمصر انصرف في الشام إلى تأليف مجموعته الموسوعية المسمَّاة «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» وهي حصيلة عملية جمع واستقصاء استمرت عشرة أعوام ونيفاً؛ والراجح أن الموت فَجَأَهُ قبل أن يُتِمَّ كتابه المذكور(٢).

مؤلفات العمري

مع أن العمري لم يعمِّر طويلاً (٧٠٠ ـ ٧٤٩ هـ) فقد ألف كتباً مهمة في موضوعات شتى؛ وبعضُ هذه الكتب يعتبر مرجعاً أساسياً في بابه لجميع من جاءوا بعده، خاصة: مسالك الأبصار والتعريف. ونحن نثبت هنا مؤلفاته مع تعريف موجز بكل منها استناداً إلى ما جاء عنها في «كشف الظنون» لحاجي خليفة، و «الذيل» عليه لإسماعيل باشا البغدادي، و «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي، و «تاريخ آداب اللغة العربية» لجرجي زيدان، و «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي، و «صبح الأعشى» للقلقشندي.

= دقَّة. ويمكننا الجزم في ذلك من خلال نص للعمري نفسه في مسالك الأبصار حيث يقول: «فهذا ما ذكره الشريف أبو عمر عبد العزيز الإدريسي، وحدثني بذلك كله في صفر سنة ٧٤٩ هـ» وقد توفي العمري بعد تسعة شهور من كتابة تعليقه السالف الذكر. (مسالك الأبصار ـ القسم الأول ـ تحقيق دوروتيا كرافولسكي: المقدمة ص ٥٧).

(١) كانت كتابة السِّر امتيازاً خاصاً لا يتطلَّع إليه إلا جلَّة الأدباء. وكان صاحبها بمثابة أمين سرّ الدولة ورئيس دبلوماسيتها المطَّلع على خفاياها وأسرارها، وبالتالي كان هو الأقرب إلى السلطان، حتى إنه يتقدَّم في بعض الأحيان على الوزير. (راجع مقدمتنا لكتاب معالم الكتابة ومغانم الإصابة لابن شيث ـ منشورات دار الكتب العلمية ـ بيروت).

(٢) انظر مقدمة مسالك الأبصار المذكور آنفاً.

١ ـ **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**: وهو موسوعة ضخمة متخصصة في باب «المسالك والممالك» من الفرع الجغرافي الإسلامي المعروف، وهو ما يسمى في العصر الحديث «علم البلدان». وهذا الكتاب في أكثر من عشرين مجلداً. وقد قسمه المؤلف إلى قسمين: الأول في الأرض، والثاني في سكان الأرض.

٢ ـ **التعريف بالمصطلح الشريف**: وهو كتابنا هذا؛ وسيأتي الكلام عليه. وقد اختصره في كتاب آخر سمّاه: «عرف التعريف».

٣ ـ **ممالك عُبّاد الصليب**: وصف فيه ملوك الإفرنج في عصره؛ وقد روى ذلك عن بَلَبان الجنوي، أحد مماليك بَهَادُر المعزِّي، فوصف مُلك فرنسا وألمانيا وأحوالهما السياسية والاجتماعية؛ وفعل نحو ذلك في البنادقة والإيطاليين وأهل جَنَوَة، وبيَّن علائقهم بالمسلمين. والكتاب طبع في روما سنة ١٨٨٣ م مع ترجمة إيطالية لأماري.

٤ ـ **فواضل السمر في فضائل آل عمر**: وهو دراسة عن أسرته ورجالاتها وفضائلها، في أربعة مجلدات. وما زال هذا الكتاب مفقوداً حتى الآن.

٥ ـ **صبابة المشتاق**: وهو في مدح النبي ﷺ ـ في مجلد واحد.

٦ ـ **دمعة الباكي ويقظة الشاكي**: في الأدب. كذا ذكره إسماعيل باشا البغدادي. وذكره حاجي خليفة باسم «دمعة الباكي ويقظة الساهي». وذكره الكتبي في فوات الوفيات باسم «دمعة الباكي ويقظة الساهر».

٧ ـ **نفحة الروض**: في الأدب.

٨ ـ **الشتويات**: مجموع رسائل كتبها في الشتاء. ومنه نسخة مخطوطة في ليدن.

٩ ـ **النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية**: ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة فلايشر.

١٠ ـ **الدُّرر الفرائد**: وهو مختصر «قلائد العقيان في محاسن الأعيان» لأبي

النصر الفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ. وموضوعه تراجم لطائفة من ملوك ووزراء وقضاة وعلماء وأدباء وشعراء المغرب. ومن كتاب العمري نسخة في الخزانة التيمورية كتبت سنة ٧٢٠ هـ.

١١ ـ **الدائرة بين مكة والبلاد**: ذكره الزركلي في «الأعلام» ولم يذكر موضوعه.

١٢ ـ **تذكرة الخاطر**: ذكره في كشف الظنون ولم يذكر موضوعه.

١٣ ـ **حسن الوفا لمشاهير الخلفا**: وهي قصيدة رائية

١٤ ـ **ذهبيَّة العصر**: ترجم فيه لمشاهير المئة الثامنة من معاصريه، وذكر أشعارهم وأخبارهم.

١٥ ـ **الدعوة المستجابة**: ذكره في كشف الظنون ولم يذكر موضوعه.

١٦ ـ **سفرة السافر ويقظة المسافر**: كذا ذكره إسماعيل باشا البغدادي. وفي كشف الظنون: «سفرة السافر». وفي فوات الوفيات: «سفرة السفرة». ولم يذكر أحدٌ منهم موضوعه.

١٧ ـ **الجواهر الملتقطة**: ذكره القلقشندي في الصبح. وهو مجموعة من المكاتبات من إنشاء العمري.

قال ابن شاكر الكتبي: وقد نظم العمري كثيراً من القصائد والأراجيز والمقطَّعات والدوبيت والموشَّح والبليق.

ومن شعره: [الرمل]

سَلْ شجيّاً عن فؤاد نَزَحا ... وخليّاً فيهُمُ كيف صحا

ومُحبّاً لم يذق بعدَهُمُ ... غيرَ تبريحٍ بهم ما برحا

مزج الدمعَ بذكراهُ لهم ... مثل خدَّيْ من سقاه القَدَحا

زاره الطيفُ وهذا عجبٌ ... شَبَحٌ كيف يلاقي شَبَحَا

وقال: [الطويل]

أأحبابنا والعذرُ منّا إليكُمُ ... إذا ما شغلنا بالنّوى أن نودّعا

أبثُكُمُ شوقاً أباري ببعضِه حمامَ العشايا رنّةً وتوجُّعا
أبيتُ سميرَ البرقِ قلبيَ مثله أقضّي به الليلَ التَّمام مروَّعا
وما هو شوقٌ مدةً ثم ينقضي ولا أنَّةٌ لكن محبٌّ تفجَّعا
ولكنه شوقٌ على القرب والنوى أغصُّ الأماقي مدمعاً ثم مدمَعا
ومن فارق الأحبابَ في العمر ساعةً كمن فارق الأحباب في العمر أجمعا

وقال: [الرمل]

شادِنٌ جدَّد وجدي بعدما صرت شيخاً ليس ترضاني العجوزْ
قلت جاوِزْ لي متاعي قال: قُلْ غَيرَ هذا ذاك شيءٌ لا يجوزْ

كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف»

المراد بـ «المصطلح الشريف» مصطلح الكتابة الديوانية، والقوانين التي تراعى في المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء. وهذه القواعد أو القوانين تشكل رسوماً يجب مراعاتها ـ وأحياناً بدقَّة متناهية ـ في افتتاح الكتب وخواتمها، وفي صيغ الخطاب، وفي الألقاب؛ وتمتد لتشمل أحياناً ترتيب الكتب، ونوع الورق المستعمل وقَطْعه، والأقلام والخطوط، إلى ما هنالك من صغيرة وكبيرة تتعلق بالمراسلات. وقد أطلق على الكتب التي ألفت في هذا الموضوع اسم «الدساتير». ولم تكن هذه الدساتير بدعة خاصة بعصر من العصور، بل كانت حلقات في سلسلة متصلة يمتد أصلها إلى القرون الأولى من العصر العباسي. هذا وقد أخذت كتب الإنشاء في عصر المماليك تفرد الجزء الأكبر منها لدراسة الألقاب والمراسيم دون نواحي نشاط الديوان الأخرى؛ كما صارت تمتاز بالتخصُّص والتركيز نتيجة تبلور مركز ديوان الإنشاء في هذا العصر وتفريع أوجه نشاطه وتحديد اختصاصاته[1].

(١) لن نطيل هنا فقد تكلمنا على ذلك في مقدمتينا «لصبح الأعشى» و«معالم الكتابة ومغانم الإصابة» لكل من أبي العباس القلقشندي وابن شيث. وحول ديوان الإنشاء، وكاتب الإنشاء، ومصطلح الكتابة الديوانية، والكتب التي أُلفت قديماً بهذا الشأن راجع: الألقاب الإسلامية لحسن باشا: ٣٦ ـ ٥٨؛ وديوان الإنشاء: نشأته وتطوره: دراسة لحسن حبشي في كتاب «القلقشندي وكتابه صبح الأعشى»: ٨١ ـ ٩٧؛ ورسوم دار الخلافة لهلال الصابىء: المقدمة بقلم ميخائيل عواد؛ هذا بالإضافة إلى «صبح الأعشى» الذي هو أهم المراجع بهذا الشأن. وهناك عشرات الكتب التي تناولت هذه الموضوعات بشكل =

يعتبر كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» أهم الدساتير التي نظمت مصطلح الكتابة في عصر المماليك البحرية، والقانون الذي ظلّ معمولاً به في ديوان الإنشاء طوال عصر المماليك. وهذا الكتاب يقدِّم لنا خلاصة ما وصل إليه مصطلح الكتابة الديوانية بعد مراحل من التطور والتبلور امتدت على عصري الفاطميين والأيوبيين؛ هذان العصران اللذان قدَّما لنا دستورين مرجعين بهذا الشأن هما: «قانون ديوان الرسائل» لابن الصيرفي، و«معالم الكتابة» لابن شيث. وقد خطَّ «التعريف» الطريق لجميع الدساتير التي جاءت بعده، واعتبر أساساً لها؛ وأهم هذه الدساتير: «تثقيف التعريف» لابن ناظر الجيش، وقد استند فيه مؤلفه إلى ما جاء في كتاب العمري، وزاد فيه زيادات طفيفة طرأت على تطور المصطلح في أيامه؛ ثم جاء بعد ذلك كتاب القلقشندي «صبح الأعشى» وفيه عرض المؤلف لجميع مراحل تطور المصطلح منذ بداية تأسيس ديوان الإنشاء الإسلامي إلى أيامه (توفي سنة ٨٢١ هـ)، بأسلوب علمي رصين، وبأمانة في النقل والتوثيق.

اعتمد العمري في وضع مادة كتابه على خبرته الشخصية وتمرسه في الكتابة أثناء عمله ككاتبٍ للسر ـ وهو بهذا يشبه إلى حد بعيد ابن شيث ـ فهو حين يتكلم عن بعض مسائل لم تَعرض له أثناء عمله يقرر أنه إنما يقيسها على مثيلاتها: فمثلاً عندما يتكلم عن رسم المكاتبة إلى صاحب كرمنيان يقول إنه لم يكتب إليه مدة مقامه بالأبواب السلطانية، وإنه يليق أن تكون المكاتبة إليه «بالمقرِّ» نظير صاحب ماردين. وهو يكتفي في معظم الأحيان بذكر المصطلح السائد في عصره من غير تتبُّع لنشأته وتطوره (بخلاف أسلوب القلقشندي) ومن غير اعتماد على مصادر أخرى أو استشهاد بمكاتبات لغيره من الكتّاب. وهو لا يشذُّ عن خطته تلك إلاّ في مواضع محدَّدة قليلة؛ فهو عندما يتكلم عن البريد والحمام والثلج يتتبع تاريخ ذلك وتطوره؛ وقد أشار إلى أن ما كتبه عن تنظيم البريد في عهد الظاهر بيبرس وصله عن عمه شرف الدين عبد الوهاب كاتب الإنشاء بدمشق، وذلك برواية جمال الدين عبدالله الدوادار البريديّ المعروف بابن

= أو بآخر قديماً وحديثاً. وقد أورد الأستاذ ميخائيل عواد في مقدمته لكتاب «رسوم دار الخلافة» ثبتاً بمئتين وأحد عشر مرجعاً قديماً تتعلق بهذه الموضوعات.

الشـديد. وكـذلك أشـار عند الكـلام عن مراكـزالحمـام إلى كتـاب القـاضي محيي الدين بن عبـد الظاهر: «تمائم الحمائم». إلى ذلك فقد استشهد بعهود كتبها بعض من سبقه من الكتاب مثل عهدي أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين من إنشاء القاضي الفاضـل، وعهدي العـادل كتبغا والمنصـور لاجين من إنشاء شيخـه شهاب الـدين محمود الحلبي، وعهـد الملك الظاهـر بيبرس من إنشـاء ابن لقمان، وعهـد المنصور قلاوون من إنشاء ابن عبد الظاهر.

مخطوط الكتاب وطبعاته

ليس من كتاب العمري هذا سوى نسخـة أصلية وحيـدة محفوظـة بدار الكتب المصـرية بـالقاهـرة؛ بخط علي بن عبد الله الشبلي الحنفي، فـرغ من كتابتهـا بثغـر طرابلس المحروسة في تاسع ذي الحجة الحـرام سنة ٧٦٤ هـ. وخط هـذه النسخة رديء للغاية لا بد من مجهود كبير لحلِّ رموزه وطلاسمه. وقد طُبع الكتاب لأول مرة في القاهرة سنة ١٣١٢ هـ عن تلك النسخة «بمطبعة العـاصمة التي مـركزهـا بحوش الشرقاوي بمصر على نفقة صاحبها محمد مسعود محرر جريدتي الآداب وممفيس. والـطبعة خـالية من الشكـل والنقط والتعليقات والفهـارس مما لا يجعلهـا تتميـز عن المخطوط الأصلي سوى بالجهد الذي بذله الناشر في حل رموز الكتابة، وهو جهـد مشكور على كل حال.

ولما كان لا يمكن العودة إلى مخطوطات أخرى للكتاب ـ لعدم وجـودها على حد علمنا حتى الآن ـ فقد اكتفينا بالمطبوعة المشار إليها كأساس للنصِّ الذي اعتمدناه وحققناه؛ وقد أشرنا في الحـواشي إليها بـرمز «ط ق». هـذا ولم تصدر طبعـة أخرى للكتاب منذ ذلك التاريخ. ومع القراءة المتأنية لتلك الطبعة التي هي صورة عن تلك المخطوطة تبيّن لنا أن بعض النقص يكتنفها، وقد توصلنا إلى ذلك من خلال مقارنة النصوص بما جاء في صبح الأعشى للقلقشندي نقلاً عن كتاب «التعريف» للعمري. وقد لاحظنا أن القلقشندي يكاد يفرغ كل محتوى كتاب التعريف بين دفتي كتابه صبح الأعشى؛ وهـو كلما نقـل شيئاً عن التعـريف أشار إلى ذلـك إشارة واضحـة لا تقبل اللَّبْس؛ هذا بالإضافة إلى ما عهدنا لدى القلقشندي من أمانة في النقل عن غيره. وقد

ترجّح لدينا من ذلك أن القلقشندي قد أخذ عن مخطوطة غير المكتوبة بخط علي بن عبد الله الشبلي الحنفي، وهي - أي تلك المخطوطة - أكمل من غيرها. لذلك فقدّ أضفنا تلك الزيادات الضرورية ووضعناها بين معقوفين [ ] وأشرنا إلى كل ذلك في حينه. كما أشرنا إلى الاختلافات الكثيرة المتفرقة فيما بين النصّين.

أما بخصوص الضبط والشرح والتعليقات فقد اعتمدنا على الدساتير المؤلفة بهذا الشأن وعلى أمهات كتب الأدب واللغة والتاريخ بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، وقد أشرنا إلى ذلك في الحواشي وأثبتنا المصادر والمراجع في نهاية هذه الطبعة.

ونشير أخيراً إلى أن القسمين الخامس والسادس من الكتاب، وهما القسمان الخاصان بالجغرافية، قد قام هرتمان بترجمتهما إلى الألمانية وعلّق عليهما مع دراسة قيمة لتاريخ أسرة آل فضل الله، ووصف للمراجع الأخرى الخاصة بعصر المماليك(١).

وقد زودنا هذه الطبعة بفهارس تفصيلية للأعلام والمصطلحات والبلدان ورسوم المكاتبات تسهّل على القاريء العودة إليها في مظانها بين دفتي الكتاب.

والحمد لله رب العالمين

محمد حسين شمس الدين

بيروت ١٩٨٨

---

(١) Hartmann. R, Politische Geographie des Mamlukenreichs.
Kapitel 5 und 6 des Staatshandbuchs Ibn Fadlallâh al-Omari's. (ZDMG)70

[خطبة الكتاب للمؤلف]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي ميَّزَ مقاديرَ الرُّتَب، وقنَّن القوانينَ حتى لا يبقى سبيلٌ لمن عَتَب، وبيَّن قَدْرَ عُظماء السلاطين بقَدْر معرفة من خاطب عنهم له [عن] كَثَب.

نَحْمَدُه لما رَزَق من فواضِلَ زادت محاسِنَ العلوم، وعرَّفت تفاوُتَ درجات الأولياء إذ قالوا: وما منّا إلا له مقام معلوم، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحدَهُ لا شريكَ له، شهادةً يعلو بها الإسلامُ ولا يُعلىٰ عليه، ويَعْنُو لها وجه كل متكبِّر متكثِّر بقليل ما لديه، ونشهد أنَّ سيِّدنا محمداً عبده ورسوله، أقربُ مَن دنا مقاماً من ربِّه، وأشرف من غزا الملوكَ بكتائبه، ودعاهم إلى الله بكتبه ـ صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

وبعد. قد أُغْرِيَ أهلُ الفضائل بحبِّ التَّمام، وطُبع كلُّ رقيق الشَّمائل على الظَّماء إلى موارد الأدب الجمام، ولم يبقَ مَن لم يصرف إليه الاهتمام، أو وَلِع [بالرِّيّ] وُلوعَ الصَّبّ وكَلِفَ بالسَّجْع كَلَفَ الحَمام. وكان على الألسنة أني [لم] أطلع هذه الشُّعُوب[1]، وعدّى وهو جَزِع شَأْوَ القارح اليَعْبُوب، [فذكَّرْتُ] بالدُّستور[2] الذي كنت عملته في عنفوان الصِّبا بالأبواب السلطانية بديوان الإنشاء، وقرَّبت منه لكل قاصر قصير الرِّشاء، وكنت كتبْت: [البحر السريع].

---

(١) جمع شَعْب. وماءٌ شَعْبٌ أي بعيد. (اللسان: شعب).

(٢) الدساتير هي تلك المؤلفات التي وضعها بعض كتّاب ديوان الإنشاء، وكانت هذه المؤلفات بمثابة دساتير تقرِّر مصطلح الكتابة السائد، وترشد الكتّاب إلى أقوم السُّبل التي ينهجونها حتى يقوموا بأداء مهمتهم على خير وجه. ولم تكن هذه الدساتير مقتصرة على ناحية واحدة من نواحي نشاط الديوان، بل كانت في معظم الأحيان شاملة لمختلف أوجه نشاطه من كتابة وإنشاء وإدارة ومراسيم ومصطلح.
(انظر: الألقاب الإسلامية ـ ص ٣٦ ـ ٣٧).

يـا طـالِبَ الإنشـاءِ خُـذْ عِلمَـهُ عنّي فعِلْمي غيـرُ مَـنْكُـورِ
ولا تقف في بـاب غيـري فمـا تـدخـلـه إلا بـدسـتـوري

وألحّوا عليَّ في المسألة في الوقوف عليه، وفتْح أبواب الأفهام المقفلة بالنظر إليه؛ وكان ممّا حالت دونه الأيدي الغاصِبة، ومانَعتْ عنه الأيام الغالِبة، فقلت: أيها الشَّغِفُ بي آسمعْ بي ولا تَرَني، وأيها الكَلِفُ بهذا الفنّ هذا زمانك إني قد مضىٰ زمني! ولو تركتَ هذا الفنَّ الذي أصبح الوَلَعُ به مَرَضاً، وهذا الفضْلَ الذي ما عـدتُ رأيتُ جوهرَه إلا عَرَضاً، وشغلتَ نفسك بسوى هذا من العلم النافع والعمل الصالح، لكان أعْوَدَ عليك، وأقرَّ لك وأقربَ إليك! فأبىٰ إلا أن يكلفني غرامَةَ ذلك الضائع، ويـريد مني رَدَّ تلك الودائع. هذا وقد خلعتُ ذلك الرِّداء المعار، ومات سلطاننا[1] ـ رحمه الله ـ وزال ذلك الشّعار. وقد أهملتُ هذا الفنَّ حتى نَسَيْتُه، وزدتُ على سائلي في الجهل به أو واسَيْتُه. ثم لم أجد لي راحة من دَوَام مطالبته إلا بأن أضعَ له دستوراً، وأحرقَ خاطري له في التذكّر لما فات وإن كنت لا أجد إلا فُتُوراً. وسألته عن أَرَبه لأعمل على مقتضى إرادته، وأدأبَ فيما يحصل به قدر إفادته، فآقترحَ أن أجعله لما يَحتاج إليه في ذلك الديوان المباشِر[2]، ويكون له كالمعلّم الحاضر، والجليس المباصر. وقد أتيت به على وفق اقتراحه، وملأته سروراً به وقتَ راحه؛ وأتيت فيـه بزيـادات على ما في الأوّل أين تلك منهـا، وإعادات في تلك العـادات لو حصلت الآن لأُعـرض عنهـا، ومحاسِنَ حسَّنت السَّماح بما بخل به العاجز الشحيح، وأمسكه بيديه ولو وجد مع هذا

(١) أي السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي توفي سنة ٧٤١ هـ. وكان شهاب الدين وأخوه علاء الدين عليّ يكتبان للسلطان بحضرة والدهما ووجوده، نيابة عنه لكبر سنّه. ولكن السلطان تغيّر على شهاب الدين وصرفه سنة ٧٣٨ هـ. وتوجه شهاب الدين إلى دمشق حتى مات بها سنة ٧٤٩ هـ.
(انظر النجوم الزاهرة: ١٠/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

(٢) المباشر: والجمع مباشرون؛ وهم موظفون في الدواوين كديوان الخـاص، وفي الأعمال كعمـل الجيزة والبحيرة وغير ذلك كالإقطاع، ومنهم الناظر والمستوفي والشادّ، ويعينهم ناظر الخاص؛ وكان ذلك في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون.
(صبح الأعشى: ٣/ ٤٥١ ـ ٤٦٠ و٤/ ٢٩).

لم يكن إلا كالطريح. وهيهاتَ لا ينهض العاجز، ولا يتفتّق الذهن المحجوب وبينه وبين ما جهد له ألفُ حاجز، وسمّيته: «التّعريف بالمصطلح الشريف»، وجعلته سبعة أقسام:

الأوّل: في رُتَب المكاتبات.

الثاني: في عادات العهود، والتقاليد، والتفاويض، والتّواقيع، والمراسيم، والمناشير.

الثالث: في نُسَخ الأيْمان.

الرابع: في الأمانات، والدّفن، والهُدَن، والمواصفات، والمفاسخات.

الخامس: في نطاق كل مملكة وما هو مضاف إليها من المدن والقلاع والرساتيق.

السادس: في مراكز البريد، والحمام، ومراكز هُجُن الثلج، والمراكب المُسْفرة به في البحر، والمناوِر، والمحرقات.

السابع: في أوصاف ما تدعو الحاجةُ إلى وَصْفِه؛ وهو سبعة فصول.

وأدخلتُ في كل قسم من ذلك ما يفتقر إليه ويحسب فيه؛ وهَيْهاتَ قد ذهبت مني شِرّةُ الصِّبا وشرةُ الفطنة، وعدمت الرغبة، وعقمت القرائح، وآنصرفت إلى غير ذلك الرّكائبُ الطلائح، وسماء الشَّبيبة بضحى المشيب قد تجلّت، والنفسُ قد ألقتْ ما فيها وتخلّت؛ وآستدركتُ الفارط، وألقيتُ القلم من يدي وقلت: وما كاتبٌ بالكفّ إلا كشارِط.

القسم الأوّل

في رُتَب المكاتبات

وأوّل ما نبدأُ بما يُكتَب إلى الأبوابِ الشّريفة الخليفتية[1]ـ زادها الله شرفاً ـ جَرْياً على قديم العادَه، ورَجَاءً لملاحظة السّعاده.

والكتابةُ إليها من الملوك والسُّوقة لا يختلف؛ وهي: «أدامَ الله أيّامَ الديوان العزيز، المولويّ، السَّيّديّ، النبويّ، الإماميّ، الفلانيّ» ثم الدُّعاءُ المعطوف، والصَّدْر بالتَّعظيم المألوف.

وقد يُفتتح بغير هذا الدّعاء، نحو: «أدامَ الله سلطان، وخلَّد الله سلطان، أو أيام . . » أو غير ذلك مما يقتضي العزّة والدّوام.

والصَّدْر نحو: «العبدُ، أو المملوك، يقبّل الأرض أو العتبات أو مواطيء المواقف» أو غير ذلك.

ويُختم الكتابُ تارةً بالدُّعاء وتارةً بـ «طَالَع» أو «أنهَى» أو غيرهما مما فيه معنى الإنهاءِ.

ويُخاطَبُ الخليفةُ في أثناءِ الخطاب: بالدِّيوان العزيز، وبالمواقِفِ المقدَّسة أو المشرَّفة، والأبواب الشَّريفة، والباب العزيز، والمَقَام الأَشْرَف، والجانِبِ الأَعلى أو

(١) كذا استعملت هذه النسبة أحياناً على الرغم من الخطأ اللغوي. ومن ذلك ما ذكره الحسن بن أبي محمد الصفدي في كتابه «نزهة المالك والمملوك» عند ذكر «الشاش الخليفتيّ».
(انظر الألقاب الإسلامية: ٢٧٧).

الشَّريف، وبأمير المؤمنين[1] ـ مُجرَّدةً عن «سيدنا ومولانا» ومرَّةً غير مجرَّدة ـ مع مراعاة المناسَبة والتَّسْديد والمُقَارَبة.

وسَبَبُ الخِطاب بالدِّيوان العزيز الخُضْعَانُ عن مخاطبة الخليفة نفسِه[2]، وتنزيلُ الخطاب منزلةَ مَنْ يُخاطِبُ نفسَ الديوان؛ والمعنيُّ به ديوانُ الإنشاء: إذ الكتبُ وأنواعُ المخاطبات إليه واردةٌ وعنه صادِرَةٌ.

فأما خطابُ المكاتَب عنه «بالعبد» أو «المملوك» أو «الخادم» فاختَلَف بحسب من كُتِبَ عنه: فكَتَبَ صلاح الدين بن أيّوب: «الخادم»، وكتب بنوه[3] والعادلُ أخوه: «المملوك»، وكتب الكامِلُ [ابن العادل]: «العبد»، وَجَرَى على هذا ابْنُهُ الصَّالحُ، وكتب الناصر[4] بن

---

(١) وخوطب الخليفة أيضاً بـ: العتبات العالية، ومَقَرّ الرحمة، ومحلّ الشرف ـ على ما ذكره ابن شيث في «معالم الكتابة»

انظر أيضاً: رسوم دار الخلافة للصَّابي: ص ١٠٠ ـ ١١٠

(٢) كان من آثار الكتّاب على الألقاب استحداث ألقاب الكناية المكانية. وقد جاءت هذه الكنايات نتيجة لاحتجاب الخلفاء وإسناد أمر المكاتبات إلى ديوان الإنشاء الذي حرص على الإشارة إلى الخليفة أثناء المكاتبات بألفاظ الكنايات المكانية. هذا على الرغم من إنكار هذه الاستعارات من جانب بعضهم، مثل ابن حاجب النعمان الذي يقول في كتابه «ذخيرة الكتاب»: وليت شعري أي شيء قصد من كنّى عن أمير المؤمنين بهذه الكنايات، وبدّل نعوته وصفاته المعظمة بهذه الألفاظ المحقّرات؟! وإذا استجيز ذلك كان لآخر أن يقول: المجالس الطاهرة، والمراكب المعظّمة، والأسرّة الممجّدة، وما يجري هذا المجرى مما ينبو عنه السمع وينكره لاستحداثه واستجداده.

(انظر صبح الأعشى: ٤٩١/٥ و٣٠١/٦)

(٣) توفي صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩ هـ بعد أن حكم مصر مدة ٢٤ سنة والشام مدة ١٩ سنة. وقدخلّف من الذكور سبعة عشر ولداً ومن الإناث واحدة. أما أخوه العادل فقد تسلطن في مصر سنة ٥٩٦ هـ وتوفي سنة ٦١٥ هـ. وجاء بعده ابنه الكامل الذي استمر في السلطنة من سنة ٦١٥ هـ إلى سنة ٦٣٥ هـ حين وفاته. أماالملك الصالح بن الكامل فقد استلم السلطنة في مصر سنة ٦٣٧ هـ وتوفي سنة ٦٤٧ هـ، وعلى أثر وفاة الصالح اضطلعت بالحكم زوجته شجرة الدرّ ثم نودي بها ملكة في العاشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ بعد وفاة تورانشاه.

(٤) هو الملك الناصر (الثاني) صلاح الدين، يوسف بن العزيز محمد بن غازي: تسلطن في دمشق سنة ٦٤٨ هـ وأمر هولاكو بقتله سنة ٦٥٩ هـ.

العزيز: «أقلّ المماليك»، وكتب الناصرُ داود[1]: «أقلّ العبيد». وكانَ علاءُ الدّين خُوارِزْم شاه[2] لا يكتب إلاَّ «الخادم المِطْوَاع». وكتب هكذا ٱبنُه جلالُ الدين. وكانت أمُّ جلال الدين تكتب: «الأَمَةُ الدَّاعية». هذا على شَمَم أُنوف الخُوارِزْميّة وَعَلاء شأنهم.

صَدْرُ مُكَاتبة إلى الأَبواب الشَّريفة الخليفتيّة

أدام الله أيامَ الديوانِ العزيز، ولا زالت سيوفُ أوليائه في رِقاب أعدائه مُحَكَّمه، وصُنوفُ الكُفَّار في أيدي عسكرِهِ الجرَّارِ بالنِّهاب مُقَسَّمه، وصفوفُ أهلِ الشِّرْك مزلزلة بخوافِق أعلامه المطهَّرة وسنابِكِ جياده المطهَّمه، ولا برحَتْ ملائكةُ النَّصر من أمداده، وملوكُ العصر بيضَ الوجوه بتعظيم شعار سَوَاده.

الخادمُ يَنْتَهِبُ ثَرَى العَتَبات الشريفة بالتقبيل، وينتهي في قُصَارى الطَّلِبات على الوقوف في تلك الرِّحاب[3] هووكلُّ آبن سبيل، ويُكَلِّلُ رُبَى تلك السَّاحات

(١) هو الملك الناصر داوود بن المعظم عيسى. (٦٢٤ هـ - ٦٥٦ هـ)

(٢) هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش، صاحب بلاد خوارزم وما معها. وقد امتدت الدولة الخوارزمية في عهده من حدود العراق غربا إلى حدود الهند شرقا، ومن شمالي بحر قزوين وبحر أرال شمالا إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوبا. حكم من سنة ٥٩٦ هـ إلى سنة ٦١٧ هـ. ١١٩٩ - ١٢٢٠ م.
أما ابنه جلال الدين منكبرتي (بفتح الميم والكاف والباء وسكون النون) فقد قتل سنة ٦٢٩ هـ بعد أن أبلى بلاء حسناً في تصدّيه للمغول. وقد أجمع المؤرخون على أنه كان يمتاز بجرأة وإقدام عزّ نظيرهما.
ويقول براون في كتابه: تاريخ الأدب في إيران: «في هذه الأحوال المضطربة نجد أن جلال الدين يستجمع قوته ويتمنطق بسيفه ثم يمضي أمام الصاعقة على عجل فيحتمي بالحدود الهندية. وعندما بلغ جيشه الصغير نهر السند وجد نفسه قد أحاطت به جموع كبيرة من المغول، فقاومهم وأبدى من ضروب الشجاعة والجلد الشيء الكثير. ولكنه أدرك في النهاية أنه قد خسر الموقعة فهجم على أعدائه هجوم اليائس، ثم يمم بوجهه شطر النهر وألقى بدرعه عن جسده ثم امتطى صهوة جواده وعبر النهر. وتبعه قومه من أتباعه، ولكن أكثرهم غرقوا أو أغرقتهم سهام المغول، وغرقت أم جلال الدين وبعض نساء حرمه».
وقد قيل إنهن سألن جلال الدين أن يأمر بإغراقهن خشية أن يقعن في أيدي المغول. ورأى جلال الدين استحالة العبور بهن فأمر بإغراقهن.
(انظر تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن: ٤/١٠٣ - ١٠٤ ومعجم زامباور: ٣١٦ - ٣١٧)

(٣) في صبح الأعشى عن التعريف: «في تلك الربوع، ويكلّل رُبى تلك الساحات، هو وكلّ ابن سبيل بلآلىء الدموع». (صبح الأعشى: ٧/١٢١)

بلآليء الدموع، خضوعاً في ذلك الموقف الذي تُنكر القلوب فيه الصدور، وتَلْصَقُ [منه الترائبُ][1] بالنحور، ويظهرُ سيماءُ الجلالة في الوجود، [ويُغدِقُ][2] على الأولياءِ فيُعْرَفون بِسيماهُم من أثر السُّجود، وينهي أنَّ ولاءه القديم، وبلاءه العظيم، وأيَّامَه السَّالِفه، وأفعالَه التَّالِدةَ والطَّارِفه، وسَوابِقَ خِدَمِهِ في امتثال الأوامر الشَّريفة التي لم يَزَلْ يَتَسارع إليها، [ويُقارِعُ][3] عليها، ويصارع غُلْبَ الأسود على تنفيذ مَراسِمِها، وإقامة مَواسِمِها، وإطارَةِ صيتها، ودَوام تثبيتها، [تحمِلُ][4] الخادِمَ على الاسترسال، [وتُجمِلُ][5] له السؤال، والذي يُنهيه كَيْت وكَيْت.

صَدْرٌ آخر: أدامَ الله أيامَ الديوان العزيز ولا زالت آياتُه محفوظه، وراياتُه بالنَّصْر محظوظه، وأعداؤه بمَصَارِع بعضِها بعضاً مَوْعوظه. ولا بَرِحَ شِعارُه المرقومُ أشرفَ ما دارتْ عليه المحاجِر، وَرُعْبُه المعلومُ أفتكَ مما صالَتْ به الخناجر، ورِضاهُ أعظَمَ ما ادُّخِرَ إذا بلغَتِ القلوبُ الحناجر، وسَطَاه[6] يَفْلُلُ الجيوشَ ويُلبِسُ كلَّ مُقنَّع من الأبطال ما تَلْبسُه النِّساءُ من المَعَاجِر[7]، وعُلاهُ تُري الجوازَءَ دون ثَوابِ ما هو على طاعته آجِر، ونُهاه يُبْطِلُ غِيَّ كلِّ غاوٍ ويردُّ كَيْدَ كل فاجِر، وتُقاهُ لوجَهِدَ النَّيِّرُ الأعلى لما ارتقاه ولو قُرِعَ به البحرُ لما احتاج إلى سَاجِر[8]، وهُداهُ يدلُّ النجمَ على سُراه ويكفي في الكفِّ به كل زاجِر، وثَبَاتُه في السُّؤدَد العريق يزلزِلُ كلَّ طَوْدٍ لا يزول ويُشْئم كل مُضَاجِر، وأناتُه لا تُقَدَّرُ بزمان ولا ما تألَّق به في مُعْلَمِ أعلامه الشريفة العباسيّة النهارُ وشَمَخَتْ بالسَّواد ذوائب الدَّيَاجِر.

---

(١) في طبعة القاهرة لسنة ١٣١٢ هـ: «وتلصق فيه الترب بالنحور». والتصحيح من صبح الأعشى.
وسوف نشير إلى تلك الطبعة التي اعتمدنا عليها بالحرفين: (ط ق).

(٢) في ط ق: «ويعرف» والتصحيح من الصبح.

(٣) في ط ق: «ويصارع» والتصحيح من الصبح.

(٤) في ط ق: «يحمل» والتصحيح من الصبح.

(٥) في ط ق: «ويجمل» والتصحيح من الصبح.

(٦) أي سطوته.

(٧) المِعْجَر والعِجار: ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها ثم تتجلبب فوقه بجلبابها. والجمع: معاجر.

(٨) السَّاجِر: السَّيْل.

الخادمُ يُشافِه ثَرى الأرضِ المقدَّسة التي جُعلت مَسجداً وتُرابها طَهُوراً، ويُقبِّل رُبَى تلك العَتَبات المشرَّفة التي زادت آياتُهـا على الشمس ظُهوراً، ويُعفِّـر جبينَه في تلك الرَّبَوَاتِ فيزداد نورٌ ولائه القديم نوراً، ويَدينَ بعبوديةٍ هي من وصايا آبائه أَوَّلَ ما وعته أذنه، ومن إرْثِ ولائه أولى ما كان عليه ضِنُّه[1]، ومن تحقيق الشُّكر لآلائه ما لم يَخِبْ فيه ظَنُّه، وينهي كَيْت وكَيْت.

صَدْرٌ آخر: أدَامَ الله سلطانَ الديوان العزيز، ولا زالت الخلائقُ بِكَرَمِهِ مُضَيَّفَه، والكتائبُ في هَجير وَطِيسه مُصَيِّفه، والأيامُ[2] في نَصْر أنصـاره مصَنِّفه، والمـواضي بأوامره في قَبَضَات عساكره مصَرَّفه، والنقودُ ـ إلا ما تشرَّف باسمه ـ مزيَّفه، والقلوبُ في صدور الأعداءِ بخَواطِفِ رُعْبه مُسَيَّفه، والوعودُ ـ إلا بِمَا تُنْجِزُه مواهِبُـه ـ مُسَوَّفـة، والوغَى لا تُرَى إلا بـرماحِـهِ المثقَّفه[3]، والسمـاءُ ـ وإن عَلَتْ ـ لا تكونُ إلا لأذْيـال بيوته[4] مُسْجِفه، والمَهابَةُ بسَطَاه إمّا لِلمعَاقل فاتحةً وإما عما يُطْمَعُ أن تناله الأيدي منها مُجْحِفَه، والأممُ على اختلافها تحت راياته المنصورةِ مقاتلةً وأخرى له [مُحَالِفه][5]، والأعلامُ التي يأوي إليها الإسلامُ به جِوارَ الجـوزاءِ أولها[6] مُخَلِّفـه، والأبطالُ لقتـال الكُفَّار ببَوارق سيوفه قبلَ مَضَايق صُفُوفه ومَخَانق زُحُوفه مُخَوَّفه.

الخادمُ يُقَبِّل بولائه إلى ذلك الجناب، ويقبِّـل الأرضَ وكتابُـه يُحْسِن المنَاب، ويُقيل عَثَراتِه [إذ][7] كـان به قد لاذ، ويُقيم مَعَاذيره إذْ كان به قدَ عاذ، ويَتَسَرْبَل بطاعته سَرَابيلَ تَقِيه إذا خافَ من سِهام الدَّهر إلى مُهْجته النَّفاذ، ويَصُولُ بانضمامه إلى تلك

---

(١) الضِّن: المصنونُ به، أو الشيء النفيس تَضِنُّ به لمكانته منك وموقعه عندك. يقال: هو ضِنِّي من بين إخواني: أي خاصّتي.

(٢) في صبح الأعشى عن التعريف: «والأبصار»

(٣) في صبح الأعشى عن التعريف: «مثقّفة»

(٤) في صبح الأعشى عن التعريف: «سيوفه»

(٥) في ط ق: «محلفة». والتصحيح من صبح الأعشى.

(٦) لعل هذا اللفظ زائد. وهو ساقط من صبح الأعشى.

(٧) في ط ق: «إذا» والتصحيح من الصبح.

العِصَابة المنصورة لا بما يُطْبَع من الفولاذ، ويُجِلُّ تلك المواقفَ المقدَّسة أن يَبُلَّ مواطيها بدَمْعِه، وأن يحُلَّ مواطِنَها بقلبه قبلَ أن يعاجِلَ كلَّ عدوَ بقَمْعه، ويَعُدُّ ما هُدِيَ إليه من الاعتصام بسببها سبباً لفَوْزه، ومُوجِباً لمِلْك رقِّ عُنُقِ كلِّ عاصٍ وحَوْزه، ويُنهي كَيْت [وكَيْت].

صَدْرٌ آخر: خلَّد الله سلطانَ الدِّيوان العزيز ولا زالت أيامُه شامِخَةَ الذَّوائب، شارخةَ الصِّبا حتى حيثُ يَلحَقُ الشَّيْبُ الشوائب، راسخةَ الفَخَار في الظهور بالعجائب، نافخةً في فحم الليل جَمْرَ الكتائب، صارِخةً والرعدُ تَرْتَعِدُ فرائصُه بين السَّحائب، ناسِخةً دولةَ كلِّ عَلْياءَ بما تأْتي به من الغرائب، وتَبْذُله من الرَّغَائب، فاسخةً عقدَ كل خالعٍ يردُّه الله إليها ردَّةَ خائب، باذِخةً على ماضِي كلِّ زمانٍ ذاهب، من عصور الخلفاءِ الشرفاءِ وآيب، سالخةً لِجِلْدة كل أَيْمٍ[1] ظنَّ أن في أنياب رُمْحِهِ النوائب.

الخادمُ يقبِّل العتباتِ الشريفةَ ساجداً بجبينه، وشاهداً يَسْتأديه له على يمينه، وجاحِداً كلَّ ولاءٍ سِوَى ولائه المعقودِ بيمينه، وعاقِداً بِشَرَف الانتساب إليه عَقْدَ دينه، وحامِداً اللّهَ الذي جعله من طاعة أمير المؤمنين عندَ حُسْنِ يقينه، وعائداً بأَمَله إلى كرمٍ تُثْمرُ به الآمال، وتُقْمِر به الليالي لأنَّها شعارُه الذي تُضرَبُ به الأمثال، وتمطر به السُّحُبُ الجَهَام فتمحو[2] بها آيَةَ الإمحال، ويُنْهي ورودَ المِثَال الشريف الذي طَلَع نَيِّرُه فأنار، وسَطَعَ مُتَضَادُّه فألَّف بين الليل والنهار، وأقبل فما رآه إلا كتابَهُ الذي أُوتيه باليمين، وَسَحابَه الذي أُعْطِيَه يَنْدَى منه الجبين، ونَصرُهُ أكثرَ من الألوف، وصَرَفَه أعجَلَ من السيوف، وزاحَمَ به الدهرَ فضلاً عن الصفوف، وزار به الوغَى لا يَهابُها [وَخَطِّيَّاتُ][3] القَنَا وقوف، فتشرَّف به وطارَ بغير جناح، وقَاتَلَ بغير سلاح، [وقرأه

---

(١) الأَيْم: الحيّة الذكر. وكُنّي به عن الفارس الذي يحمل رمحه.

(٢) كذا في ط ق. وفي صبح الأعشى: «فتُمحَى بها آيةُ» وهو أصوب.

(٣) في ط ق: «وخطار». والتصحيح من الصبح.

وبات قِرًى له](1) في السَّماح، وتَسَلَّمه كأنما تسنَّم به المَعَاقِلَ وتسلَّم منه المِفْتاح.

صَدْرٌ آخر: خَلَّدَ الله أيامَ الديوان العَـزيز، ولا زالت سَطَواتُـه تَجْمُدُ بـرعبها الأبطالُ المدَجَّجة، وتخمد [بفيضها](2) النيرانُ المؤججة، وتَخْمُلُ بـركْزِ نفـاذها إلى القلوب الرماحُ المزجَّجة، وتبخل معها بعوائد كرمها السحبُ المثجَّجة، وتَخِفُّ لديها أوقارُ الجبال المُفَجَّجَة، وتَخِرُّ بل تخور خـوفاً أن تتـرقَّى إليها الأصـواتُ المضَجَّجة، وتَخُصُّ بالغَرَق من خاطَرَ في بحارها الملَجَّجة،[وتحلِفُ بسلطانها: لَلْمَوْتُ أشهى](3) من البقاءِ إلى طرائد سيوفهـا المهجَّجـة(4)، وتخَلِّد النصرَ [بحُجَجِها] القـائمة على الخُصَماءِ المتَحَجِّجة.

الخـادمُ يقلِّب وجهَه في سمـاءِ الشَّرَف بتقبيـل الأرض التي طـالَـتِ السمـاء، فأطَالَت النَّعْماءَ، وفَضَلت النجومَ اللَّوامِع، وأوتيتْ بمالكهـا ـ أعزَّ الله سلطانـه ـ كَلِمَ الفضل الجوامع، وأحَلَّت شوامخَ المجد مَنْ حَلَّهـا، وأَجَلَّتْ قَدْرَ مَنْ جَـدَّ فأَجَلَّهـا، وأعطتْ مفاتيحَ الكنوزِ ـ كنوزِ الشرف ـ لمن قَبَّلَها كما يُقَبِّل الحجيجُ الحَجَر، أو أمَّلَها كما يؤمِّل السَّاري طُلوعَ القمر، وينهي . . .

صَدْرٌ آخر غريب الأسلوب: أدامَ الله أيامَ العدل والإحسان، والنِّعَم الحِسان، والفضلِ المشكورِ بكل لسان، الأيامَ التي أشرق صَبَاحُها [السَّافر](5)، وعمَّ سماحُها الوافر، وآمن بيُمنها كل مسلم ضُرِبَ عليه سُرادَقُ الليل الكافر، وعَلَتْ شموسُها وقد

---

(١) في ط ق: «وقراه وبات قري له». والتصحيح من الصبح.

(٢) في ط ق: «بقضبها». والتصحيح من الصبح.

(٣) في ط ق: «وتخلف بسطاها الموت أشهى» وفيه تصحيف. والتصحيح من صبح الأعشى.

(٤) السيوف المهجَّجة: اللامعة كألسنة النيران المتأججة، وأصل الاستعمال للنيران. والبحار الملجّجة: العميقة الغور المظلمة. والجبال المفجّجة: أي المشققة. والأوقار: جمع وِقْر، وهو الحمل الثقيل. والسحب المثجّجة: التي ينصبّ منها ماء كثير. والرماح المزجَّجة:.. التي في أسفلها حديدة وهي الزُّجُّ.

(٥) في ط ق: «المسافر» وهو تصحيف.

جَنَحت العصورُ الذَّوَاهِب، وقُدِحَتْ أشعتها فأضاءَت بين لابَتِي الغَيَاهِب[١]، أيامَ الديوان العزيز المولويّ، السيّديّ، النبويّ، الإماميّ، الحاكميّ، لا برحت أيامُه مُفَنَّنه[٢]، وأحكامُه مقنَّنه، وسُحُبه على الظَّماءِ محنَّنه، وقُرُبُه بفقد ما حَوَتْه مجنَّنه، وحقائقُه غيرُ مظَنَّنه، وطرائقُه للخير مُسَنَّنه، والخلائقُ تحت جناح رأفته ورُحْماه مُكَنَّنه؛ ولا زال ولاؤه ضميرَ من آعتقد، ومُمِيرَ[٣] مَنْ أَخَذَ من الدهر ما نَقَد، ومُبيرَ الأسودِ المتضائلةِ لديه كالنَّقَد[٤]، وسَميرَ من تَنَبَّهَ وضجيعَ من رَقَد، ومُعِيرَ البرق نَدَى كَرَمه وقد وَقَد، ومُغِيرَ متَعَالِي الصباح من راياته العالية بما عَقَد، ومُجيرَ مَنْ لاَذَ بِهِ حتى لاَ يضُرُّه من فَقَد، ومُبيرَ عِدَاه بِرَدَاه الذي إن تأَخَّر إلى حِينٍ فَقَد[٥].

الخادمُ يَخْدُم تلك العتباتِ الشريفةَ التي إن تاهت على السماءِ فما[٦]، وإن دَنَتْ للتقبيل فإن الثريَّا تَوَدُّ أن تكونَ فَما، ويَنْهَبُ ترابَ تلك الأرض التي هي مَسَاجِد، ويقبِّل ذلك البساطَ الذي لا موضِعَ فيه إلا مَكَانَ لاثِمٍ أو ساجد؛ وينزِّهها عن سَواكِبِ دمعه لأنَّ ذلك الحَرَمَ الآمِنَ لا تُطَلُّ فيه الدماء، ويُجِلُّها عن مواقع لَثْمه لأنها لا تَلْثُم السماء، ويرفَعُ صالحَ الدعاء، وإنما إلى سمائها يرفعه، ويُنْهِي صادِقَ الولاءِ، وما ثَمَّ من يدفعه ،ويدَّخِرُ من صحيح العبودية ما يرجو أنه ينفَعُه، ويطالع العلومَ الشريفة [بكذا وكذا][٧].

---

(١) اللاّبتان: هما حَرَّتان للمدينة المنورة تكتنفانها. وفي الحديث أنه حرّم ما بين لابتي المدينة. قال أبو عبيدة: لوبة ونوبة للحرّة التي أُلبِستها حجارة سود، ومنه قيل للأسود: لوبيّ ونوبيّ. وجمع لابَة: لابات، فإذا كثرت فهي اللاّب واللّوب. وفي حديث عائشة في وصف أبيها: بعيدُ ما بين اللابتين؛ أرادت أنه واسع الصدر واسع العطن، فاستعارت له اللابة، كما يقال: رحب الفِناء واسع الجناب.
(انظر: جنى الجنتين للمحبّي: ٩٨؛ واللسان: لوب)

(٢) أي مزيّنة.

(٣) من مَارَ أهله: أعدَّ لهم الميرة، وهي الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٤) مبير الأسود: أي مهلكها؛ والنقد (بالتحريك) جنس من الغنم صغير الأرجل قبيح الشكل.

(٥) النقص في العبارة مقصود؛ وهو ضربٌ من ضروب البلاغة؛ والمراد: فقد أمهَلَ ولم يُهمل، أو نحو ذلك.

(٦) صيغة بلاغية مثل سابقتها. والمراد: فما ذاك بمستغرب، أو نحوه.

(٧) وقد أورد القلقشندي في صبح الأعشى عدداً آخر من صدور المكاتبات إلى أبواب الخلافة، من بينها التي أوردها العمري هنا، وأخرى نقلها القلقشندي عن «تثقيف التعريف» ومصادر أخرى. ويورد ـ

رَسْمُ المُكَاتبة إليّ وُلاة العُهود بالخلافة

ضاعَفَ اللهُ جلالَ الجانب[١] الشريف المولويَ، السَّيديّ، النبـويّ، الفلانيّ، وأطْلَعَ مع وجود الشمس بدْرَهُ التَّمام، وأحْوَجَ مع زاخر البحر منـه إلى مَدَد الغمـام، وقدَّمه إماماً على الناس وأطَالَ الله بقاءَ سيدنا أبيه الإمام، وَلاَ عُدِمَ منه مع نَظَر والده الشريف جميلُ النظر، ولا برح صَدْرَ دَسْته[٢] العَليّ إذا غابَ وثانِيَهُ إذا حَضَر، ولا زال الزمانُ مختالاً من جُود وجودهما ـ لا عرَّفَ اللهُ الأنامَ قَدْرَه إلا بالزَّهْر والثَّمَر، ولا زاد فيضُ كرمٍ إلا وهو من كفِّ أبيه الكريم فاضَ أو من وَبْله العميم آنْهَمَر.

الخادمُ يخدم تلك العَتَباتِ الباذِخَةَ الشُّرف، النَّاسخةَ بمـا وجده من الخيـر في (الأشراف في)[٣] تقبيلها قول من قال: لا خَيْرَ في السَّرَف، ويُنهي ولاءً ما عُقِدَ على مثله ضمير، ولا آنعقد شبيهُه لوليِّ عهدٍ ولا أمير، وإخلاصه في انتماءٍ أشرَقَ منه على الجبين، وأشرَفَ فرآه فَرْضاً عليه فيما نطق به القرآن ورُقِمَ في الكتاب المبين.

صَـدْرٌ آخر: أعـزَّ اللهُ أنصارَ الجـانب الشريف، ولا جحـد[٤] منـه سـرَّ ذلـك

= القلقشندي ملاحظة هامة هنا وهي أنه لم يقف على مكاتبة عن أحد من ملوك الديار المصرية إلى أبواب الخلافة مذ صارت دار الخلافة بالديار المصرية. ويعلّل ذلك بقوله: «والظاهر أنه لم تجر مكـاتبة عن السلطان إلى الخليفة لأن الخليفة لا يكاد يفارق السلطان سفراً ولا حضراً مفارقة توجب المكاتبة إليه». ويشير القلقشندي هنا إلى ما قام به الظاهر بيبرس العلائي البندقداري من نقل مقرّ الخلافة إلى مصر سنة ٦٥٩ هـ؛ وذلك أن رجلاً قدم إلى مصر وأثبت أنه المستنصر العباسي الخليفة، فبايعه الظاهر بالخلافة وأجرى عليه نفقة. فلم يكن له من الأمر إلا لقب الخلافة والدعاء له على المنابر قبل الدعاء للسلطان، ونقش السكة باسمهما.

(انظر صبح الأعشى: ١٢٦/٧، والنجـوم الزاهرة: ٢٠١/٧).

(١) ذكـر القلقشندي أن ابن نـاظر الجيش في «تثقيف التعـريف» قـد أبـدل لفظ الجـانب بـالجنـاب. قـال القلقشندي: «هذا على عادة من تقدّم من الملوك، أما في زماننا وقبله بمدة مديدة، فلم يتفق وجود ولي عهد للخلافة؛ وبتقدير وجوده فإذا لم يكن الخليفة يكاتب في هذه الأيام فكيف بوليّ عهده».

(٢) الدَّسْت هنا هو مكان جلوس السلطان أو الخليفة.

(٣) العبارة بين هلالين وردت في ط ق. وهي ساقطة من صبح الأعشى؛ والصواب: «الإسراف في».

(٤) كذا في ط ق. وفي الصبح «حجب».

الجَلال، ولا معنىٰ ذلك البدْر المشرقِ منه في صُورة الهلال، ولا فَيْضَ ذلك السحابَ المُشْرَعَ منه هذا الموردُ الزُّلال، ولا تلك المآثِرَ التي دلَّ عليها منه كرمُ الخِلال، ولا تلك الشجرة المفرّعة ولا ما امتدَّ منها به من الغُصْن الممتدِّ الظلال، ولا ذلك الإمامَ الذي هو وليُّ عهده وهو أعْظَم من الاستقلال.

الخادمُ يقبِّل تلك اليدَ مُوفياً لها بعهده، ومُصْفياً منها لِورْدِه، ومُضْفياً منها جلابيبَ الشَّرَف على عِطْفه، وحَسْبُهُ فخاراً أن يُدعىٰ في ذلك المَقام بعبده، ويَترامىٰ على تلك الأبواب، ويَلْثِم ذلك الثَّرىٰ ويرجو الثَّواب.

صَدْرٌ آخر: ولا زالت عُهودُ ولايته منصُوصه، وإيالَتُه بعُمُوم المصالح مَخْصُوصه، وصُفوفُ جيوشه كالبُنيان مَرْصُوصه، وقَوَادِمُ أعدائه بالحَوالق مَحْصُوصه[1]، وبدائعُ أنبائه فيما حَلَّقت إليه دعوتُه الشريفةُ مقصُوصه، والوفود في أبوابه أجنحتها بالنَّدى مبلولةٌ مقصوصه.

الخادِمُ يجدِّد بتلك الأعْتاب خِدَمَه، [ويزاحِمُ في تلك الرِّحاب خَدَمَه][2]،ويقف في تلك الصفوف لا تنفك[3] عن الطاعة قَدَمُه، ويتمثَّل بين تلك الوقوف ويتميَّز عليهم إذا ذُكِرَ في السوابق قُدَمُه، ويُدْلي بحجج سيوفه التي أشهَرَها، وصروفه التي لاقىٰ أشهَرَها، ومواقفه التي ما أنكرها الديوان العزيزمُذْ[4] أثبتَها. ولا حَطَّ رماحَها مُذْ[4] أنبتَها، ولا محَا سطورَها مُذْ[4] كَتَبَها، لِيَغِيظَ الأعداء ولا يُشفي صدورَهامُذْ[4] كَبَتها، [وينهي كذا وكذا].

صَدْرٌ آخر: ولا زالتْ مواعيدُ الظَّفَر له ممضوضه[5] ورؤوسُ مَنْ كَفَر بطَوارقه

(١) القوادم: هي الريشات الكبار في مقدم جناح الطير. وحَصُّ الجناحَ: نتف ريشه.

(٢) الزيادة من صبح الأعشى عن التعريف.

(٣) في الصبح: «لا تُنقل»

(٤) في ط ق «منذ». وما أثبتناه من الصبح.

(٥) كذا في ط ق. واللفظ لا يستقيم على هذا النحو إلا إذا كان بمعنى: مقرَّة ومنجَزة، وبذلك تكون على نحو ما جاء في اللسان: إذا أقرَّ الرجل بحق قيل: مِضْ يا هذا، أي قد أقررت. وإلا فصوابه ما جاء في الصبح «منصوصة».

مَرْضُوضه، وصَحَائفُ الأيام عما يُسَرُّ به الزمان فيه مَفْضُوضه، وجُفونُ عِداه ولو أتصلتْ بمُقَل النجوم مغضوضه، وطوارق الأعداءِ التي تَجُنُّهم[1] منه بسيوفه مَغْضُوضه.

الخادمُ يخدُم أرضَه المقدسة بتَرَامي قُبَلِه، وتقليبِ وجهه إلى قِبَله، ويتطوَّف بذلك الحرم، ويتطوَّل من فَوَاضِل ذلك الكَرَم، ويتطوَّق بقلائد تلك المِنَن، وفرائد تلك المواهب التي إن لم تكن له وإلا فَمَنْ؛ فإنه ـ واللهُ يشهد له ـ لا يعتقد بعد ولاءِ سيِّدنا ومولانا أميرِ المؤمنين، والقَيِّم بأمور الدنيا والدين ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ إلا وَلَاءَها؛ ولا يُؤَمِّل بعد تلك الآلاءِ إلا آلاءَها، ولا يرجو من غير هذه الشجرة المباركةِ لأَمَلِه إثْماراً، ولا لليله[2] إقماراً، ولا لأيامه حافِظاً، ولا لحال إقدامه في قَدَم صِدْقِ ولائِه لافِظاً، قائماً في خِدَمِ هذه الدولة القاهرة يجهَدُ في منافعها، ويَجِدُّ في كبت مُدَافعها، ويَدَّخر شفاعَتَها العظمى إذَا جَاءَتْ كلُّ أُمَّةٍ بِشافِعِها.

إمامُ الزيْدِية باليمن

وهو من بقايا الحَسَنِيِّين القائمين بآمُل الشطِّ، من بلاد طَبَرِسْتان، وقد كان سَلَفُهم جاذبَ الدَّولة العباسية حتى كاد يُطِيح رداءَها، ويُشْمت بها أعداءَها؛ وهذه البقيَّة الآن بصنعاءَ وبلاد حَضْرَمَوْت وما والاهما من بلاد اليمن؛ وأمراءُ مكة تُسِرُّ طاعتَه، ولا تفارِق جماعَته؛ والإمامةُ الآن فيهم من بني المَطهَّر؛ وآسم الإمامِ القائم في وقتنا[3]: حمزة، ويكون بينه وبين الملك الرَّسولي باليمن مُهَادَنات ومفاسَخات

---

(١) أي تحميهم

(٢) في ط ق «ليله»

(٣) اي في أيام الناصر بن قلاوون. وذكر العمري في «مسالك الأبصار» أن يحيى بن حمزة ولِّي بعد أبيه، وكان في زمن المؤيد داوود بن يوسف صاحب اليمن. وذكر ابن خلدون أن الإمام قبل الثمانين والسبعمائة كان: علي بن محمد من أعقابهم، وتوفي قبل الثمانين. وولي ابنه صلاح وتابعه الزيديّة، وكان بعضهم ينكر إمامته لعدم استكمال الشروط فيه فيقول: «أنا لكم ما شئتم إمامٌ أو سلطان؛ ثم مات سنة ٧٩٣ هـ وقام بعده ابنه نجاح فامتنع الزيدية من مبايعته فقال: أنا محتسب لله تعالى.
(صبح الأعشى: ٧/٣٣٣ ـ ٣٣٤)

تارةً وتارةً ؛وهذا الإمامُ وكل من كان قبله على طريقةٍ ما [غَيَّروها][(١)] وهي إمارة أعرابية لا كِبْرَ في صدورها ولا شَمَمَ في عَرَانينها؛ وهم على مُسْكَة من التقوى وَتَرَدٍّ بِشعار الزُّهْد؛ يجلس في نديِّ قومه كواحد منهم، ويتحدَّث فيهم ويحكم بينهم، سَوَاءٌ عنده المشروف والشريف، والقويُّ والضعيف؛ وربما اشترى سِلْعَتَه بيده، ومشىٰ في أسواق بلده لا يُغَلِّظ الحِجاب، ولا يكِلُ الأمورَ إلى الوزراء والحُجَّاب، يأخذ من بيت المال قَدْرَ بُلْغَته من غير توسُّع، ولا تَكَثُّرٍ غيرِ مُشْبع، هكذا هو وكلُّ من سلف قبله من عَدْلٍ شامل وفَضْل كامل[(٢)].

وَرَسْمُ المكاتبة إليه: أدامَ الله جَلاَلَ الجانب الكريم، العالي، السيِّديّ، الإماميّ، الشريفيّ، النَّسيبيّ، الحَسيبيّ، العلَّاميّ[(٣)]، سَليلِ الأطهار، جَلال الإسلام، شَرَف الأنام، بقيّةِ البيت النبويّ، فخر [النَّسب][(٤)] العلويّ، مؤيِّد أمور الدين، خليفة الأئمة، رأس العَلْيَاء، صالح الأولياءِ، عَلَم الهُدَاة، زعيم المؤْمنين، ذُخْر المسلمين، مُنْجِد الملوك والسلاطين؛ ولا زال زمانُه مُرْبعاً، وغِيْلُهُ[(٥)] مُسْبِعاً، وقِرَاهُ مُشْبِعاً، وكرمه بفيض نَدَاه مَنْبعاً، وهُدَاه حيث أَمَّ بالصفوفَ مُتَّبعاً، ومُلْكُه المجتمع باليَمن، لو أدْرَكَه سيفُ بنُ ذي يَزَن، لم يكن إلا لَدَيْه منتَضًى وتُبَّعٌ لم يكن له إلا تَبَعاً؛ ولا فتئت مَعَاقِدُ شرفه بالجوزاء، وعقائِدُ حُبِّه تُعَدُّ لحُسْن الجزاء، ومعاهِدُ وطنه آهلةً بكثرة [الأعزَّاء][(٦)]، وَمَيَاسِمُ أهل ولائه تعزُّ إليه بالاعتزاء، ومباسِمُ ثغور أُودَّائِه

---

(١) في ط ق: «ما عددناها» والتصحيح من الصبح.

(٢) وقال في «مسالك الأبصار»: ولشيعة هذا الإمام فيه حُسن الاعتقاد، حتى أنهم يستشفون بدعائه، ويُمرّون يده على مرضاهم، ويستسقون به المطر إذا أجدبوا... قال: وزيُّ هذا الإمام وأتباعه زيُّ العرب في لباسهم والعمامة الحَنَك، ويُنادى عندهم بالأذان: حيَّ على خير العمل.
(صبح الأعشى: ٧/ ٣٣٤)

(٣) في ط ق: «العلائي». والتصحيح من الصبح: ٧/ ٣٣٤.

(٤) في ط ق «الحسب». وما أثبتناه من الصبح.

(٥) الغِيل: موضع الأُسْد.

(٦) في ط ق «الأعداء» وهو تصحيف. والتصحيح من الصبح.

ضاحكةَ السيوف في وجوه الأَرْزاء. هـذه النَّجْوى إلى روضـه المُمْرِع وإلا فمـا تُرَمُّ الـرَّكـائب، وإلى حـوضـه المُتْـرَع وإلا فمـا الحـاجـةُ إلى السَّحـائب، وإلى جمـه المخصب، وإلا ففيها يَسْري الرائد، وإلـى مرماه المطنَّب فوق السماء وإلا إلى أين يُريد الصَّاعِد، تسري ولها من هَادِي وجهِهِ دليل، وفي نادي كرمه مَقِيل، وإلى بَادي حَرَمه وما فيه للعاكِف، وإلى عالي ضَرَمه ما لا يُنْكِره العارِف، وفي آثار قَدَمِهِ ما يحكم به كلُّ عائف، وفي بَدَارِ خِدَمه ما يَذَرُّ عِدَاه كرَمادٍ اشتدَّتْ بِهِ الريحُ في يَوْمٍ عاصِف، مُبْدِيةً وأَوَّل ما تبدأ بسلام تقدمه على قول كَيْت وكَيْت، وثَنَاءٍ ولا مثل قـولِهِ: ﴿إِنَّمَـا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْـتِ﴾[سورة الأحزاب: ٣٣]

صَدْرٌ آخر: ولا عُطِّلَ محرابٌ هو إمامُه، ولا بَطَلَ عملٌ هو تَمامُه، ولا جفَّ ثَرَى نباتٍ هو غَمَامُه، ولا خفَّ وَقَارُ آمرِيءٍ بيده المصَرِّفةِ زمامُه، ولا آرتـدَّ مَضْرِبُ سيفٍ رؤُوسُ أعاديه كِمَامُه، ولا آرتأَىٰ في حصول الخِيرة له من كـان إلى كَنَفه آنْضِمَـامُه؛ وأَطَالَ اللَّه باعَ عليائه، وأطـابَ بأنبـائه سمـاعَ أوليائـه؛ وأدامَ إجماعَ السـرور عليه، ومصافاتَه لأصفيائه وتَرامِيَه إليه؛ صَدَرَتْ بها الـركائب إليـه مُخِفَّه، وسَـرَتْ بها لتقِفَ عليه والقلوبُ بها مُحِفَّه[1]؛ وأهوَتْ لديه تشمخ بها لوصولها إليه الكِبْر، وطوت إليـه البيدَ طَيَّ الشُّقَّة تقيسها المَطَـايَا بالأذرع والثُّرَيا بالشِّبْر؛ تأْتي بالعجب إذْ تجلُبُ إليـه المسكَ الأَذْفَر[2]، وتجلو له الصباحَ وما لاحَ وَاللَّيْـلَ وَمَا أَسْفَر؛ وَتحلُّ في مَقَرِّ إمامته، وتُحَلِّي العاطِلَ بما نثره من الطَّلِّ صَوْبُ غَمَامته؛ مُوصِّلةً لِعلْمه ما لا يُقْطَع، ومضَوِّعةً عنده من عنبر الشِّحْرِ ما [يُسْتَبْضَع][3] [و] مُعْلِمةً له [كَيْتَ وكَيْت].

[وقـد] وصل إلينـا بمصر في الأيـام الناصـرية [محمـد بن قـلاوون] سقى الله

---

(١) في حاشية ص ٣٣٦ من صبح الأعشى ـ الجزء السابع: «لعلّه: محتفّة، فإنه ليس في كتب اللغة: أحفّ به، ولكن: حفّ به، واحتفّ»

(٢) المسك الأذفر: ذو الرائحة الجيّدة للغاية.

(٣) في ط ق «يسطع». والتصحيح من الصبح.
وعنبر الشِّحْر هو المنسوب إلى سواحل الشِّحْر، بين عَدَن وعُمان.
(معجم البلدان: ٣/٣٢٧)

عهدها ـ رسولٌ من هذا الإمام آبن مُطَهَّر إمامِ الزيدية من صنعاءَ، بكتاب منه يقتضي الاستدعاءَ، أطال فيه الشكوى من صاحب اليمن وعدَّد قبائِحَه، ونَشَر على عيون الناس فضايحه، وآستنصر بمدَدٍ يأتي تحت الأعلام المنصورة لإجلائه عن دِيَارِه، وإجرائه مُجرىَ الذين ظلدوا في تعجيل دَمَارِه، وقال: إنه إذا حضرت الجيوشُ المؤيَّدة قام معها، وقادَ إليها الأشرافَ والعربَ أجمَعَها، ثم إذا آستنقَذَ منه ما بيده أُنعم به عليه ببعضه، وأُعطيَ منه ما هو إلى جانب أرضه، فكتبتُ إليه مُؤْذناً بالإجابَه، مؤَدِّياً إليه ما يقتضي إعجابَه؛ وضمنَ الجواب أنه لا رغبَةَ لنا في السَّلَب، فإن النُّصْرَةَ تكون للَّه خالصة وله كلُّ البلاد لاَقَدْرُ ما طلب؛ و هذا نُسخة ما كتبت به إليه:

ضاعف اللَّه جلال الجانب (بالألقاب والنُّعوت) وأعتزَّ جانبه عِزّاً تُعقَد فواصِلُه بنواصي الخيل، وَصَياصي المعَاقل التي لم يَطْلُعْ على مثلها سُهَيل، وأقاصي الشرف الذي طَلَع منه في الطُّوْق وتمسَّك سواه بالذيل، وقدَّمهُ للمتقين إماماً، وجعله [للمستقين][1] غَمَاماً، وشرَّفه على المرتقين في عُلا النَّسَب العَلَويّ ونوَّرَهُ وصوَّرَهُ تماماً، ومَنَّ على اليَمَنِ بيُمْنِه، وأعلمَ بصنعاءَ حُسْنَ صنيعِهِ وبحضْرَمَوْت حُضُورَ مَوْتِ أعدائه، وبعَدَنَ أنها مقدِّمةٌ لجنَّات عدْنِه، ولا زالت الآفاق تؤَمِّل في فيضه سحاباً دانياً، وتتهلَّل إذا شَامَتْ له برقاً يمانياً، وتتنقَّل في رُتَب مَحَامِده ولا تبلغ من المجد ما كان بانياً.

هذه النَّجْوىَ وكفى بها فيما يقدِّم بين يديها، ويُقوِّم ولا يقُوم من كلِّ غالي الثمن ما عليها، تطوي المراحِل[2]، وتجوب البرَّ والبلدَ الماحِل، وتَثِبُ إليه البحارُ وتقذفُ منها العنبرَ إلى الساحِل، وتُرسي به سفنَها، وتحط إليه بل تخط لديه مُدُنَها؛ وتُؤْذِنُ عِلْمَه ـ سَرَّه الله ـ بما لم يُحلْ إليه مِن نظر، ولم يُخْلِ منه من سببٍ أُلِفَ به النومَ أو نَفَر، ورُود وارِدِ رسولِه فَقَالَ: يَا بُشْرَايَ وَلَمْ يَقُلْ هَذَا غُلام، ووصوله بالسلامة

---

(١) في ط ق «للمتقين». والتصحيح من الصبح.

(٢) المرحلة: مسافة مسير نحو يوم.

والسلام، وما تضمَّنَه ما استَصْحَبَ منه من صحيفةٍ كلُّها كَرَم، وأخبارٍ صحيحة كلُّها مما لو قُذِف به الماءُ لاضطَرَم، ذَكَر فيها أمرَ المتغَلِّب العادي، والصَّاحِب الذي يفعل فِعْلَ الأعادي، والجار الذي جَارَ والظالم البادي، وما مدَّ الأيدِيَ إليه من النِّهاب، وما آختَطَفَ به القلوبَ من الإرهاب، وحدَّث عن أخباره وعندنا علمُه، وأخبرَ عن أفعاله مما له أَجْرُ الصبر عليه وعليه ظُلْمُه، وقصَّ رسولُه القَصَص، وزَادَ الشَّجَىٰ وَضَيَّق مجالَ [الغَصَص][1]، وأطارَ من [وَكْر][2] هذا العُدْوان طائراً كأنما كان في صدره، وحرَّك منه لأمرٍ كان يتجرَّع له كأسَ صَبْره؛ وقد أسمَعَ الدَّاعي، وأسرَعَ السَّاعي، وبلَّغ الأمانةَ حامِلُها، وأوْصَل الكلمةَ قائلُها؛ ومَرْحباً مرحباً بداعي القيام من قِبَله، وأهلاً أهلاً بما بلَّغ على ألسِنَة رُسُلِه، وهَلُمَّ هَلُمَّ إلى قَلْعِ هذه الشجرة التي لم يَخِبْ إلا[3] ظنُّ غارسِها، وقَطْع هذه الصخرة التي لم تُنْصَبْ إلاّ مَزْلَقَةً لدائسها، والتَّعَاضُدَ التعاضُدَ لما هتف به هاتِفُه الصَّارِخ، وسمعه حتى الرمحُ الأصَمُّ والسيفُ المتَصَاوِخ[4]؛ فليأخذْ لهذا الأمر الأُهْبَة، ولْيَشُدَّ عليه فقد آنت الوَثْبة؛ فقد سُطِّرَتْ وقد نهض إلى الخيل مُلْجِمُها، وَبَادَرَ وَضْعَ السهام في الكنائن مُزْجِمُها؛ وكأنه بأول الأعِنَّة، وآذانُ الجياد تفرِّقُ[5] بين شَطْرَيْ وجهها الأسِنَّة، وكأنَّه برسول القائد وفي أعقابه الجيشُ المُطِلّ، والألويةُ وكلُّ بَطَلٍ باسِلٍ يَبْتَدِرُ الوغَىٰ ولا يَسْتَذِلّ؛ ولا أَرَبَ لنا في آسْتِزادَةِ بلادٍ وسَّع الله لنا نِطاقَها، وكثَّر بنا مَدَدَ[6] أموالها وقَدَّر على أيدينا إنفاقها؛ وإنما القصدُ كلُّه والأَرَبُ جميعُه كَشْفُ تلك الكُرَب، وتدارُكُ ذلك الذَّمَاء[7] الذي

---

(١) في ط ق: «القصص». والتصحيح من الصبح.

(٢) في ط ق «ذكر». والتصحيح من الصبح.

(٣) في الصبح: «لم يُنْجِب ظنُّ»

(٤) أي السيف الأصمّ. تقول: صَخَّ الصوتُ الأذن: أي أصمَّها. ومنه سمّيت القيامة الصَّاخَة، وهي الصيحة التي تكون فيها القيامة تصخُّ الأسماعَ أي تصمُّها.
(انظر اللسان: صخَّ)

(٥) في صبح الأعشى: «تفوِّق»

(٦) في صبح الأعشى: «مَوادَّ»

(٧) الذَّماء: بقية الروح في المذبوح وغيره.

أوشَكَ أو كَرَب، وإن قُدِّرَ فُتوح، وتَيَسَّرَ ما طَـرْفُ سوانـا إليه طَمُـوح، كان هـو أحَقَّ بسبقه: لأنه جَارُ الدار، والأوّلُ الذي كان له البِدَار، ويَقِلُّ له لعظيم شَرَفه ما نسمحُ به وإنْ جَلَ، وما نَهَبُهُ منه وإن عَظُمَ شأنُ كلّ تَبَع وهو ببعضه ما آستَقلّ؛ وكأنه والخيلُ قد وافَتْهُ تُجِدُّ في الإحضار، ونُسْرِع إليه وتكفيه مؤونة الانتظار.

وُلاةُ العهود بالسَّلْطنة

أَعَزَّ الله أنصارَ المَقَامِ ولا زال مُشْرِقَ الأهِلَّه، مُغْدِقَ السُّحُبِ المسْتَهِلَّه، مُحدِقَ الحدائق لتجتنيَ الأمَّةُ ثمرَه وتَتَبوَّأ ظِلَّه، مُطلَقَ الأعِنَّة إلى مدى ـ قبلَهُ سَلَفَ الملوكُ فما وجدوا إلا ضِلَّه.

صَدَرتْ هذه المفاوَضَةُ [إلى] مَقَامه العالي ومحلُّه منا في الصَّدْر، ومِثَالُه ـ وإن بَعُدَ عنا ـ بين عينينا مِثالُ القمر ليلةَ البَدْر، ومكانُه إلى جانبنا على سرير المُلْك يتشوَّق لحلُوله، ومقامه تحت أعلامنا وأعلامه يتشوَّف إلى وُصُوله، وعَسَاكرُنا التي هي عساكرهُ نُعلن في مواقفها الجِهادَ باسمنا وآسمه، وجنودُنا التي هي مَدَدُه تُقسم بالله وبنا أنها لا تَعْدُل عن قَسْمِه.

صَدْرٌ آخر: أعزَّ الله أنصارَ المَقَام وأنجَزَ لـه من النصر مـا وَعَد، وبَـوَّأهُ سَريـرَ الملك الذي آقْتَعَد، وبَشَّرَ سَحُّ صيته الذي سَبَّحَ له لما أرْعَد، وسَبَـحَ في مَدِه حتى أبعد، وَسَنَحَ[1] طائرُه إلاّ أنّه الذي عَدَى العَدّ.

أصْدَرْناها إلى مَقَامِه العالي تُملي عليه أحاديثَ أشواقنا إليه، وأنباءَنا التي نرجو أن تكونَ أَسَرَّ ما يردُ عليه، وتمثِّلُ له ما نحن عليه من سَلامةٍ له أوْفَرُها، وأشتات تأيَّدَ لنا الجَدُّ[2] في جمعها وله ظَفَرُها؛ ويطلع عِلْمَه الشريف.

صَدْرٌ آخر: أَعزَّ الله أنصارَ المَقَام العالي ولا زال معنا معنًى حيث يَمَّمنا، وأدنى

---

(١) سنَحَ الطائر أو الظبي وغيرهما: مرَّ من مياسرك إلى ميامنك فولاَّك ميامنه. والعرب يتيمنون به، فهو سانح. والذي يمرّ من يمينك إلى يسارك يسمى: البارح، وهو نذير شؤم.

(٢) الجَدُّ: الحظ. ومنه قولهم: «اسْعَ بجَدِّك لا بكدِّك»

[دانٍ][1] منا إذا آرتقينا كاهِلَ المنْبَر وتَسَنَّمْنا، وأبدى مُبْدٍ في آستيداع جلائلِ القلاعِ إذا تسلَّمنا، ولا برحَتْ جنودُ الليل والنهار تَصْحَبُنا سُرًى وتصحَبُه إقَامه، وتُقرِّبُنا سَرائرَ وتقرِّبُه إلينا حتى لا يرَىَ بعين الإجلال إلا مقامَنا ولا نَرى بعين الحنُوِّ إلا مَقامَه.

أصدرناها إليه وعهدنا له كما عَهَد، وعقدنا له على لِواءِ كلِّ نصرٍ كما عَقَد، وشوقُنا إليه يمثِّله لنا مِثَالَ الحاضر، ويُرينا شخصَه الكريمَ بالقلب وسنراه إن شاء الله عن قريبٍ بالنَّاظِر[2].

أميرُ مكّة

وإِمْرَتُها في الأشـرافِ «بني حسن»؛ وآستقرَّتْ في أولاد أبي نُميّ؛ وهي الآن في [رُمَيْثَة][3]، وهو آخر من بقيَ من بيته، وعليه كان النصُّ من أبيـه دون البقية مـع

(١) في ط ق: «وأدنى أدنى». والتصحيح من المقام.

(٢) نقل القلقشندي عن ابن ناظر الجيش في «تثقيف التعريف» أن المكاتبة إلى وليّ العهد بـالسـلطنة هي: أعزَّ الله تعالى أنصار المقام العالي، الملكيّ، الفلانيّ، الأخَوِيّ، أو الولَديّ - إن كان أخاً أو ولداً - ثم الدعاء اللائق به. ثم يقال: أصدرناها إلى المقام العالي ويطالع علمه الشريف والعلامةُ: أخوه، سواء كان أخاً أو غير أخ، ووالده إن كان والداً. قال القلقشندي: ولم يذكر تعريفه؛ والذي يظهر أنه يكتب له «وليّ العهد بالسلطنة الشريفة». قال في التثقيف: ولعل هذه المكاتبة نظير ما كتب به إلى الملك الصالح علاء الدين علي ولد المنصور قلاوون.

(انظر صبح الأعشى: ١٣٩/٧ - ونص تفويض السـلطنة بولاية العهد من المنصور قلاوون لولده علي، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، في تشريف الأيام والعصـور: ص ٢٠٠ - ٢٠٣، وفي الصبح: ١٧٣/١٠ - ١٧٧، وفي ابن الفرات: ١٨٧/٧ - ١٩٠). وحتى أوائل العصر الأيوبي كان لقب «المقام» يستعمل للسلطان أو من في منزلته. وفي آخر العصر الأيوبي يقرّر ابن شيث أن لقب «المقـام العالي» كان يشترك مع «المقر الأشرف» في مخاطبة السلطان؛ ولكنه بينما هـوت منزلـة «المقرّ» أثنـاء عصر المماليك ظل «المقام» مختصاً بالسلاطين. على أن لقب المقام لم يقتصر على السلاطين في عصر المماليك بل استعمل لولاة العهد بالسـلطنة (كما يشير العمري هنا) ولبعض الأمراء والملوك (كما أشـار الخالدي في: (المقصد الرفيع المنشا الهادي لصناعة الإنشا). وفي آخـر العصر المملوكي ذكـر خليل الظاهري أن أرقى درجاته في المراسلات هي «المقام العالي».

(انظر: معالم الكتابة: ١٣٦ وزبدة كشف الممالك: ١٠١؛ والألقاب الإسلامية: ٤٤٧).

(٣) في ط ق: «ميثة».

تداولهم لها؛ والقائم بها عنه ٱبنُه عَجْلَان[١].

ورَسْمُ المكاتبة إليه: أدامَ الله نِعمَةَ المجلس العالي، الأميريّ، الكبيريّ، العالِميّ، العادِليّ، المؤيّديّ، العَضُديّ، النَّصيريّ، الذُّخريّ، الغَوْثيّ، [المفيديّ][٢]، الأوْحَديّ، الظَّهيريّ، الزَّعيميّ، الكَافِليّ، الشَّريفيّ، الحَسِيبيّ، النَّسيبيّ، الأصيليّ، الفلانيّ، عِزِّ الإسلام والمسلمين، سيِّدِ الأمراء في العالمين، جَلال العِتْرَة الطَّاهرة، كوْكبِ الأسْرة الزاهرة، فرعِ الشجرة الزكيَّة، طِرَازِ العصابة العلويَّة، ظهيرِ الملوك والسَّلاطين، نسيبِ أمير المؤمنين؛ لا زال حَرَمُه أميناً، ومكانُه مَكيناً، وشَرفُه يُنير له بمُجَاورةِ الحجر الأسود عند الله وجهاً ويُضيء جَبيناً.

صَدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالي، تحمل إليه سلاماً تَميل به الركائب، وثَناءً تثني على مِسْكه الحقائب، وشَوْقاً أَوْسَقَ قلبه في نُسُكه مع الحبائب. وتوضِّح لعِلْمِهِ الكريم.

صَدْرٌ آخر: ومتَّعَهُ بجوار بيته الكريم، وزادَ بجميل مَسَاعيه شرفَ نسبه الصَّميم، وآنَسَه بقرب الحَجَر والحِجْر والرُّكْن والحَطِيم[٣].

---

(١) دار أمرُ مكة بين أبي نُمَيّ محمد بن أبي سعد علي بن قتادة وبين غالب بن راجح بن قتادة. ثم استبد أبو نميّ بإمرة مكة ونفى قبيلة أبيه أبي سعد إلى اليَنْبُع. ولما هلك أبو نميّ قام بأمر مكة من بعده ابناه: رُمَيْثة وحُمَيْضة، ونازعهما أخواهما: عُطيفة وأبو الغيث. واستمر النزاع بينهم وقتاً طويلاً، واستنجدوا جميعاً بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون فكان يناصر هذا تارةً، ويناصر ذاك تارةً أخرى إلى أن استقر الأمر أخيراً لرميثة بعد موت أخيه عطيفة. ولما مات رميثة تنازع ولداه: بقيَّة وعجلان، ثم استقر الأمر لعجلان بدعم من سلطان مصر إلى حين وفاته سنة ٧٧٧ هـ. وولي بعده ابنه أحمد إلى أن توفي سنة ٧٨٨ هـ في أيام الظاهر برقوق. ثم جاء بعده ابنه محمد ثم عنان بن مُغامس بن رميثة ثم استقل بالإمارة علي بن عجلان إلى أن قتل سنة ٧٩٧ هـ، فولي السلطنة ابن أخيه حسن بن أحمد واستبد بإمرة مكة وبقي بها إلى آخر أيام القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ.

(صبح الأعشى: ٤/٢٧٣ - ٢٧٥)

(٢) في ط ق «المفدي» وهو خطأ.

(٣) حِجْر الكعبة: هو ما تركت قريش في بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام، وحجرتْ على الموضع ليعلم أنه من الكعبة، فسمي حِجراً لذلك. أما الحطيم ففيه أقوال: قال مالك بن أنس: هو ما بين المقام ←

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالي تُهْدِي إليه سلاماً، وثناءً تَطِيب به الصَّبا قبل أن تحمل شِيحاً وخُزامَىٰ، وتوضّح لعلمه الكريم.

دُعاء وصَدْر: وأَرَاهُ مناسِكَه، وآنَسَ بالتقوىٰ مَسَالِكَه، وأَشْهَدَ على عمله الصَّالحِ بَطْحاءَهُ وما ينْزِلُه من الملائكه.

صَدَرتْ هذه المكاتبةُ بتحيَّاتها المبارَكة، وأَثْنِيتِها التي لا تزال إليه بها أفئدةٌ من الناس سالِكة، وتوضّح لعلمه الكريم.

أميرُ المدينة الشَّريفة

وهي في بني حُسين، ثم الآن هي في بني جَمَّاز بن شِيحة، وتفرَّد بها طُفيل بن منصور بن جَمَّاز، وقد كان جَدُّهم فقيهاً من أهل العراق، قَدِمَ على السلطان صلاح الدين فأمَّره على المدينة فاستقرتْ فيها قدمُه وقدَمُ بنيه؛ وأمراءُ مكَّةَ أَقدَمُ قَدَماً وأبذَخُ إمْرةً، ولهم التقدُّم عليهم في المَوْكِب والمجلِس[1].

ورَسْمُ المكاتبة إليه: مثل المكاتبة المتقدِّمة لأمراء مكة، ويُناسِبه من الدُّعاءِ والصَّدْر قولنا: ولا زَال في جوار اللهِ ورسوله، ومَهْبِط الوَحْي ونزُوله، ومكان يُردَّد فيه من أبوَيْه الطَّاهرين بين حَيْدَرِهِ وبتُوله.

صَدرتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العالي بسلام يحْدُو رِكابَها، وثَنَاءٍ يَزين في «قُبَا»[2]

= إلى الباب، وقال ابن جريج: هو ما بين الركن والمقام وزمزم والحجر، وقال ابن حبيب: هو ما بين الركن الأسود إلى الباب إلى المقام حيث يتحطم الناس للدعاء، وقال ابن دريد: كانت الجاهلية تتحالف هناك يتحطمون بالأيمان، فكل من دعا على ظالم وحلف إثماً عجلت عقوبته، وقال ابن عباس: هو جدار الكعبة، وقال النّضر: الذي فيه الميزاب.

(انظر لسان العرب: حطم؛ ومعجم البلدان: ٢/٢٧٣)

(١) حول أمراء المدينة المنوّرة، انظر صبح الأعشى: ٤/٣٠١

(٢) قُبا أو قُباء: قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة. واشتهر منها مسجدها، وقيل إنه مسجد رسول الله (ص). قال ياقوت: وأصله اسم بئر هناك عرفت القرية بها.

(معجم البلدان: ٤/٣٠١)

قِبـابَهـا، وشَـوْق إلى رؤيـة الـروضـة التي طـالمـا اسْتَسْقى فيهـا[1] رسـولُ الله ﷺ سَحَابَها، وتوضِّح لعلمه الكريم. . .

دُعاءٌ وصَدْر: وزادَهُ من الله ورسولِهِ قُربا، وأكَّد له بحمايةِ حَرَمِه حُبًّا، وأبهَجَه كلما رأى جدَّهُ ﷺ وقد جاوَرَ آلاً وجالَسَ صحبا.

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالي مطربـةً بالسـلام، مُطْنِبـةً في ثنائـهِ المفصَّل النِّظامِ، وتوضح لعلمه الكريم.

صاحِبُ اليَمَن

هو الملكُ المجاهِدُ سيفُ الدين عليّ بن الملك المؤيَّد هِزَبْرِ الدين داوود من بيت رَسُول؛ وكان جَدُّهم هذا رَسُـول [أميراخُـور][2] الملكِ الكـامل نـاصرِ الـدين محمـد [بن][3] العادل أبي بَكـر بن أيُّوب؛ فلمـا بعث الملكُ الكامـلُ ولـدَه الملكَ المسعود أطْسز[4]، وهو الذي تُسَمِّيـه العامَّةُ: أقسيس، بعث معه رَسُولاً في جُملة من بَعَثه معه. ثم تنقَّلت الأحوالُ حتى آستقلَّ رَسُولٌ بمُلك اليمن وصار المُلك في عَقبِهِ إلى الآن[5].

---

(١) في صبح الأعشى: ١٩٣/٧: «برسول الله. . .»

(٢) في ط ق: «أميرآخر» وهو خطأ. وأمير آخور: مركب من لفظين: أمير، والثاني: آخور، وهو فارسي بمعنى المعلف أو المذود، ثم أطلق على الإسطبل. وصاحب وظيفة «أمير آخور» هو الذي ينظر في أمور الإسطبلات والمناخات السلطانية ورئيس العاملين بها جميعاً. وقد عرف صاحب هذه الوظيفة عند سلاجقة الروم بإسمين: أمير آخور وكند إصطبل.
(التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٤٧؛ وتأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١١ ـ ١٢)

(٣) ساقط من ط ق.

(٤) هو يوسف ابن الملك الكامل الأيوبي. لقب الملك المسعود، وصلاح الدين أبا المظفر. مات سنة ٦٢٦ هـ عن ست وعشرين سنة.
(الأعلام: ٢٤٨/٨)

(٥) فيما تقدم يوجد أكثر من مغالطة تاريخية: فرسُول المذكور (وهو محمد بن هارون بن أبي الفتح بن يوحى، من ذريّة جبلة بن الأيهم الغساني) مات سنة ٥٨٠ هـ، أي قبل ولادة الملك المسعود بنحو سبع عشرة سنة. ولعلّ الصواب أن الملك الكامل قد بعث ابنه الملك المسعود بصحبة عمر بن علي بن

ورَسْمُ المكاتبة إليه: أعزَّ الله جانِبَ المَقام العالي[1]، الملكيّ، المجاهِديّ، السَّيْفيّ، ولا زالَ يُحسِنُ ولايةَ حَسَبِه، وينهضُ بنَجاح نَسَبه، ويصون مُلْكَه بعدله أكثَرَ من قُضُبِه، ويُثْبِتُ في اليَمَن اليُمْنَ في حالة [إقامته][2] ومُنْقَلَبه. أصْدَرْناها إلى مَقامه موشَّحَة المعاطف بحُلِيِّه، شاكِرةً [عُلا][3] عَلِيِّه، ذاكرةً من محامِدِهِ ما يتكثَّر السَّحاب بوَلِيِّه، ومُبْدِيةً لعلمه الكريم [كَيْتَ وكَيْتَ].

صَدْرٌ آخر: ولا [زالت][4] به تَعِزُّ تَعِزُّ وتفوزُ [ببرِّهِ][5] زَبِيدْ، ويخرُجُ من عَدَنَ عَدْنُ فضله المَديد، وتَمْتلِي بوفود البرِّ والبحر: هذا تطيرُ به المراكبُ وهذه الرَّكائبُ

= رسول. والخطأ الثاني الذي وقع فيه العمري قوله: «حتى استقل رسول بملك اليمن». والصحيح أن رسولاً لم يتملك اليمن، وإنما بدأ تملّك آل رسول لليمن مع علي بن رسول (كما يؤكد ذلك القلقشندي في الصبح نقلاً عن المؤيد صاحب حماة وابن خلدون في تاريخيهما) أو مع عمر بن علي بن رسول (كما يذهب الخزرجي في العقود اللؤلؤية، وزامباور في معجمه). وينقل صاحب الأعلام عن «العقيق اليماني - مخطوط - لعبد الله الشقيري الضمري» قوله: كان تملك بني رسول لليمن في صفر سنة ٦٢٤ هـ في دولة الملك المسعود يوسف ابن الملك الكامل من بني أيوب ملوك مصر. وقد عاد المسعود إلى مصر في تلك السنة (كان علي بن رسول قد توفي سنة ٦١٤ هـ) واستخلفهم في اليمن فملكوها من ذلك الوقت. وسمّي جدهم رسولاً لأنه كان أميناً في دولة بني أيوب في الديار المصرية يختلف في حوائجهم في ملك البلاد. ثم قال: ولم تزل دولتهم في اليمن حتى انقرضت بدولة بني الطاهر سنة ٨٥٠ هـ، وكان آخرهم الملك المسعود، مات مشرداً في بلاد الحبشة.

(١) ذكر القلقشندي في الصبح أن رسم المكاتبة إليه على ضربين: الأول: ما كان الأمر عليه في الدولة الأيوبية، وهو أن تفتتح المكاتبة بلفظ «أصدرناها». وأورد نسخة كتاب عن السلطان صلاح الدين إلى سيف الإسلام صاحب اليمن يستقدمه إليه (الصبح: ٧/٣٤٠).

والضرب الثاني من المكاتبات إليه ما كان الأمر عليه من ابتداء الدولة التركية إلى زمان القلقشندي؛ وهو على خمسة أساليب: الأول: أن تفتتح المكاتبة بلفظ «أدام الله تعالى نعمة أيام المقام العالي» - ٧/٣٤٤، والأسلوب الثاني: وهو الذي يذكره العمري هنا، والأسلوب الثالث: أن تفتتح بلفظ «أعز الله تعالى نصرة المقام العالي» - ٧/٣٥٣. والأسلوب الرابع: «أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف العالي» - ٧/٣٦٠، والأسلوب الخامس: «أعز الله تعالى أنصار المقام العالي» ٧/٣٦٣ وهو ما جرى عليه في «التثقيف».

(٢) ساقطة من ط ق. والزيادة من الصبح عن التعريف، وهي لازمة لانتظام السياق.

(٣) في ط ق «على»

(٤) في ط ق: «زال»

(٥) في ط ق: «بيده»

كلاهما من مكانٍ بعيد، ولا برحت به آهلةً الأوطان، مشتقَّةً صِفـاتُ قُطْره اليمنيِّ من [«الإيمانُ يَمَانٍ»][1]، محجوباً بالجلالة أو محجوجاً بما يُنْسَب إليه من أحد الأركان.

أصدرناها والسلامُ يُبَاري ما تُنْبت أرضَه من نباتها الطيِّب، ويجـازي بالثنـاءِ ما ينهلُّ في أكنافه الجنوبيّة من سحابها الصَّيِّب، وتسري[2] إليه بتحياتنا الشريفة على قادِمةِ كلِّ نسيم، وفي طَيِّ كل عام له وقوفٌ على رَبْعةٍ وتسليم، وتوضِّح للعلم الكريم.

صَدْرٌ آخر[3]: ولا زالَ أفضَلَ متوَّج في يَمَنِـه، وأعلىٰ عليٍّ إذا قيس بابنِ ذي يَزَنِه، وأشجعَ مَنْ حَمىٰ بعهوده ما لا [تَقدِرُ السيوفُ][4] على حمايتِـه من وطنه، ولا أنفكَّ الملكَ المجاهدَ عن عِرضه المَصُونِ، وسيفَ الدين الذي يقـومُ في المفروض من مَرَاضي الله بالمَسْنُون، وأبا الحَسَن لما يَحْسُن في فطنته الحُسنىٰ أو فِطْـرتـه من الظّنون، والعليَّ قدراً إذا أخذتِ الملوكُ مراتِبَها وحدَّقتْ إليه العيون.

صدرتْ هذه المفاوضةُ إلى حضرته وسلامُها يتفاوَحُ لديها، ويصافح غَمَائِمَهُ في يديها، وتجري سَفَائنُ إخلاصه حتى تقفَ عليها، وتَسْري تحياتنا محلِّقةً بالبُشْرىٰ في صباح كل يومٍ يُقرِّبُ من الوصول إليها[5].

---

(١) في ط ق: «من الإيمان». والصواب ما أثبتناه؛ و«الإيمانُ يَمَانٍ» قول للنبيّ (ص)، فقد قال وهو مقبلٌ من تبوك: «الإيمانُ يَمانٍ والحكمةُ يَمَانيَة»
(انظر اللسان: يمن؛ والصبح: ٧/٣٥٢)

(٢) في ط ق: «ويسري» بالياء.

(٣) قال القلقشندي في الصبح: وهو دعاءٌ وصدرٌ يختصّ بالمجاهد عليّ.

(٤) في ط ق: «تقد سيوف»

(٥) حرص القلقشندي على إيراد صورة مكاتبة لكل نوع أو أسلوب من المكاتبات، على أنه قال: «لم أقف على صورة مكاتبة مفتتحة بلفظ: «أعز الله تعالى جانب المقام»، كُتب بها إلى بعض ملوك اليمن.
(الصبح: ٧/٣٥٣)

المَرِينيّ صاحبُ بَرّ العُدْوَة[1]

وهو السلطان أبو الحسَن، علي[2] بن عثمان، من بني عبد الحقّ؛ وهم من بني مَرين؛ وبنو مَرينٍ من البربر، ملكوا بعد الموحّدين؛ وورث هذ السلطانُ مُلكَ العَزْفيّين بسَبْتة، وملكَ بني عَبْد الواد بتِلْمِسَان وأطاعه ملكُ الأندلس، ودانَ له ملكُ أفريقية، وعرضَ عليه ابنتَه فتزوَّج بها، فساقَها إليه سَوْقَ الأَمَة. وبنو مَرينٍ رجالُ الوَغى وناسُها، وأبطال الحرب وأحْلاَسُها[3]، وهم يفخَرُون بغَزَارة علمه وفَضْل تَقْواه؛ وهو اليوم ملكُ ملوك الغربِ، ومُوقِدُ نيران الحرب.

ورَسْمُ المكاتبة إليه: بسم الله الرحمن الرحيم: من السلطانِ الأعْظَم الملكِ الفلانيّ، السيِّدِ، الأجَلِّ، العالمِ، العادِلِ، المجاهد، المُرَابط، المُثاغِر، المؤيَّد، المظفَّر، المنصور، الشَّاهِنْشَاه[4]، فُلان الدنيا والدِّين، سلطان الإسلام والمسلمين، مُحْيي

---

(١) صاحب برّ العُدوة هو صاحب الغرب الأقصى أو صاحب فاس. ومملكة برّ العُدوة هي الغرب الأقصى من بلاد المغرب. وحدّها على ما ذكر العمري في مسالك الأبصار: من الجنوب الصحراء الكبرى الآخذة من بلاد البربر إلى جنوب إفريقية، ومن الشرق جزائر بني مزْغِنَّانة وما هو آخذ على حدّها إلى الصحراء الكبيرة، ومن الشمال البحر الشامي، ومن الغرب البحر المحيط.
(صبح الأعشى: ٥/١٥٢).

(٢) بويع له سنة ٧٣١ هـ بعد موت والده. وسار إلى تلمسان سنة ٧٣٧ هـ فملكها من ابن أبي تاشفين سلطان بني عبد الواد بعد أن قتله في قصره، وملك تونس من يد أبي يحيى سلطان الحفصيين بها سنة ٧٤٨ هـ، واتصل ملكه ما بين برْقة إلى السوس الأقصى والبحر المحيط الغربي، ثم استرجع الحفصيون تونس بعد ذلك. وملك بعد ذلك سجلماسة قاعدة بلاد الصحراء بالغرب الأقصى، وبقي حتى مات في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٧٥٢ هـ بجبل هنْتاتة، فبويع بعده ابنه أبو عنان.
(صبح الأعشى: ٥/١٩٨)

(٣) أي الذين لا يفارقون صهوات جيادهم.

(٤) في الأصل لقب فارسي معناه: ملك الملوك. وقد دخل هذا اللقب في الإسلام منذ الدولة العباسية نظراً لنفوذ الفرس. وربما كان لجوء بني بويه إلى التلقب بشاهنشاه نتيجة لاعتراض بعض رجال الدين على إطلاق مرادفه العربي «ملك الملوك» وذلك استناداً إلى أحاديث النبي. وذكر ابن ناظر الجيش أن المتدينين من الكتاب كانوا يحذفون لقب «شاهنشاه» من الألقاب السلطانية.
(انظر صبح الأعشى: ٦/١٦؛ والألقاب الإسلامية: ٣٥٣).

العدلِ في العالمين، مُنْصِف المظلومين من الظالمين، وارِثِ الملك، مَلِك العَرب والعجم والتُّرْك، مُبيد الطُّغاة والكفار، مُمَلِّك الممالك والأقاليم والأمصار، إسكَنْدر الزمان، ناشرِ لواء العدل والإحسان، قَسِيم أمير المؤمنين أبي فلان، فلان بن فلان، خلَّدَ اللهُ سلطانَه، ونصر جنودَه وجيوشَه وأعوانَه، تحيَّةٌ يَفْتتح بها الخطاب، ويقدِّم [منها] ما زَكَا وطَاب (وتُقال هنا سَجَعَاتٌ مختصرةٌ نحو أربع أو خمس) يَخُصُّ بها الحَضْرَةَ الشريفةَ العَليَّة، الطاهِرَة الزكيَّة، حضرَةَ المقام العالي، السلطان، السيِّد، الجليل[1]، العالم، العادِل، المُجَاهِد، المرابط، المُثَاغِر، المؤيَّد، المظفَّر، المنصور، الأَسْرَىٰ، الأسنىٰ، الزكيّ، الأتقىٰ، المجاهد في الله، الغالِبِ بِنَصْر الله، المؤيَّد على أعداء الله، أمير المؤمنين[2]، قائد الموحِّدين، مجهِّز الغُزَاة والمجاهدين، مجنِّد الجنود، عَاقِد البُنود، مالِيء صُدُور [البراري][3] والبحار، مُزَعْزِع أسِرَّة الكُفَّار، مؤيِّد السُّنَّة، مُعزِّ المِلَّة، شرف الملوك والسلاطين، بقيَّة السَّلَف الكريم، والنَّسَب الصميم، رَبِيبِ المُلْك القديم، أبي فلان، فلان بن فلان (ويرفع نَسَبه إلى عَبْد الحقِّ، وهو أول نَسَبه). ويُقال في كل منهم: أمير المسلمين، أبي فلان، [ثم يُدعى له نحو:] أعزَّ الله أنصارَه أو سلطانَه أو غير ذلك من الأَدْعية المُلوكيَّة بدعاءٍ مطَوَّل مفخَّم. ثم يُقال: أما بعد حَمْدِ الله، ويخطُب خُطبةً مختصرة. ثم يُقال: أُصدِرتْ إليه، وسُيِّرت لتُعْرَض عليه، لتُهدِيَ إليه من السلام كذا وكذا، ومن هذا ومتله. ثم يُقال: ومما تُبديه كذا وكذا.

صَدْرٌ آخر: تُهدي إليهِ من السلام ما يَطْلَعُ عليه نَهارُه المُشرقُ من مَشْرقه، ويحيِّيه به الهلالُ الطالِعُ في جانبه الغربيّ على أُفُقه، وتَصِفُ شَوْقاً أقامَ بين جَفْنيه والكَرىٰ الحرب، وَوِدًّا[4] يملأُ برسله كلَّ بحر ويأتي بكل ضَرْب، وثناءً [يُسْتَرْوَحُ][5]

---

(١) في صبح الأعشى: «الأجلّ».

(٢) في الصبح: «أمير المسلمين».

(٣) في ط ق «البرار».

(٤) في الصبح: «ووداداً».

(٥) في ط ق: «سيستروح». والتصحيح من الصبح.

بنسيمه وإن كان لا يُسْتَرْوَحُ إلا بما يهُبُّ من الغَرْب، مقدِّمةً شكراً لما يَبْهر من عزَماته التي أعزَّت الدين، وغَزَتِ المُلْحدين، وحَلَّقتْ على من جاوَرَها من الكُفَّار [تحليقَ][1] صُقُور الرجال على مُسِفَّة[2] الغِرْبان، وتُقِيم عند الشجاع عُذْرَ الجبان، وتُبيِّن آثارَها في أعناق الأعداءِ وللسيوف آثارُ بَيان؛ وإنَّ كان فعلُه أكثَرَ مما طارت به الأخبار، وطافت به مخلَّقَات[3] البشائر [في] الأقطار، [وسار][4] به الحجيجُ تعرف آثارَه عَرَفات، [وصارت] تَسْتعلِم أخبارَه وتندُبُ قبل زمانِه ما فات.

صاحب أفريقيـة

[وهو] ملكُ تونس لا يدَّعي إلا الخلافة، ويتلقَّب بألقاب الخلفاء، ويُخاطَبُ بأمير المؤمنين في بلاده، ويدَّعي النَّسبَ إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ومن أهل النَّسب من يُنْكر ذلك: فمنهم من يجعله من بني عَدِيّ بن كَعْب، رَهْطِ عمر وليس من بني عمر؛ ومنهم من يقول: بل من هَنْتَاتَة[5]، ليسوا من قبائل العربِ في شيء، وهم الحَفْصِيُّون نسبةً إلى أبي حَفْص ـ أحد العَشْرة أصحاب ابن تُومَرْت ـ وهم بقايا الموحِّدين؛ إذ كان من تقرير ابن تُومَرْت أن الموحِّدين هم أصحابُه، ولم يبقَ مُلْكُ الموحِّدين إلا في بني حفْص هذا، ومُلكهم غرباً من جزائر «مَزْغِنَّا»[6] إلى عَقَبة بَرْقَة الفارقة بين أَطْرَابُلُس[7] وبين بَرْقَة، وهي نهاية الحدِّ الشرقي، ومن الشام [البحر الرومي]، ومن الجنوب آخر بلاد الجَرِيد والأرض السَّواخة، إلى ما يقال إن فيه

---

(١) هذه الزيادة من هامش الصبح ـ الطبعة الأميرية ـ وهي لازمة لصحة الكلام.

(٢) سفَّ الطائر، وأسفَّ: مرَّ على وجه الأرض في طيرانه.

(٣) مخلقات البشائر: البشائر الطيبة العطرة، من الخَلوق وهو نوع من الطيب أعظم أجزائه الزعفران.

(٤) في ط ق: «وثاره». والتصحيح من الصبح.

(٥) هنتاتة: من قبائل البربر بالمغرب.

(٦) يقال: مَزْغِنَّا، ومَزْغنَّان، ومزغنَّانة. قال في مسالك الأبصار: وهي بلدة حسنة على ساحر البحر، تقابل مَيُورْقَة من بلاد الأندلس، بانحراف يسير، وتبعد عن بِجَايَة ستة أيام.
(صبح الأعشى: ٥/ ١١٠).

(٧) لغة في طرابلس.

موقع المدينة المسماة بمدينة [النُّحاس][(١)] وهو[أجلُّ][(٢)] ملوك الغرب مطلقاً؛ إلا أنه قد ضَعُفَت منَّته بقوة السلطان المرينيّ المجاور، وآختلاف رعيَّته عليه، وآسْتِطالة يد العرب في الحُكم؛ وآسمه في زماننا أبو بكر، وكنيته أبو يحيىٰ، وَلَقَبه المتوكل على الله[(٣)].

وَرَسْمُ المكاتبة إليه: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعدَ حَمْدِ الله (بخطبة مختصرة فيمقتضىٰ الحال) ثم يقول: فهذه المفاوَضة أو النَّجْوَى أو المذاكَرَة أو المُطَارَحَة (أو ما يجري مجرى ذلك) تُهدي من طِيب السلام (ومن هذا ومثله) إلى الحضرة الشريفة، العليَّة، السنيَّة، السَّريَّة، العالميَّة، العادِليَّة، الكامليَّة، الأوْحَديَّة، حضرة الإمارة العَدَويَّة، ومكان الإمامة القُرَشِية، وبقيَّة السُّلالة الطاهرة الزكية، حضرة أمير المسلمين، وزعيم الموحِّدين، والقائم في مصالح الدنيا والدين، السلطان السيِّد الكبير، المجاهد، المؤيَّد، المرابِط، المُثاغِر، المظفَّر، المنصور، الأَوْحَد، المتوكِّل على ربِّه، والمجاهد في حُبِّه، والمناضل عن الإسلام بذَبِّه، أبي بكر. (ويُدعى له بما يناسب مختصراً ثم يذكر ما يليق بكرم الجدود).

صَدْرٌ آخر: [صَدَرتْ إليه] تُهدي من طِيب السلام ما تَرِقُّ في جانبه الغربي أصائلُه، ويروق فيما ينصَبُّ لديه من أنهار النهار جَداوله، ويحمله لكل غادٍ ورائح، وتجري به السفُنُ كالمدن والركائبِ الطَّلائح، وتخصُّ ذلك المقرّ منه [بثَناءٍ يَعِزُّ لأنْ يُنيبَ][(٤)] لبُعْده الدار، ويستطْلِع ليلُ العراقِ به من فَوْق أفريقية النهار، [وتُحامي مِصْرُ به][(٥)] عن

(١) ساقطة من ط ق. والزيادة من الصبح عن التعريف. وبلاد الجَريد هي البلاد الواقعة قبليّ تونس للجنوب؛ ومنها: تُوزَر، وقَفْصَة، والمسيلة، وبِسْكَرَة، وطُرّا، وغَدَامِس، وقلعة سنان.

(صبح الأعشى: ٥/١٠٦ ـ ١٠٧ ـ ١٠٨؛ والروض المعطار: ٨٢، ١٤٤، ٢٣٦، ٢٨٠، ٣٠٦، ٣٣٣، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٥٠، ٤٧٧).

(٢) في ط ق: «أصل». والتصحيح من الصبح.

(٣) قال القلقشندي: وهي الآن (إلى حدود الثمانمائة) بيد السلطان أبي فارس عَزُّوز، وقد دوّخ البلاد وأظهر العدل ورفع منار الإسلام.

(٤) في ط ق «بما تنبو بغزلان تنبت». والتصحيح من صبح الأعشى: ٧/٣٧٨ عن التعريف.

(٥) في ط ق: «ويحامي مضربه». والتصحيح من الصبح.

جارَتها الممنَّعة، وتفخر بجاريتها الشَّمس التي لا تُرى في أُفقها إلا مُبَرْقَعة[1].

صاحب الأندلس

أبو الفضل يوسف[2]، من ولد قَيْس بن سَعْد بن عُبَادَة: شابٌّ فاضل له يدٌ في الموشَّحات. مقره أغرناطة[3]، ومكانُه منها القَصَبَة الحمراءُ؛ ومعنى القصبة عندهم: القلعة، وتسمى: حَمْراء أغرناطة.

ورسم المكاتبة إليه: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد (بخطبة مختصرة) فهذه المفاوضة إلى الحضرة العليَّة، السنيَّة، السَّريَّة، العالية، العادليَّة، المجاهديَّة، المؤيَّديَّة، المرابِطيَّة، المثاغِريَّة، المظفَّريَّةِ، المنصوريَّة، بقيَّةِ شجرة الفَخَار، وخالِصةِ سَلَف الأنصار، المجاهد عنِ الدين، والذَّابِّ عن حَوْزَة المسلمين، ناصر الغُزَاة والمجاهدين، زعيمِ الجيوش، خُلاصَة الخلافة المعظَّمة، أثير الإمامة المكرَّمة، ظهير أمير المؤمنين، أبي الفضل يوسف. وربما كُتِب في ألقابه: الفقيه؛ إذ كان يَرِدُ في مكاتباته إلى الباب الشريف مثل هذه اللفظة.

صَدْر: [صَدَرَتْ هذه المكاتبة إليه] متكفِّلةً بالنصر على بُعْد الدار، مجرَّدةَ

(١) لم يذكر العمري قَطْع الورق، ولا العنوان، والخاتمة، والعلامة، وما في معنى ذلك. والذي ذكره ابن ناظر الجيش في «تثقيف التعريف» أن رسم المكاتبة إليه في قطع الثلث بقلم التوقيعات؛ وهو أن يكتب بعد البسملة بحيث يكون تحتها سواءً في الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله «عبد الله ووليّه» ثم يخلّى مقدار بيت العلامة، ثم تكتب الألقاب الشريفة من أول السطر مسامتاً للبسملة وهي: السلطان، الأعظم، المالك.. الخ فلان ابن فلان، ويرفع في نسبه، إلى منتهاه «خلّد الله سلطانه، ونصر جيوشه وأعوانه». ويجتهد أن يكون «وأعوانه» آخر السطر أو قريباً من آخره. قال: والواجب بدل «وليّ أمير المؤمنين» أن يقول «قسيم أمير المؤمنين». ثم يقول: يخصّ الحضرةَ، العالية، السنيّة... الخ ثم الدعاء بإهداء السلام والشكر. ثم بعد حمدِ الله بخطبة مختصرة يقول: فإنا نوضح لعلمه الكريم. وتعريفه: صاحب تونس. قال القلقشندي: وخطابه بالإخاء.
(صبح الأعشى: ٧/٣٧٨ - ٣٧٩).

(٢) هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر، أبو الحجّاج، سابع ملوك بني نصر في الأندلس. قتل سنة ٧٥٥ هـ.
(ترجمته في أعمال الأعلام لابن الخطيب - القسم الثاني، ص ٣٠٤ - ٣٠٦).

(٣) أغرناطة: غرناطة.

النَّصْل إلا أنه الذي لا يؤَخِرهُ البِدَار، مُسْعَدةٌ بالهمم ولولا الاشتغالُ بجهاد أعداءِ الله فيمن قَرُب لما تقدمت سَرْعانُ الخيل، ولا [أقبلت][1] إلا في أوائل طلائعها للأعداء الوَيْل، ولا كُتِبَتْ إلا والعَجَاجُ يترِّب السطور، والفِجاجُ تقـذِفُ ما فيهـا على ظهور الصَّوَاهِل إلى بطون البحور، مُبْدِيةً ذكرَ ما عنـدنا بسببهـا لمجاورة الكُفَّـار، ومحاورةَ السيوفَ التي لا تَمَلُّ من النِّفار، مع العلم بما لها في ذلك من فضيلة الجهاد، ومَزِيَّة الجَلَد على طول الجِلَاد، ومُصَابَرة السَّهَر لأوقات مُنِيمِه، ومكَاثرة هذا العدوِّ بالصبر ليكون لها غنيمه. ونحن على إمدادها ـ أيدَّها الله ـ بالنصر والدُّعاءِ الذي هو أخف إليها من العساكر، وأخفى مَسيراً إذا قدَّر حقَّه الشَّاكِر، ثِقَةً بأن الله سينصر حِزْبَه الغـالب، ويَكُفُّ عدوَّه المُغالب، ويصل بأمداد الملائكة لجنده، ويأتي بالفتح أو بأمرٍ من عنده، لتجري أَلْطَافُه على ما عوَّدتْ، ويؤْخَـذَ الأعداءُ بـالجريـرة، ولينصرنَّ الله من ينصُـرُه وينظُرُ إلى أهل هذه الجزيرة.

ملك التَّكْـرُور

وهو صاحبُ مـالِّي؛ ومالِّي عبـارةٌ عن آسم إقليم، والتَّكْرور مـدينة من مُدُنها، وكذلك كَوْكَوْ[2]، وحَدُّ مملكته في الغرب البحرُ المحيط، وفي الشـرق بلاد البَـرْنُو، وفي الشمال جبالُ البربر، وفي الجنوب الهَمَجُ.

وأما «غَانَة» فإنه لا يملكها وكأنَّه مالِكُها: يتركها عن قُـدْرَة عليها لأنَّ بهـا وبما وراءَها جنوباً مَنَابتُ الذهب؛ وقد جُرِّبَ أنَّ بلادَ مَنَابِت الذهب متى أُخِذَتْ وَفَشَا فيها الإسلام والأَذَان عُدِمَ نَبَاتُ الذَّهَب فيها، فصاحبُ مالِّي يتركها لذلك لأنه مُسلم؛ ولـه عليها إتَاوَةٌ كبيرة[3] مقَرَّرة تحمل إليه في كلِّ سنة. ونَبَاتُ الذهب بهـا يبدأ في شهـر

(١) في ط ق: «أقبل».

(٢) ضبطها في صبح الأعشى: بفتح الكاف وسكون الواو وفتح الكاف الثانية وسكون الواو بعدهـا. وضبط «مالِّي» بلام مشددة مفخّمة وياء مثناة تحت في الآخر.

(٣) ذكر في صبح الأعشى نقلاً عن العمري في مسالك الأبصار أن في طاعة سلطانها بلاد مغارة الـذهب، وعليهم إتاوة من التِّبر تحمل إليه في كل سـنة.

[أغشت](١)، ويقع ـ والله أعلم ـ أنه مُرَكَّبٌ من تَمُوز وآب(٢) حيثُ سلطانُ الشمس قاهرٌ، وذلك عند أَخْذِ النيل في الارتفاع والزيادة، فإذا انحطَّ النيلُ تُتُبِّع حيث ركِب عليه من الأرض، [فيوجد](٣) منه ما هو نباتٌ يُشْبه النجيلَ وليس به، فمن قَوَامِيه الذهب؛ ومنه ما يوجَد كالحصى؛ والأوّل أفْحَلُ وأخْلَص وأقْوَم في العِيَار(٤).

وملك التَّكْرُور هذا يدَّعي النَّسَب إلى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي بن أبي طالب(٥).

ورسمُ المكاتبة إليه: أدام الله [تعالى] نَصْرَ المقرِّ العالي، السلطانِ، الجليلِ، الكبيرِ، العالِمِ، العادِلِ، المجاهِدِ، المؤَيَّـدِ، الأَوْحـدِ، عِزِّ الإسـلام، شرف ملوك الأنـام، نـاصِـر الغـزاة والمجـاهـدين، زعيمِ جيـوش المـوحِّـدين، جمـالِ الملوك والسلاطين، سيف الخلافـة(٦)، ظَهِير الإمـامة، عَضُـد أمير المؤمنين، الملك فـلان ويُدعَى له بما يناسب. وبعد هذا سلامٌ وَتَشَوُّق(٧). هذه المُفَاوَضَةُ تُبْدِي. ولا يُعرَّض له، ولا يُقَرُّ بشيء من الألقاب الدَّالة على النَّسَب العَلَوِيّ.

---

(١) في ط ق: «أغششت».

(٢) قال القلقشندي: قوله إنه مركب من تموز وآب يعني من شهور السريان. قال: وهذا غلط فاحش لأن شهور الروم منطبقة على شهور السريان في الابتداء والانتهاء، دون ابتداء أول السنة؛ وشهر «أغشت» من شهور الروم هو شهر «آب» من شهور السريان بعينه.

(٣) في ط ق: «فيؤخذ». والتصحيح من الصبح عن التعريف.

(٤) قال القلقشندي: «جعل العمري نوعَي الذهب في أماكن النيل، وفيه مخالفة لما ذكره العمري نفسه في مسالك الأبصار. فقد نقل العمري عن سلطان هذه المملكة أنه قال: يوجد الذهب على نوعين: نوع في زمان الربيع ينبتُ في الصحراء، وله ورق يشبه النجيل، أصوله التِّبْر، والثاني يوجد في أماكن معروفة على ضفاف مجاري النيل، تحفر هنالك حفائر فيوجد فيها الذهب كالحجارة والحصى».
(صبح الأعشى: ٥/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠).

(٥) قال القلقشندي: هو صالح بن عبد الله، بن موسى، بن عبدالله أبي الكرام، ابن موسى الجَوْن، ابن عبد الله، بن الحسن المثنّى، ابن الحسن السبط، ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.
(الصبح: ٥/ ٢٩٨).

(٦) في الصبح: «سيف الجلالة».

(٧) في الصبح: «وبعد إهداء السلام والتشوّق».

دعاءٌ وصَدرٌ يختصَّان به: ويَسِّر له القيامَ بفَرْضِه، وأحْسَنَ له المعاملةَ في قَرْضِه، وكثَّر سوادَه الأعـظَم وجعلهم بيضَ الوجـوه يومَ عَـرْضِه، ومتَّعـه بمُلْك يحدُّ الحديـدُ سَجْفَ سمائه والذهبُ نباتَ أرضه.

صدرتْ هذه المفاوضة وصَدْرُها به مَمْلُو، وشكرُها عليه مَجْلُو[1]، ومزايا حُبِّـه في القلوبِ سِرُّ كل فؤاد، وسَبَبُ ما حَلِيَ به الطَّرْفُ والقلب من السَّواد، تُنْزَلُ به سُفُنها المسيَّرةُ في البرِّ[2] وتُرْسَىٰ، وتحلُّ عند ملك ينقُصُ به زائدُه ويُنْسَى موسَىٰ مَنْسَىٰ[3]، وتُقيم عليه والدَّهْرُ لا يطرقه فيما ينوب، والفكر لا يَشُوقه إلاَّ إذا هَبَّتْ صَباً من أرضه أو جَنُوب[4].

صاحب البَرْنُـو

وبلادُه تُحَدُّ بلادَ ملك التَّكْرُور في الشـرق، ثم يكون حَـدُّها من الشمـال بلادَ صاحب أفريقية، ومن الجنوب الهَمَجُ[5].

ورَسْمُ المكاتبة إليه: أدام اللَّهُ [تعالىٰ] نَصْرَ الجناب الكريم، العالي، الملك، الجليل، الكبير، العالم، العادل، الغازي، المجاهد، الهُمام، الأوْحَـد، المظفَّـر، المنصور، عِزَّ الإسلام (من نوع ألقاب ملك التَّكْرُور وتختصر).

---

(١) في الصبح: «يحلو».

(٢) في الصبح: «في البحر».

(٣) موسى منسَىٰ أو مَنْسَىٰ موسى هـو أوّل ملوك مملكة مالّي؛ وقد اجتمعت لـه السيطرة على أقـاليم هذه المملكة الخمسة وهي: إقليم مالّي، وإقليم صُوصُو، وإقليم غانة من الجانب الغربي عن مالّي، وإقليم كَوْكَوْ، وإقليم تكرور في الجانب الشرقي. ولفظ «مَنْسَىٰ» يعني السلطان.
(انظر صبح الأعشى: ٢٩٢/٥؛ وفيه ثبت بسلسلة ملوكهم).

(٤) والذي ذكره القلقشندي أن المتداول في أيامه بين جماعة كتّاب الإنشاء أن المكاتبة إليه: «أعزّ الله تعالى جانب الجناب الكريم العالي الملك الجليل... الخ».
(الصبح: ١٠/٨).

(٥) لم يذكر العمري هذه الكلمة في «مسالك الأبصار». وقد ورد الكلام عليها مستوفى في صبح الأعشى: الجزء الخامس، المقالة الثانية.

وهـذا دعَاءٌ وَصَـدْرٌ: ولا زالت هِمَمُ سلطانه غيرَ مُقْصَرة، ووفـودُ حجِّـه غيـرَ مُحْصَرة، وسيفُه في سَواد مَنْ جَاوَرَه من أعدائه الكُفَّار يقول: ﴿وجعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهارَ آيتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَة﴾ [الإسراء: ١٢].

صَدَرَتْ، ولها مَثَلُ مِسْكَةٌ أفقه عَبق، وعَنْبَرَةٌ طينته سَوادٌ إلا أنه من [السَّواد][١] اليَقَق، وشَبيبة مَلِكه الذي يُفَدِّيه سَوَادُ الحَدَق، أوجبها وُدٌّ أسكنه مَسْكَنه من سُـوَيْداء القلب لا يَريم، وأراه غُرَّةَ الصباح الوَضَّاح تحت طُرَّة الليل البهيـم [٢].

صاحب الكَانِم

من بيت قـديم في الإسـلام؛ وجـاءَ منهم من ادَّعى النَّسَبَ العلويَّ في بني الحسن؛ ويتمذهب بمذهب الشافعي رضي الله عنه[٣].

ورَسْمُ المكاتبة إليه: كرسم مكاتبة صاحب البَرْنو[٤].

---

(١) في ط ق: «السودد». والتصحيح من الصبح. واليَقَق: شديد البياض ناصعه.

(٢) وذكر القلقشندي أنه رأى في الدستور المنسوب للمقرّ العلائي بن فضل الله (ويعني العمري صاحب هذا الكتاب) أن مكاتبة صاحب البرنو في قطع الثلث من الورق، والعلامة «أخوه»، وتعريفه «صاحب البرنو».
قال: ووصل من هذا الملك كتاب في الدولة الظاهرية (برقوق) يتشكّى فيه من عرب جُذام المجاورين له، ويذكر أنهم اخذوا جماعة من أقاربه وباعوهم في الأقـطار، وسأل الكشف عن خبـرهم والمنع من بيعهـم بمصر والشام، وأرسل هدية صالحة من زئبق وغيره. وكتب جوابه بخط زين الدين طاهر، أحد كتّاب الدّست. وبعث إليه به مع رسوله الوارد صحبة الحجيج، فأعيد وقد كتب الجواب على ظهره بعد سنة أو سنتين.
(الصبح: ٨/٨).

(٣) ذكر العمري في «مسالك الأبصار» أن قاعدة الملك منها بلدةٌ اسمها «جيمي» ومبدأ مملكته من جهة مصر بلدة اسمها «زَلّا» وآخرها طولاً بلدة يقال لها «كاكا» وبينهما نحو ثلاثة أشهر. قال: وعسكرهم يتلثّمون، وملكهم ـ على حقارة سلطانه وسوء بقعة مكانه ـ في غاية لا تدرك من الكبرياء... محجوبٌ لا يراه أحد إلا في يوم العيدين، وفي سائر السنة لا يكلمه أحد ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب.
(صبح الأعشى: ٩/٨).

(٤) نقـل القلقشندي عن «التعـريف» أن رسم المكاتبـة إليه كـرسـم مكاتبـة صاحب البـرنـو إلا أنهـا بـدون «الكريم».

صاحب دُنْقُلَة[1]

[وهو] رعيَّةٌ من رعايا صاحب مصر، عليه حِمْلٌ مقرَّر يقوم به كل سنة، ويخطب ببلاده لخليفة العصر وصاحب مصر[2].

ورَسْمُ المكاتبة إليه: صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس الجليل، الكبير، الغازي، المجاهِد، المؤيَّد، الأوحد، العَضُد، مجدِ الإسلام، زَيْنِ الأنام، فخر المجاهدين، عُمْدَة الملوك والسلاطين.

هذا إذا كان مسلماً؛ وإن لم يكن مسلماً فمكاتبتُه كمكاتبة صاحب «سيس» ولا يعلِّم له السلطان بخطِّه.

صاحب أَمْجَرَه[3]

ملك ملوكِ الحبشة، وهو نَصرانيّ يحكم على تسعة وتسعين ملكاً، وهو تمام المائة؛ ومنهم سبعةٌ مسلمون: منهم صاحِب أَوْفَاتْ، وَدَوَارَاو[4]، وَشَرْحَا، وهَدْبَة[5]؛ وهذه هَدْبَة هي التي يُداوَىٰ بها الخصيان دون غيرها من البلاد.

وهو مُلْك جليل، كثير العدد، وافر المَدَد، متَّسع البلاد. وبلغَنا أن القائمَ بها الآن أَسْلَم سرّاً وآستمر على إظهار النصرانية إبقاءً لملكه؛ ومدبِّرُ دولته رجلٌ يقرب إلى

---

(١) هو ملك النُّوبة؛ ودنقلة أو دمقلة هي عاصمة تلك البلاد، على شاطىء النيل (انظر معجم البلدان: ٢/ ٤٧٠، والصبح: ٥/ ٢٧٥).

(٢) قال القلقشندي: هذا كان في الدولة الناصرية (محمد بن قلاوون)؛ وهذه الإتاوة كانت مقرَّرة عليهم من زمن الفتح، في إمارة عمرو بن العاص، ثم صارت تنقطع تارة وتحمل أخرى، بحسب الطاعة والعصيان. وهي الآن [أي في أيام القلقشندي] مملكة مستقلة بذاتها، ولذلك أوردت مكاتبة صاحبها في جملة الملوك.

(٣) في الصبح: «أَمْحَرا» بالحاء المهملة.

(٤) في الصبح: «دَوَارُو».

(٥) في الصبح: «هَدْيَة» بالياء المثناة تحت. والملوك المسلمون الأربعة الآخرون هم: ملك الزَّيْلَع، وملك أَرَابيني، وملك بَالي، وملك دَارَة.

بني الأرشي الأطبّاء بدمشق، ولولا أن معتقد دين النصرانية لطائفة اليعاقبة أنه لا يصح تعمُّد معموديّ إلا بآتّصال من البطريرك، وأن كرسي البطريرك كنيسة الاسكندرية، فيحتاج إلى أخذ مطران بعد مطران من عنده، وإلا كان شَمَخ بأنفه على المكاتبة، لكنه مضطرٌّ إلى ذلك؛ ولأوامِرِ البطريرك عندَهُ ما لشريعته من الحُرْمَة، وإذا كتب إليه كتاباً فأتى ذلك الكتاب أوّلَ مملكته خرج عَميدُ تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس عَلَم، ولا يزال يحمله بيده حتى يُخْرِجَه من أرضه؛ وأربابُ الدِّيانة في تلك الأرض كالقُسُوس والشمامِسَة حوله مُشَاةٌ بالأدخِنة، فإذا خرجوا من حَدِّ أرضهم تلقّاهم من يليهم، أبداً كذلك في كل أرض بعد أرض، حتى يصلوا إلى أمْجَرَه فيخرج صاحبُها بنفسه ويفعل مثل ذلك الفعل؛ إلا أن المطران هو الذي يحمل الكتابَ لعظمته لا لتأبّي الملك، ثم لا يتصرَّف الملكُ في أمرٍ ولا نهيٍ ولا قليلٍ ولا كثير حتى ينادي للكتاب، ويجمع له يوم الأحد في الكنيسة، ويقرأ والملك واقفٌ، ثم لا يجلس مجلِسَهُ حتى ينفِّذَ ما أمَرَه به.

ورَسْمُ المكاتبة إليه: أطالَ اللَّهُ بقاءَ الحَضْرة العالية، الملك الجليل، الهُمام، الضِّرْغَام، الأسد، الغَضَنْفَر، الخطير، الباسِل، السَّمَيْدَع، العالم في مِلَّته، العادِل في مملكته، المُنْصِف لرعيَّته، المتّبع لما يجب في أقْضِيته، عِزّ المِلَّة النصْرانية، ناصِر المِلّة المسيحية، رُكْن الأمة العيسَوِيّة، عمادِ بني المعمودية، حافظ البلاد الجنوبية، متّبع الحَوَاريّين، والرَّبانيين والقدِّيسين، معظِّم كنيسة صَهْيُون، أوْحَد ملوك اليعقوبية، صديق الملوك والسلاطين. (ويُدعى له دُعَاءً مفخّماً يليق به، ولا يُعَلِّم له، وتُكتَبُ ألقاب السلطان قبل البسملة كعادة الطُّغْرَاوات[1]).

دعاءٌ وصَدْرٌ يَليقان به: . . . وأظهرَ فِعْلَه على من يُدَانيه من كل مِلك هو بالتَّاج

---

(١) واحدتها طُغْرَاة؛ وهي عبارة عن وصل كان يوضع في عصر المماليك البحرية في مناشير الإقطاعات بين وصل الطرّة والبسملة، وترد فيه ألقاب السلطان. والطغرى أو الطغراة كلمة أعجمية استعملها العرب. (صبح الأعشى: ١٣/ ١٦٢).

معتَصِب، ولكفِّ اللَّجاج بالعدل متنَصِب، ولقَطْع حِجَاج كلِّ معانِدٍ بالحقِّ معتصرٍ أو للحق مغتصِب.

صدرتْ هذه المفاوَضَةُ إلى حَضْرَته العليَّة ومن حضرة القُدْس مسْرَاها، ومن أسِرَّة الملك القديم سُرَاها، وعلى صَفَاءِ تلك السَّريرة الصافية تَرِدُ وإن لم يكن بها غَليل، وإلى ذلك الصَّديق الصَّدُوق المسيحيّ تَصِلُ وإن لم تكن بُعِثَتْ إلا من تلقاءِ الخليل.

وأما الملوكُ السبعة المسلمون فلم يرد منهم كتاب، ولا صدر إليهم خطاب [١].

صاحبُ مارِدِين [٢]

وهو الآن الملكُ الصالحُ شمس الدِّين، صالح ابن الملك المنصور؛ وهو من «أرْتُق» [٣]: وهم أهلُ مملكة قديمة. كان جَدُّهم من أكابر أمراء السلطان ملكشاه بن ألْب أرْسِلان السلجوقي [٤]؛ ومن خدمته ترقَّى إلى الملك وصارت هذه المملكة بمارِدِين وأعمالها في عَقِبِه إلى الآن.

ورَسْمُ المكاتبة إليه:

أعزَّ الله نُصْرَةَ المقَرِّ الكريم، العالي، الكبيريّ، الملكيّ، الصالحيّ،

---

(١) قال القلقشندي: فإن ورد منهم شيء فتجري مكاتبتهم مثل مكاتبة صاحب البَرْنو والكانم، أي: أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ الجناب الكريم... الخ.

(٢) ماردين: مدينة ذات قلعة حصينة بديار بكر بالجزيرة الفراتية.

(٣) ترجع الأسرة الأرتقية في نسبها إلى أرتق بن أكسك مؤسس دولة بني أرتق. وقد تشعبت دويلتهم فحكمت طبقة السكمانية. بحصن كيفا وآمد خلال الفترة ما بين ٤٩٥ ـ ٦٢٩ هـ. وحكموا في خرتبرت ما بين ٥٨١ ـ ٦٣١ هـ. وحكموا في ماردين الطبقة الإيلغازية ما بين ٥٠٢ ـ ٨١١ هـ.
(معجم زامباور: ٣٤٤ ـ ٣٤٧)

(٤) هو السلطان جلال الدولة، أبو الفتح، ملكشاه بن ألب أرسلان، محمد بن داوود السلجوقي. تملك بلاد ما وراء النهر وبلاد الهياطلة (ما وراء نهر جيحون) وبلاد الروم والجزيرة والشام والعراق وخراسان. مات في شوال سنة ٤٨٥ هـ، ودفن بأصبهان بمدرسة كبيرة له.

الشمسيّ، ولا زال ملكاً تاجُه المدايح، ومنهاجُه المنايح، وطريقتُه إذا وُصفت قيل: هذه طريقةُ الملك الصالح.

أصدَرْناها إليه وشُكْرها [تسوقُه][1] إليه حُداةُ الرَّكائب، [وتشوق][2] منه إلى لقاء الحبائب، [وتُثني][3] على مكارِمِه التي كلما أقلعت منها سَحَائبُ أُعقِبت بسحائب، وتوضِّح للعلم الكريم.

صَدْرٌ آخر:

ولا زالت شمسُه في قُبَّة فَلَكها، وسماءُ ممالكه مملوءةً حرساً شديداً وشُهُباً بمَلِكها، [ونِعَمُه][4] تُتعب البحارَ إذا وقفت في طريقها، والغمائمَ إذا جازت في مسلكها.

أصدرناها إليه والسلامُ متنوِّعٌ على كَرَمِه، متضوِّعٌ بأطيبَ من أنفاس المِسْك في نِعَمه، متسرِّعٌ إليه تَسَرُّعَ مواهبه إلى وفودِ حَرَمِه، وتوضِّح للعلم الكريم.

صَدْرٌ [ثالث]:

ولا زالتِ العُفاةُ تلتحف بنَعْمائه، وتنتجعُ مساقِطَ أنوائه، وتستضيءُ منه بأشرَقِ شمسٍ طلعت من المُلْك في سمائه.

أصدرناها وثناؤها يسابق عَجلاً، ومدائحها تُجيد مترّوياً ومرتجِلاً، وشكرها لو رُصِّع مع الجواهر لأقام عُذْرَ الياقوت إذا اكتسىٰ خدُّهُ الحُمْرةَ خجلاً، وتوضِّح للعلم الكريم.

---

(١) في ط ق: «يسوق». والتصحيح من الصبح.
(٢) في ط ق: «ويشوق» بالياء المثناة تحت.
(٣) في ط ق «ويثني».
(٤) في ط ق: «ونعماء». والتصحيح من الصبح.

صاحب حِصْن كَيْفَا[1]

[وهـو] من بقايـا الملوك الأيّوبيـة، وممن تنظر إليـه ملوك مصر بعين الإجـلال لمكان ولائهم القديم لهم وآستمرار الودّ الآن بينهم، وقد كان آخر وقت منهم الملك الصالح قصد الأبوابَ السلطانيـة، فلما أتى دمشق عقبه الأخبارُ بـأن أخاه قـد ساوَرَ سريرَه وقصد بسلطته سُلْطَانَه، فكرَّ راجعاً ولم يعقِّب؛ فما [لبِثَتِ][2] الأخبارُ أن جاءت بأنَّه حين صَعَد قلعته، وكرَّ نحو سريرهِ رَجْعَتَه، وثَبَ عليه أخوه المتوثِّبُ فقتله وسفك دمه، ثم أظهر عليه ندَمَه، وكتب إلى السلطان فأُجيب بأجوبةٍ دالَّةٍ على عـدم القَبُول لأعـذاره؛ (وَلَبِسَ ودَّهُ على دَخَلةٍ)[3] والسرائـرُ مكدَّره، والخـواطر بعضهـا من بعضٍ مُنَفِّره.

ورَسْمُ المكـاتبـة إليـه: أدامَ اللهُ نِعْمَـةَ المجلس العـالي، الملكي، الفـلاني (بالألقاب الملوكية) الأجَلِّي، العالميّ، العادليّ، المجاهديّ، المؤيَّديّ، المرابِطيّ، المثـاغريّ، الأوحَـدِيّ، [الأصيليّ][4]، الفلانيّ (بـاللَّقب المتعـارف) عِـزّ الإسـلام والمسلمين، بقيَّـة الملوك والسلاطين، نُصْـرَة الغـزاة والمجـاهـدين، زعيم جيـوش الموحِّدين، شَرَف الدُّول، ذُخر الممالك، خليل أمير المؤمنين. (وربما قيل: عَضُد أمير المؤمنين إذا صُغِّر)[5].

دعاءٌ وَصَدْرٌ: وآسْتَعاد به من الدهر من عهود سَلَفه ما [تسلَّف][6]، وحَازَ له من مواريث المُلْك أكثَرَ مما خلَّىٰ له أوَّلُهُ وما خَلَّف، وحط [للرِّحَال][7] في حِصْنِ كَيْفَا به

---

(١) مدينة من ديار بكر من بلاد الجزيرة، بين دجلة والفرات.

(٢) في ط ق: «فما نشبت» والتصحيح من الصبح.

(٣) كذا في ط ق. والعبارة بين هلالين ساقطة من الصبح.

(٤) في ط ق «الأصليّ» وهو خطأ.

(٥) وذكر ابن ناظر الجيش في «التثقيف» ما يخالف في بعض ذلك. (انظر صبح الأعشى: ٧/ ٢٦٩).

(٦) في ط ق «ما سَلَف». وما أثبتناه من الصبح.

(٧) في ط ق «الرجال». والتصحيح من الصبح.

على مَلِك: أمّا المستجيرُ به فيتحصَّن وأما فَضْلُه فلا يُكَيَّف، وأعان السَّحابَ الذي يكِلُّ عن مجاراته ويجري هو ولا يتكلَّف.

أُصدِرَتْ هذه المكاتبةُ إليه ونَوْؤها يَصُوب، ولألاؤها تشُقُّ به الظلماءُ الجيُوب، وثناؤها على حُسْن بلائه في طاعة ربِّه يقول له: صَبْراً صَبْراً كما تعوَّدْتم يا آلَ أيُّوب.

صَدْرٌ آخر ودُعاءٌ: وشدَّ به [بقيَّةَ][1] البيت، وحيَّا طَلَله البالي وأحيا رَسْمَه المَيْت، وذَكَر به من زَمان سلفِه القديم ما لا يُعْرَف فيه هَيْت[2]، وأَبقَى منه مَلِكاً من بني أيوبَ لا يَثْنِي وعدَه اللَّيُّ ولا يُقال فيه [لَيْت][3]، ونوَّرَ المُلْك بغرَّته لا بما قرع الشَّمْعَ عن الشَّمْع [وورَدَ][4] المصابيحَ من الزيت، وحَفِظَ منه جواداً لو عَتَبه[5] أخوه السحابُ على السَّبْقِ لقال له: هَيْهاتَ كم خَلَّفْتُ مثلك خلفي وخَلَّيت. أُصْدِرَتْ هذه المكاتبةُ إليه - أعز الله جانبه - والتحيَّاتُ موشَّحةٌ بنُطُقها، مصبِّحةٌ لسجاياه الكريمة بخُلُقها، ساحبةٌ إليه [ذَيْلَ][6] خُيَلائها إذ كانت به تَخْتال[7]، وبسببه على السرور تَحْتَال.

صاحِبُ أَرْزَنَ[8]

بلدُهُ صغيرٌ وقَدْرُه كبير؛ من ملوك آل سلجوق ومن بقايا أولئك السلاطين الذين

---

(١) في ط ق «بقيت».

(٢) هَيْت: كلمة تعجّب.

(٣) في ط ق: «كَيْت» والتصحيح من الصبح.

(٤) في ط ق «وذان». وهي غير مفهومة. والتصحيح من الصبح.

(٥) كذا في ط ق. وفي الصبح «عينه». وكلاهما خطأ. والأَوْلى أن يقال: «عاتبه». يقال: عَتَبَ عليه، وعاتبه.

(انظر كتب اللغة).

(٦) في ط ق «زيل» بالزاي.

(٧) في الصبح: «لأنها إذا اختالت به تختال».

(٨) وهي أَرْزَنُ الروم: مدينة في تركية، من بلاد أرمينية؛ وسماها العرب أيضاً: أرزروم وأرضروم أو أرض الروم. وقد عرفها الأرمن باسم «كرين» Karin، والروم باسم «تيودوسيوبوليس».

دَوَّخوا الدُّوَلَ ومَلَكوا العبيدَ والخَوَلَ، وآعتدلت التِّيجانُ على مَفارقهم، ودُكَّت الجبالُ بمجرَى سوابقهم ؛وهو مَلِكٌ لا يُعْرَف قَدْرُ صَالَتِه[1] ولا كُنْهُ جلالته. آخرُ من أعرفُ منهم هو الأمير الملقَّب بالملك القاهر؛ ويتَّهم بمذهب النُّصَيْرية، وله إحسانٌ إلى من يمرُّ به وإلى الرعيَّة؛ إلا أن الأكرادَ أمراءَ الجبال المطلَّة عليه والمجاورة له قد نَكَصُوا أطرافه وأكثروا تخطُّفَ رعاياه وتحيُّفَ بلاده.

ورَسْمُ المكاتبة إليه: صَدَرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس الساميّ، الملكيّ، الفلانيّ، الأَجَلِّي، الكبيريّ، العالميّ، المجاهِديّ، المؤيَّديّ، المرابطيّ، الأوحَديّ، الفلانيّ، عِزِّ الإسلام، شَرَفِ الملوك في الأنام، بقيَّة السلاطين، نَصْرِ الغزاة والمجاهدين، وليِّ أمير المؤمنين[2].

صاحِبُ بَدْلِيسَ[3]

هو الأمير شرفُ الدين، أبو بكر؛ ويُتَّهم بمذهب النُّصَيْرية، وبلده صغيرٌ ودَخْلُه يسير، وعمله ضيِّق؛ وهو طريق المارّة وقُصَّاد الأبواب السلطانية إلى الأردو إذا لم يكن بالعراق؛ وله خِدَمٌ مشكورة[4].

= (مراصد الإطلاع: ١/٥٥ وتقويم البلدان: ٣٧٨ ـ ٣٧٩؛ ودائرة المعارف الإسلامية: ٢/٥٧٤؛ وصبح الأعشى: ٧/٢٧٩).

(١) الصَّؤول من الرجال: الذي يضرب الناس ويتطاول عليهم. يقال: صَؤُلَ البعير يصؤُل صآلة.

(٢) الذي ذكره ابن ناظر الجيش في «تثقيف التعريف» أن رسم المكاتبة إليه مثل صاحب حصن كَيْفَا من غير زيادة ولا نقص، أي: أدام الله نعمة المجلس العالي، الملكي... الخ (انظر مكاتبة صاحب حصن كيفا قبل هذا مباشرة). قال ابن ناظر الجيش: والصحيح ما تقدّم، فإني كتبت إليه بهذه المكاتبة مرّات، وهو المتداول بين الجماعة إلى آخر وقت.

(صبح الأعشى: ٧/٢٧٩).

(٣) بدليس مدينة في تركيا في إيالة (وان)؛ وموقعها في الجنوب الغربي من بحيرة (وان). وبدليس بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط.

(معجم البلدان: ١/٣٥٨).

(٤) وعدّه في «التثقيف» في جملة الأكراد. (الصبح ٧/٢٨٠).

وَرَسْمُ المكاتبة إليه: صَدَرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس الساميّ، الأميريّ (أسوةَ الأمراء).

صاحِبُ هَرَاة[1]

ولا يجري على الالسُن إلاّ صاحب «هَرَىٰ». وكان ملكُها الملكَ غياثَ الدينِ، ولم أسمع أعجمياً يقول إلاّ: قِيَاس الدين؛ وكان ملكاً جليلاً نبيلاً مفخّماً معظَماً، له مكانةٌ عند الملوك الهُولاكوهيَّة، ومنزلةٌ رفيعة عليَّة. وكان بين غياث الدين وبين النُّوَيْن[2] «جُوبَان» مودَّةٌ أكيدةٌ وصداقةٌ عظيمة؛ فلما دارت به دوائرُ الزمان وأفضَتْ به الحالُ إلى الهرب لجأ إلى صاحب هَرَىٰ هذا، على أنه يسهِّلُ له الدخولَ إلى صاحب الهند، أو إلى ملك ما وراء النهر، فأجابه وأنزله، وبسط أمَلَه؛ وأسَرَّ له الخداعَ حتى آطمأَنَّ إليه، فأصعَدَه إلى قلعته ليُضيفه فصَعِد ومعه آبنُه جَلوقان، وهو ابنه من [خُوَنْدَة][3] بنت السلطان خُذَابَنْده[4]. وكان جَلُوقان هذا هو الذي أُجيب إلى تزويجه ببنت السلطان الملك الناصر، وعلى هذا تَمَّت قواعد الصُّلح. وبَنَىٰ جُوبانُ أمرَه على أنه بعد التزويج يأخذ له مُلْكَ بيت هولاكو بشُبْهة أنه آبن بنت خُذَابَنْدا[4]، وأنه لم يَبْقَ بعد أبي سعيد من يَرِثُ المُلْكَ سواه؛ ثم يستضيف له مُلْكَ مصرَ والشَّام بشُبْهة أن بنتَ صاحبِ مصر هي التي ترثُ المُلْكَ من أبيها، فحالت المنايا دون الأماني؛ وحَالَ صُعودِ جُوبانَ وآبنِه جلوقان القلعةَ أمسكهما غِياثُ الدين وخَنَقَهما ليتَّخذ بذلك وَجْهاً عند السلطان «بو سعيد»، وبعث بذلك إلى «بوسعيد» فشكر له إمساكَهُما وأنكر عليه التعجيل في قتلهما فآعتذر: بأنني لو لم أقتلهما لم آمن آستعدادَ من معهما

---

(١) مدينة كبيرة من أمهات مدن خراسان. (معجم البلدان: ٥/٣٩٦).

(٢) النُّوَيْن: لفظ فارسي يقرن بأسماء قواد التتر، ومن ألقاب كفّال الممالك القانية كنائب السلطنة وأمراء الألوس ونحوهم، وهو أمير عشرة آلاف. وهو أعلى رتب طبقات الأمراء الأربع في الجيش المغولي. ويعبّر عنه أيضاً بأمير تومان، إذ التومان عند بني هولاكو عبارة عن عشرة آلاف.
(صبح الأعشى: ٤/٤٢٢ و ٦/٣٣).

(٣) في ط ق «خوترة». والتصحيح من الصبح: ٧/٢٧٢.

(٤) في الصبح: «خدابندا» بدالين مهملتين. وفي معجم زامباور «خُذَابَنْده» بخاء مهملة ثم ذال معجمة.

لمحاصرتي، فقبل عُذْرَه وطلب منه إبهامَ[1] جوبان ليعرف أنه قد قتله، وكان فيه زيادةُ سلعة ظاهرة يُعرَفُ بها، فجهَّزه إليه فأكرمَ رُسُلَه وبعث إليه بالخِلَع، وأمر بإصبعِ جوبان فطيفَ بها في الممالك؛ ثم سألت بَغْدَادُ خاتون، بنتُ جُوبان ـ وكان قد تزوَّج بها أبو سعيد وكَلِفَ بها الكَلَفَ الشديد ـ في نقل أجسادهما فنقلت، فعقدت لهما المآتِمَ ثم أمرت بحملهما إلى مكة المعظمة ثم إلى المدينة المشرَّفة ليدفنا في التُّرْبَة الجوبانيَّة التي كان جوبان أعدَّها لدَفْنِه [في] حال حياته، [فمُكِّنَتْ][2] من ذلك إلا [من] الدَّفنِ فإنهما دُفِنَا بالبَقِيع. ثم حضَر غياثُ الدين حضرَةَ أبي سعيد فأكرِمَ وأُعطِيَ العطايا السَّنِيَّة ثم لم يلبث أن مات ووَلِيَ ٱبنُه. ولم يحضُرْني الآن ٱسمُه. ولم يكُنْ صاحبُ هذه المملكة ممن يُكاتَبُ عن السلطان حتى كانت واقِعةُ جُوبانَ[3] فكُتِبَ إليه.

ورَسْمُ المكاتبة إليه: أعزَّ اللّٰهُ نَصْرَ المقرِّ الكريم، العالي، العالميّ، العادليّ،

---

(١) أي إصبعه الإبهام.

(٢) في ط ق «فمكن».

(٣) هو الأمير سيف الدين جوبان بن تُلُك بن تدوان. أقامه أبو سعيد أميراً للأمراء سنة ٧١٧ هـ، وتزوج أخت أبي سعيد «دولندي»؛ ولما توفيت «دولندي» تزوج أخته الأخرى «ساتي بك خاتون» سنة ٧١٩ هـ. واكتسب جوبان سلطاناً عظيماً في تصريف شؤون الدولة؛ زد على ذلك أن أبناءه كانوا يحكمون الولايات الهامة في الأمبراطورية الإيلخانية التي كان على رأسها أبو سعيد. وفي سنة ٧٢٥ هـ. منع جوبان أبا سعيد من زواج ابنته «بغداد خاتون» التي كانت في ذلك الوقت زوجة شيخ حسن بزرك الجلائري؛ لذلك استقر عزم أبي سعيد على تحطيم سلطان الجوبانية. وبذلك قتل جوبان سنة ٧٢٨ هـ. (دائرة المعارف الإسلامية: ٣/ ٢٦). أما السلطان أبو سعيد فهو ابن القان أولجياتو محمد خُذابنده (أو خَرْبَندا، كما في النجوم الزاهرة) ابن القان أرغون بن أبْغا بن هولاكو. كان ملك التتار وصاحب العراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان والروم. تولى السلطنة سنة ٧١٧ هـ وتوفي سنة ٧٣٦ هـ. (معجم زامباور: ٣٦٢). وقال ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة: ٩/ ٣٠٩ إنه يسمّى «بو سعيد». قال: و«بوسعيد» اسم غير كنية؛ ومن الناس من يقول «بو صعيد». كان ملكاً جليلاً مهاباً، ويكتب الخط المنسوب، ويجيد ضرب العود والموسيقى، وصنّف في ذلك قطعاً جيدة في أنغام غريبة من مذاهب النغم. وقد أبطل في سلطنته عدة مكوس، وأراق الخمور ومنع الناس من شربها، وهدم الكنائس. وكان حنفياً؛ وهو آخر ملوك التتار من بني جنكزخان؛ ولم يقم للتتار بعد موته قائمة إلى يومنا هذا.

المجاهِديّ، المؤيَّديّ، المرابطيّ، المثاغِريّ، الأوْحَديّ، الملك الفلانيّ، شَرَف الملوك والسلاطين، خليلِ أميرِ المؤمنين.

ملوك كِيلان[1]

وهم جماعةٌ كلٌّ منهم مستقلٌّ بنفسه، متفرِّدٌ بملكه، على ضيق بلادهم وقرب مجاورة بعضهم من بعضٍ والجبلُ والبحرُ يحصرانهم: الجبلُ من جنوبهم والبحر من شمالهم؛ وهو البحر الطَّبَرِسْتاني المسمّى حيث هو بالقُلْزُم وليس به[2]، وهو بحرٌ لا يتَّصل بالمحيط لا بمصَبٍّ منه ولا بمصَبٍّ إليه؛ وهؤلاء رُسُلهم قليلة وكتبهم أقلُّ من القليل.

ورَسْمُ المكاتبة إليه: نَحْوُ ما يُكتب به إلى صاحب حصن كَيْفا، إلا صاحب «بُومِنْ» فإنه يُكتب إليه بالجناب[3]، وهو مثلهم في بقية الألقاب.

---

(١) كيلان أو جيلان اسم لصقع واسع مجاور لبلاد الدَّيلم ليس فيه قرى كثيرة وليس فيه مدينة عظيمة (المشترك وضعاً لياقوت: ١١٧). وقال في مسالك الأبصار أن بلاد كيلان يحيط بها أربعة حدود: من الشرق إقليم مازندران، ومن الغرب موقان، ومن الجنوب عراق العجم، ومن الشمال بحر القلزم يعني بحر طبرستان (الصبح: ٤/٣٨٠) انظر أيضاً: دائرة المعارف الإسلامية: ١٣/١٥٢ وما بعدها.

(٢) البحر الطبرستاني هو بحر قزوين. وقد سمّاه المسلمون أسماء مختلفة تبعاً للأقاليم التي تقوم على سواحله، فهو يسمى بحر جرجان، وبحر طبرستان أو مازندران، وبحر الديلم، وبحر جيلان. أما التسمية العربية الشائعة فهي بحرر الخزر. وقول العمري «المسمّى حيث هو بالقلزم وليس به» يشير إلى خطأ بعض الناس. ولعل هذا الخطأ يعود إلى الخلط بين «قُزْزُم» و«القلزم» فقد ذكر الدمشقي أن الترك في زمانه ـ حوالي سنة ٧٢٣ هـ ـ كانوا يسمون بحر قزوين باسم بحر قُزْزُم أي بحر القُدُس، ومن ثم فإن بعض الناس في قول حمدالله مستوفي ـ نزهة القلوب ص ٢٣٩ ـ يخطئون فيسمون بحر الخزر بحر القلزم. أما بحر القلزم فهو البحر الأحمر.

(انظر دائرة المعارف الإسلامية: ٦/٢٧٥ ـ ٢٧٨).

(٣) قال في التثقيف: ولم أر لهم مكاتبة، ولا كتب لهم في مدة مباشرتي بديوان الإنشاء الشريف شيء؛ غير أني رأيت بخط المولى القاضي المرحوم زين الدين خضر أنه كتب أمثلة شريفة إلى جماعة، منهم: «حرم الدين» ببومن. ثم قال: وهذا هو الذي ذكر القاضي شهاب الدين (ويعني العمري) أن مكاتبته أعلى مكاتباتهم. ثم عدّد من كتب إليه منهم فقال: وهم نُوباذ شاه، وسالوك شاه، في قطع العادة.
(صبح الأعشى: ٧/٢٧١).

الأكــراد[1]

[وهم] خــلائقُ لا تُحصى[2] وأُمم لا تُحْصَر؛ ولــولا أنَّ سيفَ الفتنــة بينهم يَسْتَحصِـدُ قائمهم، وينبِّـه نائمهم، لفَـاضُوا على البـلاد، وآستضافـوا إليهم الطَّارِفَ والتِّلاد؛ ولكنَّهم رُمُوا بشَتات الرأْيِ وتفرُّق الكلمة، لا يزال بينهم سيفٌ مسلول، ودمٌ مطلول، وعَقْدُ نظام محلول، وطَرْفٌ بـاكية بـالدِّمـاء مبلول؛ ولهم رأْسان كـل منهما جليل، ولكل منهما عددٌ غيرُ قليل؛ وهما صاحِبُ جُولَمَرك، وصاحِبُ عَقْرَشُوش.

والكبيرُ منهما الذي تتَّفق طوائفُ الأكراد ـ مع آختلافها ـ على تعظيمه والإشارة بأنه فيهم الملكُ المُطَاعُ والقائد المتَّبع، هو صاحبُ جُولَمَرْك؛ وهـو صاحب مملكـة متَّسعة ومُدُن وقلاع وحصون، وله قبائلُ وعشائرُ وأنفار. وهم يُنسبون إلى عُتْبَة بن أبي سُفيانَ بن حرب بن أميَّة بن عبد شَمْس بن عبد مَنَاف؛ وكانت قد آنتهت الإمرةُ فيهم إلى الملك أسَد الدين موسىٰ بـن مُجَلِّي بن موسىٰ بن منكـلان. وكان رجـلاً كريمـاً عظيماً نَهّاباً وهّاباً، تجلُّه ملوكُ الممالك الجليلة وتعظِّمه حُكَّام الأردو وصاحبُ مصر. وإشارتُه مقبولةٌ عند الجميع. وإذا آقتتلت طـائفتان من الأكـراد فتقدم إليهمـا بالكفِّ كَفُّوا، وسمعوا له سَمْعَ مُرَاعٍ لا سَمْعَ مُطيع. والقائمُ الآن من بنيه الملكُ عمادُ الدين مُجَلِّي؛ وهو رجلٌ يحب أهلَ العلم والفضل، ويُجِلُّ منهم عندَه من أتاه أعظَمَ مَحَلّ. كَتَبَ لي قاضِيه أنَّ إخوتَه من ظَهْر أبيه هم: عِزُّ الدين؛ وزَيْنُ الـدين؛ وأعمامُـه: عِزُّ الدين شِير، وشَمْسُ الدين شيخ أمير، والأمير داود، وحسام الدين. وما منهم إلا مَنْ له حُكْمٌ وتصرُّفٌ؛ ومرجِعُهم كلُّهم إلى الملكِ عمادِ الدين صاحبِ جُولَمَرك.

وأما الثاني فهو صاحبُ عَقْرَشُوش؛ وملوكُها الآن من أولاد المبارِزكَـكْ؛ وكان مبارِزُ الدين كَكْ رجلاً شجاعاً كريماً تَغْلِبُ عليه غرائبُ من الهَوَس فيدَّعي أنه وليٌّ من

---

(١) قـال في الصبح: ومنـازلهم من بلاد الجبـال من عراق العجم وحـول أماكنهم بـالتفصيل انظر صبح الأعشى: ٤/٣٧٣ وما بعدها.

(٢) في الصبح «لا يحصون».

الأولياءِ يقبل النُّذُر؛ وكانت تُنْذَرُ له النُّذور تقرُّباً إليه بما تنفق عليه لا اعتقاداً فيه فيُسَرُّ بذلك؛ فإذا أتاه النَّذْرُ أضاف إليه مِثْله من ماله وتصدَّق بهما جميعاً. وأهلُ هذا البيت يدَّعُون عَرَاقةَ الأصل في الإمرة، وقِدَمَ السُّؤدد في الحِشْمة، ويقولون إنهم عُقِدتْ لهم ألْويةُ الإمارة وتسلَّموا أَزِمَّةَ هذه البلاد، وتسنَّموا صَهَواتِ هذه الصَّياصي بمناشير الخلفاء، وأنهم كانوا لهم أهْلَ وفاء؛ ولهم في هذا حكاياتٌ كثيرةٌ وأخبار مأثورة؛ وهم أهلُ تَنَعُّم ورفاهِيَة ونِعْمة ظاهرة، وبِزَّة فاخرة، وآدُرٍ مُزَخْرفة، ورياض مُفوَّفة، وخُيول مُسَوَّمة، وجَوارِحَ مُعَلَّمة، وخَدَمٍ وغِلْمان، وجَوارٍ حِسَان، ومَعازف وقِيان، وسِماطٍ مَمْدُود وخِوَان، وأهل عِشْرَةٍ وإخوان. ومَوْقِعُ بلادهم من أطراف بلادنا قريب، والمدعو منهم من الرَّحْبَة وما جاوَرَها يكاد يُجيب. وملوكُنا تشكر لهم إخلاصَ نصيحة، وصَفاءَ سَريرةٍ صحيحة. والقائمُ [فيهم] الآن شُجاعُ الدين ابن الأمير نجم الدين خَضِر ابن المبارِز كَكْ؛ ولم يبلغ الآن مبلَغَ أبيه، ولا أظُنُّه يُقارِبُه ولا يُدانيه؛ على أنه قد مَلَكَ مُلْكَه، ونَظَم سِلْكَه.

ورَسْمُ المكاتبة إلى كل منهما: «أدامَ اللَّهُ نِعمَةَ المجلس العالي، الأميريّ، (والألقاب التّامة الكاملة).

وأما بقيَّةُ أمرائهم فجلَّتُهم الأكابر: «صَدَرَتْ هذه المُكاتَبة إلى المجلس الساميّ **الأميريِّ**» بالياء. والألقاب من الطبقة الثانية، وما دونَها لمن دونهم.

ومما يُنَبَّه عليه أنَّ في طُرُق المارِّين ومسالكِ المسافرين من بِلادنا إلى خُراسانَ، ومنها إلينا، ينجم[1] في بعض الأحيان أهلُ فَساد يَعْمِدون إلى عميد يقدِّمونه عليهم فيقطعون السُّبُلَ ويُخيفون الطُّرُق؛ وتطير سِمْعَةُ عميدهم، وتنتَشِر في قريبهم وبعيدهم، فيُكاتَبُ ذلك العميدُ من أبواب الملوك، ويُضطرُّ إليه لفتح الطريق للسلوك[2]؛ ويكونُ من غير بيت الإمْرَة، ولا أهل القديم. وربَّما هوَى نَجْمُه، فانقطع

---

(١) في الصبح: «يظهر».

(٢) في الصبح: «بالسّلوك».

بانقطاع عمره آسمُه؛ مثل «الجملوك» الخارج بطريق خُراسان، «والغِرْس بالُو» الخارج فيما يُقارب بلاد شَهْرَزُور، ومثل الخارجين على «دَرْبَنْد[١] القرابلي». وهؤلاءِ وأمثالُهم يطلعُون طُلوعَ الكَمْأة لا أصلٌ ممتدّ، ولا فرعٌ مُشتدّ، فهؤلاءِ لا يُعرف لأحد منهم رُتْبةٌ محفوظة[٢]، ولا قانون في رسم المُكَاتبة معروف؛ والشَّأْنُ فيما يُكتب إلى هؤلاءِ بحسَبِ الاحتياج وقَدْرِ ما يُعرف لهم من آشتداد السَّاعِد، وعَدَدِ المُسَاعد. ولقد كتبنا إلى كلٍّ من الجملوك والغِرْس بالُو بالسَّاميّ بالياءِ، وجُهِّزت إليهما الخِلَعُ وأُتْحِفا بالتُّحَف[٣].

أمراءُ الأتراك

بالبلاد المعروفة الآن ببلاد الروم، وتسمَّى الآن ببلاد الدُّرُوب؛ وهي البلاد المنحصِرَة بين بَحْرَي القِرم - وهو المسمَّى ببحر نيطَش ومَاينطش[٤] - وفي الغرب إلى الخليج القُسْطَنطيني، وتنتهي متشاملة إلى القُسْطنطينية، وتسمّى اسطنبول: وهي

(١) الدَّرْبَنْد: لفظ فارسي معناه الطريق والممر. ويجمع على دَرْبَنْدات.

(٢) في ط ق: «محفوظة» بالخاء المعجمة.

(٣) وذكر القلقشندي في صبح الأعشى: ٧/٢٨٥ - ٢٨٩ أن ابن ناظر الجيش قد قسمهم في «التثقيف» إلى قسمين: القسم الأول: من عُلمت المكاتبة إليه وهم: صاحب بِرْخو، والبلهتيّة، والدَّرْبند، وكَرْمَليس، والعمادية، ومازْكرد، وزَنْدشت، وجُرْذَقيل، وسكراك، وفيلبس، وشكوش، وجُرْموك، وبَهرمان، وحصن أرّان. وذكر اسمه ورسم المكاتبة إليه.
والقسم الثاني، ولم يذكر مكاتبته، وهم: صاحب خُفْتيان، وسُوبَخ، وأكريسنا.. الخ.
(انظر صبح الأعشى).

(٤) لعل الصواب «مانيطش» بتقديم النون على الياء. والمراد البحر الأسود، ويسمى في اللغة التركية «قره دكيز» وكان يسمى في الجغرافية القديمة والبوزنطية بحر بنطس Pontus Euxinus ، وأخذ العرب الاسمين اليونانيين: بنتس ومايوتيس (أي بحر آزوف) Pontus, Maeotis ورسموهما: بنطس ومايطس، ثم كتبوهما: نيطش ومانيطش. واستمرت هذه الأسماء المصحّفة تستعمل حتى في آخر ما صنّفه الجغرافيون المشارقة. وأطلق العرب على البحر الأسود أسماء أخرى مثل: بحر طَرَابَزُنْدَه، وبحر القِرم، وبحر الروس.
(دائرة المعارف الإسلامية: ٦٠/٢٧١).

قاعِدة ملوكِ الرُّوم. ومنها تُعقَد راياتُهم وتقوم؛ وتنتهي جنوباً إلى بلاد «ابن لاون» وهي بلاد الأرمن. يحدُّها البحر الشاميّ[1].

وهذه البلاد بلاد متّسعة. وهي مفرّقة لملوك مجتمعة. وإنما هم لا يُطلَق عليهم إلا اسم الإمارة؛ ولا انتظامَ لكلمتهم. ولا اجتماعَ لجملتهم؛ وأكبرهم صاحب كِرْميان[2]. وله بينهم وَضْعٌ محفوظ. ونظام مرعيّ.

فأما ملوكنا. فأجلُّ من لديهم منهم جماعةُ بني قِرْمان. لقُرْبِ ديارهم. وتَواصُل أخبارهم. ولنكاياتهم في متملّك «سِيس» وأهل بلاد الأرمن. [واجتياحهم][3] لهم من ذلك الجانب مثل [اجتياح][3] عساكرنا لهم من هذا الجانب؛ فمكاتباتنا إلى بني قِرْمانَ لا تكاد تنقطع؛ وأما إلى البقيَّة فأقلُّ من القليل. وأخفى من مرأى الضئيل. [وهم]:

الأوّل: صاحب كِرْميان[2]: ولم يُكتب إليه مدَّةَ مُقامي بالأبواب السلطانية؛ [ويشبه][4] أن تكون المكاتبةُ إليه «بالمقرّ» نظيرَ صاحب ماردين. لكن بأبسط ألْقاب. إذ هي أدْعَى لاستحسانهم لقلة معارفهم.

وعلى هذا التقدير يكون رَسْمُ المكاتبة إليه:

«أعزَّ اللّه نَصْرَ المقَر الكريم. العالي. الملكيّ. الأجَلّيّ. العالميّ. العادليّ. المجاهِديّ. المؤيَّديّ. المرابطيّ. المثاغِريّ. المظفَّريّ. المنصوريّ. الفلانيّ. عَوْنِ الإسلام والمسلمين. فخر الملوك والسلاطين. نصيرِ الغزاة والمجاهدين. زعيم

---

(١) أي المتوسط. أبو بحر الروم. وقد ذكر الملك المؤيد أبو الفداء. صاحب حماه في «تقويم البلدان» حدود بلاد الروم أو بلاد الدربندات على نحو مخالف لما يذكره العمري هنا. قال: «ويحيط بهذه البلاد من جهة الغرب بحر الروم وعامة الخليج القسطنطيني وبحر القرم. ومن جهة الجنوب بلاد الشام والجزيرة. ومن جهة الشرق أرمينية. ومن جهة الشمال بلاد الكرج وبحر القرم».

(٢) في ط ق «كرمينان». وماأثبتناه من الصبح.

(٣) في ط ق «واحتياجهم... احتياج» والتصحيح من الصبح.

(٤) في ط ق «ويق». والتصحيح من الصبح.

الجيوش، مقدَّم العساكر، ظهير أمير المؤمنين.

فإن لم يسمح له بكل هذه المخاطبة، ولم يؤهَّل لنظير هذه المكاتبة، كُتبت له هذه الألقاب مع «الجناب الكريم» وخوطب بالإمارة إن لم يُسمح له بالمخاطبة بالمُلْك[١].

الثاني: صاحب كَصْطَمُونية: وكانت آخر وقت لسليمان باشا؛ وكان أميراً كبيراً، كثير العَدَد، موفور المَدَد، ذا هيبةٍ[٢] وتمنُّع. ثم مات وورِثَ ملكه ابنُه إبراهيم شاه، وكان عاقاً لأبيه، خارجاً عن مراضيه، وكان في حياته متفرداً بمملكة «سَنُوب»، وهي الآن داخلة في مُلكه، ومنخرطةٌ في سِلْكِه.

ورَسْمُ المكاتبة إليه: «أدامَ اللَّهُ نعمة المجلس العالي، الأميريّ» (بأكمل الألقاب، وأتمّ ما يُكتب في هذا الباب).

الثالث: صاحِبُ أَرْمِنَاكَ: وهو ابنُ قِرْمَانَ المقدَّم الذِّكر[٣].

ورَسْمُ المكاتبة إليه: «أدامَ اللَّه نِعْمَةَ المجلس العالي» (بأكمل الألقاب وأكبرها، وأجمَعها وأكثرِها). ولإخوته أيضاً رُسُومٌ في المكاتبات؛ فأكثرهم قَدْراً،

---

(١) قال في التثقيف: «ولعل مكاتبته بالجناب مع هذه الألقاب كما ذكر ومخاطبته بالإمارة أَوْلى؛ لأنه إذا كان بنو قرمان أجلّ لدى ملوكنا، ومكاتباتهم بالدعاء والمجلس العالي، فيتعين، حيث هو أكبر منهم، أن يكون هو أعلى منهم رتبةً في المكاتبة بدرجتين [أو لعله بدرجة]، وهي: الجناب الكريم». قال: وهذا هو الأولى عندي.

وعقَّب القلقشندي قائلاً: وهذا كله إنما كان قبل أن يعلو قَدْرُ ابن عثمان صاحب «بُرْسَا» الآتي ذكره، ويرتفع قدره على من بتلك البلاد جملة. أما بعد ارتفاعه وانحطاطهم دونه، فينبغي ان يُنظر في قدر المكتوب إليه، ويكتب إليه بحسب ما تقتضيه الحال.

(صبح الأعشى: ١٣/٨).

(٢) في ط ق «هيئة وتمتّع». وما أثبتناه من الصبح.

(٣) ذكر في التثقيف أن اسمه علاء الدين سليمان بن قرمان وأن آخر من استقرّ بها في شوال سنة ٧٦٧ هـ علاء الدين علي بك بن قرمان.

(صبح الأعشى: ١٧/٨).

وأفتكُهم نَسَباً وظفراً، الأمير بهاء الدين موسى، وحَضر إلى باب السلطان وتُلقّي بالإجلال، وأُجلَّ في ممتدّ الظلال، وأُورِدَ موارِدَ الزّلال، وأُري ميامنَ أسْعَد من طلعة الهلال. وحجَّ مع الرَّكْب المصريّ وقضى المناسك، وأسبل في ثَرى تلك الرُّبى بقيَّةَ دمعهِ المتمسك. وشكَر أمراءُ الركب دينه المتين، وذكروا ما فيه من حُسْن اليقين، وعاد إلى الأبواب السلطانية وأُجلس في المرتين مع أمراء المشور، وأُشرك في الرأي وسأل السلطان في منشور يُكتَبُ له بما يفْتَح بسيفه من بلاد الأرمن يقاتل بعَلَمه المنشور، ويجتني من شجر المُرَّان[1] جَنى عَسله المَشُور. فكتَبْتُه له، وأستقرَّ رَسْمُ مكاتبته نظيرَ مكاتبة أخيه وهو مثله، وشبيهُ فَضْله فضلُه؛ فأما بقيّةُ قِرْمانَ فدونهما في المكاتبة.

[2] [الرابع: صاحب طُنْغُزْلُو: ورَسْمُ المكاتبة إليه: «صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالي الأميريّ».

الخامس: صاحب تُوازا: وهو في المكاتبة نظيرُ صاحب طُنْغُزْلُو. وآسمه في زماننا «علي أرينه».

السادس: صاحب عَيْذلي: وهو في زماننا «دَنْدار» أخو يونُس صاحب أنطاليا. وهو في المكاتبة نظير صاحب تُوازا.

السابع: صاحب فاويا: وهو مراد الدين حمزة؛ وهو ملك مضْعُوف، ورجلٌ بمجالس أُنسه مشغوف.

ورسم المكاتبة إليه: «صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس الساميّ الأميريّ» بالياء.

---

(١) المرّان: الرمح الصلبة اللدنة. وقيل هو نبات الرماح. (اللسان: مرن).

(٢) ذكر القلقشندي في الصبح: ١٣/٨ أن صاحب التعريف قد عدَّ منهم ستة عشر أميراً وأنه ذكر رسم المكاتبة إلى كل منهم. والذي بين أيدينا في ط ق ـ وهي الطبعة التي استندنا إليها أساساً في إعادة إخراج هذا الكتاب ـ ثلاثة أمراء فقط، وهم الذين وردوا قبل هذا، لذا فقد استكملنا ذكرهم ورسم المكاتبة إلى كل منهم كما جاء في الصبح، ووضعنا ذلك بين معقوفين.

الثامن: **صاحب بُرْسَا**: وهو أُرْخَان بن عثمان. وهو نظير صاحب فَاوِيا في المكاتبة.

التاسع: **صاحب أَكْبَرا**: وهو في زماننا دمرخان بن قراشي.
ومكاتبته نظير مكاتبة صاحب بُرْسا.

العاشر: **صاحب مَرْمَرَا**: وهو بَخْشي بن قَرَاشي.
ورسم المكاتبة إليه: «صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي».

الحادي عشر: **صاحب مَغْنِيسِيَا**: واسمه «صاروخان». والمكاتبة إليه: «السامِيّ» بالياء.

الثاني عشر: **صاحب نِيف**: وهو علي باشا أخو صاروخان صاحب مَغْنيسيَا المقدّم ذكره. ورسم المكاتبة إليه مثل أخيه المذكور.

الثالث عشر: **صاحب بَركِي**: وهو ابن أيْدِين. والمكاتبة إليه: «أدام الله تعالىٰ نعمة المجلس العالي» بالألقاب التامّة.

الرابع عشر: **صاحب فُوكه**: وهو أُرخان بن منتشا. والمكاتبة إليه نظير صاحب بركِي.

الخامس عشر: **صاحب أنطاليا**: وهو خَضِر بن يونُس. ورسْمُ المكاتبة إليه: «صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي»

السادس عشر: **صاحب قَرَاصار**: واسمه زكريّا. ورسم المكاتبة إليه: «هذه المكاتبة إلى المجلس السامي» بلا ياء].

عُظَماءُ الملوك

بإيرانَ وتُورَانَ وما والاهما من البلاد
الشرقية من مجرّ الفرات إلى مطلع الشمس

اعلَمْ أنَّ إيرانَ مملكةُ الأكاسِرَة؛ وهي من الفُرات إلى نهر جَيْحُونَ حيث بَلخ، ومن البحر الفارسيّ وما صاقَبَهُ من البحر الهنديّ إلى البحر المسمّى بالقُلْزُم، بحر طَبَرِستان. وهي المملكةُ الصَّائرةُ إلى بيت هولاكو؛ وقد دخل فيها مملكةُ الهياطلة، وهي بلاد مازَنْدَرَان وما يليها إلى آخر كِيلان؛ وهي تسمى كِيلان، وجِيلان، وبلاد الجِيل؛ وطبرستانُ واقعةٌ بينهما، أعني بين مازَنْدَرانَ وكيلان؛ ومازَنْدَرَان الآخذةُ شرقاً وكيلان الآخذةُ غرباً.

وأما تُورَانُ فهي: مملكةُ الخاقانِيَّة، كانت [في القديم] بيد أفْراسياب[1] ملك التُّرك؛ وهي من نهر بَلْخ إلى مطلع الشمس على سَمْت الوسط؛ فما أخذ عنهاجنوباً كان بلادَ السِّنْد، ثم الهند، وما أخذ عنها شمالاً كان بلادَ الخَفْجاج، وهم طائفة القَبْجاق، وبلادَ الصَّقْلَب، والجَهَارْكس، والروس، والمَاجَار، وما جاورهم من طوائف الأمم المختلفة سُكَّانِ الشمال. ويدخل في تُورانَ ممالك كثيرة وبلادٌ واسعة وأعمال شاسعة وأمم مختلفة لا تكاد تحصى؛ تشتمل على بلاد غَزْنَة، والباميان، والغُور[2]، وما وراءَ النهر (وهذا النهر الذي يُشار إليه هو جَيْحُون) نحو بخارى وسَمَرْقَنْد، والصُّغْد[3]، والخُوجَنْد، وغير ذلك؛ وبلاد تُرْكُسْتَان، وأُشْرُوسَنة، وفَرْغانة، وبَلا صاغُون[4]، وطِرَاز[5]، وصريوم، وبلاد الخِطا نحو بشمالق والمالق

---

(1) هو أفراسياب بن شنك بن رستم بن تُرْك بن كومر بن يافث بن نوح؛ وهو ملك الترك في زمان موسى عليه السلام. (الصبح: ٢٩٣/٧).

(2) كذا في ط ق؛ وفي الصبح: «الغور» بالراء المهملة. ولعلّ الصواب «غُور» بدون أل التعريف، كما في معجم البلدان.

(3) في ط ق «والصفد» بالفاء وهو خطأ.

(4) في الصبح «وبلاد صاغون» وهو خطأ. وفي معجم البلدان: «بلاساغون» بالسين المهملة.

(5) في طق «طرار» بالراء المهملة؛ وهو خطأ. والتصحيح من الصبح ومعجم البلدان.

إلى قَرَاقُوم (وهي قريةُ جَنْكِزْخان التي أخرَجَتْه وعِرِّيسَتُه التي أدْرَجته) ثم ما وراء ذلك من بلاد الصِّين، وصين الصِّين. وكلُّ هذه ممالك جليلة، وأعمال حفيلة، وملوكها سلاطين عِظَام، وملوكٌ كِرام، قد أكرمهم اللَّهُ الآن بالإسلام، وشرفهم بأتِّباع سيِّدنا محمد عليه أفضلُ الصلاة والسلام.

فأما مملكةُ إيرانَ: فكان العَهْدُ بها أن تكون لرجلٍ واحد وسلطان فَرْدٍ مُطَاع؛ وعلى هذا مضت الأيام إلى حين توفِّيَ السلطانُ أبو سعيد، فَصَاحَ في جَنَباتها كلُّ ناعِقٍ، وقَطَع رِداءَها كلُّ جاذِب، وتفرَّد كل متغلِّب بجانب، فهي الآن نُهْبَىٰ بأيديهم.

فأمّا عراقُ العرب، فهو بغدادُ وبلادُها وما يليها من ديار بَكْر ورَبيعة ومُضَر، بيَدِ الشيخ حسن الكبير، وهو الحسن بن الحسين بن أَقْبَغا من طائفة النُّورانيين[1]؛ وكان جدُّه نَوْكَراً لهولاكو بن طولَيْ بن جنكزخان المجرَّد لقتل الباطنيّة، فاستولىٰ على إيران بمجموعها. (والنَّوْكَرُ هو الرفيق).

وأما بقية ديار بكر فهي بيد إبراهيم شاه بن بارنباي بن ثوتاي[2].

وأما مملكة أذْرَبيجان، وهي قُطْبُ مملكة إيران، ومقرُّ كرسيِّ ملوكها من بني جنكزخان، فهي بيد أولاد جُوبان، وبها القان القائم الآن سليمان شاه. ولا أعرف صحَّة نَسَبه ولا سياقته بالدعوىٰ.

وأما خُراسان فبيد القان [طغيتمريار][3] وهو صحيح النَّسَب، غير أني لم أعرف أسماءَ آبائه.

---

(١) طائفة النورانيين من التتر ينتسبون إلى امرأة تدعى «ألان قوا» حملت بعد موت زوجها، فأنكر قومها عليها حملها فادعت أن نوراً من السماء دخل فرجها فحملت؛ وقالت أنها ستلد ثلاثة ذكور. ثم ولدت الذكور الثلاثة فصدّقها قومها بعد أن رأوا كلامها يتحقق. وأولادها الثلاثة يعرفون بين التتر بالنورانيين، نسبة إلى النور الذي كان سبب حمل أمهم بهم؛ وأحد هؤلاء الثلاثة هو جدّ جنكيزخان.
(صبح الأعشى: ٤/٣٠٦).

(٢) في صبح الأعشى «سوتاي».

(٣) في ط ق «طغيتمر». وما أثبتناه من الصبح.

وأما بلاد الروم فقد أضيف إلى إيران [منها] قطعةٌ صالحة وبلادُ نازحة؛ وهي الآن بيد «أرتنا» وقد نُبِّه على ذلك ليُعرف.

وأما رَسْمُ المكاتبة إلى القان الجامع لحدودها، والناظِم لعقودها ـ كما كان أبو سعيد ـ فهو كتاب يُكتَبُ في قَطْع البغداديّ الكامل، يُبتدأ فيه ـ بعد البسملة وسَطْرٍ من الخطبة ـ بالطُّغْرا[1] المكتتبة بالذَّهب المُزَمَّك بألقاب سلطاننا على عادة الطُّغراوات، ثم تكمَّل الخطبة وتُفتتح ببَعْدِيَّة إلى أن تُساق الألقاب وهي: الحضرةُ الشريفة، العالية، السلطانية، الأعظميَّة، الشاهِنْشاهيَّة، الأوحديّة، الأخوية، القانيَّة، الفلانية (من غير أن يخلط فيها «الملكيّة» لهوانها عليهم وانحطاطها لديهم) ثم يُدعَى له بالأدعية المعظَّمة المفخَّمة الملوكية: من إعزاز السلطان، ونَصْر الأعوان، وخلود الأيام، ونشر الأعلام، وتأييد الجنود، وتكثير الوفود، وغير ذلك مما يجري هذا المجرَى. ثم يُقال ما فيه التلويحُ والتصريح بدَوَام الوِداد، وصفاء الاعتقاد، ووصف الأشواق، وكثرة الأتواق، وما هو من هذه النسبة. ثم يُؤتَى على المقاصد ويُختم بدعاءٍ جليل، وتُستعرَضُ الحوائج[2] والخِدَم، ويوصَفُ التطلُّع إليها، ويُظْهَرُ التهافُتُ عليها. وهذا الكتاب تكتب جميع خطبته وطُغْرَاه وعنوانه بالذَّهب المزَمَّك، وكذلك [كلُّ ما][3] وقع في أثنائه من آسم جليل، وكلِّ ذي شأْن نبيل: من آسم الله تعالى، أو لنبينا ﷺ، أو لأحدٍ من الأنبياءِ أو الملائكة عليهم السلام، أو ذكرٍ لدين الإسلام، أو ذكر سلطاننا أو السلطانِ المكتوب [إليه] أو ما هو متعلِّق بهما. مثاله: «عندنا وعندكم» و «لنا ولكم» و «كتابنا وكتابكم»، كل هذا يُكتَبُ بالذهب؛ وما سواه يُكتبِ بالسَّواد.

فأما العنوان فهو بهذه الألقاب إلى أن ينتهي إلى اللَّقب الخاص، ثم يُدعَىٰ له بدعوة أو دعوتين نحو: «أعزَّ الله سلطانها، وأعلىٰ شأنها» أو نحو ذلك، ثم يسمّى آسْمُ السلطان المكتوب إليه، ثم يقال «خان» كما كنا نكتب فنقول: «أبو سعيد بَهادِر

---

(١) في الصبح «الخطبة الغرّاء». والصواب هاهنا. راجع ص ٤٩ حاشية (١).

(٢) في الصبح: «المراسيم».

(٣) في ط ق: «كلما». والتصحيح من الصبح: ٢٥١/٧.

خان» فقط، ويُطْمَغ بالذهبِ بِطَمَغات[1] عليها ألقاب سلطاننا؛ وتكون الطَّمَغات على الأوصال: يُبدأ بالطَّمْغة على اليمين في أوّل وَصْل، ثم على اليسار في ثاني وَصْل، ثم على هـذا النمط إلى أن ينتهيَ في الآخـر على اليمين. ولا يختم على السُّطُرَّة البيضاء؛ والكاتبُ يخلي لمواضع الطَّمْغة مواضِعَ الكتابة، تارة يَمْنة وتارة يَسْرة.

وحُكّام دولة هذا السلطان: أمراء الألُوس[2]؛ [وهم] أربعة، أكبرهم «بِكْلاري بك» وهو أمير الأمراءِ، كما كان [قطلو شاه عند غازان][3]، وجُوبان عند خُذابَنْدا ثم عند بو سعيد؛ وهؤلاءِ الأمراءُ الأربعة لا يُفْصَل جَليلُ أمرٍ إلاّ بهم؛ فمن غاب منهم كُتب آسمُه في اليَرالِغ[4]، وهي المراسيم ـ كما يكتب لو كان حاضراً، ونائبه يقوم عنه. وهم لا يُمضون أمراً إلا بالوزير؛ والوزير يُمضي الأمورَ دونهم، ويأمر نوَّابهم فتكتب أسماؤهم: فالوزير هو حقيقة السلطان، وهو المتفرِّد بالحديث في المال والولاية والعزل حتى في جلائل الأمور، كما أن «بِكْلاري بك» يتحدَّث في أمر العسكر بمفرده. فأما الاشتراك في أمور الناس فبهم أجمعين، وليس للأمراءِ في غالب ذلك من العلم إلا ما علِم نوّابُهم.

ورَسْمُ المكاتبة إليهم:

ـ «بِكْلاري بك»: أعزَّ اللّه نَصْرَ المقرِّ الكريم.

---

(١) في التركية: «تمغا» و«طامغة». وقد عرِّبت بالطاء فقيل: طمغة، وبالدال فقيل: دمغة. والتمغا آلة كالخاتم، من حديد أو برونز أو خشب، تطبع في رؤوس المحررات الرسمية، وتطبع محماة على أرجل الخيل ونحوها.

(تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١٠٧).

(٢) أي أمراء الألوف، ومفردها: أمير ألف. وأمير عشرة آلاف يسمّى: أمير تومان أو النوين.

(صبح الأعشى: ٤/٤٢٣).

(٣) في ط ق «قطلو شاه عند غاذان». والتصحيح من الصبح.

(٤) اليرليغ: كلمة مغولية بمعنى حكم أو قرار، ثم استعملت لأمر وتفويض صادر من السلطان مباشرة إلى الأشخاص الممتازين: (الأعلاق الخطيرة: ٣/٩٥٠ ـ حاشية عن جامع التواريخ). وفي صبح الأعشى ٤/٤٢٨: هي المراسيم. والمتعلق منها بالأموال يسمّى: طن طمغا.

والثلاثة الذين دونه: أدامَ اللّه نَصْرَ الجناب.

ويقال لكل منهم «النُّويْني»[١] ومثل هذا مكاتبة «أُرِتْنا»[٢] بالروم، وأمير التُّومان[٣] بديار بكر: من سُوناي[٤] وبنيه وكذلك سائر الأمراء النُّوينات[٥] وهم أمراء التَّوامين[٦].

ورَسْم المكاتبة إلى الوزير: «ضاعَفَ اللّه نِعْمة المجلس العالي، الأميريّ، الوزيريّ» على عادة مُكَاتبات الوزراء بألقاب الوزارة؛ فإن لم يكن له إمْرَة يقال: «الوزيريّ» ولا يُقال: «الصَّاحِبيّ» لهَوانها[٧] لديهم. وعادة ما يُكتب إلى «بِكْلاري بك» في قَطْع النِّصف، وما يكتب إلى أمراء النُّوَيْنات والوزير في قَطْع الثلث.

وأما مملكة تُورَانَ فهي منقسمة ثلاثة أقسام. كان آخر العهد بها إلى آنقضاءِ الأيام الناصرية؛ وبها سلطانان مسلمان وسلطان كافر، وهو أكبر الثلاثة، وهو المسمَّى بالقان الكبير صاحب التَّخْت، وهو صاحبُ الصين والخَطَا ووارثُ تَخْت جنكزخان؛ ولم يكن يُكاتَبُ لترفُّعه وإبائه، وطَيَرانه بسمعةِ آبائه؛ ثم تواترت الآن الأخبارُ بأنَّه قد أسْلَم ودَانَ دينَ الإسلام، ورَقَم كلمةَ التوحيد على ذوائب الأعلام؛ وإنْ صحَّ - وهو المؤمَّل - فقد ملأت الأمةُ المحمَّدية الخافقين، وعَمَّت المشرقَ والمغرب وآمتدَّت بين ضَفَّتي البحر المحيط.

---

(١) نسبة إلى النُّوَيْن. راجع ص ٦٨ حاشية (٢).

(٢) هو علاء الدين أرتنا بن جعفر. حكم آسيا الصغرى من قبل المغول من سنة ٧٢٨ هـ إلى سنة ٧٣٦ هـ. وكان مقرّه سيواس. خضع للناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٧ هـ. ظل يتخذ لقب سلطان من سنة ٧٤١ إلى سنة ٧٥٣ هـ. توفي سنة ٧٥٣ هـ. و«أرتنا» بكسر الراء، وتاء مثناة ساكنة. والضبط من معجم زامباور.
(انظر معجم زامباور: ٢٣٢ - ٢٣٣).

(٣) تومان بالفارسية تعني عشرة آلاف.

(٤) في ط ق: «سوتاي» بالتاء المثناة. والتصحيح من صبح الأعشى.

(٥) في ط ق «التونيات» بتقديم النون الثانية على الياء.

(٦) جمع: تومان.

(٧) في ط ق «لهوانهم». وهو خطأ.

وأما الملكان المسلمان فأحدهما صاحب السَّرَاي وخُوَارِزْم والقِرْم ودَشْت[1] القَبْحاق؛ وهي المملكة المعروفة ببيت بَرَكة[2]. كان يسمَّى صاحبها في قديم الزمان ـ زمان الخلفاء وما قبله ـ صاحب السَّرير، وكان صاحبها في الأيام الناصرية: السلطان أزْبَك خان؛ وقد خَطَب إليه السلطان فزوَّجه بِنْتاً [تقرُّباً][3] إليه. وما زال بين ملوك هذه المملكة وبين ملوكنا قديمُ آتِّحاد، وصِدْقُ وِداد، من أول أيام الظاهر بيْبَرْس وإلى آخر وقت. والمُلْكُ الآن فيهم في أولاد أزْبَك: إمَّا «تني بك» أو «جاني بك»، وأظنها في «تني بك»[4].

ورَسْمُ المكاتبة إليه ـ إن كُتب بالعربي ـ رَسْمُ ما يُكتب إلى صاحب إيران كما تقدَّم، وإلا فالأغلب أن يكتب إليه بالمُغْليّ، وذلك مما كان يتولاّه أيتمش المحمَّدي، وطاير بُغَا الناصريّ، وإرغدلق التَّرْجُمان، ثم صار يتولاه قُوصُون السَّاقي.

وأما الثاني منهما **فهو** صاحب غَزْنَة وبُخارىٰ وسَمَرْقَنْد وعامة ما وراءِ النهر. وآخر ما آستقرت لترما شِيرين[5]؛ وكان حَسَنَ الإسلام، عادِلَ السيرة، طاهر الذيل،

---

(١) في ط ق «دست» بالسين المهملة.

(٢) نسبة إلى بَرَكة بن طوجي خان بن جنكزخان؛ وقاعدتها مدينة السَّراي.

(٣) في ط ق «تقرب». وما أثبتناه من الصبح.

(٤) رأى القلقشندي في الصبح: ٧/٢٩٤ أن الملك بعد أزبك كان ابنه «جاني بك» لا «تني بك»؛ وكذلك نجد هذا التسلسل في دائرة المعارف الإسلامية: ٥/٥٦٩. أما زامباور في معجمه فقد أثبت «تني» أو «تيني بك» قبل «جاني». ولعلّ هذا الالتباس يعود إلى الفترة القصيرة التي فصلت بين موت «أزبك خان» أو «أوزبك خان» وبين تسولي ولديه السلطة من بعده. فزامباور يثبت أن تيني بك تسولى السلطة سنة ٧٤١ هـ، ثم خلفه في نفس السنة أخوه «جاني». وفي دائرة المعارف الإسلامية أن أوزبك حكم من ١٣١٣ إلى ١٣٤١ م، وبعده جاني بك من ١٣٤٢ إلى ١٣٥٧ م، أي أنها أهملت الفترة ما بين ١٣٤١ و ١٣٤٢ م.

(٥) هو السابع عشر من خانات ما وراء النهر من بني جغتاي. بعد أن أسلم اتخذ لقب علاء الدين. (معجم زامباور: ٣٧٠).

مؤثراً للخير، محبّاً لأهله، مُكْرِماً لمن يَرِدُ عليه من العلماءِ والصلحاءِ وطوائف الفقهاءِ والفقراءِ.

[والمكاتبة] [1] إليه على رَسْم مكاتبة صاحب إيران.

وأما القان الكبير: فإن صحَّ [2] إسلامُه وقدرت المكاتبة إليه تكون المكاتبة إليه كذلك أو أجَلَّ من ذلك؛ وهؤلاءِ الثلاثة وصاحب إيران أولاد جنكزخان.

دعاء وصَدْر:

وعَرَّفه قَدْرَ ما أنعم به عليه، وسلَّمة من مفاتيح الأرض من شرقها إليه، وفضَّله به على ملوك بيته، إذ جعل ذهَبَ الشمس أوَّلَ ما يصاغ دونهم لتاجه، ودينارَها أوّل ما يقع في يديه؛ ولا زال لربِّه عبداً شَكُوراً، عارفاً بحق أنْعُمِهِ من قبل أن يكون شيئاً مذكوراً، مُنيباً إليه إذا كان الناسُ إمّا شاكراً وإما كَفُوراً، ليؤَدِّيَ بالشكر حقَّ المنعِم، ويتقرب إلى الله بما يتقبَّله منه وإنما يتقبَّل الله من المسلم.

حضرتُه العالية مخدومه، وأَسِرَّتُه الزاهية بخواتم القُبَل مختومه، [وعداوَةُ] [3] الأعداءِ بصدق محبته مخصُومَه، والقلوبُ لأخيار وِدَاده مصدِّقه، والبحارُ بكرمه مصفِّقه، والركائبُ بحديثه مشرقة ومغرِّبه، ومُبْعِدَةٌ ومُقَرِّبَه. ما انفصل حين [4]، وجمع الناس لملوك مصلحين، فلا يستغرب إذا جمعت الأقطار فرق شعاعها، وضمّت

---

(١) في ط ق «وكتب». والتصحيح من المقام.

(٢) جاء في دائرة المعارف الإسلامية: ٥/ ٥٧٠ أن انهيار الامبراطورية الإيلخانية سنة ١٣٣٥ م قد جعل القطيع الذهبي في ظل أوزبك خان (١٣١٣ - ١٣٤١ م) يعود إلى ما كان له قبلاً من شأن عظيم؛ ذلك أن هذا الأمير الذي كان شخصياً يدين بالإسلام قد مكن للإسلام تمكيناً على نهر الفولغا، ومن ثم اعتنق جميع الخانات هذا الدين. وهنالك أصبح معظم تتار الفولجا أيضاً يدخلون شيئاً فشيئاً في ثقافة إسلامية سنية من طراز خاص نجده في آسيا الصغرى.

(٣) في ط ق «وعدواء». والتصحيح من المقام.

(٤) كذا في ط ق. ولعل الصواب «ما انفصل إلا إلى حين».

شموسها المشرقة في كل صباح فرائد النجوم في خيوط شعاعها، لمحاسنها التي تتألف من نفر، وتقيم الحجّة إذا قيل فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ يأْتِي بالشَّمسِ من المشْرِقِ فأْتِ بِها مِنَ المغْرِبِ فبُهِتَ الذي كَفَر﴾. [سورة البقرة: ٢٥٨].

صاحب الهند

وأما غير هؤلاء فهو صاحب الهند، وآسمه أبو المجاهد محمد بن طُغْلقشاه؛[١] وهو أعظم ملوك الأرض شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً، وبراً وبحراً، وسهلاً وقَفْراً؛ وسِمَتُه في بلاده «الإسكندر الثاني». وباللّه[٢] إنه يستحق أن يسمّى بذلك ويُوسّم به: لاتّساع بلاده، وكثرة أعداده، وغُزْر أمداده، وشَرَف منابت أرضه، ووفور معادنه، وما تنبته أرضُه، ويُخرجه بحره، ويُجبىٰ إليه، ويرِدُ من التجّار عليه. وأهل بلاده أمم لا تُحصىٰ، وطوائف لا تُعدُّ.

حدثنا عبد اللّه دفتر خوان[٣] والافتخار، وهما الرسولان الواصلان فيما تقدم منه، ما لو سكنت النفوس إلى براءتهما من التعصب فيه لحكى منه العجائب وحدَّث

---

(١) كذا ضبطه في صبح الأعشى. وفي معجم زامباور «تَغْلَقْ شاه». وهو محمد الثاني، جونا بن تَغْلَق، غياث الدين أولوغ خان. توفي في ٢١ المحرم سنة ٧٥٢ هـ. تولى الملك بعد وفاة أبيه سنة ٧٢٥ هـ. وكان ذا شخصية غريبة متناقضة، تجمع إلى التدين والكرم والتواضع القسوة وسفك الدماء. ويقول عنه صاحب نزهة الخواطر «إنه السلطان الجائر المشهور بالعادل، وكان من عجائب الزمن وسوانح الدهر، لم يُرَ مثله في الملوك والسلاطين في بذل الأموال الطائلة وسفك الدماء المعصومة». وقد جاء ابن بطوطة إلى دلهي في زمان محمد بن طغلق شاه سنة ٧٣٤ هـ/ ١٣٣٧ م ودون كل ما شاهده وسمعه عنه، وهو يقول: «أما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كوني ببلاده» ثم يصفه فيقول: «وهو أحب الناس لإسداء العطايا وإراقة الدماء، فلا يخلو بابه من فقير يغنى أو حي يقتل، وأنا أشهد الله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين، وبعض مآثره لا يسعه عقل كثير من الناس..» ويقول ابن بطوطة أن أعظم ما كان ينقم بسببه على السلطان إجلاؤه لأهل دلهي عنها، وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبُّه ويرمونها بالقصر ليلاً، فإذا فضّها وجد فيها سبّه وشتمه، فعزم تخريب دلهي. قال ابن بطوطة: «وهكذا وجدناها لما دخلناها خالية ليس بها إلا قليل عمارة».

(معجم زامباور: ٤٢٣؛ وتاريخ الإسلام في الهند: ١٢٨ ـ ١٣٣).

(٢) في الصبح «وتالله».

(٣) كذا في ط ق. وفي الصبح «دميرخوان».

عنه بالغرائب. وقد حدثنا قوم آخرون، وكلُّهم ثقات معتبرون منهم الفقيه سراج الدين الهندي[1] مدرِّس البَيْدُمَريَّة بالقاهرة والتاج البَزِّي والشيخ مبارك الأبتايتي[2] بما ظهر من مجموع كلامهم، بأن عسكر هذا السلطان نحو التسعمائة ألف فارس، وعنده زهاءُ أَلْفي فِيل يقاتل عليها، وخَلْقٌ من العبيد مقاتلة تقاتل رجَّالة مع سَعَة المُلك والحال، وكثرة الدَّخل والمال، وشرف النَّفس والآباء[3]، مع الاتِّضاع للعلماء والصُّلَحاء، وكثرة الإنفاق، وعميم الإطلاق، ومعاملة اللّه تعالى بالصَّدقة، وإخراج الكَفَاف[4] للمرتَزقه، بمرتَّبات دائمة، وإدْرَارات متَّصلة؛ ولقد أرسَل مالاً برَسْم الحرمين وبيت المقدس، وهديَّةً للسلطان تزيد على ألف ألف دينار، فقُطِعَ عليها الطريقُ باليمن، وقُتِلَ مُحضِرُها بأيدي مماليكه[5]، لأمرٍ بُيِّتَ بليل، ثم قُتِل قاتلوه، وأخذ أهلُ اليمن المالَ وأكلوه، وكُتب عن سلطاننا إلى صاحب اليمن في هذا [كتاب][6] منه: «وقد عدَدْت عليه فَعْلته» وقيل فيه: «وفَعَلَ ما لا يليق، وأمسىٰ وهو يُعدُّ من الملوك فأصبح يعدُّ من قُطّاع الطريق»، وجرى في هذه الكلمة نبأٌ ليس هذا موضعه.

عدنا إلى ذِكر صاحب الهند فنقول إن رَسْمَ المكاتبة إليه رَسْمُ المكاتبة إلى القانات الكبار المقدَّم ذكرُهم: في هيئة الكتاب، وما يكتب به، والطغرا والخطبة.

فأما ألقابه فهي: «المقامُ الأشرف، العالي، المولويّ، السلطانيّ، الأعظميّ، الشاهنشاهيّ، العالميّ، العادليّ، المجاهديّ، المرابِطيّ، المثاغِريّ، المظفَّريّ، المؤيَّديّ، المنصوريّ، إسكندرُ الزمان، سلطانُ الوقت والأوان، مَنْبَعُ الكرم والإحسان، المعفِّي على ملوك آل ساسان، وبقايا أفراسيابَ وخاقان، ملكُ البسيطة،

(١) في صبح الأعشى: «قاضي القضاة سراج الدين الهندي الحنفيّ».
(٢) كذا في ط ق. وفي صبح الأعشى «الأنْبَايتي».
(٣) في الصبح «والإباء».
(٤) في الصبح «الكفاية» ولعلها الأصوب.
(٥) في الصبح «بأيدي مماليك صاحب اليمن».
(٦) في ط ق «كتاباً».

سلطان الإسلام، غياثَ الأنام، أوحد الملوك والسلاطين»؛ ويدعىٰ له. ولم نكتب إليه في ذلك الوقت لقباً[١] يُنسب إلى الخلافة نحو «خليل أمير المؤمنين» وما يجري هذا المجرىٰ إذ كان قد بلغَنا أنه يَرْبأ بنفسه إلا أن يُدعىٰ بالخلافة، ويُرىٰ له فضلُ الإنافة.

دعاءٌ وصَدْرٌ: ولا زال سلطانُه للاعداء مُبيراً، وزمانُه بما قضى[٢] به من خلود مُلْكه خبيراً، وشأنُه وإن عظم [يَتدفَّق][٣] بحراً ويُرْسِي ثَبِيراً[٤]، ومكانُه - وإن جَلَّ أن يجَلْبَبَهُ مِسْكيُّ الليل - يملأ الأرجاء أرَجاً والوجودَ عبيراً، وإمكانُه يستكين له الإسكندرُ خاضعاً وإن حازَ نعيماً جَمّاً ومُلكاً كبيراً، ولا برحت الملوك [بولائه][٥] تتشرَّف، وبآلائه تتعرَّف، وبما تَطْبَعُ مَهَابتُه من البيض ببيض الهند في المُهَج تتصرَّف.

المملوكُ[٦] يخدُم بدعاءٍ يحلِّق إلى أفقه، ويُحلُّ العلياءَ والمجرَّةَ في طُرقه، ويُهْدي منه ما يعتدِلُ به التاجُ فوق مَفْرَقه، ويعتدُّ له النجمُ وهو لا يَثْنيه إلاَّ وسادةً تحت مِرْفَقِهِ، ويسمو إلى مقام جَلاَله ولا يَسْأَمُ من دُعاءِ الخير، ولا يَمَلُّ إذا مالت النجومُ عن السير، ولا يزال يصفُ مُلْكه المحمَّديَّ بأكثر مما وُصِفَ به الملك السليمانيَّ وقد

---

(١) في الصبح: «ولم يُكتب.. لقبٌ».

(٢) في الصبح «يقضي».

(٣) في ط ق «شأن بحراً». والتصحيح من الصبح.

(٤) ثبير: جبل بمكة. (معجم البلدان: ٢/٧٢؛ واللسان: ثبر).

(٥) الزيادة من الصبح.

(٦) قال القلقشندي في صبح الأعشى: ٧/٣٧٥ «واعلم أن في هذه المكاتبة شيئين قد خالف فيهما العمري قاعدة المكاتبات عن الأبواب السلطانية: أحدهما إتيانه في ألقابه بالمولويّ، والثاني قوله في الصدر المتقدّم الذكر «المملوك يخدم». فقد ذكر العمري في كتابه «عرف التعريف» أن السلطان لا يكتب عنه في العلامة «المملوك»؛ وإنما خالف القاعدة هنا تعظيماً لمقام المكتوب إليه وإعلاءً لرتبته، حيث قال في أول كلامه: إنه أعظم ملوك الأرض على ما تقدّم ذكره، فعبر عن مقامه بما يليق به، وخاطبه بما يليق بخطابه، كما تقدّم أنه كان يكتب إلى أبواب الخلافة «المملوك» أو «الخادم ينتهب ثرى الأعتاب» أو «يقبل الأرض» ونحو ذلك تعظيماً لمحل الخلافة، لا سيما وقد تقدم أن صاحب الهند حينئذ كان يدّعي الخلافة. إلا أن نظام هذا الملك قد اختلّ ونقص عما كان بموت السلطان محمد بن طغلقشاه، واستقر مكانه ابن خالته فيروز شاه».

قال: [وأوتينا][1] من كـلِّ شيء وعُلِّمنا منـطقَ الطيـر[2].

فـأما غيـر هؤلاء الســلاطين الكبراء والملوك العـظمـاء ممن يكـاتب من ملوك الإسلام على نأي الديار وبعد المزار ممن لم يبلغ أدنى سعي هؤلاء الملوك فهو:

صاحب البُلْغار والسَّرْب[3]

وبلادُه في متاخَمة مملكة صاحب السَّرَايْ؛ وربما أنَّه يُظهر لصـاحب السَّرَايْ الانقيادَ والطَّاعة؛ وكانت رُسُله قد وصلت [إلى الأبواب السلطانية] تطلب له الألويـة والأعلام، فُجهِّزت إليه مع ما جرت العادةُ بمثله من التَّشْريف[4] والسيفين والشعار[5] والخيل المُسْرَجة المُلْجمة.

وَرَسْم المكاتبة إليه على ما كُتب: «أعزَّ اللَّه نَصْرَ الجنـاب الكريم، العـالي، المَلَكيّ، الأجَلِّيّ، الكبيـريّ، العـالِميّ، العـادليّ، المجـاهـديّ، المـؤيَّـديّ، المـرابـطيّ، المثـاغـريّ، الأوحـديّ، سيفِ الإسلام والمسلمين، ناصـر الغـزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدَّم العسـاكر، جمال الملوك والسلاطين، ذُخْـر أمير المؤمنين»[6].

---

(١) في ط ق «وآتينا».

(٢) تصرّف من الكاتب بالآية (١٦) من سورة النمل. ونصّها: «وَوَرِثَ سليمانُ داوودَ وقالَ يا أيها الناسُ عُلِّمْنا منطِقَ الطيرِ وأُوتينا من كل شيء إنَّ هذا لَهُوَ الفضلُ المبين».

(٣) أي بلغاريا والصرب أو صربيا.

(٤) وجمعها تشاريف؛ وهي ملابس خاصة ينعم بها السلطان على الأمراء والنواب وذوي الوظائف العـالية. وكانت هذه التشاريف على طبقات، أعلاها ما هو مختص بالأمراء المقـدمين من النواب. وقـد وصف القلقشندي هذه التشاريف وأنواعها ومناسباتها في صبح الأعشى: ٤/٥٢ ـ ٥٤.

(٥) أي شعار السلطنة. والمقصود بشعار السلطنة أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التي كان السـلطان يظهر بها في المواكب الحافلة مثل موكب السلطنة، وموكب الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل، وموكب صلاة العيدين ونحوها. (انظر الصبح: (٤/٧ ـ ٨). ولعل المقصود بالشعار هنا تلك الملابس الخاصة بالسلطان والتي كان يعدّها في المناسبات ليخلعها على أكابر الأمراء على أنها من ملبوسه الخاص. (انظر الصبح: ٤/٥٢ ـ ٥٤).

(٦) اقتصر العمري هنـا على رسم المكاتبة إلى صاحب البلغـار والصرب عنـدما يكـون مسلماً؛ وقـد نقل

فهؤلاءِ جُملةُ من يُكاتَب من ملوك الإسلام شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً.

فأما رسمُ المكاتبة إلى ملوك الكفَّار، ممن بَعُد أو قرب بالجوار، فأبعدهم صيتاً وأجَلُّهم قدراً، وأنْبَههم ذِكراً، وأكثرهم سمعةً في حديث وقديم:

ملك الروم صاحب القُسْطَنطينيَة

وقد كان قبل غَلَبة الفَرَنْج ملكاً جليلاً، ترجع إليه من عُبّاد الصَّليب سائرُ الملوك، ويفتقر إليه منهم الغنيُّ والصُّعلوك؛ وكتبُ التواريخ مشحونةٌ بأخباره، وذكر وقائعه وآثاره؛ وأوَّلُ من ألْبَس هامَهُ[1] الذِّلة، وأصَارَ جَمْعَه إلى القِلَّة، هارونُ الرشيد حين أغْزَاه أبوه المهديُّ إيَّاه، فأزال الشَّمَمَ من أنفه، وثنىَ جامِحَ عِطْفِه. فأما غَزَواتُ مَسْلَمةَ بن عبد الملك ويزيدَ بن معاوية فإنها لم تبلُغْ فيه حد النِّكايه، ولا أعْظَمت له الشَّكَايه. وهذا الملك الآن كان السلطانُ «أزْبَك» قد كاد يبتزُّ تاجَه، ويُعقِمُ نِتَاجه، ويُخِلُّ من جانب البحر المُغْلق رِتَاجه، فاحتاجَ إلى مُدَارَاتِه وبَذَلَ له نفائسَ المال، وصَحِب أيامه على مَضَض الاحتمال؛ وكانت له عليه قَطِيعةٌ مقرَّره، وجُملةُ مال مقدَّره. فأما الآن بعده فقد عَمِيت علينا منهم الأخبار، وتولَّى بالدنيا الإدبار:

ورَسْمُ المكاتبة إليه: «ضاعَفَ اللَّه بَهْجة الحضرة العالية المكرَّمة، حضرة الملك الجليل، الخطير، الهُمام، الأسد، الغَضَنْفَر، الباسل، الضِّرغام، المُعْرِق، الأصيل، الممجَّد، الأثير، الأثيل، البلالاوس، الرِّيْدرَاغون[2]، ضابط الممالك

= القلقشندي عن مسالك الأبصار أنها صارت فيما بعد إلى ملوك النصرانية. وقد ذكر ابن ناظر الجيش في «تثقيف التعريف» رسم المكاتبة إلى صاحب هذه البلاد النصراني، نقلاً عن ابن الشائي ما نصه: «أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك الجليل، المكرَّم، المبجّل، الهُمام، الضِّرغام، الباسل، الدوقس، الأنجالُوس، الكمنينوس، فلان، عماد النصرانية، مالك الصُّرب والبلغار، فخر الأمة العيسويّة، ذخر الملَّة المسيحية، فارس البحور، حامي الحصون والثغور». ثم الدعاء... ثم: أصدرنا هذه المكاتبة. (انظر صبح الأعشى: ٨/ ٤٩ ـ ٥٠).

(١) في الصبح: «هامته».

(٢) أي ملك اراغون أو ارجون. وهو تعريب للفظ Roi d'Aragon. وفي بعض المصادر: ريدأرغون. =

الروميَّة، جامع البلاد الساحلية، وارث القياصرة القدماء، مُحْيِي طُرُق الفلاسفة والحكماءِ، العالم بأمور دينه، العادل في ممالكه، معزّ النصرانية، مؤيِّد المسيحية، أوحد ملوك العِيسَوية، مخوِّل التُخوت والتيجان، حامي البحار والخُلْجان، آخر ملوك اليونان، ملك ملوك السُّرْيان، عِماد بني المعمودية، رضيّ الباب بَابَا رومية، ثِقَة الأصدقاءِ، صديق المسلمين، أُسْوَة الملوك والسلاطين». ثم يُكتب آسمه هنا ويُدعىٰ[1] له.

دعاء وصَدْر [يليقان به]: «وجعل له مع الإسلام[2] يداً لا تُزَعْزِعه من أوطانه، ولا تنزعه من سلطانه، ولا تُوجِب له إلا آستقراراً لتيجانه، وآستمراراً بملْكه على ما دارتْ على [حُصُونه][3] مناطقُ خلجانه، ولا برحتْ ثمارُ الوُدّ تدنو من أفنانه، ومَوَاثيقُ العهد [تبوِّيء][4] له ما يُسَرُّ به من إشادة معالم سَلَفه وشدِّ بناءِ يونانه.

أصدرناها وشكره كجاره البحر لا يوقَفُ له على آخر، ولا يُوصَف مثل عِقْده الفاخر، ولا يُكاثَر إلا قيل: أين هذا القليل من هذا الزاخر؟».

دعاء آخر: ونَظَم سِلْكَه، وحمى مُلْكه[5]، وكفى مُحِبِّيه[6] هُلْكَه، وأجرىٰ بودّه ركائبَه وفُلْكَه[7]، وَوَقاه كَذِبَ الكاذب وكفَّ إفْكَه، وأشهَدَ على ودّه الليلَ والنهار، (وما عند كافُوره هذا كفّ ولا مسكه هذا مِسْكَه)[8].

= واللفظ الذي استعمله العمري أقرب إلى الأصل. أما لفظ «البلالاوس» فمعناه: الكلمة القديمة، وأصله يوناني: «بالي لوغس».

(انظر صبح الأعشى: ٦/٨٠).

(١) في ط ق «ويدعوا».

(٢) في صبح الأعشى عن التعريف: «مع السلامة».

(٣) في ط ق «خصوره». والتصحيح من الصبح عن التعريف.

(٤) في ط ق «تنوي». والتصحيح من الصبح.

(٥) في الصبح عن التعريف: «وحمى بحُسْن تأتِّيه ملكه».

(٦) في الصبح «محبّه».

(٧) في ط ق «وأجرى إلينا بولاية ركائبه وفلكه». وما أثبتناه من الصبح.

(٨) العبارة بين هلالين وردت هكذا في ط ق. وفي صبح الأعشى: «وما جنَّ كافورُ هذا كافوره ولا مسك هذا مِسْكَه».

ملك الكُرْج

وبلاد الكُرْج أُمُّها مدينة تَفْليس، وموقع هذه البلاد بين بلاد الروم المذكورة أولاً وبين بلاد أرمينية؛ وهي بلادٌ جنيلة ومملكة مفخَّمة، وكأنَّها مقتَطعة من البِلادَيْن، ولها مِلِكٌ قائم، وبها مُلْكٌ دائم، وسلطانُ بيت هولاكو بمملكة إيران يحكم عليها، ويَرَالِغه(١) تصل إليها، إلا أنه لا يَطْغىَ بها سيْلُه، ولا تجوسُ خِلالَ ديارها للحرب المُضْرَمة خيلُه، وإنما له بها تُومان(٢) آتخذه سِداداً لثغرها، وقياماً بأمرها؛ منزلُهم فسيحُ بَوَادِيها؛ أهلُ حَلٍّ وتَرْحال، وتَنَقّلٍ من حال إلى حال. وآخرُ من كان له منهم في هذه البلاد سُمْعَه، وأُقيلت به للمهابة صَرْعَه، الشيخُ محمودُ بنُ جوبان، وكان باسلاً لا يُطاق، ورجلاً مُرَّ المَذاق؛ ولما جرت الكائنة لأبيه، لاَذَ بالسلطان «أزبك قان»؛ ثم لم تطل له مُدَّه، ولا انفرجَتْ له حِلَقُ شِدّه، وأتاه أَجَلُه وما آستطاع رَدَّه.

وأما عَسْكر الكُرْج فهم صَليبةُ دين الصّليب، وأهل البأس والنجدة منهم. (ويُقال في المسلمين الكُرْد وفي النصارىٰ الكُرْج) وهم للعساكر الهُولاكُوهِيّة عَتاد وذُخْر، ولهم بهم وثوق وعليهم آعتماد، ولا سيما لأولاد جوبَانَ وبنيه، وبقايا مخَلّفيه، لسالِف إحسان جُوبانَ إليهم، ويد مشكورةٍ كانت له عندهم، وكان صديق ملكهم «برْطِلْما» يَغْرِس عنده الصنائع، ويَسْترعيه الودائع، فكان أَخَصَّ خصصٍ به(٣)، وأصدقَ صديق له، يدعوه للمهمّ، ويستصرخ به في المُلِمّ، ويعدُّه رِدْءًا لعسكره، [ومزيلاً لمُنْكَرِه](٤)، وبرطِلْما عهدي به حيٌّ يرزق من أَجَلّ ملوك النصرانية، وأعرق أنساب

ـــ هذا والذي نقله القلقشندي عن ابن ناظر الجيش في التثقيف أن الذي استقرّ عليه الحال في المكاتبة إليه صيغة مختلفة (انظر الصبح: ٨/٤٥)، ثم قال: ورأيت في بعض الدساتير أنه يختمها بقوله: «فيحيط بذلك علماً، والله تعالى يديم بهجته». قال: ولم يتعرّض صاحب التثقيف لإيراد المكاتبة التي ذكرها صاحب «التعريف»، بل أحال في معرفتها لمن أرادها على النظر فيه.

(١) أي مراسيمه وقراراته. راجع ص ٦٨ حاشية (٤).

(٢) أي فرقة من الجند يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل.

(٣) في ط ق «له». والتصويب من الصبح.

(٤) في ط ق «ومذيلاً المنكرة». والتصحيح من الصبح.

بني المعموديّة، وقد كان كاتَبَ الأبوابَ الشريفة السلطانيّة بسبب كنيسة المُصَلّبة، وأن تُرفع عنها الأيدي المتغلِّبة، فبرزت الأوامر المُطاعة بإعادتها عليهم وقد كانت أُخذت منهم؛ وهي بظاهر القدس الشريف وأُتُّخِذَتْ مسجدا، وعزَّ هذا على طوائف العلماءِ والصلحاءِ وإن لم يُعمل سُدَىً. [قيل: إنه كان يحسِّنُ لِجُوبانَ قصْدَ البلاد، ويبذُل له عليه الطَّارِفَ والتِّلاد][(١)].

وَرَسْم المكاتبة إليه: «أدام اللّه بَهْجةَ الحضرة العليّة، حضـرة الملك الجليل الهُمام، الباسل، الضِّرْغام، السَّمَيْدَع، الكَرّار، الغَضَنْفر، المتخَّت، المتوَّج، العالم في مِلَّته، العادل في رعيَّته، بقيَّة الملوك الأغريقيّة، سُلطان الكُرْج، ذُخْر مُلْك البحار والخُلْج، حامي حِمىَ الفرسان، وارِث آبائه في الأسِرَّة والتيجـان، سياج بـلاد الروم وإيران، [سليل اليونان، خُلاصة ملوك السِّرْيان، بقيّة أبناء الملوك والتِّيجـان][(٢)] مُعِزّ النصرانية، مؤيِّد العيسويّة، مُشِيح[(٣)] الأبطال المسيحيّة، معظم بيت المقْدِس[(٤)] بعَقْد النيَّـة، عِماد بني المعمـوديّة، ظهيـر الباب بـابا رومِيـة، مُـوَادِّ المسلمين، خـالصـة الأصـدقاءِ المقـرَّبين، صديق الملوك والسـلاطين. وقد يقـال: «مُصَافي المسلمين، مُوَافي الملوك والسـلاطين».

دعاء يليق به: «وحَمَىَ مُلكَه بوُدّه لا بجنده، وبوفائه بعهده لا بجيشه ومَدِّ بَنْدِه، وبما عندنا من سجايا الإحسان لا بما يَظُنُّ أنه من عِنْده، وبما في رأينا المُورِي لا بما يقدحُ النارَ من زَنْدِه». [(٥)]

---

(١) في ط ق جملة «ويبذل له...» متقدّمة على جملة «قيل إنه...». والتصحيح من صبح الأعشى.

(٢) بين معقوفين ساقطة من ط ق. والزيادة من الصبح عن التعريف.

(٣) كذا في ط ق. وفي الصبح «مسيح» بالسين المهملة.

(٤) في الصبح «البيت المقدّس».

(٥) ذكر ابن ناظر الجيش في «تثقيف التعريف» أن للكرج في أيامه ملكين: أحدهما صاحب تفليس المقدّم ذكره، وذكر أنه كان اسمه إذ ذاك داود، والثاني الحاكم «بسخوم» و«أبخاس» وهما مدينتان على جانب بحر القرم من الجانب الجنوبي، وسمّى صاحبها إذ ذاك «دياذان». قال: ورسم المكاتبة إلى كل منهما

مُتَملِّك سِيْسَ[1]

وهو ملكٌ عريق [من] أبنـاءِ الملوك، يزعم أن أصْلَه من البيت القُسْـطَنطيني؛ ومن مَلكَ منهم سُمِّي «التَّكْفُور»[2]، سِمَةٌ جَرَتْ عليهم منذ كانوا وإلى الآن. وعندي نَظَرٌ في دعواهم أنهم من البيت القُسْطَنطيني، إذ كـان أهل ذلـك البيت [هم] صَليبةُ الروم، ومُعْتقدهم معتقَد الملكانية، والبيتُ التَّكْفُوريّ أرمنٌ ومُعتقدهم معتقَد اليَعَاقِبة أو ما يُقارِبُـه، وبين المعتَقَدَين بُعْدٌ عظيم وبَوْنٌ ناءٍ. والذي نعرف من حال هذا البيت أن جَدَّهم الأكبر كان رئيسَ النَّصَارىٰ بهـذه البلاد في سـالف الدُّوَل، وزمـان الملوك الأُول؛ والنَّصَارىٰ هم أهلُ المَدَرة[3] وصنائعهم فيها شتّىٰ بين نجار وفعول وأكَرَة[4]، وكانت طاعتهم آخراً لبقيّة الملوك السلاجقه بالروم[5]، وعليهم جزيةٌ مقرَّرة، وطاعـة

= في قطع النصف... ثم رسم المكاتبة إليهما بصيغة أقلّ علوّاً وفخـامة، ثم أشـار إلى أن الصيغة التي أوردها العمريّ هنا قد تغيّرت. وتعليقاً على هذا التغيير قال القلقشندي: لأنه (أي ملك الكرج) في زمن المَقرّ الشهابي ابن فضل الله كان مرعيَّ الجانب بممالأة التتر وانضمامه إلى جوبان، فكانت المكاتبة إليه إذ ذاك أعلى وأفخم؛ فلما زالت دولة التتر من إيران وخمدت قسوتهم انحطّت رتبة المكـاتبة إلى ملك الكرج.

(انظر صبح الأعشى: ٨/٢٨ ـ ٣٠).

(١) أي مملكة الأرمن. ومدينة «سيس» قاعدتها. وكانت تسمى أيضاً «بـلاد الثغور والعـواصم» وهي أرمينية الصغرى. وسيس مدينة في تركيا في إيالـة أطنة؛ وهي بلدة كبيرة ذات قلعة بـأسوار ثلاثة على جبـل مستطيل. وذكرها ياقوت باسم «سيسية».

(معجم البلدان: ٣/٢٩٧. ودائرة المعارف الإسلامية: أرمينيا).

(٢) التكفور: لفظ أرمني معناه «المتوّج»؛ وقد أطلقه الأرمن على ملوكهم، كما أنه يطلق أحيـاناً على ملوك الدولة البيزنطية.

(التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٧٨).

(٣) المـدرة: القـريـة المبنيـة بالطين واللبن. وأهل المدر هم سكانُ البيوت المبنية، خلاف البـدو سكان الخيام.

(٤) الأكَرَة (بفتحتين) والأكارون: جمع أكّار وهو الحرّاث أو الزرّاع.

(٥) أي ببلاد الروم، كما في الصبح.

معروفة؛ والعمّال والشّحاني(١) على البلاد(٢) من جهة الملك السلجوقي حتى ضعفت تلك الدولة، وسَكَنت شقاشِقُ تلك الصَّوْلة، وآنتدبَ بعضُهم لقتال بعض، وصارت الكلمةُ شُورىٰ، والرعيَّة فَوْضىٰ، وشوامخُ المعاقل مجالاً [للتخريب](٣)، والبلادُ المصونةُ(٤) قاصِيةً من الغَنَم للذِّيب، فطمع هذا اللعين وآسْتَنْسَر بُغَاثُه(٥)، وآشتدَّ إنكاثُه، ورأى سَوَاماً لا ذائد عنه فَسَاقَه، ومَتَاعاً لا حامية له فملأ منه أَوْسَاقَه(٦)، وآستولىٰ على هذه البلاد وتملَّكها، وتحيَّف مَوَاريثَ بني سَلْجوق وآستهلكها.

وهذه البلاد منها ما يسمّى العواصم، ومنها البلاد التي كانت تسمّى قديماً الثغور(٧)؛ وكانت تسمّى بهذا لمثاغرتها الروم. وحدُّها من القبلة وآنحراف للجنوب بلادُ بَغْرَاص وما يليها، ومن الشرق جبالُ الدَّرْبَنْدات، ومن الشمال بلاد آبن قَرْمَان،

---

(١) جمع شحنة. والشحنة ـ بكسر الشين ـ من فيه الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان، أي بمثابة رئيس الشرطة. ومتولي هذه الوظيفة يسمى صاحب الشُّحنة، والنسبة إليه شحنكيّ. (صبح الأعشى: ٣٦٢/٥ وتاج العروس: مادة شحن). أما الجواليقي فيقول إن الشحنة اسم للرابطة من الخيل في البلد لضبط أهله من أولياء السلطان، وليس باسم للأمير أو القائد، كما تذهب إليه العامة. والنسبة إليه: شحنيّ وشحنيّة، ولا تقل: شحنكيّة ولا شحنهيّة. وهذه الكلمة عربية صحيحة واشتقاقُها من: شحنت البلد بالخيل إذا ملأته بها. والفلك المشحون: أي المملوء. (رسوم دار الخلافة لهلال الصابيء: ص ٩، حاشية: ١).

(٢) في صبح الأعشى: «على بلادهم».

(٣) في ط ق «للتقريب». وهو خطأ. والتصحيح من صبح الأعشى.

(٤) في ط ق «المصنونة».

(٥) في صبح الأعشى «وطمع رئيس النصارى بهذه البلاد حينئذٍ فيها وآستنسر بُغاثُه». وبُغاثُ الطير: هو الصغير الهزيل.

(٦) الأوساق: جمع وَسْق؛ وهي مكيلة معلومة تساوي ستين صاعاً، والصاع خمسة أرطال وثلث. والوسق أيضاً: حمل البعير أو العربة والسفينة.

(٧) قال القلقشندي في الصبح: ١٣١/٦: «الثغور والعواصم اسم على مسمّى واحد. وهي اسم للناحية وليست موضعاً بعينه. وأول من أطلق اسم العواصم على تلك النواحي هارون الرشيد. والذي يظهر أنها سميت بذلك لعصمتها ما دونها من بلاد الإسلام من العدو، إذ كانت متاخمة لبلاد الكفر، واقعة في نحر العدو؛ والثغور اسم لكل موضع يكون في وجه العدوّ».

ومن الغرب سواحل الروم المفضيةُ إلى [العلايا][1] وأنطاليا. وكان يفصل بينها وبين بلاد الإسلام نهر [جاهان][2] وقد أخذ في أخريات الأيام الناصرية عدة بلاد مما وراءه أمّها آياس[3]؛ وقد كان أُخذ بعضُ ذلك أيام المنصور لاجين[4]، وآستُنيب به أستدُمْر الكُرْجيّ[5]، ثم أعيد إلى الأرمن بمواطأة أستدُمْر إذ قتل لاجين وضَعُفت الدولة؛ وعلى الأرمن قطيعة مقدّرة[6] كانت بلغت ألف ألف ومائتي ألف درهم مع أصناف، ثم حُطَّ لهم منها، وهم الآن بين طاعة وعصيان. ولملوك البيت الهُولاكُوهِيِّ عليهم حُكْمٌ قاهر، وفيهم أمرٌ نافذ، قبلَ ضَعْف شوكتهم، ولين قَسْوتهم، وخُلُوِّ غابهم من قَسْوَرَتهم[7]. وهم أخبث عدوّ للإسلام، وأثرهم بالصَّالحيّة[8] باق، ولو مُكِّنُوا من دمشق لمحَوْا آثارها، وأنْسَوْا أخبارَها. وقد صاهر ملكُها الآن صاحبَ قبرس لأمرٍ لا بلَغَاه وقَصْد لاسُوِّغاه[9]؛ على أن متملِّك سِيس كان سلطاننا وصيَّه من أبيه، وصيّةً

---

(1) في ط ق «العلائية». والتصحيح من الصبح. وأنطاليا مدينة على البحر في تركيا.

(2) في ط ق «نهر جان». ونهر جاهان هو نهر جَيْحان، وهو الاسم العربي الذي يطلق على بيراموس Pyramus وهو النهر الشرقي من النهرين اللذين يخترقان سهول كيليكية. وقد خلع اسمه في عهد المماليك أيام الناصر محمد بن قلاوون على البلاد التي انتزعت من أيدي الأرمن وسميت «الفتوحات الجاهانية».
(انظر دائرة المعارف الإسلامية: ١٣/ ٩٩).

(3) هذه هي عبارة ط ق. وعبارة صبح الأعشى أوضح وهي: «وقد أُخذ في أخريات الأيام الناصرية (محمد بن قلاوون) بلاد ما وراء نهر جاهان وأمُّها آياس».

(4) هو حسام الدين لاجين المنصوري، أحد مماليك المنصور قلاوون. استولى على السلطنة سنة ٦٩٦ هـ بعد أن انتزعها من العادل كتبغا الذي كان بدوره قد عزل المنصور قلاوون لصغر سنه. وبعد مقتل لاجين عاد المنصور قلاوون إلى الحكم للمرة الثانية في جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ.
(انظر النجوم الزاهرة: ٨/ ٨٥ وما بعدها ـ والخطط التوفيقية: ١/ ٨٩ ـ ٩٠).

(5) في النجوم الزاهرة هو الأمير سيف الدين كُرْجي. وقد قتل بعد ثلاثة أيام من مقتل المنصور لاجين. وقد قتل معه تمام اثني عشر نفراً من الأمراء والخاصكية ممن تألّبوا على قتل لاجين. (النجوم الزاهرة: ١٨٣/٨).

(6) في الصبح «مقرّرة».

(7) القَسْوَرة: الأسد.

(8) من أحياء دمشق.

(9) في الصبح: «صاهر صاحب قبرس ليتقوى به».

أشهد عليها أهلَ مملكته، وجعلها وسيلةً [١] لبقاءِ دولته، وكتبت له تقليداً عوض أبيه من إنشـائي، وجُهِّز لـه من حلَّفه فحلف، وألبســه التَّشريف فلبس وقبَّـل الأرض [به وخدم] [٢] .

ورسم المكاتبة إليه: صدرتْ هذه المكاتبة إلى حضرة الملك، الجليل، البطل الباسل، الهُمام، السمَيْدع، الضِّرْغام، الغضنفـر، ليغون بن أوشين[٣]، فخـر الملَّة المسيحية، ذخر الأمه النصرانية، عِماد بني المعمودية، صديق الملوك والسلاطين.

دعاء: وفَّقه اللَّه لطاعة يَكْنُفُه ذِمامُها، ويَقِيه مَصَارِعَ السّوء آلتزامُها، وتجري له بالسلامة في النفس والمال أحكامُها.

دعاء آخر: ولا عـدِمَ من بيننا الكَـرَم الذي أجـاره، والأمنَ الذي أمَّنَ جـاره، والأمان الذي وسَّع عليه وِجَارَه[٤]، والعفوَ الذي وَقَاه في الدنيا قبل الآخرة ناراً وَقُودُها الناسُ والحجاره.

دعاء آخر: أبقاه اللَّه لولاءٍ يُبديه، وفَرْض من الخِدْمة يؤدِّيه، ودَيْن في ذِمَّته من القطيعة[٥] يقوم به مع طَرَائف ما يُهْديه.

دعـاء آخر: أراه اللَّه مـا يَسْتـدفِـعُ بـه من مـواضي السيـوف البـلاءَ إذا نـزَل، والسَّمْهريَّ[٦] الذي لا يُرْويه البحر إذا نَهَل، والسَّيْل الذي لا يقف في طريقه شيءُ ولا يمشي على مَهَـل.

دعاء آخر: صانَ اللَّه بمصانَعَتِه من أهل مِلَّتـه كل قبيـل[٧] وأمَّن بِمُداراتِـه مـن

(١) في ط ق «سبلة».

(٢) في ط ق: «ولبسه التشريف فلبس وقبل الأرض بدون خدم». وما أثبتناه من الصبح.

(٣) في الصبح عن التعريف: «ليفور بن أوشيره». ونقل عن التثقيف أن اسمه كان «كستندين بن هتيوم».

(٤) الوجار: جحر الضبع والأسد والذئب والثعلب ونحو ذلك.

(٥) كذا في ط ق. وفي الصبح «الوظيفة».

(٦) السمهريّ: الرمح الصلب. منسوب إلى سَـمْهر زوج ردينة اللذين كانا مشهورين بتثقيف الرماح. ويقال أيضاً: الردينيّ.

(٧) في ط ق: «قتيل». والتصحيح من الصبح.

خوف جيوشنا المنصورة كلَّ سبيل، وصدَّ عنه بصِدْق صداقته بَعْثَ جنودنا الذي لا يُردُّ وأوَّلهُ بالفرات وآخره بالنيل.

دعاء آخر: لا زال يتوقَّى بطاعته بوادِرَ الأسنَّه، وعواديَ الخيل موشَّحةً بالأعِنَّه، وغَيْثَ الجيش حيث لا يبقىَ إلاَّ أحدُ الأقسام الثلاثة: القتْلُ أو الأسْرُ أو المِنَّه.

دعاء آخر: جنَّب اللّه رأيَه سُوءَ التعكيس، وشرَّ ما يزيِّن لمثله إبليس، وأخْذَ جنائِب قلاعه وأوَّلُ تلك الجنائب سِيس[1].

ملك سَنُوب

ويقال بالسين والصاد؛ وهي بلد على ضفة الخليج القسطنطيني، وملكها روميّ من بيت المُلْك القديم، يقرب إلى صاحب القسطنطينية، ويقال إن أباه أعرقُ من آبائه في السلطان؛ وليس ملكُه بكبير، ولا عددُه بكثير. وبينه وبين أمراءِ الأتراك حروب، يكون في أكثرها المغلوب.

ورسم المكاتبة إليه مثل متملك سِيس[2].

[**وهذا دعاء يليق به**][3]: وكفاه شرَّ ما يَنُوب، وروَّحَ خاطره في الشمال بريًا ما يهبُّ من الجنوب، ووقاه سُوءَ فعل يُورِث الندمَ وأوَّلُ ما يقرع السنَّ سَنُوب، وأحسَنَ له في الولاءِ المآل، وحقَّق له في دفع البلاءِ الآمال، وجعله بالطاعة من حزب أهل اليمين إذا قضت الأقدارُ أن يكون من أهل الشمال.

---

(١) ونقل القلقشندي عن التثقيف صيغة أخرى (انظر الصبح: ٨/٣٢). ثم قال: وقد بطلت هذه المكاتبة بفتح سيس حين فتحها قُشْتُمر المنصوري نائب حلب في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين سنة ٧٧٦ هـ. ثم استقرّت سيس نيابة في رتبة نيابة طرابلس وما في معناها. قال: وإنما يقال له «متملك سيس» لا «ملك سيس» لأنها كانت أولاً بيد المسلمين ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم ذكره فملكها.

(٢) راجع رسم المكاتبة إلى متملك سيس قبل هذا مباشرة.

(٣) في ط ق «أدعية تليق به».

ملك رُودِس

وهي جزيرة تقابل شطوط البلاد الرومية، وأهلها في البحر حَرَاميَّة: إذا ظفروا بالمسلم أخذوا ماله وأحيوه فباعوه أو أستخدموه، وإذا ظفروا بالفرنجيّ أخذوا ماله وقتلوه[1].

ورسم المكاتبة إليه مثل متملِّك سيس، إلا أنه لا يقال فيها «معزّ بابا رومية» وتختصر بعض ألقابه لأنه دونه[2].

دعاء يليق به: قدَّم اللّه له الأعذار، وكفاه توابع[3] الإنذار، وحذَّره عاقبة البغْي قبل أن لا ينفع الحِذار.

دعاء آخر: فَكَّ اللَّهُ من وثاقه كلَّ مأسور، وأقال كلَّ غرابٍ له من الرجوع وجناحُه مكسور، وعَصَمه بالتوبة مما آقترفَ لا بالبحر ولو أنه سبعة بحور، وسورِ مدينته ولو أنه مائةُ سور.

صاحب جزيرة المَصْطَكا[4]

وهي جزيرة حقيرة صغيرة لا تبعد مَدًى من الإسكندرية، وصاحبها صغيرٌ لا في

(١) في ط ق «أخذوه وقتلوه». والتصحيح من الصبح.

(٢) أضاف القلقشندي: «وحينئذ فيتجه أن تكون المكاتبة إليه: صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة الملك الجليل، البطل، الباسل، السَّميدع، فلان، فخر الملّة المسيحية، ذخر الأمة النصرانية، صديق الملوك والسلاطين؛ أو نحو ذلك. على أن العمري لم يذكر في المكاتبة إلى متملك سيس «معزّ بابا رومية» فلم يكن ليحتاج أن يقول: إلا أنه لا يقال فيه معزّ باب رومية».

(٣) في الصبح «قوامع».

(٤) من جزر البحر الرومي أي البحر المتوسط. ضبطها القلقشندي في الصبح بفتح الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملة والكاف وألف في الآخر. قال: وسميت بذلك لأنه ينبت بها شجر المصطكى، وهو شجر يشبه شجر الفستق يشرط في فصل الربيع بمشاريط فتسيل منه المصطكى وهي صمغ. وفي المعجم الوسيط: المُصطكى ـ بضم الميم ـ شجر من فصيلة البطميات ينبت برّياً في سواحل الشام ويستخرج منه علك معروف.
(انظر صبح الأعشى: ٥/٣٧٢ والمعجم الوسيط).

مال ولا رجال، وجزيرته ذات قَحْط لا يَطُرُّ شاربُها بزرع، ولا يدرُّ حالبُها بضَرْع، إلا أنها تُنبت هذه الشجرة[1] فتُحمل منها وتُجلب، وتُرسى السفن عليها بسببها وتُطلب؛ وفي مُلكها خدمةٌ لرُسلنا إذا ركبوا ثبج[2] البحر، وتجهيزٌ لهم إلى حيث أرادوا، وتَنْجيزٌ لهم إذا توجَّهوا وإذا عادوا.

ورَسْمُ المكاتبة إليه: كالذي قبله.

أدعية تليق به: «وفَّقه اللَّه لطاعته، وأنْهَضه من الولاءِ بقَدْر طاقته».

دعاء آخر: «وفَّقه اللَّه لطاعته، وقَبِل منه قَدْر آستطاعته».

دعاء آخر: «أطابَ اللَّه قلبه، وأدام إلينا قُرْبَه».

دعاء آخر: «لا زال إلى الطاعة يبادِر، وعلى الخدمة أنهضَ قادر، ومكانُه تُـزَمُّ إليه ركائبُ السفن بكل واردٍ وصادر».

الأذفونش[3] ملك الأندلس

وبيده جمهورُ الأندلس، وبسيوفه فَنِيَتُ جَحَاجِحُها[4] الشُّمُس، وهو وارثُ مُلك

---

(١) أي شجرة المصطكى.

(٢) الثبج: وسط الشيء تجمّع وبرز.

(٣) في بعض المصادر «أدفونش» بالدال المهملة، وفي أخرى «الفُنْش»، وفي جميع الحالات هو تعريب لاسم «الفونسو».

والمراد هنا ألفونس السادس ابن فرديناند الأول. ولد سنة ١٠٣٠ م وتولى الملك سنة ١٠٦٥ م واحتل طليطلة واتخذها عاصمة له سنة ١٠٨٥ م وانهزم في وقعة «الزلاّقة» سنة ١٠٨٦ م/٤٧٩ هـ أمام يوسف بن تاشفين، ثم في وقعة «أقليش» ucles سنة ١١٠٨ م /٥٠٢ هـ أمام المرابطين أيضاً وفقد ابنه الوحيد «شانجُه» Sancho. ومات الفونسو سنة ١١٠٩ م. والعرب تسمِّيه «الأذفونش فره كنـد» ملك الإفرنج بالأندلس.

(انظر الأعلام: ٦/١٨١ ـ حاشية؛ والحلة السيراء: ٢/٢٤٩ ـ حاشية؛ وأعمال الأعلام لابن الخطيب: ص ٣٢٢ وما بعدها).

(٤) في ط ق «جحاجحتها». والجحاح: جمع جحجح وهو السيّد الكريم. والشُّمُس: جمع شَمُوس وهو النفور العسر الصحبة.

«لُذْريق»[1] الملك. وكانت بأيديهم قطعةٌ منها ـ أعني النَّصارىٰ ـ أيام بني أميّـة حتى زالت أيامهم، ونكِّسَتْ أعلامُهم، وَخَمَدتْ سَوْرَتهم، وأُخِـذَ قَسْوَرتهم، وتقسَّم مُلْك الخلافة بأيدي ملوك الطوائف كبني عَبَّاد وبني الأفْطَس وبني صُمَادِح وبني جَهْورَ وبني سعيد[2] وغيرهم من كل قريب وبعيد، وأصبحت البلاد نهباً صِيحَ في حُجُراته، وقلباً قُطِّع بحَسَراته، وفرِّق ذلك الشملُ الملْتمّ، وأُخْمِد ذلك الجمرُ المضطرِم؛ ثم عاثت ذئاب النصارى في سَرْح الإسـلام، ودبَّتْ عقـاربهم في ظلل الـظلام، وأَمَـدَّ أميـرُ المسلمين يوسفُ بن تاشفين ـ رحمه اللَّه ـ بعساكره الجزيرة، وقرب نَوَاه الشَّطُونَ[3]

(١) قال القلقشندي في الصبح: «ولذريق هذا هو الـذي انتزعها المسلمون من يده حين الفتح في صـدر الإسلام» ويعني على يد طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ. قال ابن الأبّار في الحلة السيراء: ٢/٣٣٣: «ثم هزم الله المشركين، فقتل منهم خلق عظيم وأقامت عظامهم ملبّسة لتلك الأرض دهراً طويلاً. وخفي أثر لـذريق. إلا أن المسلمين وجدوا فرسه الأشهب الـذي كان عليـه، وسرجه من ذهب مكلّل بالياقوت والزبرجد، وقد ساخت قوائمه في حمأة وقع فيها، وغرق العلج فثبت أحد خُفّيه في الطين فأخذ»

(٢) لما اضمحل أمر الخلافة من بني أمية وبني حمود بعدهم بالأندلس، وثب الأمراء على الجهات، وتفرّق ملك الأندلس في طوائف من الموالي والوزراء والعرب والبربر، وقام كل منهم بأمر ناحية، وتغلّب بعضهم على بعض وضعف أمرهم حتى أعطوا الإتاوة لملوك الفرنجة من بني الأذفونش حتى أدركهم الله بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وقد استولى بنو عبّاد على إشبيلية وغرب الأندلس؛ واستولى بنو جهور على قرطبة؛ واستولى ابن الأفطس على بطليوس، واستولى زاري بن زيري بن ميّاد على غرناطة، وبنو ذي النون على طليطلة، واستولى على شاطبة وما معها من شرق الأندلس العامريون، ثم نازعهم على ملكهم بنو صمادح؛ وفي ظل هذا التفكك استطاع أمير المرابطين يوسف بن تاشفين أن يستولي على بلاد المغرب في الوقت الذي كان فيه ملك الجلالقة يعد العدّة للانقضاض على ممالك الطوائف بالأندلس. وقد بعث أهل الأندلس إلى أمير المسلمين ابن تاشفين يستصرخون به فلبى دعوتهم وسار إلى الأندلس ونزل الجزيرة الخضراء سنة ٤٧٩ هـ وهزم الأذفونش، ثم ما لبث أن انتزع عامة حصون الأندلس من أيدي ملوك الطوائف ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود. وخاطب ابن تاشفين المستظهر الخليفة العباسي ببغداد في زمنه فعقد له على المغرب والأندلس وكتب له بذلك عهداً وأرسله إليه. ولم يزل الأمر على ذلك حتى توفي سنة ٥٠٠ هـ.

(عن صبح الأعشى: ٥/٢٤٨ ـ ٢٦٠ بتصرف؛ انظر أيضاً: المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى: ٢٤٠ ـ ٢٤١ ـ وانظر معجم زامباور: ٨٦ ـ ٩٢)

(٣) المراد الأماكن البعيدة النائية. يقال: بئر شَطون أي عميقة، وسفر شطون أي بعيد المقصد، ورمح شطون أي طويل أعوج.

من تلك المدن المستزيرة، وطَرد عن نعاجهم الذئاب، وقهـر عـداهُم وأسرع الإياب؛ وكانت تلك الكائنة التي أخذ فيها ابن عبَّاد[١]، وآنقرض ملكُهُ وباد.

وعادت النصارى تزْأر عواديها، وتَسْأر[٢] الموت في كؤوس ساقيها، وأخذت عرائسَ[٣] تلك المدن مثل دار الخلافة قُرطبة، والزَّهراء، والزَّاهرة، وإشبيلية، وبَلَنْسية[٤]، وتلك الجبال الراسية والسفن المرسيّة؛ وكانت قد أُخذت طُليطلة، وهي القاعـدةُ الأولى، والمملكـة العظمى، والعقيلة الكبـرى، وأمُّ إقليم الأندلس، وتَخْتُ لُـذْريق الملك، وأُخِذ الثَّغْرُ الأعلى: سَرَقُسْطَة، وطُويَ بساطُ تلك البَسْطَة، وآسْتَعْلت اليدُ الكـافرة، وآستعلنت الكلمـةُ الـظافـرة، وحُبس آخـرُ من بقي من رمق المسلمين في شـرق[٥] الأندلس نواحي أغْرَناطة[٦] وآلمرِيَّة، في بقعة كمفْحَص القَطَاة ضِيقاً، ومَدْرَج النمل طَريقاً، وقد أناخَ بهم كَلْكَله، وأديم بهم توكُّله؛ إلا أن الله وَعَد دينَه أن لا يُخذَل، وأنَّ مَصُونَه لا يُبْذَل؛ وها هم الآن ـ وآبنُ الأحمر، ملكُ المسلمين بالأندلس، آونةً وآونة تارةً محاربة وتارة مهادنة؛ إلا أنَّ الله قد جرَّد لهم من السلطان أبي الحسن المرينيّ[٧] ـ أعزَّ

---

(١) هو محمد بن عبّاد، المعتمد على الله، صاحب إشبيلية وقرطبة وما حولهما: كان ملكاً شاعراً وكاتباً مترسلاً. توفي سنة ٤٨٨ هـ. وقد كان ابن عبّاد على رأس الذين استعانوا بملك المغرب ابن تاشفين لمواجهة خطر النصارى الزاحفين، مع معرفته ـ على حد قول ابن الأبّار ـ بحسد اللّمتونيين (المرابطين) له وانعكاس نصرهم إياه خذلاناً وقهراً، وتنبيه وزرائه على ما كان منهم قبل استجاشتهم والاستنصار بهم، فآثر الدين على الدنيا، وأنف للإسلام من الاصطلام. وتمّ فيه قضاء الله، فخلعوه،، بعد حصاره مدة، يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب سنة ٤٨٤ هـ، واحتملوه وأهله إلى المغرب وأسكنوه «أغْمات» وبها مات في شهر ربيع الأول من سنة ٤٨٨ هـ، على حال يوحش سماعها فضلاً عن مشاهدتها.

(انظر الحلّة السيراء: ٢/٥٢ ـ ٦٨، وابن خلكان: ٥/٢١ ـ ٣٩).

(٢) بمعنى تسقي. ولعل الصواب «تُسئر». انظر لسان العرب: سأر.

(٣) في طـ ق «عرائيس».

(٤) حول هذه المدن انظر: صفة جزيرة الأندلس ـ عن الروض المعطار: ص: ١٥٣ ـ ٩٥ ـ ٨٠ ـ ١٨ ـ ٤٧.

(٥) في طـ ق «شرف».

(٦) أي غرناطة.

(٧) هو علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، أبو الحسن، المنصور بالله: من كبار بني مرين، =

الله به حِزبَ الإيمـان ـ سيفاً تَخْسَـأُ لديـه أكلبهم، ويداوي ببـرد مائـه كَلَبَهم؛ ولولاه لاُجتاحوا البقيَّة، وآحتاجوا ـ أعني بقيَّة الإسلام ـ إلى ٱلتَّقيَّة.

وقد كان الأذفونش ممن قوي طمعُهُ في بلاد مصر والشام في أخرى ليالي الأيام الفاطمية، وواطئ «الريد فرنس»[١]، وحدَّثتهم أمانيهم بآفتراس البلاد، وأملوا مـا لم يكن اللّهُ مبلغه لهم، وأرسوا على دِمْيَـاطَ وأُخذت، وراشقتهم السِّهام فما نَفَذت؛ ثم عادت المساوَرَة، وكادت المثاورة، وتقاذف الساحل رجالاً زمانَ بني أيوب ـ رحمهم اللّه ـ ونزل على دِمياط الملكُ الصَّالح أيوب، وكشف اللّه غَمَامَ الغُمَّـة أعقاب تلك الأيام، وأُخرجت من يَدِ دِمْيَاطَ تلك الشوكةُ الخبيثة، وأُسِر «الـرِّيد فـرنس» وكان هـو جالبَ تلك الرزايا، ورامي صوائب تلك البلايا، وأُمسك بالخناق، ثم نُفِّس عنه وترك في دار الصاحب فخر الدين، إبراهيم بن لقمان، كاتب الإنشـاء بالمنصـورة، مُرْسَمـاً عليه. وكان الطَّوَاشِيّ الكبير «صَبِيح» تَرْسِيمَه[٢]، ثم مُنَّ عليه، وأُطلـقَ على حالٍ قُرِّر

= ملوك المغرب. بويع بفاس سنة ٧٣١ هـ واستنجد به بنو الأحمر، وقد احتـل الفرنجـة جبل طـارق، فأرسل الجيوش وافتتح الجبل وحصنه. ثم جهز جيشاً لقتال الفرنجة في الأندلس مرة ثانية بقيادة ابنـه، وكان يدعى «أبا مالك» فقتل في المعركة فتولى السـلطان أبو الحسن مباشرة الجهـاد بنفسه فـرحل إلى «سبته» وجمع الأساطيل فضرب بها أساطيل الفرنج ببحر الزقاق سنة ٧٤٠ هـ وعبر البحر إلى ناحية جزيرة طريف فحاصرها طويلاً. وفاجأه الإفرنج بجيوش متعددة فأصيبت عساكره بفاجعة قلما وقع مثلها، وقتلت النساء والولدان، ونجا ببقايا جموعه سنة ٧٤١ هـ فقفل إلى الجزيرة الخضراء فجبل الفتـح وركب إلى سبته. ثم رجع إلى فاس يتجهز لإعادة الكرّة، غير أن الاضطرابات المتلاحقـة في بلاده من الفتنـة بين الحفصيين إلى قيام قبائل العرب عليه بأفريقية وتبعهـم بنو زناته من بني عبد الواد ومغراوة وبني توجين في المغرب الأقصى. واستغل الأمر ابنه أبو عنان فدعا لنفسـه وتواجهـا في وادي أم الربيـع فانهـزم عـسكر السلطان، ونجا فانصرف إلى جبل هنتاته وهنالك مات معتلاً سنة ٧٥٢ هـ. ـ وابن الأحمر المذكور أعلاه هو أبو الحجّاج النصري، يوسف بن إسماعيل بن فرج، سابع ملوك بني الأحمر (بني نصر) بالأندلس. توفي سنة ٧٥٥ هـ.

(انـظر أعلام الـزركلي: ٤/٣١١ و ٨/٢١٧، وأعمال الأعـلام لابن الخطيب: ٣٠٤ ـ ٣٠٥؛ ومعجم زامباور: ٩٣ ـ ١١٨)

(١) لقب ملك فرنسا. ولفظ «ريد» تعريب للكلمة الفرنسية Roi بمعنى ملك. والعامة تقول: الفَرَنْسِيس. (صبح الأعشى: ٥/٤١٢)

(٢) في صبح الأعشى «ووُكِّل به الطَّواشيّ صَبِيح المعظّمي» نسبة إلى المعظم ابن الملك الصالح أيوب.

معه[1]، وقال القائل وهو «ابن مطروح»[2] من أبيات: [البحر السريع]-

قـل للفـرنْسيس إذا جئْتَـه مقـالـةً من ذي [ودادٍ][3] نَصيحْ

(١) يروي القلقشندي ذلك بشيء من التفصيل فيقول: «إن الفرنج في سنة ٦١٥ هـ، وهم مستولون على سواحل الشام يومئذ، سار منهم نحو عشرين ملكاً من عكا وقصدوا دمياط في أيام العادل أبي بكر بن أيوب. وسار العادل من مصر إليهم فنزل مقابلهم، وأقاموا على ذلك أربعة أشهر، ومات العادل في أثناء ذلك، واستقر بعده في الملك ابنه الملك الكامل فوقع في عسكره اختلاف تشاغل به، فهاجم الفرنج دمياط وملكوها عنوة في سنة ٦١٦ هـ، وطمعوا بذلك في مملكة الديار المصرية، فبنى الملك الكامل بلدةً عند مفرق النيل وسماها المنصورة ونزلها بعساكره، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن دخلت سنة ٦١٨ هـ، وقد اشتد طمع الفرنج في الديار المصرية، ونقدموا من دمياط إلى المنصورة وضايقوا المسلمين إلى أن سألهم الملك الكامل في الصلح على أن يكون لهم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجَبَلة وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من سواحل الشام، خلا الكرك والشُّوْبك، فأبَوْا إلا أن يكون لهم الكرك والشوبك أيضاً، وأن يُعطوا مع ذلك ثلاثمائة ألف دينار في نظير ما خرّبه المسلمون من سور القدس، فأعمل المسلمون حينئذ الحيلة في إرسال فرع من النيل في إبّان زيادته، حال بين الفرنج وبين دمياط، انقطع بسببه الميرة عنهم، وأشرفوا على الهلاك، وكان آخر أمرهم أن أعرضوا عن جميع ما كانوا سئلوا به من الأماكن المتقدمة الذكر ونزلوا عن دمياط للمسلمين، وتسلمها الملك الكامل منهم، ثم عاد إلى مصر وبقيت دمياط بيد المسلمين إلى أن قصدها الفرنسيس في خمسين ألف مقاتل ومعه الأذفونش صاحب طليطلة في أيام الملك الصالح أيوب ابن الكامل سنة ٦٤٧ هـ، وهاجم دمياط وملكها عنوة، وسار الملك الصالح فنزل بالمنصورة، وسار الفرنج ونزلوا مقابله، ثم قصدوا دمياط فتبعهم المسلمون وبذلوا فيهم السيف فقتلوا منهم نحو ثلاثين ألفاً، وأسر الفرنسيس وحُبس بالمنصورة بدار الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان، صاحب ديوان الإنشاء، ووكّل به الطواشي صبيح المعظمي. ومات الصالح في أثناء ذلك. واستقر ابنه الملك المعظم مكانه في الملك، ثم قتل عن قريب، وفوض الأمر إلى شجرة الدر، زوجة الملك الصالح، وقام بتدبير المملكة معها أيبك التركماني، ثم تسلم المسلمون دمياط من الفرنسيس وأطلقوه فسار إلى بلاده فيمن بقي معه من جماعته». ـ انظر صبح الأعشى: ٥/٣١٢ ـ ٣١٣ ـ والفرنسيس أو الريدفرنس المشار إليه هو لويس التاسع ملك فرنسا ١٢١٤ ـ ١٢٧٠ م. قاد الحملتين الصليبيتين السابعة والثامنة عن طريق البحر. أسر في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ م وتوفي بالطاعون ـ الأعلاق الخطيرة: ٣/٦٩٥ ـ حاشية ـ وحول لويس التاسع وحملاته على مصر والشام، انظر: مذكرات جوانفيل ـ القديس لويس: ترجمة وتعليق حسن حبشي.

(٢) هو الأمير الصاحب جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح المصري: شاعر أديب مصري، خدم الملك الصالح وتنقل معه في البلاد، فأقامه الصالح ناظراً على الخزانة بمصر ثم نقله إلى دمشق. توفي سنة ٦٤٩ هـ.

(انظر النجوم الزاهرة: ٧/٢٧ ووفيات الأعيان: ٦/٢٥٨).

(٣) في ط ـ ق «واداد». ورواية الصبح: «مقال صدق من قؤول نصوح». ورواية النجوم الزاهرة: «مقال صدق =

دارُ آبنَ لقمانَ على حالها فالقيد[1] باقٍ والطَّواشِي صَبِيحُ[2]

حدّثني رسولُ الأذفونش، بتعريفِ تَرْجُمانٍ موثوق به من أهلِ العدالة يسمَّى صلاحَ الدين التَّرْجُمان الناصري، أن الأذفونش من ولد هِرَقْل المفتتح منه الشام، وأن الكتابَ الشريفَ النبويّ الوارِدَ على هِرَقْل متوارثٌ عندهم محفوظٌ مَصُون، يلفُّ بالديباج والأطْلس، ويدَّخر أكثَرَ من آدِّخار الجوهر والأعلاق، وهو إلى الآن عندهم لا يخرج، ولا يُسمح بإخراجه، يُنظر فيه بعين الإجلال، ويُكْرمونه غاية الكرامة، بوصيَّةٍ توارثها منهم كابِرٌ عن كابر، وخَلَفٌ عن سَلَف؛ والذي أقول إن هِرَقْلَ لم يكن الملكَ نفسه، وإنما كان متسلِّمَ الشام لقيصر، وقيصرُ بالقُسْطَنطينية لم يَرِمْ، وإنما كتبَ النبيُّ

= من فؤول فصيح». ورواية المقريزي: «مقال نصح عن فؤول نصيح».

(1) رواية الصبح والنجوم: «والقيد»

(2) هذان البيتان هما الأول والأخير من قصيدة في ثمانية أبيات، كما في صبح الأعشى، وفي عشرة أبيات، كما في النجوم الزاهرة. وفيما يلي أبيات النجوم الزاهرة:

قُلْ للفرنسيس إذا جئته مقالَ صدق من قؤول فصيحْ
آجرك الله على ما جرى من قتل عُبّاد يسوع المسيح
أتيتَ مصرَ تبتغي ملكها تحسب أن الزَّمْرَ يا طبلُ ريح
فساقك الحَيْنُ إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطنَ الضريح
خمسون ألفاً لا ترى منهمُ إلا قتيلاً أو أسيراً أو جريح
وفقك الله لأمثالها لعلّ عيسى منكمُ يستريح
إن كان باباكمْ بذا راضياً فربَّ غشٍّ قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودةً لأخذ ثارٍ أو لعقدٍ صحيح
دارُ ابنِ لقمانَ على حالها والقيدُ باقٍ والطواشي صبيح

وبعد فشل لويس التاسع في حملته على مصر هذه حاول الاتجاه إلى تونس فلم يلق فيهما خيراً مما لقيه في مصر، حتى لقد خاطبه أحدهم ساخراً:

يا فرنسيسُ هذه أخت مصر فتأهبْ لما إليه تصيرُ
لك فيها دار ابن لقمان قبراً وطواشيك منكرٌ ونكيرُ

(مذكرات جوانفيل ـ المقدمة ص: ٢)

ﷺ إلى هِرَقْل لأنه كانَ مجاوراً لجزيرة العرب من قِبَـل الشام، وعـظيمُ بُصْرَىٰ كـان عاملاً له.

والرِّيدفرنس: هـو الملكُ الكبير المُطاع، وإنما الأذفونش هو صاحبُ السَّطْوة، وذكرهُ أشْهَرُ في المغرب لقربه منهم وبُعْد الرِّيد فرنس، إذ كانت مملكته وراء الأندلس شرقاً، في الأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة، وكرسيُّ ملكه فَـرَنسة، وكـرسيُّ مُلك الأذفونش طُلَيْطلة. [ومكاتباته متواصلة][1]، والرُّسُل بيننا وبينه مـا تنقطع على سـوءِ مَقَاصِده وخُبْث سِرِّه وعَلاَنيته: أهدىٰ مرةً إلى السلطان سيفاً طويلاً وثوباً بُنْدُقياً وطارِقةً طويلة رقيقة تُشبه النَّعْش، وفي هذا مـا لا يخفىٰ من آستفتاح بـاب الشر والتَّصـريح المعروف بالكناية، فكان الجواب إرسالُ حبل أسود وحجر، أي أنه كلبٌ إن قُيِّد في الحبل وإلا رُميَ بالحجر.

وأما «الرِّيـد فرنس» فـلا أذكر لـه إلا فَرْدَ رَسُـولٍ ورَدَ[2]، وأبْرَق وأحـرق بناره وأرْعَد، جاءَ يطلب بيتَ المقدس، على أنـه يُفتح لـه ساحـلُ قيساريـة أو عَسْقَلان، ويكون للإسلام بهما وُلاةٌ مع ولاته، والبـلاد مناصَفَـة، ومساجـد المسلمين قائمـة، وإدرارات قومهما[3] دارَّة، على أنَّه يبذُل مائتي ألف دينار تُعجَّل وتُحمل في كل سنة نَظيرَ دخل نصف البلاد التي يتسلَّمها على معدَّل ثلاث سنين، ويُطرِف في كـل سنة بغرائب التُّحف والهدايا. وحسَّنَ هذا كُتّابٌ من كَتَبة القِبْط، كانوا صـاروا رؤوساً في الدولة بعمائمَ بيض وسرائرَ سُود، وهم أعداءٌ زرق، يُجَرِّعون الموتَ الأحمر، وعملوا على تمشية هذا القصـد وإن سرىٰ في البـدن هذا السُّم، وتُطُلِّب له الـدِّرْياق فعـزَّ، وقالوا: هذا مالٌ جليل يَتَعَجَّل! ثم ما عَسىٰ أن يكونَ منهم وهم نُطفةٌ في بحر، وحَصَاةٌ في دهناء.

---

(١) في ط ق: «والمكاتبات لا أعرافها متواصلة إلا إلى الأذفونش دونه... الخ». والعبـارة غير مستقيمـة. والذي أثبتناه هو عبارة القلقشندي في صبح الأعشى: ٨/٣٥ نقلاً عن التعريف.

(٢) في الصبح عن التعريف: «وأما الرِّيد فرنس فلم يرد له إلا رسولٌ واحد».

(٣) في الصبح «قومتها».

وبلغ هذا أبي[1] ـ رحمه الله ـ فآلى أن يجاهر في هذا، ويجاهد بما أمكنه، ويدافع بمهما قدَر عليه، ولو لاوَى السلطانَ على رأيه إن أصغىٰ إلى أولئك الأفكة، وقال لي: تقوم معي وتتكلَّم، ولو خُضِبَتْ منّا ثيابنا بدم، وراسَلْنا قاضيَ القضاة القزويني الخطيب[2]، فأجاب وأجاد الاستعداد، فلما بكَّرنا إلى الخدمة وحضَرْنا بين يدي السلطان بدار العدل، أحضرت الرسل، وكان بعض أولئك الكتبة حاضراً، فاستعدَّ لأن[3] يتكلم، وكذلك آستعدَّينا نحن، فما آستتمَّ كلامُهم حتى غَضِب السلطان وحمِي غضبه، وكاد يتضَرَّم عليه حطَبُه، ويتعجَّل لهم عَطَبُه، وأُسكتَ ذلك المنافق بخِزْيته، وسكتنا نحن آكتفاءً بما بلغه السلطان مما ردَّه بخيبته، فصُدَّ ذلك الشيطان، وكفى الله المؤمنين القتال، ورُدَّتْ على راميها النِّصال. وكان الذي قاله السلطان: «وَالْكُمْ[4]! أنتم عرَفتم ما لقيتم نَوْبَةَ دِمْياط من عسكر الملك الصالح، وكانوا جماعة أكراد ملفَّقة مجمَّعة، [وما كان هؤلاء بعد الترك][5] وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال التتار، ونحن اليوم بحمد اللَّه صُلْحٌ، نحن وإياهم من جنس واحد، ما يتخلَّى بعضه عن بعض، وما كنا نريد إلا الابتداء، فأما الآن فتحصَّلوا وتعالَوْا، وإن لم تَجُوا[4] فنحن نَجِيكم ولو أننا نخوض البحر بالخيل؛ والْكُمْ صارت لكم ألسنةٌ تذكرُ القُدْس! واللَّه ما ينال أحدٌ منكم منه تُرابةً إلا ما تسفيها الرياح عليه وهو مصلوب!» وصرخ فيهم صَرْخةً زعزعت قُواهم، وردَّهم أقبحَ ردّ، ولم يَقرأْ لهم كتاباً، ولا رد عليهم سوىٰ هذا جواباً.

وأما رَسْمُ المكاتبة إليه[6]: «أطَالَ اللَّهُ بقاءَ الحضرة السامية [حضرة][7] الملك

(١) هو القاضي محيي الدين بن فضل الله العمري. تولى كتابة السرّ للناصر بن قلاوون، وكان معه في نفس الوقت ابنه شهاب الدين ـ صاحب كتابنا هذا ـ يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات.

(٢) هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، المعروف بخطيب دمشق. ولي قضاء دمشق سنة ٧٢٤ هـ ثم قضاء القضاة بمصر سنة ٧٢٧ هـ. توفي سنة ٧٣٩ هـ. (النجوم الزاهرة: ٩/٣١٨)

(٣) في ط ق: «لئن».

(٤) لفظ عاميّ. والمراد: ويلكم!. ومثله: «تَجُوا» أي تجيئوا.

(٥) بين معقوفين زيادة من الصبح عن التعريف.

(٦) الأظهر «إليهما» أي الأذفونش والريدفرنس.

(٧) الزيادة من الصبح ليستقيم الكلام.

الجليل، الهُمام، الأسد، الباسل، الضِّرْغام، الغَضَنْفَر، بقيَّة [سلَف][1] قيصر، حامي حُماة بني الأصفر، المُمنَّع السُّلوك، وارث لُذريق وذراريّ الملوك، فارس البرّ والبحر، ملك طُلَيْطِلة وما يليها؛ بطل النصرانيّة، عمادِ بني المعموديّة، حامل راية المسيحيّة، وارث التِّيجان، شبيه مَرْيُحَنَّا المَعْمَدان، مُحِبّ المسلمين، صديق الملوك والسلاطين، الأذفنش سَرْقلان».

دعاءٌ وصَدْرٌ يليقان به: «وكفاه شرَّ نَفْسه، وأجناه ثَمَرَ غَرْسه، ووقاه فِعْلَ يوم [يَجُرُّ][2] عليه مِثْلَ أمسه، وأراه مقدارَ النعمة بالبحر الذي تمنَّع بسُوره وتوقَّى بتُرْسه.

أصدرناها إليه وجُنْدُ اللَّه لا يمنعهم مانع، ولا يضرُّهم في اللَّه ما هو صانع[3]، ولا يُبالونَ أكتائبَ يخلِّفونها أم كتباً، وجَداولُ تعْرِضُ لهم أم بحارٌ لا تقطعها إلا وَثْباً».

دعاءٌ آخر وصدر: «وَقَاه بتوفيقه إتلافَ المُهَج، وكَفاهُ بأْسَ كلِّ أسدٍ لَم يُهَجْ، وحماه من شرِّ فتنة لا يبُلُّ البحرُ الذي تحصَّن به ما يعقده غُبارُها من الرَّهَج.

أصدرناها [إليه] وأسِنَّتُنا لا تُرَدُّ عن نَحْر، وأعِنَّتُنا لا تُصَدُّ بسور ولو ضُرِبَ من وراء بحر».

النُّوَاب

الأول: كافِلُ الممالك الإسلامية

وهو نائب السلطان بالحضرة، وهو يحكُم في كل ما يحكم فيه السلطان، ويُعلِّم في التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما هو من هذا النوع على كل ما يعلِّم عليه السلطان. وبقيَّةُ النواب لا يعلِّم الرجلُ منهم إلا على ما يتعلَّق بخاصَّة نيابته؛ وهذه رتبةٌ لا يخفَىٰ فيها له التميُّز. والوزير فيها يجري مجراه، وهما فيها على حدٍّ سواء.

أما نائب الغَيْبَة وهو الذي يُترك إذا غاب السلطانُ والنائبُ الكافل وليس إلا

---

(١) في ط ق «بقية سلم وقيصر». والتصحيح من الصبح.

(٢) في ط ق: «يحبر» والتصحيح من الصبح.

(٣) في الصبح: «ولا يُضرُّ بهم في الله ما هو جامع»

لإخماد الثَّوَائر وَخَلاص الحقوق، وحُكمه في رَسْم الكتابة إليه رَسْمُ مثله من الأمراء.

وأما النائب الكافل فقد رأيت بعض الكتَّاب قد كتب في تعريفه: «نائب السلطنة المعظَّمة وكافل الممالك الشريفة الإسلامية» وكتب في لَقَبه: «الأميريّ الآمريّ». والكاتبُ المذكور كاتبٌ صالح في المعرفة وليس بحُجَّة. فأما كتابته في ألقابه «الآمريّ» فليست بشيء، وإنما حَمَله عليها إفراطُ المَلَق؛ وأما جَمْعُه في تعريفه بين ذِكْر النيابة والكفالة فمقبولٌ منه فيه، والذي أراه أن يجمعا في تقليده فيقال فيه: «أن يُقلَّد نيابةَ السَّلطنة المعظَّمة وكَفَالة الممالك الشريفة مِصراً وشاماً، وسائرَ البلاد الإسلامية أو الممالك الإسلامية» ونحو ذلك.

فأما في تعريف الكتب، فقد جرت عادةُ نوّاب الشام أن يقتصروا في كتبها إليه على «كافل الممالك الإسلامية المحروسة». ولعمري في ذلك مَقْنع، وإن في الاقتصار عليها ما هو أكثر فخامة. وعلى ذلك أكثرُ عمل الكتّاب بديوان مصر أيضاً، وانظرْ إلى ما يُكتبُ بإشارته تراهم مقتصرين له على هذا في التعريف. فاعلم ذلك.

ورَسْمُ المكاتبة إليه: «أعزَّ اللّه [تعالى] أنصارَ الجناب الكريم، العالي، الأميريّ، الأجَلِّيّ، الكبيريّ، العالِميّ، العادِليّ، المؤيَّديّ، الممهِّديّ، المشيِّديّ، الزعيميّ، الذُّخْريّ، المقدَّميّ، العَوْنيّ، الغِياثيّ، المُرابطيّ، المثاغِريّ، المظفَّريّ، المنصوريّ، الأتابكيّ، الكافِليّ، الفلانيّ، ركْن الإسلام والمسلمين، سيِّد الأمراء في العالمين، أتابك الجيوش، مقدَّم العساكر، زعيم الجنود، عاقِد البنود، ذُخْر الموحِّدين، ناصر الغُزاة والمجاهدين، غِياث الأمة، غَوْث الملّة، مشيِّد الدول، كافل الممالك، مُنْجِد الملوك والسلاطين»[1].

(١) الذي في التثقيف: «أعزَّ الله نصرة الجناب... الخ» بإبدال أنصار بنصرة، واختلاف بعض الألقاب المتقدمة. ثم قال ابن ناظر الجيش إن الذي استقر عليه الحال في مكاتبته هو: «أعزّ الله تعالى أنصار المقرّ الكريم» قال: «وإنما كُتب له بالمقرّ وزيدت ألقابه على ما كانت عليه لمّا كتب بذلك لنائب الشام في ولاية بيدمر الخوارزمي، وكافل المملكة يومئذ الأمير مَنْجَك، فلزم أن يكتب له مثله لئلا يكون نائب الشام مميزاً على كافل السلطنة». وقد ذكر القلقشندي أن رتب المكاتبات هي على عشر درجات: الأولى

دعاءٌ يختصّ به وصدر: «ولا زالت الممالك كلُّها في كَفَالته، والمسالكُ على آختلاف طُرُقها آيلةً إلى إيالته، والملائكةُ محوّمةً على بنوده محتفّةً بهالته، والأرائكُ لا تُثنىٰ إلا في دَسْت فَخاره ولا تعدُّ إلا لجلالته. أُصدرت هذه المكاتبةُ إلى الجَناب الكريم، زاده الله كرامة، والقلوب تسأل لو آب، والنفوس مطمئنة بأننا لم يغِبْ عما حضر فيه عنا وما غاب، تَخُصُّ جَنابَه بأفضل السلام، وأطيب الثناء المرقوم على أعلىٰ الأعلام، وأطْرَب الشكر الذي يرى منه حقيقة ما يتمنّاه النظراء في الأحلام».

دعاءٌ آخر وصَدْر: «ولا زالتْ كِفايةُ كَفَالته تزيدُ على الآمال، وتتقرَّبُ إلى الله بصَلاح الأعمال، وتَكْفُل ما بين أول الجنوب وأقصىٰ الشَّمال، وتُمسك رُوَاقَ الملك المشمخرّ الذي لولاها لمال، وتَنْهَرُ فُتُوقَ الأعداء بكل بَرْقٍ من سيوفها المرهفة ما لجرحه آندمال، وتروِّع طوائف الكُفر الأشتات فلا تُفتدىٰ من أسِنَّتها المثقفة إلا بأرواح لابمال. أُصدرتْ هذه المكاتبة إلى الجناب الكريم وصَدْرُها بذكره منشرح، وبِبِرّه فَرِح، وبعلوِّ قدره في أيامنا الزاهرة يُسَرّ ويؤمِّل منه على ما يزيد على أمل المقترِح، تُهدي إليه من السلام أطيبَه، ومن الثَّناء أطْنَبه، ومن الشكر ما يَهزّ هذه السُّكْر[1] من سَمْعٍ منه أطْرَبَه أو سمع مُطرِبَه.»

دعاءٌ آخر وصَدْر: «ووصل المشار[2] بعلمه الذي لا يُنكر، وحِلْمِه الذي يُشكر، وحُكمه الذي يَأمر بالمعروف ويَنْهَىٰ عن المنكر، وقسمه الذي شرفه وصرفه عنا في كل متكلم في مال ومقدَّم على عسكر. أصدرناها إلى الجناب الكريم العالي بسلام يُسرع إليه، ويرد منا عليه، ونُحيِّيه به ولا ينسى له ما لديه.

وآعلم أن مكاتبات أكابر النواب بعده، وهم نائب الشام ونائب حلب ونائب طرابلس

= الدعاء للمقرّ، والثانية للجناب الكريم، والثالثة للجناب العالي بمضاعفه النعمة، والرابعة للجناب العالي بدوام النعمة، والخامسة للمجلس بدوام النعمة... الخ.

(انظر صبح الأعشى: ١٤١/٧ ـ ١٥٥)

(١) كذا في ط ق. وهو ساقط مما نقله القلقشندي عن التعريف. ولعل الصواب: «ما يهزّ هزّ السُّكْر».

(٢) كذا في ط ق. وفي الصبح «المسارّ» وهو أوضح.

ونائب حماه ونائب صفد ونائب غزة، تكاد تكون متساويةً، أو بعضها مميزاً عن بعض ولكن ربما آمْتَاز نـائبُ الشام على بقيّتهم فنـذكره ثم نـذكر بعـده نائب حلب وسائ النواب على الترتيب[١].

الثاني: نائب الشام[٢]

الذي كان مستقراً في رَسْم مكاتبته في الأيام النـاصريـة: «ضاعَفَ اللّه نعم الجناب العالي». وقـد آستقرَّ الآن في الـدولة الصـالحيّة: «أعـزَّ اللّه نُصْرَة الجنـاب الكـريم العالي، الأميـريّ، الأجليّ، الكبيـريّ، العـالميّ، العـادليّ، المـؤَيَّـديّ الممهّديّ، المشيَّديّ، العَوْنيّ، الغياثي، الذُّخْريّ، الزعيميّ، المقدَّميّ، الظهيريّ الكافِليّ، الفلانيّ، عِزِّ الإسلام والمسلمين، سيّد الأمراءِ في العالمين، نَصْر الغـزا والمجـاهدين، زعيم الجيـوش، مقدَّم العسـاكر، عَـوْن الأمة، غِيـاث المِلّة، ممهِّ الدول، مشيِّد الممالك، ظهير الملوك والسلاطين، عَضُد أمير المؤمنين»[٣].

---

(١) هذا ما كان عليه الأمر إلى أيام العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ. وقد ذكر القلقشندي ـ بالإضافة إلى النائ الكافل ـ ثلاثة نواب بالديار المصرية، استحدثت نيابتهم وهم:

ـ نائب ثغر الإسكندرية المحروس: وهو ممن استحدثت نيابتهُ في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين فم سنة ٧٦٧ هـ. ورسم المكاتبة إليه: «ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي... الخ» إلا أنه لا يقال فم ألقابه «الكافليّ». والعلامـة الشريفـة له «والـده». وتعريفـه: نائب السلطنـة الشريفـة بثغر الإسكنـدر المحروس.

ـ نائب الوجه القبلي. ومقر ولايته مدينة أُسْيوط. وقد استحدثت نيابته في الدولة الظاهرية برقـوق سـ ٧٨٠ هـ. ورسـم المكاتبـة إليه مثـل نائب الإسكندرية.

ـ نائب الوجه البحري. ومقر ولايته دَمَنْهور الوحش من أعمال البحيرة. ونيابته استحدثت بعد نيابة الوج القبلي. ورسم المكاتبة إليه مثل سابقيه.

(صبح الأعشى: ١٥٦/٧).

(٢) وهو أيضاً كافل السلطنة بها.

(٣) قال ابن ناظر الجيش: «ولم تزل المكاتبة إليه كذلك من بعد الدولة الشهيديّة الناصرية محمد بن قلاوو إلى آخر سنة ٧٧٥ هـ. واستقر الأمير بيدمر الخوارزمي نائب السلطنة بها أيام الأشرف شعبان بن حسين فاستقر رسم المكاتبة إليه: «أعزّ الله تعالى أنصار المقرّ الكريم».

(صبح الأعشى: ١٦٨/٧. راجع أيضاً ص ٩٥من هذا الكتاب حاشية (١)

دُعاءٌ وصَدْر: «ولا زالت الدول برايته[1] مُقبلة السُّعود، مترقِّيةً في الصُّعود، مملوءة الرِّحاب: تارةً بِبَعْث البعوث وتارةً بوفادة الوفود. صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب[2] الكريم تُهدي إليه من السلام أشرَقَهُ نجوماً، ومن الثَّناء أغْدَقَه غُيوماً، وتوضِح لعلمه الكريم..».

دُعاءٌ وصَدْر: «ولا زالت الممالك بآرائه منيره، وبراياته لأعداءِ اللّه وأعاديها مُبيره، وبرؤياه تتضاءَل الشموسُ المشرقة وتَخْجَلُ السُّحب المَطِيره: صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب[2] الكريم تُهدي إليه من السلام دُرَرَه، ومن الثناءِ غُرَرَه، وتوضح لعلمه الكريم..».

دُعاءٌ وصَدْر: «ولا برحتْ آراؤه كالنجوم بعيدة المَدىٰ، قريبة الهُدىٰ، متهلِّلة كالغمام: للأعداءِ منها الصَّواعِقُ وللأولياءِ النَّدَىٰ ـ صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب[2] الكريم ـ أعزّه الله تعالى ـ تخصّه بسلام حَسَنِ الافتتاح، وثناءٍ كما نَظْمُ الوِشاح، وتوضح لعلمه الكريم..».

دُعاءٌ وصَدْر: وَوَقَىٰ بسُور جُيُوشه الممنَّعة ضَرَرَ الضرّاء، وكسر بأسُود جنوده ذِئابَ الأعداءِ [الضَّراء] وسبقَ دَهْماءَ الليل وشهباء النهار وحمراءَ الشفق وصفراءَ الأصيل وشقراءَ البرق بسابقته الخضراء. صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب[2] العالي بسلام يملأ حَدَق حدائقه نوراً، وقلْبَ عساكره سُرُوراً».

دُعاءٌ وصَدْر: «وعمر معاهده، وزيَّن به بلدَه ومعابِدَه، وساق ملءَ واديه سَيْلَ نِعَمٍ لا يحل بغير الذُّرَىٰ معاقِدَه. صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب[2] العالي تهدي إليه سلاماً مثل الطَّيْف الزائر، وثناءً يحل منه بجامع المحاسن يحلق إليه به نَشْرُه الطائر».

---

(١) في الصبح: «برأيه».

(٢) في الصبح. «المقرّ الكريم» وهذا التغيير بناء على ما تقدّم في الحاشية (٣) من الصفحة السابقة والحاشية (١) من الصفحة ٩٥.

دُعاءٌ وصَدْرٌ: «ولا زال النصر [حِلْيَةَ][1] أيامه، وشامَةَ شامِه، وغَمَامَةَ ما يحلِّق على بلده المخضَرِّ من غمامه. صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب[2] العالي بسلام لا يرضى حافِرُ جواده الهلالَ نَعْلا، ولا يحظىٰ به إلا بلَدُه ونخصّ منه الشرفَ الأعلىٰ».

دعاءٌ وصَدْر: «وسقىٰ عهدُه العِهَاد، وشفىٰ بعدله العبـاد، وزان به حُسْنَ بلده التي لم يُخلق مثلهـا في البلاد، وهي إرَمُ ذاتُ العِـمَاد. صدرت هـذه المكاتبـة إلى الجنابِ العالي بسلام تُسَرُّ به النفوس، ويُعرف فَضْلُه الجامع وتُجلىٰ العروس[3]».

الثالث: نائب حَلَب

[ورسم مكـاتبته]: ضـاعَفَ اللَّه نِعْمَـةَ الجنـاب العـالي، الأميريّ، الأجَليّ، الكبيريّ، العالميّ، العادليّ، الممهَّديّ، المشيّديّ، العَوْنيّ، الذُّخْريّ، الزعيميّ، المقـدَّميّ، الظهيـريّ، المرابـطيّ، المثاغريّ، الكـافِليّ، الفـلانيّ، عِـزّ الإسـلام والمسلمين، سيـد الأمراءِ في العـالمين، نُصْرة الغـزاة والمجاهـدين، زعيم جيـوش الموحِّدين، عِماد الدولة، عَوْن الأمة، ذُخْر الملّة، ظهيـر الملوك والسلاطين، سيف أمير المؤمنين».

دُعاءٌ وصَدْر: «ولا زالت هِمَمُه مطلّةً على النجوم في منازلها، مُطَاوِلـةً للبروق بمَناصلها، قائمةً في مصالح الدول مَقَام جَحَافلها. صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب العالي[4] ـ أعزّه اللّه تعالى ـ تُهدي إليه سلاماً كالدُّرَر، وثناءً طويل الأَوْضاح والغُرَر، وتوضِح لعلمه الكريم».

دُعاءٌ وصَدْر: «وأَمَـدَّه بعَوْنه، وجمَّله بصَوْنه، ولا زال رأْيُه في النقيضين: لهذا سبَبَ فنائه ولهذا عِلَّةَ كَوْنه. صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب العالي[4] تهدي إليـه سلاماً رطيباً، وشكراً يكون عَلى ما تُخفي الصدور رَقيباً، وتوضح لعلمه الكريم».

---

(١) في ط ق «حيلة».

(٢) راجع الحاشية (٢) من الصفحة السابقة.

(٣) في الصبح: «ويطوّق به فضله الجامع وتتحلّى العروس».   (٤) في الصبح: «الكريم».

دُعاءٌ وصَدْر: «ولا زال يُعَدُّ ليوم تَشيب له الولدان، ويعدَ دونَه كلُّ مُحاربيه وبينه [وبينهم] الشَّهْباءُ والمَيْدان، ويعُمُّ حَلَبَ من حِلىَ أيامه ما لا يُفْقَد معه إلا آسمُ آبن حمدان». وإن كان آسمه[1] سيف الدين قال: «ويَعُمُّ حَلَبَ من حِلىَ أيامه ما لا يُفْقَد معه سيفُ الدين إن فَقَدت سيفَ الدولة آبنَ حمدان».

وأما الصَّدْر فهو: «صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب العالي[2] تُهدي إليه سلاماً ما مرَّ بروض إلا آنتَهَبَ طِيبَه نَهْبا، وثناءً تُعقد له أعلامُه على كتيبته الشَّهْبا».

دُعاءٌ وصَدْر: «وفتح بسُيُوفه الفتحَ الوجيز، وأحلَّ عقائل المعاقل منه في الكَنَف الحَرِيز، وأعاد به رَوْنَقَ بلد ما جَفَّتْ بها زُبْدَة حَلَبٍ وهو فيها العزيز. صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي[2] بسلامٍ ذَهَبُه لا يذهب، وثناءٍ لا يَصْلُح لغير عقيلة الشَّهْباء قِلادةُ عنبره الأشهب».

الرابع: نائب طرابلس

[وهو] من هذه النسبة وما لا يبعُد منها.

والدعاءُ مثل قولنا: «وأطاب أيامَه التي ما رقَّتْ على مثلها أسحار، وعدَّد في مناقبه العقولَ التي تَحَار، وأخذ بنواصي الأعداء بيده لا تنأىٰ بهم البراري المقفرةُ ولا تحصِّنهم البحار. صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي بسلام وفرت منه أسْهُمه التي يدرأ بها العدا في نحرها، وثناءٍ مُطْربٍ تَرْقُص به الخيلُ في أعنَّتها والسفنُ في بحرها».

دُعاءٌ آخر وصَدْر: «ولا زالت صفوفُه تشدُّ بنيانَ الحرب، وسيوفُه تُعدُّ للقتل وإن قيل للضَّرْب، وسُجوفُه تُجَرُّ على بلد ما مثله في شرقٍ ولا حصل على غير المسمّىٰ منه غرب.

---

(١) كذا في ط ق. والصواب «لقبه».

(٢) في الصبح: «الجناب الكريم».

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تُهدي إليه سلاماً يزيد أُفُقَه تزييناً، وثناء يأتيه من فائق الدُّرّ بما يستهون معه بالمينا».

الخامس: نائب حَمَاة

وهو من هذه النسبة أيضاً وما يقاربها.

والدعاء نحو قولنا: «وأتمَّ بخِدَمه كلَّ مبرَّة، وبهممه كلَّ مسرَّة، وصَانَ ما وَلِيَهُ أن يكون به غَيْرَ النهر «العاصي» أو يُنسبَ إليه سوى البلد المعروف «مَعَرَّة».

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تُهدِي إليه سلاماً تُمسَحُ أنديتُه بالسَّحائب، وثناءً يأتي به حِمىً حَمَاة وقرونُها المنشورةُ بألويته معقودةُ الذوائب».

دُعاءٌ آخر وصَدْر: «وَحَمىَ حَمَاه، وزَانَ موكبَه بأحسن حِمَاه، وحسَّن كنائنَ سهامه التي لا يصلُح لها غير بلده حَمَاه.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تُهدي إليه سلاماً تحمله إليه الركائبُ السائرة، وثناءً تشرق منه الكواكبُ أضعافَ ما تُريه أفلاكُ الدواليب الدائرة».

السادس: نائب صَفَد

من هذه النسبة وما يقاربها.

والدعاءُ نحو قولنا: «وَشَكَر هِمَمَه التي وَفَتْ، وعزائمَه التي كَفَتْ، وسَرَّ بكفَالَته بلداً منذ وَلِيَه[1] قيل: صَفَدٌ قد صَفَتْ.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تُهدي إليه سلاماً لا تزال شعائرُه تُقام، وثناءً مُذْهبٌ على بلده قيل: إن هواءَها يَشْفِي الأَسْقام».

دُعاءٌ آخر وصَدْر: «ولا زالت مساعيه تَسُوقُ إليه الحظوظَ البطيَّة، وتقدِّم له العلياء مثل المطيَّة، وتُهنِّيه بما خُصَّ به من صَفَد وهي العطيَّة.

---

(١) في الصبح: «وأعلى به بلداً مذ وليه».

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى الجنابِ العالي تُهدي إليه سلاماً يحيِّيه في محلِّه، وثناءً يودع في مَعْقِله الذي لا تصل أعلىٰ الشَّوامخ إلا إلى ما سَفَل من ظلِّه، وتوضِح لعلمه . . »

فأما عامَّةُ المكاتبات فٱعلم أنها تنقسم إلى أقسام:

قسمٌ لأرباب السُّيوف، وقسم لأرباب الأقلام، وقسم لأهل الصَّلاح.

ثم قسم أرباب السيوف على أقسام:

قسمٌ في مقدَّمي الألوف، وقسمٌ في الطَّبْلَخانات[1]، وقسمٌ في العشرات، وقسمٌ فيمن دون ذلك.

ثم قسمُ أرباب الأقلام على أقسام:

قسمٌ في الوزراء، وقسمٌ فيمن يجري مجرىٰ الوزراء ولا صريح له بها، وقسمٌ في القضاة والعلماء.

وأما القسم الثالث[2] فواحد.

القسم الأوّل: في أرباب السيوف

وهو أجَلُّ الأقسام، وأجلُّه قسمُ مقدَّمي الألوف. وٱعلم أنَّ مقدَّمي الألوف بالأبواب السلطانية لكبارهم أُسْوَةُ كبار النوّاب بالممالك كالشام وحلب، ولأوسطهم أسْوَةُ أوسطهم كحماة وطرابُلُس وصَفَد، ولأصغرهم أسوة أصغرهم كغَزَّةَ وحِمْص؛

(١) أمراء الطبلخانات: يكون تحت إمرتهم دون المائة من المماليك. ويتراوح عدد مماليكهم من الأجناد ما بين ثمانين وأربعين. والطبلخاناه هي طبول متعددة معها أبواق وزُمُر تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص تدق في كل ليلة بالقلعة (مقرّ السلطان) بعد صلاة المغرب، وفي المواكب الرسمية أو في الأمور الهامة. وكان القواد من فئة أمراء الألوف وأمراء المئين وأمراء الطبلخانات لهم الحقّ بطبلخاناه، أي بتنظيم فرقة موسيقية ملحقة بجندهم.

(صبح الأعشى: ٤/٨؛ والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٤٣؛ ومنطلق تاريخ لبنان: ١٢٧).

(٢) أي أهل الصلاح.

فاعلم ذلك وقِسْ عليه. وقد ألتحقَ بهم رَسْمُ المكاتبات لمقدّمي الألوف بالشام، إلا أنه لا يبلغ بأحد منهم مبلغَ كبار النوّاب.

وأما بحلب فلكبارهم أسوةُ صغار النوّابِ، ولصغارهم دون ذلك.

ثم الذي نقوله أن لكبار المقدَّمين بالأبواب السلطانية: «الجناب الكريم» ثـ «الجناب العالي» ثم «المجلس العالي»[1].

وبدمشق: «الجناب العالي» ثم «المجلس العالي».

وبحلب: «المجلس العالي» ثم «المجلس السّاميّ» بالياء[2].

وبطرابلس: بالساميّ، بالياء، بغير زيادة ولا نقص.

قسم الطَّبْلَـخَانَات

وأعلم أن في أمراء الطَّبْلَخَـانَات من يُكتب لـه «المجلس العالي» كمن يكـو معيَّناً للتَّقْدمة، وله عدَّةُ سبعين فارساً أو ثمانين فارساً أو نحـو ذلك، وكـالمقرَّبين م الخاصْكِيَّة[3]، أو من له عَراقـةٌ في نَسَب كبقايـا الملوك، أو أرباب وظـائفَ جليلة

---

(١) قال القلقشندي في صبح الأعشى: ٧/١٥٩ «هذا على ما كان في زمانه (أي زمان العمري)؛ أما على أستقرّ عليه الحال آخراً فإنه يكـون لكبارهم: المقـرّ الكريم، كمـا يكتب للأتـابك الآن، ثم الجنـ الكريم، ثم الجناب العالي، ثم المجلس العالي».

(٢) أي بياء النسب، أو الياء المشدّدة آخراً.

(٣) يقول دوزي: إن كلمة «خاصكي» مكونة من الكلمة العربية «خاص» أضيفت إليها الكاف وهي علا التصغير في الفارسية، ثم ألحقت بها ياء الإفراد الفارسية أيضاً (وهي تقوم مقام التنوين في الاسم الم في العربية) وذكر دوزي أن البعض أخطأ حين ظنَّ أن الخاصكي غلام من خدّام الملك. وقد أورد خ الظاهري في «زبدة كشف الممالك» تعريفاً واضحاً للخاصكي يقول فيه: الخاصكيّة هم الذين يلاز السلطان في خلواته، ويسوقون المحمل الشريف، ويتعينون بكوامل الكفّـال، ويجهّزون في المهمـ الشريفة، ومتعينـون للإمـرة، والمقربـون في المملكة. كـان عدّتهم في أيـام الملك النـاصـر محمد قلاوون أربعين خاصكيًا، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا في أيام الملك الأشرف برسبـاي نحو أ خاصكي، ومنهم من هو صاحب وظيفة، ومنهم من ليس له وظيفة.

(انظر: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل للدكتور أحمد السعيد سليمان. ص ٨١ ـ ٥ وزبدة كشف الممالك: ١١٥ ـ ١١٦)

كحاجب كبير، أو أستاذ دار[1] جليل، أو مدبِّر[2] دولة لم يصرَّح له بالوزارة، أو دَوادار[3] متصرِّف، وهؤلاء كلُّهم، إن كُتب لهم «بالمجلس العالي»، فإنه يُكتب لهم بغير افتتاح بالدّعاء، والمكاتبة إليهم «بالعالي» على سبيل العَرْض لا الاستحقاق، وإلاّ فأجَلُّ رسم مكاتبةِ أمراء الطبلخانات: «الساميّ» بالياء، ولجمهورهم ـ مصراً أو شاماً ـ من التُرك والتُركمان والأكراد: «السامي» بغير الياء؛ فاعلم ذلك.

---

(١) بهذا الرسم في ط ق. وفي صبح الأعشى «إستدّار» وترد في أكثر الحالات «استادار». وقد اختلف في تأصيلها، فقال القلقشندي إنها مركبة من لفظين فارسيين: أحدهما «إسْتَدْ» ومعناها الأخذ، والثانية «دار» ومعناها الممسك. فأدغمت الذال الأولى وهي المعجمة في الثانية وهي المهملة فصار «إستدّار» والمعنى: المتولي للأخذ. سمّي بذلك لأنه يتولى قبض المال. قال: ويقال فيه «ستدّار» بإسقاط الألف من أوله وكسر السين. والمتشدقون من الكتاب يضمّون الهمزة في أوله ويلحقون به ألفاً بعد التاء فيقولون «أستادار» وربما قالوا «أستاذ الدار» ثم قال: وهو خطأ صريح. ـ صبح الأعشى: ٥/٤٥٧.

غير أن القلقشندي نفسه ذهب إلى هذا الخطأ الصريح لشيوعه في زمنه فاستعمل لفظ «أستاذ الدار» في صبح الأعشى: ١١/٣٤٢. كما وقع في نفس الخطأ كل من الإمام عبد الوهاب السُبكي في معيد النعم، والنويري في نهاية الأرب: ٨/٢٢٤. ويقول الدكتور أحمد السعيد سليمان في تأصيل الدخيل إن «إستذ» التي ذكرها القلقشندي هي «ستَدْ» الفارسية بكسر السين وفتح التاء المثناة من فوق ثم دال مهملة ساكنة، ومعناها: الأخذ.

وعلى ذلك يكون الرسم الصحيح للفظ هو «ستَدَّار». والسّتَدَّار أو الأستادار ـ كما هو شائع ـ يشرف على الواردات الخاصة بالسلطان المملوكي، ويشرف على كل من بالقصر من خدم المطبخ والشرابخاناه والغلمان، وهو الذي يسلمهم رواتبهم (الجامكية) وكل ما يحتاجون إليه لعملهم أو لأنفسهم. وهو المسؤول عن فتح باب القصر وإغلاقه.

(٢) مدبر الدولة: من ألقاب الوزراء وكتاب السرّ. (صبح الأعشى: ٦/٦٩، ١٤٦).

(٣) من الكلمة العربية «دواة» ومن الفارسية «دار» بمعنى الصاحب والقيّم. والمراد: صاحب الدّواة. وهي وظيفة أحدثها السلاجقة (النجوم الزاهرة: ٧/١٨٥). وكانت الدوادارية في دولة المماليك وظيفة صغيرة في البداية ثم ما لبثت أن عظمت في منتصف القرن الرابع عشر. فبعد أن كان يليها أمراء العشرات أو الطبلخانات، وليها أمراء الألوف أي أمراء الدرجة الأولى، وكان ذلك في عهد الناصر حسن. وفي عهد الأشرف شعبان ولي أقبغا الدوادارية فعظم شأنها حتى صارت كنيابة السلطنة. وفي أيام الناصر فرج بن برقوق كان الدوادارية يشرفون على البريد والمالية وعلى العزل والنصب والقضاء. (تأصيل الدخيل: ١١٠ ـ ١١١). أما في الأصل فإن صاحب وظيفة الدوادارية هو الذي يحمل دواة السلطان ويتولى أمرها مع ما يلحق ذلك من المهمات نحو تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور وتقديم القصص إليه وتقديم البريد. (صبح الأعشى: ٤/١٩ و ٥/٤٦٢ ـ وخطط المقريزي: ٢/٢٢٢)

قسم العَشَرات

اعلم أنَّ لكلّهم «مجلس الأمير»، فإن زيد قَدْرُ أحدٍ لسببٍ ما كُتب له «المجلس السامي» بغير الياء.

وقسم من دون ذلك كمقدَّمي الحَلَقة[1] والجند؛ فللمقدّمين أسوة أمراء العشرات في المكاتبة. وأما الجند: «فالأمير الأجلّ»، وأما جند الأمراء «فالطَّواشيّ»، فآعلم ذلك.

---

(١) هناك اختلاف على مصدر كلمة «حلقة» وعلى طبيعة تكوين فرق «أجناد الحلقة» في الجيش المملوكي.

فكاترمير Quatremére يقول إن الجيش المملوكي سمي بأجناد الحلقة لأنه كان يحيط بالسلطان؛ وبولياك Poliak يعتبر أن الاسم جاء من نظام الفروسية التركي، بحيث أن الأجناد كانوا يحيطون بالأعداء إن في الصيد أو في الحرب. ومن حيث تكوينهم يعتبر Demombynes أن جند الحلقة هي فئة من الجيش المملوكي مكونة من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، وهم أقرب الفئات إلى نظام الجيش الثابت في العصور الحديثة. ويقدم المؤرخ كمال الصليبي في كتابه: منطلق تاريخ لبنان تعريفاً مناقضاً لما قدمه Demombynes فيقول: وجند الحلقة في عرف دولة المماليك هم رديف من الفرسان الأحرار، أي من غير المماليك، تنتقيهم الدولة من بين العناصر المحلية في مختلف المناطق للمساعدة في الحفاظ عليها.

والواقع أن أجناد الحلقة لم يكونوا دائماً من فئة واحدة؛ فقد تكونوا في البداية من المماليك الذين كان ينشئهم السلاطين دون فئات مماليك الأمراء، ثم ازداد عدد أجناد الحلقة بمن انضم إلى الجيش المملوكي من التتار والوافدية، واعتبر أيضاً من أجناد الحلقة بعض أرباب الحرف والصنائع على أثر ضعف الجيش المملوكي، إذ كان يعمد أفراده إلى بيع إقطاعاتهم إلى أهالي البلاد، واضيف أحياناً إلى أجناد الحلقة مماليك الأمراء الذين انحلت إقطاعات أساتذتهم، واعتبر أيضاً من أجناد الحلقة العربان والأكراد والتركمان بحيث تركز عملهم في حماية أطراف الدولة والاشتراك بفرسانهم في الحرب عندما كانت تدعو الحاجة إلى ذلك. وكان أجناد الحلقة يقسمون من حيث العمل الذي يؤدونه إلى أربعة أقسام: البحرية وهم حرس السلطان في القلعة، ومماليك الغيبة الذين كان يعينهم السلطان في مراكز محددة إبان غيابه، ومنهم من كان يرسلهم السلطان في سفاراته؛ والباقي فرق تخدم في بيوت الأمراء. وقد شكل أجناد الحلقة عصب الجيش المملوكي، غير أن دورهم تراجع مع ازدياد نفوذ المماليك السلطانية وتدخلهم المباشر أحياناً في السياسة الداخلية. وبلغ عددهم كما ذكر خليل الظاهري أربعة وعشرين ألفاً، كل ألف منهم مضاف إلى أحد الأمراء مقدمي الألوف، كل مائة من الألف لهم «باش» ونقيب.

(انظر: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٥ ـ ١٦؛ وصبح الأعشى: ١٥/٣؛ وزبدة كشف الممالك: ١١٥ ـ ١١٦؛ ومنطلق تاريخ لبنان: ١١٩؛ والدولة المملوكية لأنطوان ضومط: ٥٦ ـ ٥٩).

القسم الثاني: في أرباب الأقلام

والأوّل قسمُ الوزراء. ولم تزل مُكاتبةُ أجلّاء الوزراء بـ «المجلس العالي». ثم كُتب لآخرهم بالديار المصرية «الجناب العالي»، وكُتبت بالشام للصاحب عز الدين، أبي يَعلىٰ، حمزة بن القلانسي[١] ـ رحمه الله ـ لجلالةِ قدره وسابقةِ خِدمِه وعناية من كتب إليه بها. والذي استقرَّ عليه الحال للوزير بمصر «الجناب العالي»، وللوزير بالشام «المجلس العالي» بالدعاء، كما كتب للصاحب أمين المُلك[٢].

[والثاني] قسم من يجري مجرىٰ الوزراء ولا صريحَ له بها، مثل ناظر الخاص[٣]، وكاتب السرّ، وناظر الجيش، وناظر الدّولة، وكاتب السرّ بالشام، وهؤلاء كلّهم بـ «المجلس العالي» والدعاء. وأما ناظر الدولة بالشام «فالعالي» بغير الدعاء. وناظر الجيش بالشام، وناظر الدولة بحلب، وكاتب السرّ بها، وناظر الجيش بها، وناظر طرابلس، وكاتب السرّ بها «فالساميّ» بالياء. وبهذه المكاتبة يُكتب لموقّعي الدَّسْت مصراً وشاماً. فأما من دون هؤلاء فبغير الياء، ثم «بمجلس القاضي» أو «الصدر». وأما النظّار بحماة وصَفَد وغزّة وحمص وكاتب الإنشاء بها فلا يستحقّ أحد منهم أكثر من «السامي» بغير الياء[٤].

[والثالث] قسم القضاة والعلماء والأئمة وأكابرهم، مثل قضاة القضاة بمصر ـ والشافعي خاصة بالشام ـ كل منهم بـ «المجلس العالي». وبقيّة قضاة القضاة:

---

(١) ولي وكالة السلطان والوزارة في الشام. وأنشأ دار الحديث القلانسية، وإليه نسبتها. توفي سنة ٧٢٩ هـ. (الأعلام: ٢/٢٧٧).

(٢) أحد وزراء الناصر محمد بن قلاوون. وكان تعريفه: مدبِّر الممالك الشريفة بالشام المحروس.

(٣) هو الذي يتولى النظر في خاص أموال السلطان.

(٤) قال القلقشندي في الصبح: ٧/١٦٤ «وكأن العمري يريد ألقاب هؤلاء في الجملة، إما في مكاتبة تكتب بسبب أحد منهم، وإما في توقيع ونحوه يكتب لأحدهم؛ وإلا فمن ذكره من الأصاغر لا يُكاتب عن الأبواب السلطانية عادة. والذي صرّح في «التثقيف» بذكر المكاتبة إليه من هذا الضرب نفران: كاتب السرّ إذا تخلّف عن الركب السلطاني لعارض، وناظر الخاصّ الشريف.

الحنفيّ والمالكيّ والحنبليّ بالشام، والحنفيّ والشافعيّ بحلب، وقاضي القضاة بطرابلس، وقاضي القضاة بصفد، ووكيل بيت المال المعمور بالديار المصرية، والخطيب بالشام، ووكيل بيت المال بالشام، ومن يجري مجراهم بـ «المجلس الساميّ» بالياء. وقد صار المُحتسب بمصر والشام كذلك. وأما من دونهم من أرباب الوظائف الدينية وبقيّة العلماء وأكابرهم بـ «السامي» بغير ياء، ومن دونهم بـ «مجلس القاضي» أو «الشيخ» على قدر اللائق بذلك الشخص[1].

القسم الثالث: أهل الصلاح

وهؤلاء ما يخرج بهم عن «المجلس السامي الشيخي» أو «المجلس السامي الشيخ» أو «مجلس أو حضرة الشيخ» أو «الشيخ». ويَسْتَوون في الألقاب المفردة؛ وأما المركّبة فيتفاوتون فيها بحسب أحوالهم، فيزاد بعض وينقص آخرون.

الرُّسوم في الكتب إلى أمراء العربان

اعلم أن المكاتبين من العربان بديار مصر وبَرْقة واليمن والحجاز والشام والعراق والبحرين أممٌ لا يقدر فيهم على الاستيعاب، وإنما نذكر جملاً كافية دالّة فنقول:

١ـ أمّا العرب بمصر في الوجهين القبليّ والبحريّ فجماعاتٌ كثيرةٌ وشعوبٌ وقبائلُ لكنّهم على سعة أموالهم واتساع نُطُق جماعاتهم ليسوا عند السلطان في الذّرى ولا السَّنام، إذ كانوا أهلَ حاضرة وزَرْع، ليس منهم من يُنْجِد ولا يُتْهِم، ولا يُعرِقُ ولا

---

(١) قال القلقشندي: «وكأنه يريد مطلق الألقاب كما تقدّم في غيره، وإلا فهؤلاء لا يكاتبون عن الأبواب السلطانية. قال: ولم يذكر صاحب التثقيف مكاتبة لأحد من أرباب الوظائف الدينية سوى قاضي القضاة تاج الدين الإخنائي المالكي، وقد حجّ في سنة ٧٦٧ هـ في الدولة الناصرية «حسن»، جواباً عما ورد منه. قال القلقشندي: وقد رأيت في «إيقاظ المتغفل» لابن المتوّج أنه كُتب إليه وهو مجاور بمكة: «وأعز الله تعالى أحكام المجلس العالي».

يُشئم، ولا يخرجون عن حدود الجدران، وعلى كلّ حال (فالمَنْدَلُ العَرْف[١] في أرجائه حَطَبُ).

وأنبَهُهم أمراء عرب البحيرة، وهم أشبهُ القوم بالتخلُّق بِخلائق العرب في الحَلّ والتَّرْحال، يُغْربون إلى القيروان وقابس، ويفِدون على الحضرة [السلطانيّة] وفودَ أمثالهم من أمراء العرب. والإمْرَةُ [فيهم] لمحمد بن أبي سليمان[٢] وقائدبن مقدَّم.

ورَسْم المكاتبة إلى كل منهما: «صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامي الأميريّ»[٣]. والعلامة السلطانية: [أخوه][٤]. ـ وأما مَنْ دونهما فنجمُ بن هَجْل شيخ عائذ[٥] بالشرقية.

ورَسْم المكاتبة إليه: «هذه المكاتبة إلى المجلس السامي الأمير».

ـ وناصرُ الدين عمر بن فضل بالصَّعيد. ورَسْم المكاتبة إليه مثل نجم.

ـ وشيخُ الحَدَارِبة سَمُرَة بن مالك[٦]، وهو ذو عدد جَمّ وشوكة مُنْكِية، يغزو الحبشة وأمم السودان، ويأتي بالنِّهاب والسبايا، وله أثرٌ محمود، وفعلٌ مأثور. وَفَد على السلطان وأكرم مَثْواه، وعُقِد له لواءٌ وشُرِّف بالتَّشريف وقُلِّد [ذلك]، وكُتب إلى

---

(١) كذا في ط ق. وفي الصبح: «المندل الرَّطْب». والمندل والمندليّ: عود الطيب الذي يُتبخّر به؛ منسوب إلى «المندل» من بلاد الهند. (اللسان: ندل)

(٢) قال العمري في مسالك الأبصار: «وكان آخر عهدي أن الإمرة على عُربان البحيرة لقائد بن مقدَّم وخالد بن أبي سليمان. ثم لم أعلم ما حالت به الأحوال وجرت بعدي به تصاريف الدهور».

(انظر مسالك الأبصار: قبائل العرب في القرنين السابع والثامن: ١٨٠)

(٣) في الصبح: «المجلس السامي، الأمير»

(٤) الزيادة من الصبح. وهي ساقطة من ط ق.

(٥) قال في مسالك الأبصار: «وأما العائذ فكثير في العرب، والمشهور منها بمصر عائذ جذام.»

(٦) في ط ق «بن ملك» والتصحيح من الصبح ونهاية الأرب للقلقشندي. والحداربة بطن من العرب بسواكن من بلاد البَجَاة.

ولاة الوجه القبلي عن آخرهم وسائر العُربان بمساعدته ومعاضدتـه، والركـوب للغَزو معه متى أراد. وكُتب له منشورٌ بما يفتح من البلاد، وتقليدٌ بإمرة العربان القبليّة ممـا يلي قُوصَ إلى حيث تصل غايتُه، وتُرْكَز رايتُه.

ورَسْمُ المكاتبة إليه: «السّامي الأمير» كمن تقدّم.

٢ ـ وأما عَرَبُ بَرْقَةَ فلم يبقَ فيهم من يُكاتب إلا جعفرُ بن عمر[١]، وكان لا يزال بين طاعة وعصيان، ومُخاشَنَة ولِيان، وكانت أمراء عرب البحيرة تُغري به، وتغيِّر خاطِرَ السلطان عليه، والجيوشُ في كل وقت [تَنْهَدُ][٢] إليه، وقلَّ أن ظَفِرت منه بـطائل أو رجعت بمغنم، وإن أصابته نوبة من الدهر. وآخر أمره أن ركب طريق ٱلْواحِ[٣] حتى خرج من الفيُّوم[٤] وطرقَ بابَ السلطان لائذاً بالعفـو، ووصل ولم يسبِقْ بـه خبر ولم يعلم السـلطان به حتى ٱستأْذَنَ المستأْذِنُ له عليه وهو في جملة الوقوف بالباب، فأُكرم أتمَّ الكرامة، وشُرِّف بأجلّ التشاريف وأقام مدةً في قِـرىٰ الإحسان وإحسـان القِرىٰ، وأهله لا يعلمون بما جرىٰ، ولا يعرفون أين يمَّمَ ولا أيَّ جهة نَحا، حتى أتتهم وافداتُ البشائر، وجاءتهم منه ليتحقَّقوا صحّة خبره الأمائر، وقال لـه السلطان: لأيِّ شيء ما أعلمت أهلَكَ بقصدك إلينا؟ فقال: خِفْتُ أن يقولـوا: يفْتِك بـك السلطان، فأتثبَّط. فٱستحسن قولَه، وأفاض عليه طَوْلَه. ثم أعيد إلى أهله، فٱنقلب بنعمةٍ من اللَّه وفضلٍ لم يمسَسْه سوءٌ، ولا رثىٰ له صاحب، ولا شمِتَ [به] عَدوّ.

---

(١) قال في مسالك الأبصار: «جماعة جعفر بن عمر وهم: قتيـل، المثانيـة، الباسـة، عَرْعَـرة، العظمـة، العكمة، المزابيل، العزّة. ومن جملة هؤلاء العزّة الجعافرة جماعةُ جعفر بن عمر. ومنازلهم من سوسة إلى بئر السِّدْرة، وهي آخر حدود الديار المصرية، ومسافتها عن الإسكندرية نحو شهر بسير القوافل».

(٢) في ط ق «تنهل».

(٣) الواحات في مصر، واحدتها واح، على غير قياس. وهي ثلاث كور في غربي مصر ثم غربي الصعيد. الأولى تسمى الخارجة والثانية الداخلة والثالثة الخاص.

(الانتصار: ٥/١١؛ ومعجم البلدان: ٥/٣٤١).

(٤) الفيّوم: محافظة مصرية تحتلّ منخفضاً في الصحراء الليبية غربي محافظة بني سويف. وعاصمتها مدينة الفيّوم.

ورَسْمُ المكاتبة إليه: «السّامي الأمير» مثل الأول.

٣ ـ وأما اليمن فقد كانت كُتُب أمراء الأشراف وردتْ على حضرة السلطان، ولا يحضرني الآن أسماؤهم، وإنما كُتب إليهم نسبة هذه المكاتبة إلاّ المنسوب إلى قُربى الإمام فكتب إليهم بـ «السّاميّ» بالياء؛ وأما الإمام فقد تقدَّم ذكره.

وممن يُكاتَب من عرب اليمن: الدَّواسر وزُبَيْد. كان [ذلك] إلى رجالٍ منهم بسبب خيل تسمَّى للسلطان عندهم. وكنّا نكتبِ إليهم على قَدْر ما يظهر لنا بالاستخبار عن مكانة الرجل منهم. وكلُّها ما بين «المجلس السامي الأمير» وما بين «مجلس الأمير» ليس إلاّ.

٤ ـ وأما الحجاز فعُرْبانه على قسمين: قسمٌ منهم أهلُ الدَّرْبين المصريّ والشاميّ؛ وليس فيهم من هو في عِير ولا نفير، ولا [يحلُّ][1] في ذِرْوةٍ ولا غارِب. وأجلُّ مَنْ فيهم إذا كُتب له «مجلس الأمير» كان كمن سُوِّر وطُوِّق، لا بل طِيْلس وتوِّج. وأما أمراؤه السُّراة فشيوخ لأم وخالد [والـمُنْتَفِق][2] وعائذ الحجاز؛ وهؤلاءِ من كان منهم المشارَ إليه كُتِب إليه: «صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس الساميّ الأميريّ»؛ والعلامةُ

(١) في ط ق «يملّ».

(٢) في ط ق، والصبح «المنْيَفق» بالياء المثناة تحت. والتصحيح من مسالك الأبصار ومعجم قبائل العرب ونهاية الأرب.

ـ وبنو لأم: ينتسبون إلى لأم بن عمرو بن طريف بن ثمامة بن... خارجة بن فطرة بن طَيِّء. وكانت ديارهم جبلا طَيِّء: أجأ وسلمى.

ـ أما بنو خالد فيدّعون بنوّة خالد بن الوليد. قال ابن حزم في الجمهرة: وكثر ولد خالد بن الوليد حتى بلغوا نحو أربعين رجلاً. وكانوا كلهم بالشام، ثم انقرضوا كلهم في طاعون وقع فلم يبق لأحد منهم عقب. ونقل العمري في مسالك الأبصار عن الحمداني قوله: وقد أجمع أهل العلم بالنَّسب على انقراض عقب خالد بن الوليد ويذكر القلقشندي في نهاية الأرب أربع جماعات باسم «خالد» من قبائل مختلفة، وجميعهم يدّعون الانتساب إلى خالد بن الوليد.

ـ وعائذ: بطن من سعد العشيرة من القحطانية. قال في مسالك الأبصار: ودارهم من خَرْمة إلى جُلاجِل والتويب ووادي القُرى.

ـ والمنتفق: بطن من عامر بن صعصعة من العدنانية.

الشريفة إليه «أخوه». ثم من يليهم «بالسامي» بغير ياءٍ ثم الأعيانُ من بقيَّتهم «مجلس الأمير».

٥ ـ وأما عُربان الشّام فهم جُلُّ القوم وعَينُ الناس، ولا عناية للملوك إلا بهم، ولا مبـالاة بغيرهم. ورأس الكل آلُ فَضْل، وآلُ مِراءٍ، وآلُ عليّ وهم من آل فضل. وفضل ومِراءٍ أخَوان، وهما من سلسلة من طَيّيء وهم يزعمون أنهم من ولد عليّ بن جعفر بن يحيى البرمكيّ من العبّاسة بنت المهدي؛ ولو آقتصروا على عددهم في طيّيء كان أبذخَ لشرفهم وأقومَ لفخارهم[1]، إذ لا تعدل العرب بفارس. وأما جماعاتهم فمن أشْتات العرب على آختلاف الشعوب والقبائل مستخدَمون معهم أو منضمّون إليهم.

أ ـ والبدأة بآل فَضل، إذ كانوا في نَحْرِ العدوّ، ولهم العديد الأكثر، ولهم المال الأوفر. وآل عليّ منهم، وإنما نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الإمرة إلى عيسى بن مُهَنَّا. وبقي عيسى بن مُهَنَّا جارَ الفرات في تلابيب التتار، ولهذا يُضاعَفُ إكرامهم، وتوفَّر لهم الإقطاعات، وتُسْنَىٰ العطايا. وقد صاروا الآن أهل بيتين: بيت مُهَنَّا بن

---

(١) مراده: لو اقتصروا على نسبتهم إلى طيّيء من العرب كان... الخ. قال العمري في مسالك الأبصار: وأصلهم إذا نسبوا إليه أشرف لهم لأنهم من سلسلة ابن عُنين بن سلامان من طيّيء؛ وهم كرام العرب وأهل البأس والنجدة فيهم. والبرامكة وإن كانوا قوماً كراماً فإنهم قوم عجمٌ، وشتّان بين العجم والعرب!.

قال المهمندار الحمداني: وزعموا أنهم من ولد جعفر من أخت الرشيد التي عقد له عليها ـ كما قالوا ـ لتخرج عليه على أنه لا يطؤها، فوطئها على حين غِرّة، فحبلت بغلام كان هذا ربيعة من بنيه. قال: وهذا الخبر ليس بصحيح! وإن كان صحيحاً فقد دفنت المرأة وولدها كما قيل في تمام الحكاية، ولم يُعلم لهما أثر.

قال الحمداني: والأصحّ في نسب ربيعة [وآل فضل منهم] أنه ربيعة بن حازم بن عليّ بن مفرّج بن دغفل بن جرّاح... بن عُنين بن سلامان بن ثُعَل بن عمرو بن الغوث بن طيّيء. قال العمري: وأما نسب ربيعة إلى برمك فقالوا: ربيعة بن سالم بن شبيب بن حازم بن علي بن جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك.

(انظر مسالك الأبصار: ١١٢ ـ ١١٤؛ وصبح الأعشى: ١/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥).

عيسىٰ [وهو المعبَّر عنه بأمير آل فضل][1] وبيت فضل بن عيسىٰ. وتقسَّمت بقيَّةُ بني عيسىٰ قسمين مع أهل كل بيت منهما قسم[2].

والمكاتبة إلى الأمير منهم: «أدام اللّٰه نعمة المجلس العالي، الأميريّ» بألقاب جليلة معظَّمة مفخَّمة.

وأما مَن هو نظيرُه أو مُدانيه وعدتهُ الإمرة، فرسم المكاتبة إليه:

«صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي»، ومن دونه «السامي الأميريّ». وكل هؤلاء لهم العلامة الشريفة «أخوه». فمن دون هؤلاء «السامي الأمير». والعلامة الشريفة: الاسم الشريف[3].

ب ـ وأما أمير آل عليّ فرسم المكاتبة إليه: «صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي الأميريّ» والعلامة الشريفة «أخوه»[4].

ج ـ وكذلك أمير آل مِراءٍ، ومنازلهم بلاد حوران. ومن دون هؤلاء من أقاربهم

---

(١) الزيادة من الصبح عن التعريف. ونقل القلقشندي عن ابن ناظر الجيش أنه كان في زمانه قارا بن مهنّا، ثم كان في دولة الظاهر برقوق محمد نعير بن حيار بن مهنّا بن عيسى، ثم استقر بعده في دولة الناصر فرج ابنه العجل. قال: وهو المستقرّ إلى الآن (أي إلى النصف الأول من القرن التاسع الهجري). ـ الصبح: ١٨٥/٧.

(٢) نقل العمري في مسالك الأبصار عن الحمداني قوله: «وقد صار آل عيسى بيوتاً: بيت مُهنّا بن عيسى، وأميرهم وأمير سائر آل فضل أحمد بن مهنـا. وبيت فضل بن عيسى، وأميرهم سيف بن فضل. وبيت حـارث بن عيسى، وأميرهم قنـاة بن حارث. وأما أولاد محمد بن عيسى وأولاد حُـذيثة بن عيسى وآل هِبة بن عيسى فأتباع. قال: وهذا البيت أسعد بيت في العرب في وقتنا الذي أشرقت فيه طوالع سعودهم وأينع فيهم مخضرّ عودهم. وأما بقية بيوت آل فضل فمنهم آل فرج، والأمير فيهم زيد بن طاهرة وغنّام بن وُهَيْبـة؛ وآل شُمَيْط، والإمـرة فيهم في صـافيـة بن حجير بن الصميد؛ وآل مسلم، والإمـرة فيهم في طامي بن عبّاس؛ وآل عامر، والإمرة فيهم في بني عامر بن درّاج».

(٣) وذكر في «التثقيف» أسماء جماعة من أكابر بيت مهنّا بن عيسى، وبيت فضل بن عيسى وذكر لكل منهم رسم مكاتبة.

(انظر صبح الأعشى: ١٨٦/٧).

(٤) ذكر ابن ناظر الجيش في «تثقيف التعريف» أن العلامة «والده».

لأعيانهم «السامي الأمير»، ولمن دونهم من الصغار «مجلس الأمير»، فهؤلاء الأمراء المنظور إليهم بالإجلال الموفَّر لهم حظُّ الإقبال.

د ـ ودون هؤلاءِ بنو عُقْبَة. ورسم المكاتبة إلى أميرهم مثل أمير آل مراء، وكذلك رسم المكاتبة إلى أقربائه كأقرباء أولئك.

هـ ـ وأما بنو مَهْديّ، ومنازلهم البلقاء [من مُضافات دمشق] ونسبهم في عَذْوة[1]، فإمرتهم في أربعةٍ[2]، رسمُ المكاتبة إلى كل منهم: «مجلس الأمير».

و ـ وكذلك عرب غزّة[3] فإمرتهم آل فضل بن [حجيّ][4] ورسم المكاتبة إليه: «مجلس الأمير».

وأما العرب الذين بالحفار[5] وهي منازل الرمل فلا يؤبَه إليهم، ولا يُعبأ بهم.

ز ـ أما بقيَّة عرب الشام نحو زُبَيْد المَرْج، وزُبيد حوران، وخالد حمص، والمشارقة، [وغزيَّة][6] إذا أطاعوا، وزُبَيْد الأحلاف فأجلُّ كبرائهم وأشياخهم من يُكتب له «مجلس الأمير» وهؤلاء جملة عرب الشام.

٦ ـ وأما عَرَبُ العِراق: وهم عُبادة وخَفَاجة[7]؛ ومن بني عُبادة بنو عِزّ، وهم

---

(١) كذا في ط ق. وصوابه «عُذْرَة»، وهم عُذرة من قضاعة من حِمْيَر بن سبأ من القحطانية. (الصبح: ٢١٣/٤).

(٢) سمّى ابن ناظر الجيش أمراءهم في زمانه وهم: بيرو بن ذئب بن محفوظ العنبسيّ، وسعيد بن بحري بن حسن العنبسيّ، وزامل بن عبيد بن محفوظ العنبسيّ، ومحمد بن عباس بن قاسم بن راشد العسري. (الصبح: ٢١٣/٤)

(٣) المراد «بنو جَرْم» ومرجعهم إلى طيّىء، ومنازلهم بلاد غزّة. (الصبح: ١٨٩/٧).

(٤) في ط ق «حميّ» والذي أثبتناه من الصبح ١٨٩/٧ وضوء الصبح: ٣٢١

(٥) منطقة من مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر. أولها رَفح من جهة الشام وآخرها الخشبي متصلة برمال تيه بني إسرائيل. وهي كلها رمال سائلة بيض.

(معجم البلدان: ١٤٥/٢ والمشترك: ١٠٤).

(٦) في ط ق «غزة» وهو خطأ.

(٧) ونسبهما في عامر بن صعصعة من قيس عيلان.

جماعةٌ فأجلُّ من يُكتب إليه منهم رَسْمه: «هذه المكاتبة إلى المجلس السامي الأمير».

٧ ـ وأما عَرَبُ البحرين: فمنهم قوم يصلون إلى باب السلطان وصُولَ التجّار، يجلُبون جِيادَ الخيل وكِرامَ المَهَاري واللؤلؤ وأمتعةً من أمتعة العراق والهند، ويرجعون بأنواع الحِباء والإنعام والقُماش والسكّر وغير ذلك، ويكتب لهم بالمسامحة[1] فيردون ويَصْدُرون. وبلادُهم بلاد زَرْع وضَرْع، وبرّ وبحر، ولهم مَتَاجِر مُربحة، وواصِلهم إلى الهند لا ينقطع، وبلادهم ما بين العراق والحجاز، ولهم قصور مبنيّة، وآكامٌ عليّة، وريفٌ غيرُ متّسِع، إلى ما لهم من النَّعم والماشية، والحاشية والغاشية؛ وإنما الكلمة قد صارت بينهم شتّى والجماعة مفترقة.

ورَسْمُ المكاتبة إلى كُبَرائهم: «بالساميّ» بالياء. والعلامة الشريفة «أخوه». ثم ما دون ذلك لمن دونهم. فاْعلم ذلك، فهؤلاء جملةُ العُربان المكاتَبين.

وأما المُطْلَقَات[2]

فأقسامها لا تخرج عن ثمانية أنواع: إلى الوجه القِبليّ؛ وإلى الوجه البحريّ، وإلى عامّة الديار المصرية، وإلى بعض البلاد الشاميّة، وإلى كل البلاد الشاميّة، وإلى بعض أولياءِ الدولة كالأمراء بدمشق أو حلب، وإلى قبائل العرب أو التركمان أو الأكراد أو بعضهم.

فهذه جملة ما يكتب فيها المطلقات.

---

(١) المسامحات: جمع مسامحة، وهي الجود والموافقة على ما أريد منه. وقد جرت العادة أن السلطان إذا سمح بترك شيء كتب به مرسوم شريف وشملته العلامة الشريفة. وهي على ضربين: المسامحات العظام، وما يكتب عن نواب السلطنة بالممالك الشامية. وغالب ما يكون في مسامحات التجار بمقرر وما يبتاعونه أو يشترونه أو بقدر معين يحصل الوقوف عنده، ويعبّر عما يكتب منه بـ «التواقيع». وأكثر ما يفتتح بـ «رُسم بالأمر».

(انظر صبح الأعشى: ١٣/٢٣ ـ ٣٩).

(٢) هي المكاتبات العامة إلى أهل المملكة.

[1][والمُطْلَقات على ضربين:

الأوّل: المطلقات المكبَّرة؛ وهي ما يُكتب إلى سائر النوّاب بالممالك الشريفة، خلا سِيسَ فإنها مستجدَّة. غير أنه إن رُسم بإضافته إليهم فيحتاج إلى تحرير الحال في أمره: هل يُكتب له بعد نائب طرابُلُس أو بعد نائب صَفَد؟ ولا يمكن أن يكون بعد مقدَّم العسكر بغزَّة، ولا نائب الكرك، لأن رُتْبَته في المكاتبة أعلىٰ منهما؛ فإنهانظيرُ مكاتبة نائب طرابلس وحماة وصفد][2].

[1][**الثاني**: المطلقات المصغَّرة]؛ وفي كلِّها يُكتب: «مِثالنا هذا إلى كل واقفٍ عليه من المجالس السَّامية، الأمراء، الأجلّاء، الأكابر، المجاهدين، المؤيَّدين، الأنصار، الغزاة، الأنجاد، الأمجاد، أمجاد الإسلام، أشراف الأمراء، أعوانَ الدولة، عُدد الملوك والسلاطين: الولاة، والنوّاب، والشادّين[3]، والمتصرفين بالوجه الفلانيّ، أو بالديار المصريّة، أو بالبلاد الشامية، أو بالبلاد الفلانية، أو بالديار المصرية والبلاد الشامية وسائر الممالك الإسلامية. وقد يُزاد في هذا لمقتضيه: «والثغور والحصون والأطراف المحروسة».

فإذا كان إلى الممالك الإسلامية قيل: «بالديار المصرية، والبلاد الشامية،

---

(١) اتضح لنا من خلال مقابلة نصّ العمري في (ط ق) التي اعتمدناها بالنصّ الذي أورده القلقشندي في كلامه على المطلقات، نقلاً عن التعريف للعمري، أن هناك سقطاً في ط ق، وقد نقلناه من الصبح ووضعناه بين معقوفين، استكمالاً للنصّ وتتميماً للفائدة.

(انظر صبح الأعشى: ٧/٢١٩ - ٢٢٠)

(٢) قال القلقشندي: «هذا على ما كان الأمر استقرَّ عليه من كونها نيابةً في أول الأمر؛ أما بعد استقرارها تَقْدِمةَ عسكر، فإنه يكون بعد مقدَّم العسكر بغزّة: لأن كلاًّ منهما مقدّم عسكر، ومقدَّم العسكر بغزّة أقدم من مقدّم العسكر بسيس. وأيضاً فإن غزّة مضافةٌ إلى دمشق، وسِيسَ مضافةٌ إلى حلب، ودمشقُ أكبر من حلب» ثم أورد القلقشندي صورة المطلق المكبّر نقلاً عن التثقيف لابن ناظر الجيش.

(انظر الصبح: ٧/٢٢٠).

(٣) الشَدّ: ترادف كلمة «التفتيش». ويسمى متولّي هذه الوظيفة: الشادّ، والجمع: الشادّون، ويضاف إليها جهة الاختصاص فيقال: شادّ الجوالي، وشادّ الأوقاف، وشادّ الدواوين وغير ذلك.

(انظر: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٩٣).

وسائر الممالك الإسلامية المحروسة، وما جاورها من البلاد الشرقية، والممالك القانيَّة».

وقد يكون إلى جهة الروم فيقال: «وما جاوَرَها من البلاد الروميَّة وما يليها».

فأما إذا كان إلى بعض أولياء الدولة نُظِر: فإن كان إلى عامَّة أمراء دمشق قيل: «صدرت هذه المكاتبة إلى المجالس العالية الأمراء» وبقيَّة الألقاب من نسبة ما يُكتب للمجلس العالي. فإذا انتهى إلى أعضاد الملوك والسلاطين، أو عضد الملوك والسلاطين ـ ويجوز إطلاقُ هذا الإفراد على الجمع ـ قال: «جماعة الأمراءِ مقدَّمي الألوف، وأمراءِ الطَّبْلَخانَات، وسائر مجالس الأمراءِ أمراءِ العشرات، ومقدَّمي الحَلْقة المنصورة».   (٥)

فأما ما يكون لأمراءِ حلب أو غيرها من الممالك «فبالشَّامِيَـة».

وإن كان لأمراءِ العُربان أو التركمان أو الأكراد كُتب على عادة المطلقات «بالشَّامِيَة» وكتب بعد «عُدَد الملوك والسلاطين»: «الجماعة الفلانيَّة» أو غير ذلك مما يقتضي التعريف بمن كُتب إليه.

ثم بعد «التعريف» في المطلقات: «الدعاء»، ثم الإفضاء إلى الكلام.

وفي آخر المطلقات يتعيَّن أن يقال: «فليعلموا ذلك ويعتمدوه بعد الخطّ الشريف أعلاه» أو «وسَبيلُ كل واقف عليه العملُ به بعد الخط الشريف أعلاه».

وعُنوان المطلقات مخالِفٌ لعنوان الكُتب المفردة للآحاد: فإنَّ تلك في ظاهر الورق، وهذه في باطن الورق، فوق وَصْلين أو ثلاثة، فوق البَسْمَلة، إذ كانت لا تُختم. ويُقال فيها: «مِثالٌ كريم[1] مُطلق إلى الوُلاة والنوّاب» أو غير ذلك من نحو ما في الصدر، ويضمَّن العنوان ملخَّصَ ما فيه، ثم يقال: «على ما شُرِحَ فيه» أو «حسبما شُرح فيه».

---

(١) في الصبح: «شريف».

وجميعُ المطلقات لا تُختم، اللّهم إلا بعض ما هو لأولياء الدولة، إذا كان في سِرٍّ يُكتم ولا يُراد إظهاره إلا عند الوقوف عليه، فيُختم على عادة الكتب، فاعلم ذلك[1].

وأما ترجمةُ العلامة بالقلم الشريف

فنقول: أكثرُ من يُكتب إليه من الأمراء ومماليك البيت الشريف فترجمته بالخطّ الشريف: «والده»، ومن دون ذلك «الاسم الشريف».

وأما الغرباء: كملوك المسلمين، والعُربان، وأكابر القضاة، وأهل الصلاح، والأكابر فترجمته بالخط الشريف: «أخوه» ومن دون ذلك: «الاسم الشريف». والترجمةُ على التواقيع الشريفة مطلقاً: «الاسم الشريف»، وعلى المناشير مطلقاً: «العلامة الشريفة»، وعلى شواهد ما يُكتب ما صورته: «يكتب».

ويُكتب لكبار ملوك الإسلام «الطُّغْرا»[2] فوق البسملة وهي: «السلطان الملك الفلانيّ، فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، ملك البسيطة» بألقاب طوال، ذهب، مزدوجة، سطر واحد. ويكتب الاسم بين الألقاب: قاطع ومقطوع، وتحته: «خلّد اللّه سلطانه».

---

(١) ذكر القلقشندي ضرباً ثالثاً من المطلقات، وهو «البَرالغ» بالباء الموحدة (الصبح: ٧/٢٢٩)، وكان قد ذكره باسم «اليرالغ» بالياء المثناة تحت في الجزء الرابع ص ٤٢٨، وهو الصواب.

قال: وهي كلمة تركية معناها المرسوم، وعليها جرى عُرف كتاب بلاد الشرق، وقلَّ أن تُكتب بالديار المصرية، ولذلك لم يتعرّض لها في التعريف ولا في التثقيف. ثم أورد صورة «يرلغ» شريف رآها في تذكرة العمري في الجزء السادس والأربعين منها، بخط أخيه المقرّ العلائي ابن فضل الله، كتب في أيام الناصر محمد بن قلاوون في عاشر شهر رجب الفرد سنة ٧٢٩ هـ.

(٢) هي عبارة عن وصل كان يوضع في عصر المماليك البحرية في مناشير الإقطاعات بين وصل الطُرَّة والبسملة، وترد فيه ألقاب السلطان. ولم تزل هذه الطُّغرى مستعملة في المناشير إلى آخر دولة الأشرف شعبان بن حسين ـ توفي سنة ٧٧٨ هـ ـ ثم تركت بعد ذلك ورفض استعمالها.

(صبح الأعشى: ١٣/١٦٢).

وأما جميع ملوك الكُفَّار فإن الكتبَ التي تكتب إليهم لا يشملهاالخط الشريف بالجملة الكافية، وإنما يُكتب فوق البسملة في الكتابِ - بخطّ الكاتبِ عِوَضَ العلامة الشريفة - أسطر قصيرة ببياض من الجانبين ما صورته، وتسمى الطغرا أيضاً:

من السلطان الأعظم، الملك الفلانيّ، العالم، العادل، المجاهد، المرابط، المثاغر، المؤيَّد، المظفَّر، المنصور، الشَّاهِنْشَاه، فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام، والمسلمين، مُحْيِي العدل في العالمين، وارث الملك، ملك العرب والعجم والترك، ظل اللَّه في أرضه، القائم بسننه وفَرْضه، إسكندر الزمان، مملك أصحاب المنابر والأسِرَّة والتُّخُوت والتيجان، واهب الأقاليم والأمصار، مُبيد الطغاة والبغاة والكفَّار، حامي الحرمين، خادم القبلتين، جامع كلمة الإيمان، ناشر لواء العدل والإحسان، سيد ملوك الزمان، إمام المتَّقين، قسيم أمير المؤمنين، أبي فلان، فلان ابن السلطان الشهيد الملك الناصر، والد الملوك والسلاطين، أبي المعالي محمد، خلَّد اللَّه سلطانَه ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه.

القسم الثاني من الكتاب

في عادات العهود والتقاليد والتَّفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير

اعلم أنَّ هذا ينقسم إلى أقسام:

أ ـ فمنها عُهود؛ ولا تكون إلا للخلفاء عن الخلفاء أو للملوك، ولا يكون إلا عن الخلفاء أو الملوك: تكتب لولاة العهد عن المستقلّين[1]. فأما من قام من الخلفاءِ بغير عهد ممن تقدم فإنما يكتب له مبايعة، ومعناها معنى الماجَرىٰ الذي يكتب. وأما من قام من الملوك بغير عهد من خليفةٍ ولاملكٍ متقدِّم فلم تجرِ[2] العادةُ بكتابة مبايعة له.

ب ـ ومنها تقاليد؛ ولا تكون إلا لكُفَلاءِ المُلْك، كأكابر النواب والوزراءِ ومن كان في معناهما؛ وقد يكون لأكابر قضاة القضاة.

فأما عامَّةُ القضاة فالواجب أن لا يُسمَّى ما يُكتب لهم إلا تفاويض.

فأما جمهور من عانىٰ الكتابة في زماننا وما قارَبه فعلى تسميته تواقيع، (ونبَّهنا على هذا لموضع الفائدة فيه). وآعلم أنني لا أكتب هذا إلا تفاويض؛ وأما صغار النُّواب فيأتي ذكرهم في التواقيع إن شاء اللّه، فآعلم ذلك.

---

(١) كذا في ظ ق. ولعل الصواب: «المستقيلين» أو «السابقين» أو ما في معناه.

(٢) وكأنه يريد اصطلاح بلاد المشرق والديار المصرية. أما بلاد المغرب فقد جرت عادة مصطلحهم بكتابة البيعات لملوكهم، وذلك أنه لم يكن عندهم خليفة يدينون له ويتقلّدون الملك بالعهد منه، بل جلّهم أو كلّهم يدعي الخلافة، فهم يكتبون البيعات لهذا المعنى.

(صبح الأعشى: ٩/٣٣٧).

ج ـ ومنها تواقيع؛ وهي لعامة أرباب الوظائف، جليلها وحقيرها، وكبيرها وصغيرها، حتى النوَّاب اللاَّحقين بشأْوِ الكبار فمن دونَهم. وعندي في هذا نظر: والذي أرىٰ أن يكون لمن لحِقَ بشأوِ الكبار منهم «تفاويض»، وللصغار «مراسيم»، ولأدنىٰ الطبقات منهم «تواقيع» لميزة السيوف على الأقلام؛ وكذلك تجري نسبة التواقيع على ما يُكتب في المسامحات والإطلاقات.

د ـ ومنها مراسيم؛ وهي ما يُكتب في صغائر الأمور التي لا تتعلَّق بولاية. ثم المراسيم: منها ما يُستفتح بالبسملة، وهو للأهمّ، وما لا يُستفتح بها، وهو لما هو أدنىٰ، كأوراق الجواز في الطُّرُق. ويُكتب عن النواب مثل هذا في الإطلاقات من الخزانة العالية، والإهداءِ، والإصطبلات، وخزائن السلاح، وغير ذلك. ثم إذا فهمتَ ذلك فآعلم:

أولاً: العهود

أ ـ عهود الخلفاء عن الخلفاء: لم تجرِ عادةُ سلَفِ الفضلاءِ الكتّاب أن يستفتحها إلا بما يُذكر، وهو: «هذا ما عَهِدَ به عبدُ اللّه ووليُّه فلانٌ أبو فلان، الإمامُ الفلانيُّ، أميرُ المؤمنين. عَهِدَ إلى ولَده (أو إلى أخيه) الأمير السيِّدِ الجليل، ذخيرة الدين، ووليِّ عهد المسلمين، أبي فلانٍ فلان، أيَّده اللّه بالتمكين، وأمدَّهُ بالنصر المبين، وأقرَّ به عينَ أمير المؤمنين». ثم يُنفقُ كلُّ كاتب بعد هذا على قَدْر سَعَته، ثم يقول: «أما بعدُ، فإن أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليك اللّهَ الذي لا إلٰه إلا هو، ويصلِّي على نبيِّه سيِّدِنا محمد» ويخطُبُ في ذلك خُطبةً يُكثِر فيها التحميد وينتهي فيه إلى سبعة، ثم يأْتي بعد ذلك بما يُناسب من القول، ووصف فكر الذي يَعْهَد فيمن بعده، ويصف المعهودَ إليه بما يليق من الصِّفات الجليلة. ثم يقول: «عهِدَ إليه وقلَّده بعدَه جميعَ ما هو مقلَّدَه، لم رآه من صَلاَح الأمة، ومصالح الخلق، بعد أن آستخارَ اللّهَ تعالىٰ في ذلك، ومكَثَ مدَّةً يتدبَّر ذلك، ويروِّي فيه فكرَه وخاطِرَه، ويستشير أهلَ الرأْي والنظر، فلم يَرَ أقوَمَ منه بأمور الأمة ومصالح الدنيا والدين» ومن هذا ومثله، ثم يُقال: «إن

المعهودَ إليه قبل منه ذلك» ويأتي في ذلك بما يليق من محاسن العبارة وأحاسِنِ الكلام[1].

ب ـ ما يُكتب عن الخلفاءِ للملوك: وطريقُ القدماءِ فيه على قريب من هذا النحو؛ وعليه كتبَ[2] القاضي الفاضل عهدَيْ أسَد الدين شيركوه، وآبنِ أخيهِ الملك الناصر صلاح الدين؛ وهكذا كتب شيخُنا شهابُ الدين أبو الثَّناء محمود الحلبّي عهدَيِ[3] العادل كُتْبُغا والمنصور لاجين. فأما ابنُ لقمان فقد آستفتح العهدَ المكتَتَبَ للملك الظاهر بيبرس بخطبة[4]، وليس آبنُ لقمان بحُجَّة، وإنما ذكرناه لئلا يتمسَّك به من لم يعرف حقائقَ الأقدار. على أن الفاضل مُحْيِي الدين بن عبد الظاهر تَبِعَه فيما كتب به للمنصور قلاوون[5].

(١) قال القلقشندي في الصبح: ٩/٣٦٩ «ولم أظفر بنسخة عهد على هذا الأسلوب الذي ذكره المقر الشهابي. وقد أنشأت عهداً على الطريقة التي أشار إليها لأن يكون عن الإمام المتوكل على الله أبي عبدالله محمد بن المعتضد أبي الفتح أبي بكر، خليفة العصر، لولده العباس، ليكون انموذجاً ينسج على منواله». ـ انظر نصّ العهد في الجزء والصفحة المذكورين أعلاه.

(٢) انظر نسخة ما كتب به القاضي الفاضل عهدَ أسد الدين شيركوه بالوزارة عن العاضد الفاطمي، والوزارة يومئذ قائمة مقام السلطنة ـ صبح الأعشى: ١٠/٨٠، ونسخة عهد صلاح الدين عن العاضد في نفس الجزء ص: ٩١.

(٣) نسخة العهدين في الصبح: ١٠/٤٧ و٥٣.

(٤) كتب الصاحب فخر الدين، إبراهيم بن لقمان «ت ٦٩٣ هـ» نسخة العهد للظاهر بيبرس وابتدأها بخطبة وهي: «الحمدُ لله الذي أضفىٰ على الإسلام ملابس الشرف، وأظهر دُرَرَه وكانت خافيةً بما استحكم عليها من الصُدف، وشيَّد ما وهى من علائه حتى أنسىٰ ذكر ما سلف... الخ». انظر نص العهد كاملاً في الصبح: ١٠/١١١. قال القلقشندي: «ليس ابن لقمان هو المبتكر لهذا المذهب بل كان موجوداً معمولاً به، استعمله كتّاب الإنشاء بديوان الخلافة ببغداد قبل ذلك بزمن طويل. وعليه كتب عهد العادل أبي بكر بن أيوب أخي صلاح الدين من بغداد. (نص العهد في الصبح: ١٠/٩٩) وإليه مال ابن الأثير في «المثل السائر» وذكر أن الافتتاح بـ «هذا ما عهد» قد ابتذل بكثرة الاستعمال؛ وابن لقمان تابع لا متبوع. وهو وإن كان ليس بحجة فابنُ الأثير حجة في هذا الشأن، يُرجع إليه ويُعمل بقوله. ويؤيده حديثُ: «كلُّ أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم». ولذلك مال أهل العصر إلى اختياره والعمل عليه؛ إلا أن فيه مخالفة لما وقع في عهد النبي لعمرو بن حزم وغيره من عهود الصحابة».

(٥) انظر نصّ العهد في صبح الأعشى: ١٠/١١٦، وهذا العهد عن الخليفة الإمام أبي العباس أحمد الحاكم بأمر الله.

جـ ـ وما يُكتب للملوك عن الملوك مثل ولاة العهود والمنفردين بصغار البلاد: فإنه لا تُستفتح عهودهم إلا بالخطب. وكلما كثرت التَّحْميداتُ في الخطب كان أكبر لأنها تدلُّ على عِظَم قَدْر النعمة.

وللناس مذهبان فيما يُكتب للملوك عن الخلفاءِ من الألقاب:

فالأوَّل: أن يُكتب «السلطان، السيِّد، الأجلَ، الملك الفلانيّ، العالم، العادل» مع بقية ما يناسب من الألقاب المفردة والمركبة.

والثاني: فعلى أن يُكتب لهم: «المقام الشريف أو الكريم أو العالي» مجرداً عنهما، ويقتصر على المفردة [دون المركَّبة]. وأنا إلى رأي الأوَّل أجنح، وعليه أعمل.

د ـ وأما ما يُكتب عن الملوك لأولياءِ العهود والمفردين بصغار البلاد فيكتب لهم: «المقام الشريف أو الكريم أو العالي» مجرداً عنهما، ويُقتصر على المفردة دون المركبة. على أن في هذا ضابطاً كان في القديم وهو أنه لا يُكتب لملك إلا ما كان يلقَّب به من ديوان الخلافة بالنصِّ من غير زيادة ولا نقص.

ثانياً: التَّقاليد(1)

وأما التَّقاليد فلا تُستفتح إلا بالخطَب بـ «الحمدُ للَّه» وليس إلاّ؛ ثم يُقال بعدها: «أما بعد»؛ ثم يذكر ما يَسْنَح من حال الولاية وحال المولَّى وحُسْن الفكر فيمن يصلح، وأنه لم يَر أحقَّ من ذلك المولَّى، ويُسمَّى، ثم يُقال ما يُفهم أنه هو المقدَّمُ الوصْف أو المتقدِّمُ إليه بالإشارة، ثم يُقال: «رُسم بالأمر الشريف، العالي، المولويّ، السلطانيّ، الملكيّ، الفلانيّ» ويُدعىٰ له أن يُقلَّد كذا، أو أن يُفوَّض إليه كذا؛ والأوّل أجلّ، ثم يوصي بما يناسب تلك الولاية مما لا بدَّ منه، تارةً جُمالِيّاً، وتارةً تفصيلياً. ويُنبِّه فيه على تَقْوى اللَّه تعالى، ثم يُختم بالدعاء للمولَّى بالإعانة، أو التأييد، أو

---

(1) انظر صبح الأعشى: 11/101 ـ 107.

المزيد، أو التوفيق، أو ما يجري هذا المجرىٰ. ثمّ يُقال: «وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه العملُ به بعد الخطِّ الشريف أعلاه».

ولفضلاءِ الكُتَّاب في هذا أساليب، وتَفَنُّنُ كثيرُ الأعاجيب، وكل مألوف غريب. ومن طالع كلامَهم في هذا وجد ما قلناه، وتجلَّى له ما أبْهَمْناه. والتَّقاليد يُقال في عنوانها: «تقليدٌ شريف لفلان بكذا».

ثالثاً: التَّفاويض[1]

وأما التَّفاويض فهي من هذا النَّمط، غير أنه لا يُقال بعد الخطبة إلّا «وبعد فإنَّ» ولا يُقال «يقلِّد»، وتكون أخْصَرَ من التَّقاليد. ويُقال في تعريفها: «تفويضٌ شريفٌ لفلان بكذا».

رابعاً: التَّواقيع[2]

وأما التَّواقيع فهي على هذا الأنموذج؛ وقد يقال فيها: «أن يفوِّض» وقد يُقال: «أن يُرتِّب» و«أن يقرِّر»؛ وعنوانها: «توقيعٌ شريفٌ لفلان بكذا».

وقد تُستفتح التواقيع بـ «الحمدُ للَّه» نحو ما تقدَّم، وقد تُستفتح بقول: «أما بَعدَ حَمْد اللَّهُ». وقد تُستفتح بقول «أما بعدُ فإنَّ». وقد تُسْتَفْتَح بقول: «إنَّ أوْلىٰ ما كان كذا» أو ما هذا معناه. وقد تُستفتح بقول: «مَنْ حَسُنَتْ طرائقه، وحُمدت خلائقه» أو ما هذا معناه. وقد تُستفتح بقول: «رُسم بالأمر الشَّريف» بالألقاب السلطانية الكاملة، و«الحمد للَّه» أكبرها، و«رسم بالأمر الشريف» أصغرها، وما بينهما على التَّرتيب[3].

---

(١) انظر صبح الأعشى: ١١/١١٢ ـ ١١٣.

(٢) انظر صبح الأعشى: ١١/١١٤ ـ ١٢٧.

(٣) أشار القلقشندي إلى أن هذه الافتتاحات كانت مستعملة في الدولة العباسية ببغداد، وفي الدولة الفاطمية بالديار المصرية والبلاد الشامية، ثم في الدولة التركية إلى زمن المقر الشهابي ابن فضل الله العمري في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون. ثم رفضت بعد ذلك وترك استعمالها بالديار المصرية، فلم يكن أحد من كتاب ديوان الإنشاء يستعمل شيئاً منها.

ومن آستُصْغِر من المولِّين لا يُدعىٰ له في آخر توقيعه، ولا يُقال في آخر التواقيع على آختلافها: «وسبيل كل واقف عليه» بل يُقال: «فليعتمد ما رُسِم به فيه بعد الخطِّ الشَّريف أعلاه».

خامساً: المراسيم

وأمّا المراسيم فعلىٰ هذا النحو، وينتهي في أقلّها إلى: «رُسِم بالأمر الشريف، زادَه اللَّهُ شرفاً» من غير إطالة.

فأما ما هو عن النواب في الإطلاقات فلا يكتب فيه إلا «العالي» خاصة، مجردة عن «الشريف» فآعلم ذلك.

وآعلم أنَّ شيخَنا شهابَ الدين محمود الحلبيّ ـ تغمَّده اللَّه ـ قَسَّم مقدارَ التَّحْميدة أو التوقيع تقسيماً[1] لا أرضاه؛ والذي أراه آختصارُ مقدارِ التَّحْمِيدة التي في الخطبة والخطبِ مطلقاً، وإطالةُ ما بعد ذلك، والإطنابُ في الوصايا، اللَّهم إلا لمن جلَّ قدرُه، وعَظُم أمرُه، فإنَّ الأَوْلىٰ الاقتصارُ في الوصايا على أهمِّ الجُمليات؛ ويُعتذَر في الاختصار بما يُعرف من فضله، ويُعلم من علمه، ويوثَق به تجربته، ومن هذا ومثله. والكاتبُ في هذا كلِّه بحسب ما يراه، ولكل واقعةٍ مَقَالٌ يليق بها، ولملبس كل رَجُل قدرٌ معروف لا يليق به غيره. وفي هذا غِنًى لمن عرف، وكفايةٌ لمن علم.

---

(١) يشير العمري هنا إلى ما ذكره شهاب الدين محمود الحلبي في كتابه «حُسْن التوسُّل إلى صناعة الترسُّل» حيث يقول: ويحسن أن يكون الكلامُ منقسماً في التقليد على أربعة أقسام متقاربة المقادير. فالربع الأول: الخطبة، والثاني: ذِكرُ موقع الإنعام في حقّ المقلَّد وذِكرُ الرتبة وتفخيمُ أمرها، والثالث: في أوصاف المقلَّد وذكرِ ما يناسب تلك الرتبة (. . .)، والرابع: في الوصايا. (انظر: حسن التوسُّل: ص ٣٦٨ وما بعدها). وهو: شهاب الدين، أبو الثناء، محمود بن سلمان بن فهد الحلبي الدمشقي الحنبلي. عمل في ديوان الإنشاء بمصر بعد موت محيي الدين بن عبد الظاهر أكثر من عشرين سنة، ثم ولي كتابة السرّ في دمشق بعد موت شرف الدين العمري. توفي شهاب الدين سنة ٧٢٥ هـ. (انظر ترجمته في: فوات الوفيات: ٨٢/٤؛ وشذرات الذهب: ٨٦/٦؛ والنجوم الزاهرة: ٢٦٤/٩؛ وكشف الظنون: ٦٦٦؛ وهديّة العارفين: ٤٠٧؛ والأعلام: ١٧٢/٧).

سادساً: المناشير

أما المناشير فهي ما يُكتب للأمراءِ والجند بما يجري في أرزاقهم من ديوان الإقطاع[١]؛ وشأنُه شأنُ ما تقدَّم، إلا أن المناشير أخْصَرُ، ولا وصايا فيها، ولا إطناب في مقاصِدَ للكاتب يستوفيها. ومن كان مؤهلاً لأن يُكتبَ له تقليدٌ كان منشورُه من نوعه[٢]، ومِن دون ذلك إلى أدنىٰ الرُّتب من النسبة. إلا أنه لا يُقال: «رُسِم بالأمر الشريف» وإنما العادة الجارية في المصطلح أن يُقال: «خرج الأمرُ الشريف» سواءً كان في أثناءِ المنشور أو ابتداءً.

ويُكتب لكل ذوي الطَّبْلَخانات وأدناها من له أربعون طَوَاشياً بـ «الحمدُ للّه»، ولذوي العشرات ومن لا يبلغ حدَّ أدنىٰ الطَبْلَخانات: «أما بعدَ حَمْدِ اللّه». ويُكتب لمقدَّمي الحَلْقَة وجندها: «خرج الأمر الشريف» ابتداءً. والمناشير لا يُكتب في أواخرها آلمُسْتَنَد[٣]، ويكتب فيها كاتبُ الإنشاءِ إلى أن ينتهيَ إلى قوله: «أن يجري في إقطاعه» ثم يكتبِ نصَّ ما كتب به من ديوان الإقطاع، وهو ديوان الجيوش، إلى أن

---

(١) إن تخصيص ما يكتب في الإقطاعات باسم المناشير هو مما حدث الاصطلاح عليه في الدولة التركية. أما في الزمن المتقدّم فقد كانوا يطلقون اسم المناشير على ما هو أعمّ من ذلك، مما لا يحتاج إلى ختم: كالمكتوب بالإقطاع، والمكتوب بالولاية، والمكتوب بالحماية، وما يجري مجرى ذلك.

(انظر صبح الأعشى: ١٣/١٥٧)

(٢) وقد قسَّم القلقشندي المناشير في زمانه إلى أربعة أصناف: الصنف الأول: ما يكتب في قطع الثلثين من الورق، وهو لأعلىٰ المراتب من الأمراء كمقدّمي الألوف، وكذلك لجميع النواب بالممالك الإسلامية، وللمقدّمين بدمشق.

الصنف الثاني: ما يكتب في قطع النصف، وهو لأمراء الطبلخانات بمصر والشام، وللأمراء المقدّمين من نوّاب القلاع الشامية.

الصنف الثالث: ما يكتب في قطع الثلث، وهو لأمراء العشرات مطلقاً بسائر الممالك.

الصنف الرابع: ما يُكتب في قطع العادة المنصوري، وهو للمماليك السلطانية ومقدّمي الحلقة ورجال الحلقة.

(انظر صبح الأعشى: ١٣/١٥٨ ـ ١٥٩).

(٣) أي بيان سبب ما كُتب به الكتاب.

يكمِّله، ويلتزم تاريخَ المربَّعة الجيشية[1] التي كُتب على حُكْمِهـا، لما يترتَّب على ذلك من المحاسَبات.

وثَمَّ فائدة تُعلم، وهي أن الأمير إذا رُسِم له بزيادة أو تعويض نُظِر: فإن كان من ذوي الألـوف أو من قارَبهم كُتب لـه: «أمـا بعـد [حمـد اللّهِ]»، وإن كـان من ذوي الطَبْلَخانات الصِّغار فمن دونَهم حتَّى جُند الحَلْقة كُتب له: «خرج الأمر الشريف». فأما إذا آنتقل الأمير من إقطاعٍ إلى غيره كُتب له على العادة نحو ما ذكرناه أولاً كأنه مُبتدأ.

[الطُّغْرىٰ التي تكون بين الطُّرَّة والبسملة]

وقد جرت العادةُ أن تُكتب للمناشير الكبار ـ كمقدَّمي الألوف والـطَّبْلَخانـات ـ طُغْرىٰ بالألقاب السلطانية، تكون فوق وصلٍ[2] بياضٍ فوق البسملة. ولهذه الطُّغْرىٰ رجـلٌ مفردٌ لعملهـا وتحصيلها بـالديـوان. فإذا كتب الكـاتبُ منشـوراً أخـذ من تلك الطُّغراوات واحدةً وألصقها فيما كتب به، فآعلم ذلك.

[في مقادير قَطْع الورق]

وأما مقادير قطع الورق الذي يُكتب فيه فللعهود: القَطْع الكامـل بقلم مختصر الطّومار[3]، وللتقـاليد: قـطع الثلثين وقطع النصْف بقلم الثلث الكبيـر، وللتَّفاويض وكبـار التَّواقيـع والمراسيم: قَـطْعُ النصف وقلمُ الثُّلُث الخفيف، ولما دون ذلـك من التواقيع والمراسيم: قَطْعُ الثُّلُث وقلمُ التَّوْقيعـات، ثم لما دون ذلك: قَطْعُ العادة وقلمُ الرِّقاع. وهكذا حُكْمُ المناشير في الترتيب.

وهذا مُنْتَهًى تَصِلُ إليه، وتفصيلٌ لائقٌ قِسْ عليه، وباللّه التوفيق.

---

(١) أي المنشور الذي يأتي من ديوان الجيش، وفيه أمر الإقطاع. وكانت العادة أن يكتب في ورقة مربّعة.

(٢) في التثقيف: بعد وصلين أو ثلاثة من الطرّة.

وحول هذه الطغراوات وطريقة كتابتها انظر صبح الأعشى: ١٣/١٦٢ وما بعدها.

(٣) حول أنواع الورق ومقادير قطعها وأنواع الأقلام انظر: صبح الأعشى: ٣/٤٧ ـ ٤٨.

وأما المُسْتَندات فقد تقدَّم أن المناشير لا يُكتب في آخرها المستند؛ وأما التَّواقيعُ والمراسيمُ والمربَّعات والكُتب فإنها يُبيِّن فيها سَبَبُ ما كتب به؛ وأما ما كان مستَنَدُ شاهِده بتلقِّي «نائب السلطنة الشريفة» فإنه يُكتب ما صورته: «بالإشارة العالية، الكافليَّة، الفلانيَّة، أعلاها اللَّه تعالى»، وأما ما كان شاهِدُه بتلقِّي [أُسْتَادار العالية][1]. فإنه يُكتب ما صورته: «بالإشارة العالية، الأميريَّة، الفلانيَّة، أعلاها اللَّه تعالى»، وأما ما كان شاهِدُه بتلقِّي «أمير آخور»[2] فإنه يُكتب: «برسالة الجناب العالي، الأميريّ، الفلانيّ، أمير آخور الفلانيّ، ضاعف اللَّه نعمته»؛ وأما ما كان شاهِدُه بتلقِّي «الدوادار»[3] فإنه يُكتب: «برسالة المجلس السامي، الأميريّ، الفلانيّ، فلان، الدوادار الفلانيّ، أيَّده اللَّه تعالى». وأما ما كان شاهِدُه بتلقِّي صاحب ديوان الإنشاءِ الشريف فإنه يكتب: «حسب المرسوم»؛ وأما ما كان شاهِدُه بتلقِّي صاحب ديوان الإنشاء والموقِّعين بدار العدل فإنه يكتب: «حسب المرسوم الشريف من دار العدل»؛ وأما ماكان شاهِدُه من «ديوان الخاص الشريف» أو من ديوان الجيوش المنصورة فيُقال: «حسب المرسوم الشريف» ثم يقال فيه: «من ديوان كذا». وهذا شيء كان في المراسيم المربَّعة لا غير، وكان الذي يكتب في ديوان الإنشاءِ بما يتلقَّى عنهم يقال فيه: «حسب المرسوم الشريف» لا غير، كما يقال فيما يتلقاه صاحب ديوان الإنشاء، فأوجب في هذا الوقت أن يكون هذا الضابطَ في الجميع ليُعرف المستندُ في الوقت الحاضر من غير تأخير.

ومَوضِعُ كتابة المستَنَد في التواقيع التي على ظهور القصص على الجانب الأيمن من الورقة، بين السطرين الأول والثاني، وفي البقيَّة بعد التاريخ.

---

(١) في ط ق «أستاذ الدار العالية». راجع ص ١٠٤ الحاشية (١).

(٢) من الفارسية: «آخور» بمدّ الألف بمعنى المعلف أو المذود، ثم أطلقت على الإسطبل. وقد عرف صاحب هذه الوظيفة عن سلاجقة الروم باسمين: أمير آخور، وكند إصطبل. وأمير الآخور عند المماليك هو الناظر في أمور الاسطبلات والمناخات السلطانية ورئيس العاملين بها جميعاً.

(انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ص ١١).

(٣) أي متولّي أمر دواة السلطان. (المرجع السابق)

وأما أوراق الطريق[1] فإنها لا يُكتبِ فيهـا إلا: «حَسَب المرسـوم الشريفـ» لا غيـر، وموضِعُهـا من ورقة الـطريق موضعُهـا من التواقيـع التي على القصص، واللَّه الموفِّق.

(1) وتسمَّى أيضاً: أوراق الجواز؛ وهي أوراق تسمح لحاملها بالتوجّه إلى جهة قصده والعود منها، مع الإشارة إلى المعنيين بالأمر بمعاملته بالإكرام والاحترام. وهي لا تكتب إلا لأمير أو ذي قدر كبير.
(صبح الأعشى: ٧/٢٣٢).

(جملةٌ من الوصايا التي تُذكر في العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم)

وهذا بابٌ كبير، وللقلم فيه سَبْحٌ طويل. ولو تكلَّفْنا آستيعابَ الوصايا لألزمنا تكليفَ ما لا يُطاق، وإنما نقدِّم منها المهمَّ، ونأتي بالجوامع كالتَّبْصِرَة للناظر، والتنبيه للغافل؛ ومن كان ذا خاطر تفجَّرت له ينابيعُه، وجَرَتْ له شِعَابُه[1].

١ ـ عهودُ الخلفاءِ إلى ولاة العهود وإلى الملوك، وعهودُ الملوك من الملوك، وكل ذلك في طبقة تتقارب؛ والوصيَّةُ فيها:

«بتقوىٰ اللَّه وإقامة حدوده، والشَّرْعِ الشريف وتشييد عُقوده، والوفاءِ بعهوده، وأخْذِ مال اللَّه بحقِّه، وصَرْفِه في مستحقِّه، والاجتهادِ في الجهاد، وحُسن النظر للأمراءِ والأجناد، وطوائف العرب والتُّرْكُمان والأكراد، وغَزْوِ أعداءِ اللَّه بَرّاً وبحراً، وقَصْدهم حيث كانوا بُعداً وقرباً، ورعاية الرعايا وعمارة البلاد، وتأمين الجوَادّ، وإفاضة المهابة التي تَقْشَعِرُّ لها عُصَبُ الفساد، وعمارة المعاقل والقلاع والحصون والثغور، وحماية الأطراف والمواني، وجَمْع كلمة الأمة، وآستعباد القلوب بالإحسان،

(١) قال القلقشندي: «والوصايا مختلفةٌ باختلاف موضوعاتها إلا أن الجميع يشترك في الوصيّة بتقوى الله، فهي الأسُّ الذي يبني عليه، والركن الذي يستند إليه. وهذا الباب هو الذي يطول فيه سبح الكاتب، ويحتاج فيه إلى سعة الباع؛ فإنه ما لم يكن الكاتب حاذقاً بما يلزم ربَّ كل ولاية ليوفِّيها في الوصيّة حقها، ضلَّ عن الطريق، وحاد عن جادّة الصنعة. ولذلك يُقال للكاتب: «القلم الأكبر» لأنه بصدد أن يعلِّم كلَّ واحد من أرباب الولايات ما يلزمه في ولايته.» ثم ذكر القلقشندي أنواعَ الوصايا لكل واحد من أرباب الولايات. ثم أشار إلى أن الكتابة بهذه الوصايا قد توقف في زمانه.

(انظر صبح الأعشى: ١١/٩١ وما بعدها)

وإقامة مَنَار العدل والإنصاف، والأخذ من الظالم للمظلوم، وللضَّعيف من القويّ، وتأمين الحَرَمين وبيت المقدس الذي هو ثالث المساجد التي تُشَدُّ إليها الرِّحال، وإقامة موسم الحجّ في كل عام، وتجهيز السبيل على أكمل العوائد، وإجراءِ ضرائح الأنبياءِ ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على أكمل ما يكون من الإكرام، والتَّوْقير والاحترام، ورعاية من فيها من القَوَمَةِ والخُدَّام، وتحرير مَعَايير النقود والمعاملات، والتَّأنِّي في آرتياد الأكفاءِ للولايات، وتقديم الأحَقِّ فالأحَقِّ، والوصيَّة بذُرِّيَّة من يموت أبوه في موقف جهاد أو موضع خِدْمة، وببقايا أربابِ البيوت، وصَرْف وجوه الصَّدقات والمرتَّبات التي أجرتها الملوك لذوي الاستحقاق ـ ما لم يكن مانع ـ وإجراءِ جهات الأوقاف على آختلافها في مجاريها، وصرفها في مصارفها، وعلى حُكْمِ شَرْطِ واقِفِها؛ وإذا بلغ الرأي المَشُورة آستشارَ فيه وآجتهد، وله رأيُه. ولْيُقِمِ البريدَ وينصبْ له عيوناً تأتيه بالأخبار، وتستنطق له ألسنةً تُشافهه بالأنباء. ولا يزال للأحوال متفقِّداً، وللأمور متعهِّداً، يبدأ بالأهمِّ فالأهمّ، ويقدِّم الأَوْلى فالأَوْلى، ويُحسن في كل أمرٍ فعلاً وقولا. وليكنْ في هذا كله بقوةٍ من غير عَسْف، ولينٍ من غير ضَعْف، وأَنَاةٍ لا يتراخى بها مدد الإمهال، ولا تُودي عواقبُها إلى الإهمال». وغير هذا في هذا ومثله من كل ما يُقال.

٢ ـ وصيَّةُ نائب سَلْطنة:

«يوصَىٰ بتقوى اللَّه وتنفيذ الأحكام الشرعيَّة، ومُعاضَدة حُكَّامها، وآستخدام السُّيوف لمساعدة أقلامها، وتفقُّد العساكر المنصورة وعَرْضِها، وإنْهاضِهم لنوافل الخدمة وفَرْضِها، والتخيُّر للوظائف، وإجراءِ الأوقاف على شَرْطِ كلِّ واقف، والملاحظة الحُسنىٰ للبلاد وعمارة أوطانها، وإطابة قلوب سُكَّانها، ومعاضدة مباشِري الأموال مع عدم الخروج عما أُلِف من عدل هذه الأيام الشريفة وإحسانها، وتحصين مالديه، وتحسين كلِّ ما أمرُهُ إليه، وآستطلاع الأخبار والمطالعة بها، والعملِ بما يرد عليه من المراسيم المطاعة والتمسك بسببها؛ وأنه مهما أشكل عليه يستضيءُ فيه بنور آرائنا العالية فهو يكفيه، ومن قُتِل من الجند أو مات وخلَّف ولداً يصلح لإقطاعه يُعيِّن

له ليقوم بمخلّفيه، ويُقال من هذا ما يقوم بتَمام الغَرَض ويوفّيه».

٣ ـ وصيَّة وزير:

«يوصىٰ بتقوىٰ اللّه فإنه عليه رقيب، وإليه أقربُ من كل قريب، فلْيجعَلْه أمامه، وليطلُبْ [منه][1] لكل ما شرَع فيه تَمامَه؛ وليُجِلْ رأْيه في كل ما تَشُدُّ به الدولةُ أزرَها، وتُسْنِد إليه ظهرَها؛ وليجعـلِ العدلَ أصـلاً يبني على أُسّه، والعمـلَ في أموره كلّهـا لسلطانه لا لنفسه؛ وليدَعْ منه الغرضَ جانبا، وحظَّ النفس الذي لا يبدو إلا من العدوّ وليصدقْ من دعاه صاحبا؛ ولْيُبصِرْ كيف يُثمِّر الأموالَ من جهاتها، وكيف يخلِّص بيوتَ الأمـوال ـ بالاقتصـار على الدراهم الحـلال ـ من شُبُهاتهـا؛ ولينزِّهْ مـطاعِمَ العسـاكـر المنصورة عن أكل الحرام فإنه لا يُسمن ولا يغني من جوع، ولا يُرىٰ به من العين إلا ما يُحرِّم الهُجُوع؛ وليحذَرْ من هذا فإن المفاجيءَ به كالمخاتِل؛ وليتجنبْ إطعامَ الجند منه فإن [آكِلَ][1] الدِّرهمِ الحرامِ ما يُقـاتِل؛ وليُحسنْ كيف يـولِّي ويعزِل، ويسمِّن ويَهـزِل؛ وعليه بـالكُفاةِ الأُمنـاء، وتجنُّب الخَوَنـة وإنْ كانـوا ذوي [غنـاء][2]؛ وإيـاه والعاجز، ومن لو رأىٰ المصلحةَ بين عينه رأىٰ بينه وبينها ألفَ حاجز؛ وليطهِّر بابـه، ويُسهِّل حِجابَه، ويفكِّرْ فيما بَعُدَ أكثرَ مما قَرُبَ: مقدِّماً للأهمّ فالأهمّ من المصالح، وينظر إلى ما غابَ عنه وحضَر نظرَ المماسي والمصابح؛ ولا يستَبْدِل إلا بمن ظهر لديه عجزُه أو ثبتت عنده خيـانتُه؛ ولا يـدعْ من جميل نـظره مَنْ صحَّت لديـه كِفايتُـه، أو تحقَّقَتْ عنده أمانتُه؛ وليسلكْ أقْصَدَ الـطرق في أمر الـرواتب التي هي من صَدَقـاتنا الشريفة وصَدَقات من تقدَّم من الملوك، وهي إما لمن وجب له حَقٌّ وإن كانَ غنياً أو عُرِف صَلاَحُه وهو صُعْلوك؛ وكذلك ما هو لأيتـامِ الجند الـذين ماتـوا على الطَّاعَـةْ، وأمثالهم ممن خدم دولتنا القاهرة بما آستطاعَهْ: فإنَّ غالِبَ مَنْ مات منهم لم يخلِّف لهم إلا ما نَسْمحُ لهم به من معروف، ونُجريه لهم من جارٍ هو أنفعُ من كثير ممـا يخلِّفه الآباء للأبناء من المال المتملَّك والوقف الموقوف؛ وليصْرِف آهتمامه إلى آستخلاص

---

(١) الزيادة من صبح الأعشى.

(٢) في ط ق «غنى». والتصحيح من الصبح.

مالِ اللّٰه الذي نحن أمناؤه، وبه يَشْغَلُ أوقاتَه وتمتلي كالإناء آناؤه؛ فلا يدَعْ شيئاً يجب لبيت المال المعمور من مستحقِّه؛ ولا يتسمَّحْ في تخلية شيءٍ منه كما أننا نُوصيه أنه لا يأخذ شيئاً إلا بحقِّه؛ وليُبقِ لأيامنا الزاهرة بتواقيعه ذِكراً لا يفنىٰ، وبِرّاً لا يزال ثمرُه الطَّيبُ من قلمه يُجْنىٰ، ليكون من رياح دولتنا التي [تغتنم][1] ما يُثيره من سحابها المَطِير، وحَسناتِ أيامنا التي ما ذُكرنا وذُكر معنا فيها إلا وقيل: نِعْمَ الملك ونِعْمَ الوزير!».

٤ ـ وصيَّةُ نائب قلعة:

«وعليه بحفظ هذه القلعة التي زُفَّت إليه عَقيلتُها الممنَّعة، وجُلِيَتْ عليه سافرةً ودونها السماءُ بالسُّحب مقنَّعة، وسُلِّمت إليه مفاتيحُها ـ وخواتيمُ الثريا أقفال ـ وأوقدتْ له مصابيحُها ـ وقناديل[2] البروق لا تُشَبُّ لقفَّال؛ فليبدأ بعمارة ما دعتِ الحاجةُ إليه من تجديد أبنيتها، وتشييد أفنيتها[3]، وشدِّ عقودها، وعَدِّ ما لا يُحصىٰ في الذخائر من نُقُودها، وتنبيه أعين رجالها والكواكبُ قد همَّتْ برقودها، والأخذ بقلوب من فيها، وتَدَارُك بقيَّة ذَمَائهم[4] وتلافيها، وجَمْعِهم على الطاعة، وبَذْرِ الإحسان فيهم إذا عَرَفَ أرضاً تزكو فيها الزراعة، والتَّمادي لهم: فربَّ رجال تجزىٰ عن عِدّةِ سنين في ساعة، وتحصينِ هذا الحصن المنيع بما يدَّخَرُ في حواصله، ويُستمدُّ بعمارة البلاد المختصَّة به من واصِله، وما يكون به من المجانيق التي لا تُرقىٰ عقارِبُها، ولا تُوقىٰ منها أقارِبُها، ولا تُرَدُّ لها مَضارِب، ولا يُكَفُّ من زُبَانَىٰ[5] زَبَانِيتها كلُّ ضارب، ولا يُخطيءُ سَهْمُها، ولا يَخْفىٰ بين النجوم نجمُها، ولا يُعرف ما في صندوقها المقفل، من البلاء المُرْسَل، ولا في فخذها المشمَّر الساق من النشاط الذي لا

(١) في ط ق «تقيم» وما أثبتناه من الصبح.

(٢) في الصبح «وفتائل».

(٣) في الصبح «أقبيتها» وهي أوضح في المقام.

(٤) الذَّماء: بقيّة الروح في المذبوح وغيره.

(٥) زُبانىٰ العقرب: قرنها، وهما زُبانَيَان.

والزَّبانية: الشُّرَط. وسمي بها بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها.

يكْسَل؛ وغيرها من [الرايات][1] التي في غيرها لا تُشَدّ، ولسوى خيرهـا لا تُعَدّ[2]، ومـا يُرمىٰ فيهـا من السهام التي تَشُقُّ قلبَ الصخـر، ويُبكي خنساءَ كـلِّ فاقـدةٍ على صَخْر؛ وكذلك قِسِيُّ اليد التي لا يَدَ بها ولا قِبَل. وكَنائنُ السِّهام التي كم أصبح رجلٌ وبه منها مِثْلُ الجبل، وما يصان من العدد[3] واللَّبوس، ويعدّ للنعم وللبُوس، وما يمدّ من الستائر التي هي أسوارُ الأسوار، ولمَعَاصِم[4] عقائل المَعَاقِل منها حِلًى سوى كلِّ سِوار، وهي التي تُلاثُ لُثُمها على مَباسِم الشُّـرُفات، وتُضـرب حُجُبُها على أعـالي الغُرُفات؛ وسوى هذا مما [تعتصم][5] به شوامخُ القِلال، ويُتبوَّأ به مقاعد للقتال، فكلُّ هذا حَصِّلْه وحصِّنْه، وآحسبه وحسِّنْه، وأعِدَّ منه في الأمن لأوقات الشدائد، وآجرِ فيه على شأو مَنْ تقدَّم وزِدْ في العوائد؛ وهكذا ما يُدَّخر من عُدَد أرباب الصنائع، ومَـدَد التحصين المعروف بكثرة التَّجارِبِ في الوقائع، والأزواد والأقوات، وما لا يُزال يُفَكَّر في تحصيله لأجل بعض الأوقات؛ وكُنْ من هذا مستكثراً، وله على ما سواه مُؤْثـراً، حتى لا تزال رجالُك مطمئنَّةَ الخواطر، طيبةً في غِلْق[6] القلوب ما عليها إلا السُّحُبُ المَوَاطِر، وآعملْ بعادةِ القلاع في غَلْق أبواب هذه القلعة وفتحها، وتَفَقُّدِ متجـدِّدات أحوالِها في مساء كل ليلة وصُبحها، وإقامة الحَرَس، وإدامـة العَسَس، وآلحِذار ممَّن لعله يكون قد تَسَوَّر أو آخْتَلَس، وتعرَّف أخبـارَ مَنْ جاورك من الأعـداء حتىٰ لا تزال على بصيره، ولا تبرح تُعِدُّ لكل أمرٍ مصيرَه، وأَقِمْ نُوَبَ الحمام الذي قد لا تجد [في] بعض الأوقات سواه رَسُولاً، ولا تجد غيـره مُخبراً ولا سـواه مسؤولاً، وطالِـعْ أبوابَنـا العاليةَ بالأخبار، وسارعْ إلى ما يرد عليك منها من آبتداءٍ وجواب، وصُبَّ فِكرَك كلَّه إليها وإلى ما تتضمَّنُه من الصَّوَاب».

---

(١) في ط ق «الزيارات» وهو خطأ.

(٢) في ط ق «يعد». وفي الصبح «تعقد».

(٣) هذا اللفظ ساقط من الصبح. وفي بعض النسخ: «من العَدَد والعُدَد واللَّبوس».

(٤) في ط ق «والمعاصم».

(٥) في ط ق «يعصم».

(٦) في الصبح: طيبة القلوب... الخ.

٥ ـ وصيَّةُ أستادار:

«وليتفقد أحوالَ الحاشية على احتلاف طوائفها، وأنواع وظائفها، وليرتِّبها في الخدمة على ما يجب، وينظر في أمورهم نَظَراً لا يخفىٰ معه شيءٌ مما هم عليه ولا يحتجب؛ وليبدأ بمهمِّ السِّماط المقدَّم الذي يُقدَّم، وما يتنوَّع فيه من كل مَطْعَم، وما يمدُّ منه في كل يوم بُكْرةً والعصر، وما يُستدعىٰ معه من الطواريء التي لا يحدُّها الحدُّ ولا يحصرها الحصر، وأحوال المطبخ الكريم الذي منه ظُهورُ تلك المَخافي، ووَفاء ذلك الكرم الوافي، والتقدُّم إلى الأمناء والمشرفين فيه بأمانة الإنفاق، وصيانة المآكل مما يُعاب على الإطلاق؛ ثم أمر المشروب وما تُغلق عليه أبوابُ [الشَّراب خاناه][1] السعيدة من لطائف مأكولٍ ومشروب، وشيء عزيز لا يوجد إلا فيها إذا عَزَّ المطلوب، ومراجعة الأطباء فيما تجري عليه قوانينها، وتُشَبُّ لطبخه من جَمْر[2] اليواقيت كوانِينُها، وإفراز ما هو للخاص الشريف[3] منها وما هو للتفرقة، وما لا يصرف إلا بخَطِّ الطبيب ولا يسلم إلا إلى ثِقَة؛ ثم «الطَّشْت خاناه»[4] السعيدة التي هي خِزانة اللِّباس،

---

(١) في ط ق «الشرنجاناه» وهو تصحيف. وتكتب أيضاً: الشرابخاناه. ولفظ «خاناه» فارسي ومعناه المخزن. والمراد: مخزن الشراب. وكانت الشراب خاناه تحتوي على أدوات الشراب النفيسة من أنواع الصيني والطاسات النحاسية والشوك والكيزان، وتشتمل على أنواع مختلفة من المشروبات والحلوى والسكر والفواكه والعطريات، حتى الأدوية والعقاقير، إذ كانت أشبه بالصيدلية، فكان لذلك يطلق عليها أحياناً «الدواء خاناه». وكان يخزن فيها أيضاً الثلج الذي كان يجلب من الشام إلى مصر. وكان يشرف على الشراب خاناه «مهتار» يعرف بمهتار الشراب خاناه، يتسلم حواصلها، وتحت يده غلمان يسمون: الشرابداريّة.

(انظر: صبح الأعشى: ٤٧٢/٣ و ١٠/٤ ـ ٢١، و ٤٦٩/٥ ـ وزبدة كشف الممالك: ص ٢٢٥ ـ ونهاية الأرب للنويري: ٢٢٤/٨)

(٢) في الصبح: «خُمْر».

(٣) أي ما هو مختصٌ باستعمال السلطان.

(٤) معناه: بيت الطشت. وسميت بذلك لان فيها الطشت الذي تغسل فيه الأيدي ويغسل فيه القماش. وقد غلب استعمال لفظ «الطشت» بشين معجمة مع كسر الطاء؛ وصوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء. وكان بالطست خاناه ثياب الخليفة أو السلطان المفصلة والتي لا بد لها من الغسل. وكان يوجد فيها أدوات غسل الملابس الخاصة بالسلطان والساكنين في القلعة. وكان لها مهتار يشرف عليها، ومعه غلمان

وموضع ما نُبرزُ به من الزِّينة للناس، وما يُحتاج إليه من آلات التطبيب، وما يعيَّن لها من الصابون وماءِ الورد والطيب، وغير ذلك من بقية ما هي مُسْتَقرُّه، ويؤخذ منها مُستَدرُّه، ومن يُستخدم بها ممن بَريءَ من الرِّيب، وعُرف بالعفاف والأدب، وعُلم أنه من أهل الصِّيانة، وعلى ما سُلِّم إليه ومَنْ خالطته الأمانة؛ ثم «الفِراشخاناه»[1] وما يُنصب فيها من الخيام. وما يكون فيها من فَرْش [سَفرٍ ومُقام][2]، وشَمْع يفضَّضُ كافورُ كافوريَّته آبَنُوسَ الظلام؛ ثم غِلمان الإصطبل السعيد والنَّجَّابة[3]، وإنْ كان إلى سواه آستخدامهم، ولدىٰ غيره مستَقرُّهم ومُقامُهم، لكنهم ما خرجوا من عَديده، ولا يَرُوقهم ويَرُوعهم إلاّ حَسَنُ وَعْدِه وخَشِنُ وعيده؛ ثم المُناخات السلطانية وما بها من جِمال، وما يسرح فيها من مالٍ وجَمال، ومن يستخدم فيها من «سَيْرَوان» و «مِهْمَرْد»[4] وما فيها من قطار مزدوج وفَرْد؛ فيوفِّر لهذه الجهة نصيباً من النظر يشاهد أمورَها وقد غابت في الأقطار، وتفرقت كالسُّحب يلزمها القِطَار القَطَّار؛ وليكونوا على باله فإنهم يسرقون ذَرَّةَ الكُحْل من العين ومعهم الذَّهَبُ العينُ محمّلاً بالقِنْطار. فليُحسن منهم الارتياد، وليتخيَّر أرقَّهم أفئدةً فإنهم بكثرة ملازمتهم للإبل مثلُها حتىٰ في غِلَظِ الأكباد. وطوائف المُعامَلين، والأبقار ومَنْ عليها من العاملين، وزرائب الغنم

= يسمون «الطشت دارية» أو «الطستداريّة» ومعناها الغسالين، والرختوانية أي المنظفين. وقد أطلق على جميع العمال الذين يعملون بالطست خاناه أي الذين يقومون بالغسيل والتنظيف وغير ذلك لقب «البابا» وهو لفظ يوناني ومعناه: أبو الأباء، والقصد من ذلك تعظيمهم لأنهم يعملون على ترفيه مخدومهم ويمسكون بأيديهم ملابس السلطان الداخلية عند تنظيفها.

(التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٣١ ـ ٢٣٢).

(١) وكان موضعها بالقصر، بالقرب من دار الملك.

(انظر: صبح الأعشى: ٤٧٣/٣؛ وزبدة كشف الممالك: ١٢٥)

(٢) في ط ق: «تنفر ونقام»، والتصحيح من الصبح.

(٣) النجّابة أي البريديّة.

(٤) المِهْمَرْد: هو الذي يتصدّى لحفظ قماش الجمال أو قماش الإصطبل والسقّائين ونحو ذلك. ومعنا بالفارسية: الرجل الكبير. من لفظين: مِهْ بمعنى كبير، ومَرْد بمعنى رجل. (انظر صبح الأعشى ٤٧١/٥). أما لفظ سيروان فلم نعثر على معناه فيما بين أيدينا من المراجع. ولعله «الرختوان» ـ انـ المصدر السابق.

وخَوَلَتِها ورِعَائها، وأصناف البيوت الكريمة وما تطلبه في آستدعائها، ونفقات الأمراء المماليك السلطانية في إهلال كل هلال، وما يُصرف في كساويهم على جاري عادتهم أو إذا دعت إليه ضرورةُ الحال، وما يؤخذ عليه خطُّه من وصولات تُكتب، وآستدعاآت تُحْسَب من لوازمه وهي للكثرة لا تُحْسَب؛ فليكن لهذا كله مراعياً، ولأموره واعياً، ولما يجب فيه دُونَ ما لا يجب مستدعياً أو إليه داعياً؛ وهو كبيرُ البيت وإليه يرجع أمرُ كل مملوك ومستخدَم، وبأمره يؤخر من يؤخَّر ويقدِّم من يُقدَّم، ومثلُه يُتَعَلَّم منه ولا يُعَلَّم، وعَصَاه على الكلِّ محمولةٌ على الرِّقاب، مبسوطةٌ في العفو والعقاب، ومكانه بين أيدينا حيث نراه ويرانا ولدينا قابَ قوسين أو أدنى من قاب.

وعليه بتقوىٰ اللّه فبها تمامُ الوصايا وكمال الشروط، والأمرِ بها فعصاه محكمة وأمره مبسوط، وكلُّ ما يُناط بنا: من خاصَّة أمورنا في بيتنا ـ عمَّره اللّه ببقائنا وزاد تعميره ـ بتدبيره مَنُوط».

٦ ـ وصيَّةُ مقدَّم المماليك[١]:

«وليُحسِنْ إليهم، وليعلمْ أنه واحدُ منهم ولكنَّه مقدَّمٌ عليهم، وليأخذ بقلوبهم مع إقامة المهابة التي يُخَيِّل إليهم بها أنه معهم وخلْفَهم وبين يديهم، وليُلْزِم مقدَّم كلِّ طبقة بما يَلْزَمه عند تقسيم صَدَقاتنا الجارية عليهم: من ترتيب الطِّباق[٢]، وإجراءِ ساقيةٍ جارية من إحساننا إليهم ولا يَنْسَ السوَّاق؛ وليكن لأحوالهم متعهِّداً، ولأمورهم متفقِّداً، وليستَعْلِمْ أخبارَهم حتى لا يزالَ منها على بَصِيرة، وليعرفْ ما هم عليه مما لا

(١) وهو الذي يتحدَّث في أمر المماليك السلطانية والحكم بينهم، ويركب خلفهم إذا ركب السلطان كأنه يحفظهم.
(صبح الأعشى: ١١/١٧٣).

(٢) الطِّباق أو الأطباق: ومفردها طبقة؛ وهي الأماكن التي يسكنها المماليك الذين يشتريهم السلطان أو حتى الأمراء، وهي المدارس العسكرية. وكانت هذه الطباق موجودة في أماكن متفرقة في القاهرة وخارجها، ولا سيما في القلعة، حتى لقد بلغ عددها اثني عشر طبقاً أو أكثر، وكان بعضها يشغل مساحة كبيرة كأنه حيّ بأكمله قد يحتوي على ألف مملوك.
(التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٢٨).

يخفىٰ عليه فإنهم إن لم يكونوا له أهلاً فإنهم جيرة، وليأمرْ كلاً منهم ومن مقدَّميهم والسوَّاقين بما يلزمهم من الخدمة، وليرتِّبْهم على حكم مكانتهم مِنَّا فإن تساوَوْا فليقدِّمْ مَنْ له قُدْمَة، وليعدِلْ في كل تَفْرِقَة، وليُحْسن في كل عَرْض ونَفَقَة، وليفرِّق فيهم ما لهم من الكَساوىٰ ويُسبل عليهم رداءَ الشَّفَقة، وليُعِدَّ منهم لغابِنا المَحْمِيّ سِباعاً تفترس العادِيَة، وليُجْمِل النظرَ في أمر الصِّغار منهم والكِبار أصحاب الطبقات العالية، وليأخذهم بالركوب في الأيام المعتادة، والدخول إلى مكان الخدمة الشريفة والخروج على العادة، وليُدِرْهم في أوقات البياكِر[1] والأسفار نِطاقاً دائِرَ الدِّهْليز[2] المنصور، وليأمرهم أمراً عاماً بأن لا يركب أحدٌ منهم إلا بِدُسْتُور[3] ولا ينزل إلا بدُسْتور، وليحترِزْ عليهم من طوائف الغِلْمان[4]، ولا يستخدم منهم إلا معروفاً بالخير ويُقيمُ عليه الضُّمَّان، وليحرِّزْ على من دخل عليهم وخرج، ولا يفسح[5] لأحد منهم إلا من عُلِمَ أنه ليس في مثله حَرَج، ولا يدع للرِّيبة بينهم مجالاً للاضطراب، وليُوصِ مقدَّميهم بتفقُّد ما يدخل إليهم فإنَّ الغِشَّ أكثره من الطعام أو الشراب، وليُدِمْ مراجعتنا في أمرهم فإنَّ بها يَعرِفُ الصوابَ، وليعمل بما نأمره به ولا يجد جَوًى في جواب».

٧ ـ وصيَّةُ أمير آخور:

«وليكن على أكمل ما يكون من إزاحة الأعذار، والتأهُّب لحركاتنا الشريفة في ليلٍ كان أو نهار، مقدِّماً الأهمَّ فالأهمّ من الأمور، والأبدأ فالأبدأ من تقديم مراكبنا

---

(١) في صبح الأعشى «البياكير». والبيكار: لفظ فارسي معناه الحرب عامة. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٧٠)

(٢) هي الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب، وتختلف عن غيرها من الخيم والدهاليز الكبيرة التي تقام للسلاطين في الصيد والتنزه ـ بكونها خيمة قائمة بذاتها، ليس بجوانبها خيم صغيرة كالتي تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان في أيام السلم.
(Dozy: Supp. Dict. Ar.)

(٣) أي إذن.

(٤) أي غلمان الطِّباق.

(٥) كذا في ط ق. وفي الصبح «يفتح»

السعيدة وتهيئة موكبنا المنصور، وترتيب ذلك كلّه على ما جرت به العوائد، وتحصيل ما تدعو الحاجةُ إليه على قدر الكفاية والزوائد. والنظر في جميع إصطبلاتنا الشريفة، والجشارات[1] السعيدة، وخيل البريد، والركائب المعدة لقطع كل مـدًى بعيد، وما يجتمع في ذلك وينقسِم، وما يُركب منها ويُجْنَب مما يَسِم الأرض بالبدور والأهِلَّة من كل حافر ومَنْسِم، وما هو برسم الإطلاق، وما يُعدُّ لمماليك الطِّباق، وخيل التِّلاد، وما يُجلب من قَوْد[2] كل قبيلة من القبائل ويجيء من كل بلد من البلاد، والمشترىٰ مما يُباع من المواريث ويُستعرض من الأسواق، وما يُعدُّ للمواكب وللسِّباق؛ وليُجِلْ رأْيه في ترتيب ذلك كلّه في مراتبه على ما تقتضيه المهمَّات، والاحتراز في التِّلاد مما لعله يُبدَّل ويقال هو هذا أو يؤخذ بحجة أنه مات؛ وليجتَهِدْ في تحقيق ما نَفَق؛ وليجـرِّره على حكم ما يتحقَّق عنده لا على ما آتّفق، وكذلك ليكن فحصُه عمَّن يستخدم عنده من الغِلْمان، ولا يهمل أمورَهم مع معاملتهم بالإحسان، ولا يَستَخدِمُ إلا من تُشكـر سيرتُه في أحواله، وتُعرف خِبرتُه فيما يراد من أمثاله؛ وكذلـك الرِّكـابةُ الـذين تَملك أيـديهم أعِنَّة هـذه الكرائم، والتَّحـرُّز في أمـرهم ممن لعلَّه يـأْوي إليهم من أربـاب الجرائم، والأوشاقيَّةُ[3] الذين هم مثل مماليكـه وهم في الحقيقة إخـوانه، وجمـاعة المباشرين الذين هم في مباشرة الإصطبلات السعيدة ديوانُه، وكل هؤُلاءِ يُلزمهم بمـا يُلزم أمثالهم من السلوك، ويُعلمهم ما يجب عليهم أن يتعلَّموه من خدمة الملوك، ولا يسمح لأحد منهم في أمرٍ يُفضي إلى إخلال، ولا يقتضي فَـرْطَ إدلال، وليُقِمْ أَوَدَهم بالأدب فإنَّ الأدبَ ما فيه إذلال؛ وكل هؤُلاءِ الطوائف ممن يتجنَّبُ العامَّةُ مخالـطتهم لما طار في أيـام من تقدَّم على أمثـالهم من سوء السُّمْعـة، ويُتخوَّف منهم السـرعة، فليكن لهم منك أعظمُ زاجر، ومَنْ شُكِيَ إليك منهم فسـارع إلى التنكيل بـه وبادِر، وآشهَرْ من فعلك بهم ما يوجب منهم الطُّمأنينة، ولا يعـود أحدٌ بعـده يكذِّبُ يقينـه،

---

(١) جمع جشار؛ وهو مكان رعي الماشية من خيل وغيرها.

(٢) من معاني القود: الخيل، وهو المناسب هنا. (انظر اللسان).

(٣) الأوشاقية أو الأوجاقية: واحدها أوشاقي أو أوجاقي، وهو الذي يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة. (صبح الأعشى: ٥/٤٥٤)

وأمراء أخورية الذين هم أتباعُك، وبهم يمتدُّ باعُك، هم بحسب ما تجعلهم بصَدَدِه، وما منهم إلا من يقدر [أن] يتعدّىٰ حدَّه في مقام قَدَمه وبَسْط يَدِه، فاجعل لكل منهم مقاماً معلوماً، وشيئاً تجعل له فيه تحكيماً؛ وتثمين الخيول المشتراة والتَّقادِم قوِّمها بأهل الخبرة تقويمَ عدل، وقل الحقَّ ولا يأْخذك فيه لومٌ ولا عَذْل، وما يُصرف من العليق برَسْم الخيول السلطانية ومن له من صدقاتنا الشريفة عَليق، مُرْ بصرفه عند الاستحقاق واَضْبطه بالتعليق، وتصرَّفْ في ذلك كله ولا تتصرَّف إلا تصرُّف شفيق؛ وصُنْه بأقلام جماعة الديوان ولا تقنع في غير أوقات الضرورة برفيق عن رفيق؛ وكذلك البراسيم[1] السنوية أصلاً وزيادة، ولا تصرفْ إلا ما نأْمر به وإلا فلا تخرج فيه عن العادة؛ ونُزَلاؤك من أمراء العربان عاملهم بالجميل، وزِدْ في أخذ خواطرهم ولو ببسْطِ بساط الأُنْس لهم فما هو قليل، لتضاعِفَ رغبتَهم في كل عام، وليستدِلُّوا ببشاشة وجهك لهم على ما بعده من الإنعام؛ وبغال الكُوسات[2] السعيدة والأعلام المنصورة، وأبغال الخزانة العالية المعمورة، اجعلها من المهمات المقدَّمة، والمقدِّمات لنتائج أيام النصر المُعْلَمة، ورتِّبها في مواقفها، وأتمَّها أتمَّ ما يكون من وظائفها، فبها تثبتُ مواقفُ العسكر المنصور، وإليها يأْوي كل مستظِلٍّ ورَحَىٰ الحرب تدور، وغير ذلك من قُماش الإصطبلات السعيدة من الذَّهب والفِضَّة والحرير، وكلَّ قليل وكثير، باشره مباشرةَ من لا يتخلَّى، وأَحْصِه خَرْجاً ودَخْلا، وإياك والأخذَ بالرُّخَص، أو إهمالَ الفُرَص، أو طلَبَ فائتِ جُرْم أهملتَه حتى نَكَص».

٨ ـ وصيَّةُ والي حَرْب:

«وهو يعلم ما عَلِقَ بذمَّته من أمر الجمهور، وقُبِلَ فيه قولُه من ستْرِ المهتوك وهَتْك المستور، وما يجمعه سواد البلد من غُثاء السَّيْل، وما يغطِّي عليه دُجىٰ الليل من الويل، فليجعل هذا منه ببال، وليسترفِعْ أوراقَ الصباح حتى لا يخفىٰ عليه ما تستُره

---

(١) في الصبح «البراسيم السلطانية». والبرسيم: نبات يستعمل للعلف.

(٢) الكُوسات: من رسوم السلطان وآلاته؛ وهي صنوج من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٩٠)

سُودُ اللَّيالِ؛ وليخمدْ نَوَائرَ العامة فإنها أطير شَراراً من النيران، ولْيَزَعهم بهيبة السُّلطان فإنَّ اللّه لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن. ونحن نُوصيه أنه لا يُغلق باباً مفتوحاً ولا يفتح باباً مُغلقاً، ولا يقتل عَقْرباً يمكن كَفُّ شرِّها بالرُّقا؛ وليتتبَّع المفسدين لإقامة ما أمر اللّهُ به من الحدود، وليراجع الشَّرْعَ الشريف إذا أبهم عليه المقصود، وليتغافلْ عمَّن تستَّر بداره في جُنْح اللَّيالي الأثائث[1]، وليُعقِمْ نَسْلَ الخمر فإنها أمُّ الخبائث، ولْيُرِقْ ما ظفر به من أجلابها، وليؤدِّبْ تجَّارَها وبئس التجار ويبالغ في آدابها، ولينصب الأرْصَادَ على من دخل بها أبواب المدينة أو أتىٰ البيوتَ من غير أبوابها، وكذلك أختها في مُخَامَرة العقل، وشقيقتها في التأديب، إن لم يكن الحدّ لعدم النقل؛ وهي الحشيش التي يُعرَفُ آكِلُها دون الناس بعينه، وتقضيه من سكر المُدام ما فاته من دَيْنه، وتبدو صفراءَ في وجهه سوداءَ في جسمه خضراءَ في فمه حمراءَ في عينه، مثلما تجري الضرب المبرِّح من دمه فإنها طالما حسَّنت لأهلها الشَّهوات، وأعطته طعمَ المرِّ وهي نبات، طال ما طلبها هي وأختَها الخمر إبليسُ وآستدعاها، وأخرج بها لسوائمه الضَّالة ماءَها ومرعاها؛ وليخلِّص من الحقوق ما رُفِعَ إليه، ويطالب به مَنْ مَطَل به وقد أوجبه الحقُّ عليه، ولينتقد أرباب الزَّغل نَقْدَ الصَّيارف لزيفهم المردود، ولْيُقم عليهم السِّياسةَ إذا لم تُمْضَ عليهم الحدود؛ وليتفقد المُحبوس في كل حين، ويتعرَّف أحوالها ليعرف ما يفعله عن يقين؛ وليستعد لطواريء المهمَّات، وعوادي الدلمَّات، ولا يبيت كل ليلة إلا وهو متأهِّب لإطفاء كل نار، وإخماد كل لَهَب وأوَّلها نار الفتن وما يطير فيها من شَرَار، وإن وقع والعِياذُ باللّه حريقٌ في قطر من أقطار المدينة يعجِّل إليه البدار، ويعجِّل بهدم أبنيته وهَدْم ما حوله حتىٰ لا يؤْخَذَ الجارُ بالجار؛ وليكن عنده من طوائف السَّقَّايين والقصَّارين مَنْ لا يجد في خوض الماء مَشَقَّه، ولا تطول عليه شقَّه، ولا يرىٰ جداراً دبَّت في أحشائه النار إلا ويطفيء بما عنده من الماء ما عندَه من الحُرْقه؛ والحذر ممن في بابه فإنه لا دواء لدائهم العُضال، ولا آستقامةَ لمن حادَ منهم

---

(١) الأثائثُ والأثاثة: الكثرة والعظم من كل شيء. يقال: أثَّ النباتُ أي كثر والتفَّ، فهو أثيث، والأنثى أثيثة، والجمع أثائث وأثايث. والمراد بالليالي الأثائث: الليالي المدلهمة السوداء. (انظر اللسان)

وحاد إلا بأخذ الروح والمال؛ ونحن منه بـمَرْأى ومَسْمَع، فليتق الله وليحْـذَرْنا ففي هذا وهذا الخير أجمع».

٩ ـ وصيَّةُ أتَابَك(١) المجاهدين:

«وأنت ابنُ ذلك الأب حقيقة، وولد ذلك الوالد الذي لم تُعمل له إلا من دماء الأعداء عقيقة؛ وقد عُرفتَ مثله بثَبات الجَنان، وصُلْتَ بيدك ووصلتَ إلى ما لم يصِلْ إليه رمحٌ ولا قدَر عليه سِنَان، ولم يزاحمك عدوٌّ إلا قال له: أيها البادي المقاتل كيف تزاحم الحديد، ولا سمّيَ اسمُك لجبّـار إلا قال له: **﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الموتِ بالحقِّ ذلكَ ما كُنْتَ منه تَحِيد﴾** [ق: ١٩]؛ وأنت أولىٰ مَنْ قام بهذه الـوظيفة، وألّف قلوبَ هذه الطائفة التي ما حَلَم بها الحالم إلا وباتَ يُرْعَدُ خِيفَة، فليأخذ هذا الأمرَ بزِمَامه؛ وليعمل للّه ولإمامه، وليرْمِ في حبِّ البقـاء الدائم بنفسـه على المنيَّة، وليـنادِمْ على مُعاقَرة الدِّماء زُهورَ سكاكينه الحَنيَّة. واطبَعْ منهم زُبَراً(٢) تطاوِلُ السُّيوفَ بسكاكينها، وتأخذ بها الأسودَ في عَرينها، وتمتدُّ كأنها آمالٌ لما تريد، وتُرْسَل كأنها آجالٌ ولهذا هي إلى كل عدوّ أقربُ من حبل الوريد؛ وأذْكِ منهم شُعَلاً إذا دُعيت لأحسابها لا تجد إلا متحاميا، وارمِ منهم سهاماً إذا دُعِيَتْ بأنسابها الإسماعيلية فقد جاءَ أن إسماعيل كان راميا؛ وفرِّج بهم عن الإسلام كل مَضِيق، واقلَعْ عن المسلمين من العَوَانِيَة كلَّ حجر في الـطريق؛ وصَـرِّف رجـالَـك الميـامين، وتصيَّـد بهم فـإنهم صُقـورٌ ومَنَــاسِـرُهم السَّكاكين؛ واخطِف بهم الأبصار فبأيمانهم كلُّ سِكِّينة كأنها البرقُ الخاطِف، واقطفِ الرؤوسَ فإنها ثمراتٌ أينعت لقاطِف، واعرِف لهم حقَّهم وضاعِف لهم تكريماً، وأدِمْ لهم بنا بِراً عميماً، وقدِّم أهلَ النَّفْع منهم فقد قدَّمهم الله **﴿وفَضَّـلَ اللَّهُ المجاهِـدينَ**

---

(١) الأتابك: من الكلمتين التركيتين: «أتا» بمعنى الأب، والشيخ المحترم لسنّه؛ واللقب التركي «بك» بمعنى الأمير. ويطلق على أمير أمراء الجيش: «أتابك العساكر». ويرى القلقشندي أن أصله «أطابك» بالطاء المهملة، وأن أول من لقب بذلك زنكي أطابك صاحب الموصل، ثم غلبت فيه التاء المثناة بدل الطاء.

(تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي: ١١٢؛ وصبح الأعشى: ٤/ ١٨)

(٢) زُبَر الحديد: القطع الضخمة منه.

على القاعِدينَ أجراً عَظيماً﴾ [النساء: ٩٥] - وأعلم أنهم مثلُ الوحوش فَزِدْ في تأنّسهم، وآشكر إقدامهم فطالما آقتحموا على الملوك وما هابوا يَقظةَ حَرَسِهم، وآرفع بعضهم على بعض درجات في نَفَقات تَسافيرهم وقُعود مَجلِسهم، ولا تسوِّ بينهم فما هم سَواءٌ و ﴿لا يَسْتَوِي القاعدونَ من المؤمنينَ غيرُ أولي الضَّرر والمجاهدونَ في سبيلِ اللّه بأموالهم وأنفسهم﴾ [النساء: ٩٥] -. وأصلُ هذه الدعوة ما زالت تنتقلُ بالمواريث حتىٰ آنتهتْ إلينا حقوقُها، وأوْمَضَتْ بنا حيث خلعَتْ هياكِلُها بجَرْعاءِ[١] الحمىٰ بروقُها؛ واللّه تعالىٰ يوفِّقه ويُرشده، ويُطوِّل باعَه لما قَصُرت عنه سواعد الرماح ووصلت إليه يَدُه».

١٠ ـ وصيَّةُ أمير مكَّة المعظَّمة:

«وليعلم أنه قد وُلِّـيَ حيث وُلد بمكة في سُرَّة بَطْحائها، وأُمِّر عليها ما بين بطن نَعْمانها إلى فَجْوَة رَوْحائها[٢]، وأنه قد جُعل له ولاية هذا البيت الذي [به] تمَّ شرفُه، وعَلَتْ غُرَفُه، وعَرَفَ حَقَّهُ له أَبْطَحُهُ ومُعَرَّفُه[٣]، إذ كان أوْلىٰ وُلاة هذا الحَرَم بتعظيم حُرُماتِه، وسرور جوانبه بما يلوح من البِشْر على قَسَماته، ولأنه أحَقُّ بني الزهراءِ بما أبقته له آباؤه، وألقته إليه من حديث قُصَيٍّ جَدِّه الأقصىٰ أنباؤه؛ وهو أجْدَرُ من طهَّر هذا المسجدَ من أشياءَ يُنزَّه أن يلْحَقَ به فُحْشُ عابِها[٤]، وشنعاء هو يعرف كيف يتتبَّعها وأهلُ مكَّةَ أعْرَفُ بشعابها.

فليتلَقَّ رايةَ هذه الولاية باليمين، وليتوقَّ ما [يتخوَّف][٥] به ذلك البلدُ الأمين،

---

(١) الجرعاء: الأرض ذات الحُزونة تشاكل الرمل.

(٢) الرَّوْحاء: بقعة منبسطة من عمل الفُرْع على نحو من أربعين يوماً. والفُرْع: قرية من نواحي المدينة. ونَعْمان: وادٍ بين مكة والطائف (معجم البلدان: ٣/٧٦ و ٤/٢٥٢ و ٥/٢٩٣).

(٣) المُعَرَّف: موضع الوقوف بعرفة. والأبطح: موضع منبسط يُضاف إلى مكة وإلى منى، لأن المسافة بينه وبينهما واحدة.

(معجم البلدان: ١/٧٤ و ٥/١٥٥)

(٤) العاب والعيب بمعنى واحد.

(٥) في ط ق «يتحوّن». والتصحيح من الصبح.

وليعلَمْ أنه قد أعطىٰ اللَّهَ عهدَه وهو بين رُكْنٍ ومَقَام، وأنه قد بايع اللَّه، واللَّهُ عزيزٌ ذو آنتقام، وليَعْمُرْ تلك المَواطن، ويعمّ ببرِّه المارَّ والقاطن، وليعمل في ذلك بما [يُنَجِّثُ عنه نِجارُه][1]، ويـأْمَنُ به سُكّـانُ ذلك الحـرم الذي لا يـروِّعُ حَمامُـه فكيف جارُه، ولْيُنْصِت إلى آسمه [عزَّ وجـلَّ] حيث يُعلِن به الـدَّاعي على قُبَّة زَمْـزَمَ في كل مسـاءٍ وليعرف حقَّ هذه النعمة، وليعامل من وُلِّيَ عليهم بما يليق أن يُعامَلَ به من وقف تحت مِيزابِ الرحمة؛ وقد أكَّدَ مَوْثِقَه واللَّهَ اللَّهَ في نَقْضِه، ومدَّ عليه[2] يَدَه والحجرُ الأسودُ يمينُ اللَّه في أرضه، وليتبصَّرْ أين هو فإنَّ اللَّه قد آستَأْمَنَه على بيته الذي بناه، وسلَّمه إليه بمَشْعَره الحرامِ ومسجدِ خَيْفِه[3] ومِناه؛ وإنه البيتُ المقصود: وكلُّ من تشوَّقَ حِمى ليلىٰ فإنما قَصَدَه أو لَعْـلَـعَ بلَعْلَع[4] فإنما عَنَاه؛ وفي جَمْعه يجتمع كلُّ شَتيت، وفي ليالي مِناه يَطيبُ المَبيت، وبمُحَصَّبِهِ[5] تُقام المواسم، وتفتَرُّ الثغور البـواسم، وتهبُّ من قِبَل نَعْمان الرياحُ النواسم، وفي عَقْوة داره محَطُّ الرِّحال في كل عام، ومقَـرُّ كل ذات عُود تُجْذَبُ بقِلْع وعُوذٍ[6] تُقادُ بزمام، وإليـه تضرب الـرجالُ البـراريَّ والبحار، وتأْتيه الوُفودُ على كل قطار يُحدَىٰ من الأقطار؛ وكلُّ هؤلاءِ إنما يأْتون في ذِمام اللَّه بيتَه الذي من دَخَله كان آمنا، وإلى مَحَلِّ آبنِ بنتِ نبيِّه الذي يلزمه من طريق بِرِّ الضَّيف ما أخذ لهم وإن لم يكن ضامنا.

فـليأْخـذ بـمـن أطـاعَ مَنْ عصىٰ، وليردَعْ كلَّ مفسِد ولا سِيَّما العبدُ فإنَّ العبدَ لا يـزجـره إلا العصا، وليتلقَّ الحُجَّاجَ بالرُّحْبِ والسَّعَة، فهم زُوَّارُه وقد دعـاهـم إلى

---

(١) في ط ق «ينجب به نجاده». والتصحيح من الصبح.
وينجِّث: يستخرج. والنِّجار: الأصل.

(٢) الضمير يعود إلى الحجر الأسود. وعبارة صبح الأعشى: «ومدَّ يده على الحجر الأسود. يمين الله في أرضه».

(٣) مسجد الخيف في منى. (معجم البلدان: ٢/٤١٢)

(٤) لعلع: موضع ماء في ديار بكر. وقيل: منزل بين البصرة والكوفة.
(انظر معجم البلدان: ٥/١٨. وصفة جزيرة العرب: ٢٦٤)

(٥) المحصَّب: موضع رمي الجمار بمنى. (معجم البلدان: ٥/٦٢)

(٦) العائذ: جمع عُوذ، وعوذان، وهي الناقة تكون حديثة عهد بالنِّتاج. (لسان العرب)

بيته وإنما دعاهم إلى دَعَة؛ وليتلقَّ المحْمِلَ الشريفَ والعصائبَ المنصورة، وليخدُمْ على العادة التي هي من الأدب مع اللَّه مَعْنًى ومَعَنا صورة؛ وليأخذ بخواطر التُّجار فإنهم سبَبُ الرِّفْق لأهل هذا البلد وتَوْسِعَةِ ما لديهم، والمستجابُ فيهم دَعْوَةُ خليله إبراهيم ـ صلوات اللَّه عليه ـ إذ قال: ﴿وٱجْعَلْ أفئدةً من النَّاس تَهْوي إليهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ولا تَتحيَّفْ أموالَهم بغرامةٍ يقِلُّ بها الغُنْم، ولا بظلامة فإنه بإزاء هذا البيت الذي يُرِدُّ دونَه من اراد فيه إلْحاداً بظُلم؛ ولينظُرْ كيف حُبِسَ دونَه الفيل، وليكفَّ عادِيَةَ من جاوره من الأعراب حتى لا يخافَ ٱبنُ سبيل؛ وليُقِمْ شعائرَ الشَّرْعِ المطهَّر، وأوامِرَ أحْكامِه التي قامت بأبويه: بحكم جدِّه سيِّدنا محمد ﷺ وسَيْفِ أبيه حيدر؛ وليأمر طوائفَ الأشراف وأشياعَهم وسائرَ أهلِ موالاتهم وأتباعهم بلزومِ ما كان عليه صالحُ السَّلَف وما عليه الإجماع، وتَجَنُّبِ ما كانت الزَّيْدِيَّةُ قد زادت فيه وكَفِّ الأطماع؛ وليتَّقِ اللَّهَ فإنه مسؤولٌ لديه عما ٱسترعاه وقد أصبح وهو له رَاع؛ وإياه أن يتَّكِلَ على شرف بلدِهِ، فإن الأرض لا تقدِّسُ أحدا، أو شَرَفِ مَحْتِدِه، فإن يوم القيامة لا ينفعُ فيه ولدُ والداً ولا والدٌ وَلَدا».

١١ ـ وصيَّةُ أمير المدينة المشرَّفة:

«فكمِّلْ بتقوى اللَّه شرفك، وٱتْبَعْ في الشريعة الشريفة سلَفَك؛ وكتابُ اللَّه المُنَزَّل؛ أنتم أهلُ بيت فيكم تنزَّل، وسُنَّة جدِّكم سيِّدنا رسولِ اللَّه ﷺ لا تُهْمل، وهي مجدُكم المؤثَّل، ومعرفةُ حقٍّ من مضى عنكم، وإلا فعمَّن تُنقل، ومنكم، وإلا فممَّن تؤمَّل؛ وإزالة البِدَع وإلا فلأيِّ شيءٍ سيوفُكم تُصْقَل، ولماذا رِماحُكم تعدَّل؛ والرافِضَةُ وغُلاةُ الشِّيعة هم دَنَسُ من ٱنتمىٰ إلى هذا البيت الشريف بولائه، وسبب وقوف من يقصِد الدُّخول تحت لوائه، فهم وإن حُسبوا منَ أمداده، ليسوا ـ وحاشى نوره الساطع ـ إلا من المكثِّرين لسواده؛ أرادوا حِفظَ المودَّة في القربىٰ فأخلُّوا، وقصدوا تكثيرَ عددهم فقلُّوا، وأنِفَ من هو بريءٌ من سوءِ مذهبهم، أن يتظاهر بالولاءِ فيعدَّ في أهل البدع بسببهم، مع أنهم طمعوا في رِضَىٰ اللَّه فأخطأتهم المطامِع، وصحيح أنهم

زادوهـم عدداً إلا أنها كزيادة [الشَّغْياء][1] أو كزيادة الأصابع. فصمِّمْ عزمَك على ما عاهدْتَ اللَّه عليه من رفع أيدي قُضاتهم، ومنعهم هم ومن اتَّبع خطوات الشيطان في سبيل مَرْضاتهم، وحذِّرْهم مما لا يعود معه على أحد منهم سِتْرٌ يُسْبَل، ولا يبقى معه لغير السَّيف حُكمٌ يقبل؛ فمن خاضَ للسَّلف الصالح يَمّ ذَمٍّ أُغرق في تيّاره، أو قدَح فيهم زِناد عِنادٍ أُحرق بناره؛ وألْزِمْ أهل المـدينة الشـريفة بكلمـة السُّـنـة فإنهـا أوّل ما رُفعت بتلك المواطن المعظَّمة أعلامُها، وسُمعت في تلك الحُجرة المكرَّمة أحْكامها، مع تَعْفِيه آثار ما ينشأ على هذه البدعة من الفتن حتىٰ لا ينعقد لها نَقْعُ مُثار، وتوْطئة أكناف [ذلك] الحِمىٰ لئلاّ يبقىٰ به لمُبْطلٍ في مدارج نُطْقه عِثار؛ والوصيَّةُ بسكّان هذا الحرم الشريف ومن ينزل به من نَزيل، ويجاور به مستقرًّا في مِهاد إقامة أو مُسْتَـوْفِزاً على جَنـاح رحيل، ومن يهـوي إليهم من ركائب، ويـأوي إليهم من رُفقة مـالت من نَشَوات الكَرىٰ بهم راقصاتُ النَّجائب، ومن يصـل من ركبان الآفـاق، وإخوان اَلسَّوىٰ يَتَشاكَوْنَ إليهم مُرَّ الفِراق، ومن يتـلاقىٰ بها من طـوائفَ كلُّهم في بيوت هـذا الحيِّ عُشَّاق، وأمم شَتَّى جموعُهم من مِصرٍ وشام ويَمَن وعراق، وما يصل معهم في مَسِيل وفودنا، وسَبيل جُودنا، ومَحَامِلنا الشـريفة التي يُنصب لنـا بها في كـل أرض سَريـر، وأعلامنا التي ما سُمِّيت بالعِقْبان إلا وهي إليها من الأشواق تطير؛ فمتىٰ شعرت بمَقْدَم ركابهم، أو بَرقَتْ لك عوارض الأقمار من سماءِ قِبابهم، فبادر إلى تَلَقِّيهم، وقبِّل لنا الأرضَ في آثار مواطيهم، وقم بما يجب في طاعة اللَّه وطاعة رسولـه ﷺ وطاعتنـا، وأخرجْ عنهم كلَّ يد ولا تُخرجهم عن جماعتنا.

وأهلُ البادية هم حِزبُك الجيش اللُّهام، وحربك إذا كان وَقُودَهـا جُثَثٌ وهَام، وهم قـوم لـم يؤدِّبْهم الحضَـر، ولا يبيت أحـدٌ منهم لأنَفَتِـه على حَـذَر؛ فـاَستجلِبْ بمداراتك قلوبَهم الأشتات؛ وبادر حبال إبلِهم النافرةِ قبل البَتات[2]، وترقَّب مراسِمَنا

---

(١) في ط ق «الشفاه» وهو خطأ. والسِّنُّ الشاغية والشغياء هي الزائدة على الأسنان، وهي المخالفة لنبتة غيرها من الأسنان. (انظر لسان العرب)

(٢) في الصبح «الانبتات».

المطاعةَ إذا ذَرَّت لك مشارقُها، وتأَهَّبْ لجهاد أعداء اللّه متىٰ لمعت لك من الحروب بوارِقُها، وأَحسِنْ كما أحسَنَ اللّه إليك، ولـولا أن السيف لا يحتاج إلى حِلْيـةٍ لأطلنا حمائِلَ ما نمليه عليك، فما شَهِدَ للشَّريف بصحَّة نَسَبه، أزكىٰ من عمله بحَسبه؛ واللَّهُ تعالىٰ يقوِّي أسبابَك المتينة، ويمتِّع العيونَ بلوامعك المُبينة، ويمْسك بك ما طال به إرجاف أهْلِ المدينة».

١٢ ـ وصيَّةُ ناظر الحرمين:

«وليعلم أن نَظَرَه في هذا البيت المقـدَّس نظيـرُ نَظَرِه في البيت المحـرَّم، وأن تَذَمُّمَه بضريح الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام مثلُ تَذَمُّمِه بقبر ابنه سيِّدِنا محمد صلَّى اللّه عليه وسلَّم، وأنه إذا أمَّ القدسَ كان تشبيهاً بقَصْـد مكَّةَ إذا يَـمَّمْ، وإذا زَمَّ المـطايا إلى عين سُلْوَانَ[1] كان كمن زمَّ إلى زَمْزَم، وإذا زار بلدَ الخليل كان مثلَ من زار طَيْبَةَ[2] إلا أنه ما أَسْبَل فاضِلَ بُرْدِه ولا تلثَّم، وإذا علا نَشَزاً من جبالِ الأرض المقدَّسة كان كأنما علا جبال الحجازوإن لم تحدّ ركائبه بأحد ولا ألمَّ بيَلَمْلَم[3].

فليُباشر هذا النَّظَر بعينَ لا تَمَلُّ من النظر، ولا تخلّ بمصالح يوفي بها النَّذْرَ مَنْ نَذَر، وليتعهَّد هـذين الحرمين الشـريفين متعهّداً لأوقـافهما تعهُّـدَ المطر، وليتـردَّدْ في أكنافهما وليتفقدْ دوام إسعافهما بما وصلت إليه طاقته وما قَـدَر، وليُقم وظائفهمـا أتمَّ القيام، وليُدِم عوارِفَهما التي تعمُّ من جاور فيهما مقيماً أو مرَّ بهمـا وما أقـام؛ وليلزِمْ أربـابَ الخِدَم فيهمـا بما يلزم كـلاً منهم عمله، وليرم في قلوبهم رُعبـاً لا يغيب عَن عيانهم، وليمدَّ السِّماطَ الكريم للظَّاعِن والمقيم، وليعلم أنه قد نابَ عن صاحبه عليه

---

(١) سُلوان: محلة في ربض مدينة بيت المقدس، تحتها عين عذبة تسقي جناناً عظيمة وقفها عثمان بن عفان على ضعفاء البلد، تحتها بئر أيوب. ويزعمونَ أن ماء زمزم يزور ماء هذه العين ليلة عرفة.
(معجم البلدان: ٤/١٧٨)

(٢) طَيْبَة: اسم للمدينة المنوّرة (انظر معجم البلدان: ٤/٥٣)

(٣) يَلَمْلَمْ: ويقال: أَلَمْلَمْ؛ وهو موضع على ليلتين من مكة؛ وهو ميقات أهل اليمن، وفيه مسجد مُعاذ بن جبل. (معجم البلدان: ٥/٤٤١)

الصلاة والسلام في إفاضة بِرِّه العميم، وإضافة الطَّارِق المنتاب في ضُحىٰ النهار ودُجىٰ الليل البهيم، ووقف في بابه يتلقىٰ الضِّيفان وهو يعلم ما يلزم من وقف في باب كريم؛ وليبسط يديه بسماح ذلك الجُود، ويفتح ويمد ذلك السماط فإنهما ما آنقطعا من الوفود.

وأصْلُ الوصايا تقوىٰ اللّه، وما يُنبَّه على وصيَّة إلا وفيه أحسنُها، وبآدابه الحسنىٰ يقمع مسيئها ويُزاد محسِنُها».

١٣ ـ وصيَّةُ أمير العرب:

«والتَّقوىٰ دِرْعُك الحصين، والشَّرْعُ الشريف سبيلُك المُبين، والحدودُ والقصاص بهما تمنع المَحَارِم، والجهاد فإن فيه شفاءً لصدور الصَّوَارم؛ فآقتَدْ بالإنصاف زمام زمانك، وآثْنِ إلى الحقّ عنانَ عنانِك، وفرِّغ فكرك لمصالح الإسلام، وآمنع كل طارقٍ حتىٰ الطَّيْف في الأحلام، ومزِّقْ بعزمك جَلابيبَ الدَّيْجور، وفرِّقْ بغَوْثك والصبح بالكوكب الدرّيّ منحور، وآستعلِمْ أخبارَ العِدا في طليعة كل صَبَاح، وتأهَّبْ لهم فربَّ يوم يجيءُ بوجه وَقَاح[1]، وآثْبتْ في اللقاءِ ثَبَاتَ مُجرِّب، وتطلَّع إلى جموعهم التي كم ناظر إليها مع الصبح نجم مَغرِب، ولا تفارق من وجه البلاد وَسِيما، ولا تَشُمَّ من غير الطيبة نَسِيما، وإذا نزلت على الباب فلا تطلب سوىٰ البراعة له قسيما، ولا تتبدَّل بالفرات وارِدًا، ولا تتبعك المناظر إذا أرسلت طرفك إلى سواها رائدا؛ وآضرب بقارعة الطريق خِيامَك، وآنشرْ [للمُعْتَافين][2] غَمامَك، وطَنِّب دخانك إلى السماءِ وآبسطْ ضِرَامك، وأقبِلْ على الذكر الجميل فكلُّ شيءٍ غادٍ ورائح، وأنْزِلْ بساحتك الضيوف وآنْحَرْ لهم كُومَ الهِجَان وكلَّ طِرْفٍ[3] سانِح، وآحْفَظْ أطرافَ البلاد ممن يتولَّع ببنانها، أو يترصَّد لمرابع أسودها أو مراتع غُزْلانها، وخُصَّ الرَّعايا

(١) يقال: رجلٌ وَقَاحُ الوجه أي قليل الحياء

(٢) أي المسافرين. آعتاف الرجل: تزوّد للسفر. وقد وردت في ط ق«المعتفين».

(٣) الطِّرف (بكسر الطاء المهملة) هو الكريم من الخيل ونحوها. والسَّانح من الطير والظباء وغيرها هو الذي مرّ من مياسرك إلى ميامنك فولّاك ميامنه. والعرب يتيمنون به. وعكسه البارح.

برعايةٍ تُنبت لهم الزُّروع، وتُدِرُّ من سوائمهم الضُّروع، ولا تدخل إلى البرِّية إلا إذا لم يبقَ لك بالبلاد مُقام، ولا منزل بين شِيحٍ وخُزامٍ[1].

وأما العربُ فهو أميرهم المُطاع، وآمِرُهم وهم له أتباع، وهو يعرف مقاديرَهم، وكيف يعامِلُ كبيرَهم وصغيرَهم، فليجمعهم على طاعتنا الشريفة ما آستطاع؛ وليمنعهم من طبع الطِّباع، وليصْدعهم بالحقّ على حُكْم آستحقاقهم في كل إقطاع وآقتطاع؛ وهو بما يصلح لركابنا العالي من الخيل جِدُّ خبير، وبما يناسب سَرْجَنا الشريفَ من كل سابقٍ وسابقة[2] مالها نظير؛ فليأْخُذْ نفسَه وإخوتَه وبني عمّه وأهْلَه وعِتْرَته الأقربين، بأن يكونوا بالجياد إلينا متقرِّبين، ومتى وردت عليه مراسِمُنا الشريفةُ بأمرٍ سارَعَ إلى العمل بحُكمه، أو آتَّصَلَ متجدِّدٌ يُعلمنا منه بما وَصَل إلى علمه.

وهذا تقليدُنا الشريفُ حُجَّةٌ على من سَمِعَه، أو قَصَد في خِلافِهِ تفريقَ كلمة مُجْتَمِعَه. ومرسومُنا أن يُنقل مضمونُه إلى الآفاق، ويعلم به كل مُصعِّدٍ إلى الشام ومُنْحدرٍ إلى العراق، ليحدُوَ به كلُّ حادٍ والرِّكاب تُساق، ويَسْمَرَ به في كلِّ حيّ سامِرٌ يتجاذب حواشِيَ حديثه الرِّفاق، ويتناجىَ كل راكبِ مطيّةٍ وفارسِ مُطَهَّمةٍ عَنَاق[3]؛ فمن بلغنا أنه حاد عن أمره، أو تأوَّلَ في نقض لرفعة قدره، فالسَّيفُ أسْبَقُ شيءٍ إلى نَحْرِه، والموت أعجل إليه لأنه فَتَح من فمه ما كان مسدوداً من باب قبره».

١٤ ـ وصيَّةُ مُقدَّم الأكراد:

«فليَجمَعْ أشْتَاتَ هذه الفِرق، وليجمع من شملهم ما آفترق، وليؤلِّفْ قلوب أكابرهم ممن نَفَر، وليُذْهِبْ بأْسَ بينهم ليكونَ بأْسُهم فيمن كفر، وليخلِّصْ أظفارَ

---

(١) الشِّيح: نبت سهليّ من الفصيلة المركبة، رائحته طيبة قوية، ترعاه الماشية. والخُزام: جنس نبات من الفصيلة الشفوية أنواعه عطرة.

(٢) السابق والسابقة من الخيل: السريعة.

(٣) كذا في ط ف. ولعله «معناق» والمعناق: السابق من الخيل (انظر لسان العرب). أو لعله أراد: عناق، وهو اسم فرس مشهور في الجاهلية كان لمسلم بن عمرو الباهليّ. وقد كنّي به عن الخيل السابقة السريعة. (انظر: فائت الحلبة في أسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والإسلام: ص ١٠٤؛ والقاموس: عنق).

بعضهم من بعض ليخلُصَ الظَفَر، وليقرِّر عندهم أن إحساننا إليهم غيرُ مَنْزور[1]، وأن أقلَّ شِبر أقطعناهم من الأرض خيرٌ لهم عند الله وعند أنفسهم مما لهم من أقصى العجم إلى شَهْرَزُور[2]، وأنَّ أكنافَنا الموطَّأةَ لهم خيرٌ من تلك الجبال الموعِرَة، وأن بلادنا الآمنة أقَرُّ لهم من تلك البلاد التي لا تزال محاصَرةً أو مُحصِرَة؛ وليعرف حقَّ قبائلهم على اختلاف الشُّعوب، وأنواع الطوائف التي لو اتَّفقت كلمتُها لما وجدت خيلاً تكفيها في الرُّكوب، وليُكْرِمْ منهم ذوي البيوت الكريمة، والإمرة القديمة، والأصول التي بلغت السماءَ فروعُها، وحلَّت لَمَعان الشموس سيوفُها المبرقةُ ودروعُها؛ وليعلم أنَ صدقاتنا العميمةَ غيرُ قليلة، وأن رعايتَنا الشريفة ستعُمُّهم وتُوقد نارَ كل قبيلة. وأننا لا ينقص عندنا بَخْتُ «بختي»[3]، ولا ننسىَ طَرْفَ «ديسني»، ولا نحلُّ أزرارَ «زرزاري» إلا لنُلبِسه المَلْبَسَ السَّني، ولا نُسْهِرُ طَرْفَ «سهري» إلا لينام قرير العين، ولا نُتعب «راندوادي» وما فيهم [إلا مَنْ هو] ذو الخُوَيْصِرة ولا فيهم إلا من هو ذو اليدين.

وكذلك بقيَّةُ أنفارهم الذين ألفهم الإحسان، وعرفهم الجود بما أوجب لبلادهم ومن خلَّفوا فيها من أولادهم للنسيان. وأنت عليهم الأمير، والجامع لهم بمشيئة الله على الطاعة وهو على جمعهم إذا يشاءُ قدير؛ فاعرف منهم ساكِنَ كل عمود[4] وجِدَار، ومن قَرُبت به أو بعُدت الدار، وضُمَّهم إلى كَنَف الاكتناف، وألِّفهم بكلمة الائتلاف، وكُنْ بهم على انتظار ما صَرَفْنا إليه الوجهَ من الجهاد، والتأهب بلبس الجلد للجلاد، واتخاذ أكابرَ فيهم لتَصِلَ منهم يدَك بالبنان، وتشتدَّ بهم كما يشتدُّ

---

(١) أي غير قليل

(٢) شَهْرَزُور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان. أحدثها «زور بن الضحّاك». ومعنى «شهر» بالفارسية: المدينة. وأهل هذه النواحي كلهم أكراد.
(معجم البلدان: ٣/٣٧٥).

(٣) الواضح أن هذا الاسم والأسماء التالية هي لملوكهم. ولم نتوصل إلى ضبطها على وجه التحقيق.

(٤) أي ساكن الخيمة والبيت. وهو من باب تسمية الكل بالجزء.

بكُعوب الرماح المثقَّفة السِّنان؛ وآسْبُرهم بخوض السَّباريت[1]، وآرمِهم في البرّ والبحر ولا تخف فإنهم عَفَاريت، وألزِمْ بالخدمة الدائمة الخَبْزة، ولا تلزم غير المُخبِزَة[2]، وميِّز بعضَهم من بعض إلا في الأوقات التي تحيض فيها الذكور بأيدي الرجال ولا تُعرف المميَّزة من غير المميَّزة؛ ومن مات من ذوي الإقطاع آتِه خُبْزَه حتى يُعيَّنَ لغيره خُبْزُه[2]، وكذا العاجز وتأنَّ حتىٰ يتحقق عَجْزُه، وما يجب على أصحاب الماشية من حقٍ هو حَقُّ أقوام ورزقُ طَوائفَ أخرىٰ من العساكر المنصورة مضت عليه السنون ولهم في أعدائه أيام فآعملْ بما جرت العادة به في آستخراجه بالرِّفق من غير ترك شيء منه يُنسىٰ في الآجل، ويُنسب إلى التقصير إذا أخَّره عن وقت آستحقاقه في العاجل. وكذلك مِيراث من مات منهم ولا وارِثَ له إلا بيت المال، والعمل في ذلك بتقوىٰ اللَّه فهي العُدَّة للمآل».

١٥ ـ وصيَّةُ مقدَّم التُّركمان:

«فليجمَعْ لنا طوائفَ التُّركمان، وليأمُرْهم بالاستعداد للجهاد فإنهم تُرْكُ الإيمان، ولا يدع منهم ـ إذا رسمنا له ـ من يُلْقم سَهْمُه الوتر، ومن إذا جَرَّ قَوْسه رأىٰ منه طالعاً في العَقْرب القمر. وليجمع طوائفهم على كثرة أفراقهم، وبُعْد ما بين بيوتهم وأرزاقهم، وليؤلِّفهم على الطاعة التي بها تقدَّم، وبسببها سدَّد سَمْهَريَّه وتَقَوَّم؛ وسهامُهم هي التي تبقىٰ، وسيوفُهم هي الأراقم التي لا تلين للرُّقىٰ؛ وما برحت تُرفع لهم القِباب، وتَشْفَع لهم إلينا وَصَائلُ الأنساب، ووسائلُ الأسباب. وليأمُر أمراءَهم بإقامة وظائف الإمرة ودَقِّ الطَّبْلَخانات[3] كل عَشِيَّة، وما يظهر فيه التَّفاوتُ بين كلِّ ذي هِمَّةٍ وضِيعة وهمَّة عَلِيَّة، ومن مات من المخبزة أنهىٰ إلينا ـ أو إلى من قرب إليه من

---

(١) اسبرْهُم: أي اختبرهم. والسَّباريت جمع سُبْروت. والسُّبْروت من الارض: القَفْر، وهي سُبْرُوتة. ويقال: أرضٌ سَبَاريت، كما يقال: ثوبٌ أخلاقٌ.

(٢) المخبزة: الذين لهم إقطاع معين، وعليهم تقدمة مقررة إلى بيت المال. ولفظ الخُبز كان يستعمل في هذا العصر بمعنى الراتب المقرَّر والإقطاع.

(٣) هي مجموعة الطبول والأبواق والزُّمر. ـ راجع ص ١٠٢ حاشية (١).

نوابنا ـ خبرَه، وألزمَ مَنْ طلب إقطاعَه من مُخلَّفيه بما عليه من التَّقْدِمة المقرَّره. ومن لم يترك وارثاً إلا بيت المال حُفظ له حقُّه الموروث: فإنه مال اللَّه المقسوم، ولكل مسلم فيه حقٌّ معلوم. وما هو على السَّائمة من الزَّكاة يساعد على آستخراجه، وإيصال الحق إلى مستحقّه وإلى كل مُقْطع على حُكم مَنْشُورِه الشريف أو إفراجه.

وتقْوى اللَّه سَبَبُ مزيده فلا يزال متمسكاً بذلك السَّبب، وليقم منها بما وَجَب.»

١٦ ـ وصيَّةُ مُقدَّم الجَبَلِيَّة:

«وليعرِفْ ما قُلِّد من المِنَن، ويعلم أنه قد قُدِّم على الفريقين من قيس ويَمَن، وأنه قد جُمعت له هذه الذوائب، وحُملت له الرايات: هذه محمرَّة الخدود وهذه صُفر التَّرائب. وقد قُلِّد هذا الأمرَ الجَلل، وجُمع عليه أهل السَّهل والجبل؛ وهو لا يُعدَم من نُصَحْاءِ الطائفتين، قولَ المشير، ومن كُبراءِ الفريقين، من يحسِّن له العسير. ولم نقدِّمْه إلا لعلمنا أنه ممَّن لا يستميله الهوى، ولا يُمليه حظ النفس لأقربائه ولو سَقَط الجبلُ أو هوى. فليكن عند ظَنِّنا الجميل، وليعْدُل بكل سبيل؛ فكلمةُ الإسلام تجمع الجميع، وتعمُّ الكلَّ في حُكْم التَّشْريع. فليُصْلِح ذاتَ بينهم، وليُسقط بينهم ما كانت رجالُ كل فرقة تطلب به الأخرى من دَيْنهم، فقد قال رسول اللَّه ﷺ: «المسلمون تَتَكافأُ دِماؤُهم ويَسْعىٰ بذمَّتهم أدناهم» فليجعل هذا الحديثَ مُسْنَدَه، وليبسط به لسانَه ويكُفَّ يَدَه، ولْيفُضَّ جَمْعَهم على صُلحٍ يعمل على أنه يدوم، وتَنْدمِل به الجراح وتعفو الكُلوم، ويُدْفَن كلُّ قتيل عند أهله، وتبطل به دَعْوىٰ كلِّ فريق متىٰ آدَّعىٰ به آدَّعىٰ الآخرُ بمثله؛ وليجفِّفْ تلك الدماءَ التي كانت تَثْعَّب[1]، ويَرْأَب تلك الصُّدوعَ التي كانت تتشعَّب، ولِيُنْزِلِ القبيلتين منزلةَ أبناءِ أبٍ واحد، ويَصْرِفْ بأْسَهم الذي كان بينهم إلى كلِّ جاحِد؛ ولْيَتألَّفهم بجُهْده، ويلفّهم عليه ببَذْل رِفْده؛ ولْيَسْتَصْفِ خواطِرَ بعضهم لبعض، ويعلمهم أن الشيطان الذي دخل بينهم قد آن له أن يخْلُدَ إلى الأرض؛ وليعرِفْ لكلٍّ من الفريقين حقَّ سابقةٍ قديمة، ومكانةٍ في أوَّل الإسلام

(١) اي تتفجّر وتسيل.

عظيمة؛ وإنما هم لُمَعُ من تلك الأنوار، وتَبَعٌ لأسلافهم ذوي المهاجرين والأنصار؛ وليجعل هِمَمَهم على الجهاد مجتمعه، وعلى أعداء اللَّه وأعداء الدَّولة القاهرة مُجْمِعَه؛ ولْيَدَعْ سيوفهم تَقِرُّ في الأجفان[1]، وخطواتهم في الخدمة لا تجِفُّ بها أُسُود ٱلغِيل عن خَفَّان[2]؛ ولينْهَهُمْ عن دَعْوىٰ الجاهليَّة، ويخفِّف عن الرِّقاب تلك البليَّة؛ وليُعْلمهم أنهم مسؤولون. ـ ﴿فإذا نُفخَ في الصُّورِ فلا أنْسَابَ بينَهُمْ يومئذٍ ولا يَتَساءَلون﴾ [المؤمنون: ١٠١] ـ.

ويُسكن في رؤوس تلك الجبال نُسُورَهم القَشَاعِم، وحيَّاتِهم الأراقِم، ليكونوا أوقاتَ الحاجة أهلَ قوة وجَلَد، وأولي بأسٍ شديدٍ على الأعداء لا على ٱبنِ عمٍّ مُدَان وٱبن أخت حكْمُه حكم الوَلَد. وتقوىٰ اللَّه في تعظيم حُرُمَاته هي المنهلُ العَذْب الكثير الزِّحَام، والأمر المطاع ولا كقوله عزَّ من قائل: ﴿وٱتَّقُوا اللَّهَ الذي تَسَاءَلونَ به والأرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

١٧ ـ وصيَّةُ مُسْتَوْفي الصُّحْبَة: [3]

«فهو المُهيمِنُ على الأقلام، والمؤَمَّن على مِصرَ والشَّام، والمؤَمَّل لما يُكتب بخطِّه من كل ترتيب وإنعام، والملازِمُ لصُحبة سلطانه في كلِّ سَفَرٍ ومُقام؛ وهو مُسْتوفي الصُّحبه، [والمُستولي بالهِمَم][4] على كل رُتْبه، والمُعَوَّلُ على تحريره، والمعمولُ بتقريره، والمرجوعُ في كلِّ الأمور إلى تقديره. به يتحرَّر كلُّ كَشْف، ويُكَفُّ كلُّ كَفّ، وبتنزيله وإلاّ ما يَكْمُل ٱستخدامٌ ولا صَرْف؛ وهو المتصفِّحُ عنَّا لكل حساب، والمتطَلِّع إلى ما حَضَر وغاب، والمناقِشُ لأقلام الكُتَّاب، والمحقِّقُ الذي إذا قالَ قالَ الذي عندَه عِلمٌ من الكتاب، والمُظْهِرُ للخبايا، والمُطْلِعُ للخفايا، والمتَّفَقُ

(١) جمع جفْن وهو غمد السيف.

(٢) خَفَّان: موضع كثير الأسد؛ والغِيل: مجتمع الأسود.

(٣) مستوفي الصحبة: يشارك الوزير ويوصي بإلزام الكتّاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها، وعمل المكلّفات، وتقدير المساحات وتمييز قيم بعضها على بعض، ومستجدّ الجرائد وما يقابل عليه من ديوان الإقطاعات والأحباس وغير ذلك. (صبح الأعشى: ١١/ ٩٤).

(٤) في ط ق «ومستولي الهمم.. الخ».

على صحَّةِ ما عنده إذا حصل الخلاف، ووصل الأمرُ فيه إلى التَّلاف.

وليُلْزِمِ الكُتَّابَ بما يلزمهم من الأعمال، ويحرِّرها بالمستقرِّ إطلاقه[1] وضرائب رؤوس المال، وعَمَلِ المكلَّفات[2] وأن يُكلِّفوا عملها، وتقدير المساحات وليتتبَّعْ [خللها][3]. وليُلْزِمهم بتمييز قِيَمها بعض [عن] بعض، وتفاوت ما بين تسجيل الفُدُن في كل بلدٍ بحسب ما يصلح له زراعة كلِّ أرض، وبمستجدِّ الجرائد وما يقابل عليه ديوان الإقطاع والأحباس[4]، وغير ذلك مما لا يحصل فيه التباس.

ومثلُك لا يزاد[5] بالتعليم، ولا يُنازع فكلُّ شيء يؤْخذ منه بالتَّسْليم؛ وما ثمَّ ما يُوصى به ربُّ وظيفة إلا وعنده يُنزَّل علمه، وفيه يُنزَّه فهمُه؛ وملاكُ الكلِّ تقوى اللّه والأمانة فهما الجُنَّتان الواقيتان، والجنَّتان الباقيتان؛ وقد عُرِف منهما بما يُفاضُ منه عليه أسْبَغُ جِلْبابٍ، وأسْبَلُ سِتْرٍ يُصَانُ به هو ومَنْ يتَّخذهم من مُعينين ونُوَّاب. واللّهُ تعالى يبلِّغه من الرُّتب أقصاها، ويُجري قلمه الذي لا يَدعُ في مال ممالكنا صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها.»

(١) في صبح الأعشى «بمستقر إطلاقه».

(٢) بعد نموّ الزرع وإثباته في أوراق مربوطة، تُضمّ جميع هذه الأوراق وتجمع ثم تنظم ونكتب بها أوراق هامة تسمّى «المكلّفة» تسلّم لديوان المقطع نسخٌ منها.
(صبح الأعشى: ٣/٤٥٤ و ١١/٩٤)

(٣) في ط ق «دخلها». وما أثبتناه من الصبح وهو أوضح.

(٤) ديوان الأحباس هو ديوان الأوقاف. وقد أنشيء أول ما أنشيء في عهد الفاطميين وكان هذا الديوان يتولى شؤون الأوقاف الخاصة والعامة. فالأوقاف الخاصة هي التي كان أفراد الناس يوقفونها على أعمال البِرِّ من باب الزلفى والتقوى، وتسند إلى ديوان الأوقاف لتوزيعها. أما الأوقاف العامة فهي ما توقفه الدولة على المنشآت العامة ومنها الجوامع والمارستانات. وكان متولي هذا الديوان يختار من بين العلماء المشهورين بالتقوى والصلاح والقدرة على الفُتيا.
(التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٤١).

(٥) في الصبح: «يزوّد».

١٨ ـ وصيةٌ جامعةٌ لقاضٍ من أي مَذْهب كان(١):

«وهذه الرُّتبة التي جعل اللّه إليها منتهىٰ القضايا، وإنهاء الشَكايا، ولا يكون صاحِبها إلا من العلماءِ، الذين هم وَرَثَةُ الأنبياء، «ومتولِّي الأحكام الشرعيَّة بها كما ورث عن نبيِّ اللّه ﷺ عِلْمَه، كذلك ورث حُكمَه؛ وقد أصبح بيده زِمامُ الأحكام، وفَصْلُ القضاء الذي يُعرض بعضُه بعدَه على غيره من الحُكَّام؛ وما منهم إلا من يَنْقُد نَقْدَ الصَّيرَفيِّ، وينفُذُ حكمهُ نَفاذَ المشرَفيِّ؛ فليتروَّ في أحكامه قبل إمضائها، وفي المحاكمات إليه قبل فصل قضائها؛ وليراجع الأمرَ مرَّةً بعد مرةٍ حتى يزولَ عنه الالتباس، ويُعاوِدْ فيه بعد التأمُّل كتابَ اللّه وسُنَّة رَسوله ﷺ والإجماعَ والقياس؛ وما أشكل عليه بعد ذلك فليُجَلِّ ظُلَمَه بالاستخاره، ولْيَحُلَّ مُشْكِله بالاستشاره، ولا يَرَ نقصاً عليه إذا آستشار فقد أمر اللّهُ رسولَه ﷺ بالشُّورىٰ، ومرَّ مِنْ أوّل السَّلف من جعلها بينه وبين خطأ الاجتهاد سورا، فقد يَسْنَحُ للمرء ما أعيا غيرَه وقد أكثر فيه الدَّأب، ويتفطَّن الصغيرُ لما لم يفطن إليه الكبير كما فطن آبنُ عمر للنخلة [و] ما منعه أن يتكلمَّ إلا صِغَرُ سنِّه ولزوماً مع من هو أكبر منه للأدَب؛ ثم إذا وضَح له الحقُّ قضىٰ به لمستحقِّه، وسجَّل(٢) له به وأشهدَ على نفسه بثُبوت حقِّه، وحكم له به حُكماً يَسرُّه يوم القيامة أن يراه، وإذا كَتَب له به ذُكر بخيرٍ إذا بليَ وبقِّيَ الدَّهرُ ما كتبت يداه. وليسوِّ بين الخصوم حتى في تقسيم النظر، وليجعل كلَّ عمله على الحق فيما أباح وما حظر؛ ولْيُجِدِ النظرَ في أمر الشُّهود حتى لا يدخلَ عليه زَيْف، وليتحرَّ في آستيداء الشهادات فرب قاضٍ ذُبح بغير سكين وشاهدٍ قُتل بغير سَيْف؛ ولا يقبَلْ منهم إلا مَنْ عُرف بالعداله، وأُلِفَ منه أن يرىٰ أوامرَ النفس أشدَّ العِدىٰ له ـ وغيرُ هؤُلاءَ ممن لم تجرِ له

---

(١) كان يلي الديار المصريّة قاضٍ واحدٌ هو قاضي قضاة الشافعيّة إلى أن كانت أيام الظاهر بيبرس في أوائل الدولة التركية، فاضطرب الأمر لاختلاف المذاهب، فاقتضىٰ رأي السلطان تقرير أربعة قضاة من كل مذهب قاض، وهم الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي؛ وكتب لكل منهم تقليد بذلك. على أن قاضي القضاة الشافعي كان دائماً المقدّم على غيره من سائر قضاة المذاهب في الدولة المملوكية.

(انظر صبح الأعشى: ١١/١٧٤ ومابعدها).

(٢) في ط ق«وأسجل» وهو خطأ.

بالشهادة عاده، ولا تصدَّى للارتزاق بسُحْتها[1] ومات [وهو] حَيُّ على الشَّهاده.

فليَقبلْ منهم من لا يكون في قَبُول مثله مَلامه، فرُبَّ عدل بين مِنْطَقةٍ وسَيْف وفاسقٍ في فَرَّجِيَّة[2] وعمَامه. ولينقِّب على ما يصدرُ من العقود التي يؤسَّسُ أكثرها على شفا جُرُفٍ[3] هار، ويُوقع في مثل السِّفاح إلا أن الحدودَ تُدْرأ بالشُّبُهات ويبقى العار. وشُهودُ القيمة الذين يَقطعُ بقولهم في حقِّ كلِّ مستحقٍّ ومال كل يتيم، ويُقلَّد شهاداتهم على كل أمر عظيم، فلا يعوِّل منهم إلا على كل رَبِّ مالٍ عارفٍ لا تخفى عليه القِيَم، ولا يُخاف معه خطأُ الحَدْس وقد صَقَل التجريب مرآة فَهْمه على طول القِدَم. وليتأنَّ في ذلك كله أناةً لا تقضي بإضاعة الحق، ولا إلى المُطَاوَلة التي تُفضي إلى مَلَل من استحق. وليمهِّد لِرَمْسه، ولا يتعلَّل بأن القاضي أسيرُ الشهود وهو كذلك وإنما يسعى لخلاص نفسه ـ والوكلاءُ هم البلاءُ المُبْرم، والشياطين المسَوِّلون لمن توكَّلوا له بالباطل ليُقضى لهم به وإنما تُقطعُ لهم قطعة من جهنم؛ فليكفَّ بمهابته وَسَاوِسَ أفكارهم، ومَسَاوِيَ فُجَّارهم، ولا يدع لمجْنىَ أحدٍ منهم ثمرةً إلا ممنوعه، ولا يَدَ اعتداءٍ تمتدُّ إلا مغلولةً إلى عُنقه أو مقطوعه؛ وليطهِّر بابَه من دَنَس الرسل الذين يمشون على غير الطريق، وإذا رأى واحدٌ منهم درهماً ودَّ لو حصل في يده ووقع في نار الحريق؛ وغير هذا مما لا يحتاج به مثله أن يوصَى، ولا أن يُحصى عليه منه أفرادُ عمله وهو لا يُحصى، ومنها النَّظَرُ في أمور أوقاف [أهل] مَذهبه نظَرَ العموم، فلْيَعْمُرْها بجميل نظره فربَّ نَظرةٍ أنفعُ من مواقع

---

(١) السُّحْت: هو الرشوة في الحكم والشهادة ونحوهما. وهو كل مكسب حرام قبيح الذكر على وجه الإجمال.

(٢) الفَرَجيَّة: ثوب يلبس فوق سائر الثياب، أو يلقى على الكتفين إلقاءً. وله طوق وأردان طوال، ويكون أحياناً مفرجاً من القدام من أعلاه إلى أسفله، مزرراً بالأزرار؛ الجمع: الفَرَجيَّات والفراجي. والمنطقة: حزام يشدّ على الوسط، ويعبَّر عنها بالحياصة.

(٣) أي الذي يؤسِّس على أساس واهٍ ما يلبث أن ينهار. والصورة هنا مؤسسة على الآية الكريمة: «أمْ من أسَّس بُنيانه على شفا جُرُفٍ هارٍ فانهار به ـ التوبة: ١٠٩»

الغيوم، وليأخذ بقلوب طائفته الذين خُصَّ من بينهم بالتقديم، وتفاوتَ بُعدُ ما بينه وبينهم حتى صار يُزيلُ عارِضَ الرجل منهم النظرةُ [منه] ويأسُو جراحَه منه التكليم. وهذه الوصايا إنما ذُكرت له على سبيل الذِّكرى، وفيه ـ بحمد اللّه ـ أضعافُها ولهذا أولَيناه ـ والحمد للّه ـ شُكرا؛ وقد جعلنا له أن يستنيب من يكونُ بمثل أوصافه أو قريباً من هذه المَثابه؛ ومن يرضى به أن يحمل عنه الكَلَّ[1] ويقاسِمَه ثوابَه؛ وتقوى اللّه هي جِماعُ الخير ولا سيَّما لصاحب هذه الوظيفه، ولمن وليها أصلاً أو فرعاً لا يستغني عنها رَبُّ حُكم مطلقُ التصرُّفِ ولا خليفه.

ويُزاد الشافعيّ:

وليعلَمْ أنه صَدْرُ المجلِس، وأنه أدنى القومِ وإن كانوا أشباهَه منا حيثُ نجلس وأنه ذو الطَّيْلَسان الذي يخضع له ربُّ كلِّ سَيْفٍ ويُبْلِس، وليتحقَّق أنه إنما رفعه علمُه وتُقاه، وأن سبَبَهُ دينُه لا دنياه هو الذي رقَّاه؛ فليقْدُر حقَّ هذه النِّعم، وليقفْ عند حَدِّ مَنْصِبه الذي يَوَدُّ لو اشترى سوادَ مِداده بحُمْر النَّعم.

ويُقال في وصيته:

وأمرُ دَعاوَى بيت المال المعمور، ومحاكماته التي فيها حقُّ كل فردٍ فردٍ من الجمهور؛ فليحترِز في قضاياها غايةَ الاحتراز، وليعملْ بما يقتضيه لها الحقُّ من الصيانة والإحراز، ولا يقبلْ فيها كلَّ بيِّنةٍ للوكيل عن المسلمين فيها مَدْفَع، ولا يعمل فيها بمسألةٍ ضعيفة يظن أنها ما تضُرُّ عند الله فإنها ما تنفع؛ وله حقوق فلا يجدُ من يسعى في تملُّك شيء منها بالباطل منه إلا الياس، ولا يلتفت إلى مَنْ رخَّصَ لنفسه وقال: (هو مالُ السلطان) فإنه ما لنا فيه إلا ما لواحدٍ من الناس. وأموالُ الأيتام الذين حذَّر اللّه من أكلِ مالهم إلاّ بالمعروف لا بالشُّبُهات، وقد مات آباؤهم ومنهم صغارٌ لا يهتَدُون إلى غير الثَّدي للرَّضاع ومنهم حملٌ في بطون الأمهات؛ فليأْمرِ المتحدِّثين لهم

(١) الكَلُّ: الحمل الثقيل.

بالإحسان إليهم، وليعرِّفهم بأنهم سيُجْزَوْنَ في بينهم بمثل ما يعملون معهم إذا ماتوا وتركوا ما في يَدَيْهم، وليحذِّر منهم من لا ولد له: ﴿وليخْشَ الذين لو تَركوا مِنْ خَلْفِهم ذُرِّيةً ضِعَافاً خافوا عليهم﴾ [النساء: ٩]. وليقصَّ عليهم في مثل ذلك أنباءَ من سَلَف تذكيراً، وليتلُ عليهم القرآن ويذكِّرْهم بقوله تعالى: ﴿إنَّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إنَّما يأْكُلونَ في بُطُونِهِمْ ناراً وسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [النساء: ١٠].

والصدقاتُ الموكولةُ إلى تصريف قلمه، المأكولةُ بعدم أمانةِ المباشرين وهي في ذِمَمه، يتيقَّظ لإجرائها على السَّداد في صَرْفها في وجوه آستحقاقها، والعمل بما لا يجب سواه في أخذها وإنفاقها. والمسائلُ التي تفرَّدَ بها مذهبُه وترجَّح عنده بها العمل، وأعدَّ عنها الجوابَ للَّه إذا سأل، لا يعملُ فيها بمرجوح إلا إذا كان نصَّ مذهبُ إمامِه أو عليه أكثرُ الأصحاب، ورآه وقد حكم به أهلُ العلم ممن تقدّمه لرُجْحانه عنده وللاستصحاب. ونوَّاب البرِّ لا يقلِّد منهم إلا من تحقَّق آستحقاقه، فإنه إنما يولِّيه على مسلمين لا عِلْمَ لأكثرهم فهم إلى ذي [العلم] أشَدُّ فاقه؛ هذا إلى ما يتعرّف من ديانتهم ومن عَفَافهم الذي يتجرّع المرءُ منهم به مَرارةَ الصبر من الفاقةِ وهو به يتحَلّى، ثم لا يزال له عينٌ عليهم فإن الرجالَ كالصناديق المقفلة لا يُعرف الرجلُ ما هو حتى يتولّى.

ويُزاد الحنفيّ:

وليعلمْ أن إمامَه أوّلُ من دوَّنَ الفِقهَ وجمعه، وتقدّم وأسبقُ العلماء من تبعه، وفي مذهبه ومذاهب أصحابه [أقوال][(١)] في المذهب، ومسائلُ ما لحقه فيها مالِكٌ وهو أول من جاء بعدَه وممن يعدّ من سوابقه أشهب، ومن أهمِّها تزويج الصغائر، وتحصينُهنَّ بالأكْفاء من الأزواج خوفاً عليهن من الكَبائر؛ وشُفْعةُ الجِوار التي لو لم تكن من رأيهم لما أمِنَ جارُ السُّوءِ على رَغْم الأُنوف، ولأقامَ الرجلُ الدَّهرَ ساكناً في داره بين أهله وهو يتوقَّع المَخُوف؛ وكذلك نفقةُ المعتدَّة التي [هي] في أسْرِ مَن طلَّقها

(١) في ط ق«أفراد». والتصحيح من الصبح.

وإن بُتَّتْ من حِباله، وبقيت لا هو بالذي يُنفق عليها ولا هي بالتي تستطيع أن تتزوج من رجلٍ يُنفق عليها من مالِه؛ ومن آستدانَ مالاً فأكله وآدَّعى الإعسار، ولفَّقَ له بَيِّنَةً أراد أن تُسمع له ولم يدخُل الحبسَ ولا أُرهِق من أمره الأعسار؛ وأهلُ مذهبه على أنه يُسجَن أولاً ويمكثُ مدة، ثم إذا آدَّعىٰ أن له بَيِّنَةً أُحضرت ثم هل تُقبل أو لا ـ فهذا ـ وأمثالُه ممَّا فيه عُمومُ صَلاح، وعظيمُ نفع ما فيه جُناح، فليقضِ في هذا كلِّه إذا رآه بمقتضىٰ مذْهَبه، وليهتدِ في هذه الآراء وسواها بقمر إمامه الطَّالع أبي حنيفةَ وشُهُبه؛ وليحسن إلى فقهاء مذهبه الذين أدنىٰ إليه أكثرَهم الاغترابِ، وحلَّق بهم إليه طائرُ النهار حيث لا يحلِّق البازيُّ وجَناحُ الليل حيث لا يطير الغُراب؛ وقد تركوا وراءهم من البلاد الشاسعة، والأمداد الواسعة، ما يُراعىٰ لهم حقُّه إذا عُدَّت الحقوق، ويجمعه وإياهم به أبوه أبو حنيفةَ وما مثله من يُنسب إلى العُقوق.

ويُزاد المالكيّ:

ومذهبه له السيفُ المُصْلَت على مَنْ كفر، والمُذْهِبُ بدم من طُلَّ دَمُه وحصل به الظَّفَر؛ ومن عَدَا قدْرَه الوضيع، وتعرَّضَ إلى أنبياء اللّٰه بالقول الشنيع، فإنه إنما يُقتل بسيفه المجرَّد، ويُراق دمُه تعزيراً بقوله الذي به تفرَّد؛ ولم يزل سيفُ مذهبه لهم بارزَ الصَّفحه، مسلِّماً لهم إلى مالكٍ خازنِ النار من مذهب مالكٍ الذي ما فيه فُسْحَه؛ وفي هذا ما يُصرح غُدُرَ الدين من القَذى، وما لم تُطَلَّ دماءُ هؤلاء (لا يسلم الشَّرفُ الرفيع من الأذىٰ)؛ وإنما نُوصيه [بالتحرِّي][1] في الثُّبُوت، والبيِّنة التي لا يُستدرك بها ما يفوت؛ وإنما هو رجلٌ يحيا أو يموت؛ فليتمهَّلْ قبل بتِّ القضاء، وليعذِرْ إليهم لاحتمال ثُبوت تَفْسيقٍ للشهود أو بَغْضاء، حتى لا يُعجِّلَ تِلافاً، ولا يَعْجَلَ بما لا يُتَلافىٰ؛ فكما أننا نوصيه أن لا ينقُضَ في شدِّ الوَثَاق عليهم إبراماً، فهكذا نوصيه أن لا يُصيب بغير حقِّه دماً حراماً. وكذلك قُبول الشهادة على الخَطّ، وإحياء ما مات من الكتب وإدناء ما شطّ ـ فهذا مما فيه فُسحةٌ للناس، وراحةٌ ما فيها باس، إلا أنه يكون

(١) في ط ق «بالثبوت في الثبوت»

الثَّبوتُ بهذه البيِّنة للاتصال، لا لنزع يدٍ ولا إلزامٍ بمجَّردها بمال؛ وهكذا ما يراه من ولاية الأوصياء وهو مما هو تفرَّد به هو دون البقيَّة، وفيه مصلحةٌ وإلا فما معنى الوصيَّة؛ وهو زيادةُ ٱحتراز ما تضرُّ مراعاة مثلها في الأمور الشرعيَّة، وسوى هذا مثل إسقاط الرَّيْع في وَقْفٍ ٱستردَّ وقد بيع، وعُطِّل المشتري من التكسُّب بذلك المال مدةً لا يشتري ولا يبيع، وهذا مما يبتُّ قضاءَه في مثله، ويجعل عقاب من أقدم على بيع الوقْف إحرامَه مدَّة البيع من مَغلِّه، وسوى ذلك مما عليه العمل، ومما إذا قال فيه قال بحَقٍّ وإذا حكم عَدَل. وفقهاء مذهبه في هذه البلاد قليلٌ ما هم، وهم غُرَباءُ فليحسن مأْواهم، وليكرم بكرمه [مثواهم][1] ولْيستقرَّ بهم النَّوى في كَنَفه فقد ملّوا طولَ الدَّرْب، ومعاناة السفر الذي هو أشدُّ الحرب، ولْيُنْسهم أوطانَهم ببرِّه ولا يدع في مآقيهم دمعاً يفيض على الغَرْب.

ويُزاد الحنبليّ:

والمهمّ المقدَّم ـ وهو يعلم ما حدَث على أهل مذهبه من الشَّنَاعة، وما رموا به من الأقوال التي نتركها لما فيها من البشاعة، ونكتَفي به في تعفية آثارها، وإماطة أذاها عن طريق مذهبه لتأمنَ السالِكةُ عليه من عِثارها؛ فتعالى اللّهُ أن يُعرف بكيف، أو يجاوَبَ السائلُ عنه بهذا إلا بالسيف؛ والانضمامُ إلى الجماعة والحذَرُ من الانفراد، وإقرارُ آيات الصفات على ما جاءت عليه مع الاعتقاد أن الظاهر غيرُ المراد، والخروج بهم إلى النور من الظلْماء، وتأويل ما لا بدَّ من تأويله مثل حديث الأمَةِ التي سُئلَت عن رَبِّها: أين هو؟ فقالت: في السماء، وإلا ففي البليَّة بإثبات الجهة ما فيها من الكوارث، ويلزم منها الحدوثُ واللّه سبحانه قديمٌ ليس بحادثٍ ولا مَحَلاً للحوادث؛ وكذلك القول في القرآن ونحن ننذر من تكلم في ذلك بصوت أو حرف، فما جزاء من قال بالصوت إلا سَوْطٌ وبالحرف إلا حَتْف؛ ثم بعد هذا الذي يَزَعُ به الجهّال، ويردُّ دون غايته الفكرَ الجوَّال، ينظر في أمور مذهبه ويعمل بكل ما صحَّ نقلُه عن إمامه

(١) في ط ق «سواهم»

وأصحابه :من كان منهم في زمانه ومن تخلّف عن أيامه، فقد كان رحمه اللَّه إمامَ حقٍّ نهضَ وقد قعد الناس تلك المدَّه، وقام نوبةَ المحنة مَقَام سيِّد تَيْم[1] رضي اللَّه عنه نَوْبَةَ الرِّدَّه، ولم تَهُبَّ به زُعازِعُ المَرِيسيِّ[2] وقد هَبَّت مَريسا، ولا آبن أبي دوَاد[3] وقد جمع له كلَّ ذَوْد وساق إليه من كل قُطر عيسا، ولا نكث عُهدةَ ما قدَّم له المأمون في وصيَّة أخيه من المواثق، ولا روَّعه سَوْط المعتصم وقد صبَّ عليه عذابَه ولا سيفُ الواثق.

فليقفْ على أثـره؛ وليقِفْ بمُسْنَـدِه على مـذهبـه كلِّه أو أكثـره، وليقْضِ بمفرداته وما آختاره أصحابُه الأخيار، وليقلِّـدْهم إذا لم تختلف عليه الأخبار، وليحترز لدينه في بيع ما دَثَر من الأوقاف وصرف ثمنه في مثله، والاستبدال بما فيه المصلحةُ لأهله، والفَسْخ على من غاب مدةً يسوغُ في مثلها الفسخ، وتركَ زوجةً لم يتـرك لها نفقةً وخلاَّها وهي مع بقائها في زوجِيته كالمعلَّقة، وإطلاقِ سراحها لتتزوج بعد ثُبوت الفسخ بشروطه التي يبقى حكمها به حكمَ المطلَّقة؛ وفيما يمنـع مُضارَّةَ الجـار، وما يتفرَّع على قـوله ﷺ: «لا ضَـرَرَ ولا ضِـرَار»؛ وأمـر وقفِ الإنسـان على نفسـه وإن رآه سوى أهل مذهبه، وطلعت به أهلَّةُ علماء لولاهم لما جـلا الزمـان جُنْحَ غيهبـه؛ وكـذلك الجـوائح[4] التي يُخفَّفُ بهـا عن الضعفاء وإن كـان لا يـرى بهـا الإلـزام،

(١) الإشارة إلى أبي بكر الصديق.

(٢) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسيّ. نسبته إلى المريس أو مريسة، وهي قرية بمصر. كان من فقهاء المعتزلة، عـارفاً بـالفلسفة؛ وهـو رأس الطائفـة المريسيـة القائلة بالإرجاء. توفي سنة ٢١٨ هـ.
(وفيات الأعيان: ١/٢٧٧؛ والنجوم الزاهرة: ٢/٢٢٨؛ والأعلام: ٢/٥٥)

(٣) هو أبو عبد الله، أحمد بن أبي دواد: أحد القضاة المشهورين من المعتزلة ورأس الفتنة المعروفة بفتنـة «خلق القرآن». توفي سنة ٢٤٠ هـ.
أما الإمام أحمد بن حنبل فقد كان قد دعي إلى القول بخلق القرآن أيام المعتصم العباسي فلم يجب، فضرب وحبس وهو مصر على الامتناع. وكانت مدة حبسه ثمانيـة وعشرين يـوماً في شهـر رمضان سنة ٢٢٠ هـ. وبقي إلى أن مات المعتصم؛ فلما ولي الواثق منعه من الخـروج من داره إلى أن أخـرجـه المتوكل وخلع عليه وأكرمه ورفع المحنة في خلق القرآن. توفي ببغداد سنة ٢٤١ هـ.
(وفيات الأعيان: ١/٦٣ و٨١؛ والأعلام: ١/١٢٤ و٢٠٣.).

(٤) الجائحة: المصيبة تحلّ بالرجل في ماله فتجتاحه كله. وفي اصطلاح الفقهاء: ما أذهب الثمر أو بعضه من آفة سماوية؛ ويقال: سنة جائحة أي جَدْبة.

ولا تجري لديه إلا مجرى المصالحة بدليل الالتزام؛ وكذلك المعاملةُ التي لولا الرُّخصةُ عندهم فيها لما أكل أكثرُ الناس إلاّ الحرام المَحّض. ولا أُخذ قسم الغلال والمعاملُ هو الذي يزرع البذور ويحرث الأرض؛ وغير ذلك مما هو من مفرداته التي هي للرفق جامعه، وللرعايا في أكثر معايشهم وأسبابهم نافعه؛ وإذا آستقرت الأصول كانت الفروع لها تابعه[1]. وفقهاءُ مذهبه هم الفقراء لقلّة المحصول وضعف الأوقاف، وهم على الرِّقّة كالرماح المعدَّة للثِّقاف؛ فخذ بخواطرهم. ومُدّ آمالهم في غائب وقتهم وحاضرهم، وأشمَلْهم بالإحسان الذي يُرَغِّبهم، ويقلُّ به طلبهم لوجوه الغنىَ ويكْثُر طُلّبُهم».

١٩ - وصيَّةُ قاضي العسكر[2]:

إذا كان منفرداً فإنه لا يوصىَ كما يُوصىَ قاضي العمل المستقل؛ وقد تكون على هذا النحو:

«وهو الحاكمُ حيث لا تنفذ إلاّ أقضيةُ السيوف، ولا تَزْدحم الغرماء إلا في مواقف الصفوف، والماضي قلمه وكلُّ خَطّي يميد بالدماء، والممضىَ سجلُّه وقد طَوَىَ العَجاجُ كالكتاب سجِلَ السماءِ؛ وأكثر ما يُتحاكم إليه في الغنائم التي لم تحِلَّ لأحدٍ قبل هذه الأمة، وفي الشركة وما تُطلب فيه القسمة، وفي المبيعات وما يُرَدُّ منها بعيب، وفي الديون المؤجَّلة وما يُحكم فيها بغيب؛ وكلُّ هذا مما لا يحتمل طول الأناة في القضاء، وإشغال الجند المنصور عن مواقف الجهاد بالتردّد إليه للإمضاء؛ فليكن مستحضراً لهذه المسائل ليبتَّ الحكمَ في وقته، ويُسارع السيفَ المُصْلَتَ في ذلك الموقف ببَتِّه. وليعلم أن العسكر المنصور هم في ذلك الموطن أهلُ الشهادة، وفيهم من يكون جَرْحُه تعديلاً له وزيادة؛ فليقبل منهم من لا تخفىَ عليه سيماء القَبول، ولا

---

(١) عبارة صبح الأعشى: «فإذا استقرّت الفروع كانت الاصول لها جامعة».

(٢) وهو المتحدّث في الأحكام في الأسفار السلطانية؛ وله مجلس يحضره بدار العدل في الحضرة. وقد جرت العادة أن يكون قضاة العسكر أربعة: من كل مذهب قاض.
(صبح الأعشى: ٢٠٤/١١).

يردَّ منهم من لا يضرُّه أن يردَّه هو وهو عند اللّه مقبول؛ وليجعل له مستقراً معروفاً في المعسكر يُقصد فيه إذا نُصبت الخيام، وموضعاً يمشي فيه ليقضي فيه وهو سائر وأشهر ما كان على يمين الأعلام؛ وليلزم ذلك طولَ سفره وفي مُدَد المُقَام، ولا يخالفه ليُبهمَ على ذوي الحوائج فما هو بالصَّالِحيَّة بمصر ولا بالعادِليَّة بالشام؛ وليتَّخذْ معه كُـتَّاباً تكتبُ للناس وإلا فمن أين يوجد مركز الشهود. وليسجِّل لذي الحق بحقِّه وإلا فما آنسدَّ باب الجُحود. وتقوى اللّه هي التي بها تُنصر الجنود، وما لم تكن أعلىٰ ما يكون على أعلام الحرب وإلا فما الحاجةُ إلى نَشْر البنود».

٢٠ ـ وصيَّةُ مُحْتَسِب[١]:

«وقد وَلِيَ أمرَ هـذه الرتبـه، ووُكِـل بعينـهِ النـظرُ في مصـالـح المسلمين للّه حِسْبه[٢]؛ فلينظرْ في الدَّقيق والجليل، والكثير والقليل، وما يُحصَر بالمقادير وما لا يُحصَر، وما لا يؤْمَر فيه بمعروف أو يُنهىٰ عن مُنكـر، وما يشترىٰ ويباع، ومـا يُقرِّب بتحريره إلى الجنَّة ويبعدُ من النار ولو لم يكن قد بقيَ بينه وبينها إلا قَدْرُ باعٍ أو ذراع؛ وكل ما يُعمل من المعايش في نهارٍ أو ليل، وما لا يُعرف قَدْرُه إلا إذا نطق لسانُ الميزان أو تكلم فمُ الكيل. وليعمل لديه معدَّلاً لكل عمل، وعياراً إذا عُرضت عليه المعـايير يُعرفُ من جارَ ومن عَدَل. وليتفقد أكثر هذه الأسبـاب، ويحذِّر من الغِشّ فـإن الداءَ أكثرُه من الطعام أو الشراب. وليتعرَّف الأسعار ويستعلم الأخبار، في كل سوق من غير إعلامٍ لأهله ولا إشعار؛ ولْيُقِم عليهم من الأمناءِ من ينوب عنه في النظر، ويطمئِنُّ به وإن غاب إذا حضر؛ ويأْمره بإعلامه بما أعضَل، ومراجعته مهما أمكن فإنَّ رَأْيَ مثله أفضل.

(١) المحتسب: من وجوه العدول وأعيانهم ويده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحِسبة. وهو يتحدّث في أمر المكاييل والموازين، ولا يحال بينه وبين مصلحة إذا رآهـا. وقد أفـاض المقريزي في شرح وظيفة المحتسب، وقد تولاها بنفسه.

(انظر: خطط المقريزي: ١/٤٦٣ ـ ٤٦٤؛ وصبح الأعشى: ٣/٤٨٣ و ٤/٣٧ و ٥/٤٥١؛ والأحكام السلطانية للماوردي: ٣٠٠ ـ ٣١٩).

(٢) أي آحتساباً.

ودارُ الضَّرْبِ والنقودُ التي منها تَنْبتُ، وقد يكون فيها من الزَّيْف ما لا يظهر إلا بعد ضُوءِ الثَّبْت: فليتصدَّ لمُهمَّها بصدره الذي لا يَحْرَج، وليعرِضْ منها على المحكِّ مِنْ رأيه ما لا يجوزُ عليه بَهْرَج، وما يعلَّق من الذهب المكسورِ ويُرَوْبَصُ[1] من الفضة ويُخرَج، وما أكلت النارُ كلَّ لِحَامِه [أو][2] بعضه [فليُقم][2] عليه من جهته الرقباء، وليُقِم على شمس ذَهَبِه مَن يرقُب منه ما تَرْقُب من الشمس الحِرباء؛ وليُقم الضُّمَّان على العطّارين والطُّرُقيَّة[3] في بيع غرائب العقاقير إلا ممن لا يُستراب فيه وهو معروف، وبخطِّ متطبِّبٍ ماهرٍ لمريض معين في دواء موصوف. والطُّرُقيّة وأهلُ النِّجامة وسائر الطوائف المنسوبة إلى ساسان، ومن يأخذ أموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان، وكل إنسانٍ سوءٍ من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لا إنسان: امنَعْهُمْ كلَّ المنع، وأصْدَعهم مثل الزجاج حتى لا ينجبِرَ لهم صَدْع، وصُبَّ عليهم النَّكال وإلا فما يُجدي في تأديبهم ذاتُ التأديب والصَّفْع، واحْسِم كلَّ هذه الموادِّ الخبيثة، واقطع ما يجدِّد[4] ضُعفاءُ الناس من هذه الأسباب الرَّثيثة؛ ومَنْ وجدتَه قد غشَّ مسلماً، أو أكل بباطلٍ دِرْهماً، أو أخبر مُشترياً بزائد، أو خرج عن معهود العوائد: أشْهِرْه في البلد، وأركِبْ تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلْد. وغير هؤلاء من فُقهاء

---

(١) في نسخة توقيع بشدّ «دار الضرب» أورد القلقشندي عبارة: «ويفوّض إليه كشف الرُّوباص وحكُّ العيار فهو به أدرى وأحرى وأدرب بإدحاض غش الفساد». ويفهم من عبارة القلقشندي أن الروباص هو عملية كشف نسبة الفضة في النقود، أو هو ما يُتوصَّل بواسطته إلى كشف هذه النسبة وتحديدها؛ وذلك كله يجري في دار الضرب. وكانوا يقولون: فضة مروبصة؛ ولعلها الفضة المخلوطة بالنحاس المعدّة لضربها نقوداً.

(انظر صبح الأعشى: ١٢/ ٤٥٥ - طبعة دار الكتب العلمية).

(٢) في ط ق: «ولا بعضه ويقيم عليه». وما أثبتناه من الصبح.

(٣) الطرقيّة: هم الذين يقدمون ألعاباً في الطريق ليحصلوا على الأموال بدون وجه حق.

والضمّان: مفردها ضامن؛ وهو الملتزم الذي يتولى لحسابه جمع ضريبة من الضرائب أو مكس من المكوس التي يفرضها السلطان أو الأمير ويضمن في مقابل توليه ذلك مبلغاً معيناً من المال يدفعه إلى الجهة المختصة في أوقات منتظمة كل سنة.

(٤) في ط ق: «يجرّ».

المكاتب[1] وعالمات النساءِ وغيرهما من الأنواع ممن يُخافُ من ذئبه العائثِ في سِرْبِ الظِّباء والجآذِر، ومن يُقدِم على ذلك ومثلِه وما يحاذر: آرشُقْهم بسهامك، وزلزِلْ أقدامَهم بإقدامِك، ولا تدع منهم إلا من آختبرتَ أمانته، وآخترتَ صيانته. والنُّواب لا ترضَ منهم إلا مَنْ يحسن نَفَاذا، ويُحسبُ لك أجرُ استنابته إذا قيل لك من آسْتَنَبْت فقلت هذا. وتقوى اللّه هي نعمَ المسالك، ومالَكَ في كلِّ ما ذكرناه بل أكثره إلا إذا عملت فيه بمذهب مالِك.»

٢١ ـ وصيَّةُ خطيب[2]:

«وليرقَ هذه الرُّتبةَ التي رُفعت له ذرى أعوادها، وقُدِّمت له من المنابر مقرَّبات جيادها؛ وليصعد منها أعلىٰ دَرَجه، وليَسْعَد منها بصهوةٍ كأنما كانت له من بُكرة يومه المشرقِ مُسْرَجه؛ وليرعَ حقَّ هذه الرُّتبة الشريفَة، والذِّروة التي ما أُعدَّت إلا لإمامٍ فردٍ مِثلِه أو خليفة؛ وليقف حيث تخفق على رأسه الأعلام، ويتكلَّم فتخرس الألسنة وتجفُّ في فم الذرىٰ الأقلام؛ وليقرع المسامعَ بالوعد والوعيد، ويذكِّر بأيام اللَّه ﴿مَنْ كانَ له قلبٌ أو ألقىٰ السَّمْعَ وهُوَ شَهيد﴾ [ق: ٣٧] ويُليِّن القلوبَ القاسيةَ وإن كان منها ما هو أشدُّ قسوةً من الحجارة أو الحديد؛ وليكن قد قدَّم إلى نفسه قبل أن يتقدَّم، وليُسْبِل عليه درعَ التَّوْبة قبل أن يتكلم؛ وليجعل لكل مقام مقالاً يقوم به على رؤُوس الأشهاد، ويُفوِّقُ منه سهماً لا يخطيء موقعُه كلَّ فؤاد؛ وليقم في المحراب قيامَ من يخشىٰ ربَّه، ويخاف أن لا[3] يخطُفَ الوَجَلُ قلبَه؛ وليعلم أن صَدَفَةَ ذلك المحراب ما آنفلقت عن مثل دُرَّته المكنونة، وصناديقَ الصُّدور ما أُطْبقت على مثل جَوْهرته المخزونة؛ وليؤُمَّ بذلك الجمِّ الغفير، وليتقدَّم بين أيديهم فإنه السفير؛

---

(١) فقهاء المكاتب: هم الذين يعلمون الأولاد الصغار ويقومون بتحفيظهم القرآن الكريم.
وعالمات النساء: هن اللواتي يتولَّين إدارة بيوت اللهو والمجون ويحترفن الرقص والغناء. والتسمية ما زالت معروفة في مصر إلى الآن.

(٢) المراد خطباء الجوامع.

(٣) لفظ «لا» ساقط من نصّ الصبح.

وليؤدِّ هذه الفريضة التي هي من أعظم الأركان، وأوّل الأعمال التي توضع في الميزان، وأقرب القُرَب التي يجمع إليها داعي كل أذان؛ وليقُمْ بالصلاة في أوقاتها، وليُرِحْ بها الناسَ في أول ميقاتها؛ وليخفّف مع الإتمام، وليتحمَّل عمَّن وراءه فإنه هو الإمام. وعليه بالتقوى في عقد كل نيَّة، وأمامَ كلِّ قضيَّة؛ واللّه تعالىٰ يجعله ممن ينقلِبُ إلى أهله وهو مسرور، ويُنْصَبُ له مع الأئمة المُقْسِطين يومَ القيامة على يمين الرحمن منابرُ من نور.»

٢٢ ـ وصيَّةُ شَيْخ الشيوخ[١]:

«وأنت في الأيام قُدْوَة، وللأنام أُسْوَة، ومنك تُتَلقَّف الوصايا، وبك تتثقَّف السَّجايا؛ وإنما هي بركاتٌ سمائيَّةٌ لا يجد أحدٌ غِنًى عن مَزيدها، وحركاتٌ إلهيّةٌ لا يبلغ نهايةً في تَعْديدها؛ وهي مِشْكاةُ أنوار، وميقاتُ أذْكار، وأوقاتٌ تطوّع زمانُها كلُّه نهار، وأساس ما يُبنىٰ عليه الاجتهاد فأدِمْ تشميرَ الذيل، ﴿**وأقِمِ الصَّلاةَ طَرَفي النهارِ وزُلَفاً مِنَ اللَّيل**﴾ [هُود: ١١٤]؛ وخُذْ جماعتَك بمأخَذِك في الأمور، وذكِّرهم بأيام اللّه ﴿**إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكُور**﴾ [إبراهيم: ٥] ولازِمْ للّه المراقَبة، وداوِمْ في اللّه المُصَاحَبة؛ ومِثْلُك خيرٌ كلُّه، وسحابٌ لا يتقلَّص ظِلُّه؛ ومَنْ عِندكَ في هذا المكان، كلُّهم لك إخوان، وهم لك على التَّقوى أعوان،

---

(١) شيخ الشيوخ: لقب يطلق على متولي الإشراف على رجال الطرق الصوفية. وكان الصوفية في عصر المماليك يكوّنون طائفة كبيرة ولهم احترام خاص. واللقب يشير إلى وظيفة، فقد ذكر أبو شامة في «الروضتين» أنه بعد وفاة شيخ الشيوخ إسماعيل بن أبي سعد في أيام المستنجد سنة ٥٤١ هـ صار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ. أما في عصر الأيوبيين والمماليك فقد كان لقب «شيخ الشيوخ» لقباً فخرياً يطلق تحديداً على شيخ «الخانقاه الصلاحية» التي بناها صلاح الدين وتسمى أيضاً «سعيد السعداء». وقد أورد القلقشندي في صبح الأعشى نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ بالخانقاه الصلاحية بالقاهرة باسم الشيخ شمس الدين بن النَّخجواني من إنشاء ابن فضل الله العمري، ونسخة توقيع آخر بمشيخة الشيوخ بالخانقاه الناصرية بسرياقوس للشيخ نظام الدين الأصفهاني من إنشاء الشريف شمس الدين.

(انظر صبح الأعشى: ١١/٣٧٠ ـ ٣٧٦؛ وخطط المقريزي: ٢/٤١٤).

وكلّهم كالشجرة يجمعها أصلٌ واحِدٌ تفرّعت منه أغصان، فاعرفْ لأهل السَّابقة حقَّهم ومنكَ وإلا فممَّن يُطلب العِرفان؛ وبَصِّر من هامَ بليلىٰ وَلَعاً بآسمها وما عرف المسمَّى، ووقف حائراً لما آستَبْعد المرمىٰ، وظنَّ أن لِثاماً دونها يمنع لَثْما، وتوهَّم أن الحِجابَ العِلَّةَ وما عرف أن طَرْفَه عن حُسنها أعمىٰ. فدَاوِ قلوبَهم المرضىٰ، ونَبِّه جفونَهم من رَقَدَاتها فقد أطالت غَمْضا، وآرفِقْ بهم ودارِهم وآرْضَ بأن تكون لهم أرضا، ولا تَدَعْ مَنْ تراه ترك نافِلةً حتى ترىٰ دوامَ السَّهر على عينيه فرضا. وأَحْسِن تربيةَ من آستجدَّ في التَّنقُّل من حال إلى حال[1]، وإيقاظه من أوَّل عشاء حتىٰ يتعبَ ويرود الليلَ أسْمَال. وتدريج المُريدين على قَدْر ما تحتمِله أفهـامُهم، وتشتمله من مطارف القـوَّة أيامُهم. وإيَّاكَ والمعاجَلة بكؤوسٍ لا تَقْوىٰ كل قوَّة على شَرَابها، وكَشْفَ حقيقةٍ غايةُ كثيرٍ من الناس أن يقفَ بعيداً عن حِجابها. وألْزِم كلًّا ممن عندك أو آستجَدَّ تِـلاوةَ كتابِ اللَّه وسُنَّةَ رسوله ﷺ فهُمَا الثَّقَلان[2]، وحَسْبُ من غذَّىٰ بهما قلبه وهو ملآن؛ فلا طريقَ إلى اللَّه إلا من سبيلهما، ولا هُدًى إلا لمن آستـرْشَد بـدليلهما؛ فعليـك بهما فهمـا المِنْهَاجُ والشِّرْعه، وإيَّاك إيَّاك من كل مُحْدَثةٍ فكلُّ مُحْدَثةٍ ضَلالةٌ وكلُّ ضَلالة بِدْعه.

فاتَّخذهما لك إلى اللَّه الذَّريعة، ومُرْ بتجنُّبِ ما سواهما فقد أجمعتِ الأمَّةُ على بُطلان كل حقيقة تخالفها الشَّريعة. ومن مال إلى ما نعوذُ باللَّه منه من آتِّحاد أو حُلول، أو آدَّعىٰ أنه يكون إلى اللَّه من غيـر طريق الأنبياء وصُول، فكُنْ أنتَ المنكِـرَ عليه، والسَّارِقَ بعدلك السَّيفَ إليه. ومَنْ لم يكن قلبُه قد أُشْرِبَ كُفراً، ولا أعمَلَ في إقامـة الدليل فِكراً، فخُذْه بالتَّوْبة والاستغفار، وخُذه بما أمر اللَّه به نبيَّه: ﴿**قُلْ إنَّما إلهُكُم إلهٌ واحِدٌ لا إلَهَ إلا هو سبحانَه هو اللَّه الـواحِدُ القَهَّـار**﴾ [الزُّمَـر: ٤]. وآعلم يقيناً بـأن

---

(١) المقصود أحوال الطرق الصوفيّة، أي المراتب والدَّرجات التي يتدرَّج فيها المُريد.

(٢) الثَّقلان: الجنُّ والإنس. وأصل الثَّقَل أن العرب تقول لكل شيء نفيس خطير مصون: ثَقَل. وسمَّى الله تعالى الإنس والجنَّ ثقلين لتفضيلهما على سائر المخلوقات. وسمَّى النبي كتاب الله وسُنَّة نبيه ثقلين إعظاماً لقدرهما وتفخيماً لشأنهما. وقيل: سمّيا ثقلين لأن الأخذ بهما ثقيل والعمل بهما ثقيل. (انظر لسان العرب: ثقل).

أولئك أمورُهم بيِّنةٌ وهي متشابهة، وأنهم بالغوا في التوحيد فوقعوا في الشِّرْك إذ أرادوا أن يجعلوا الكلَّ إلهاً واحداً فجعلوه آلهة. ولا يُموِّه عليك من آدَّعى أو آدُّعِيَ له أنه إنما قال ذلك شَطْحةً في سُكْرِه، فقد صَدَق ولكنَّه من خمار مُسْكِراته أو من مُخَامَرة كُفره.

وقد يقول قوم إنهم من العُشَّاق، وما كذبوا فإنهم ما موَّهوا إلا في فِعلهم وأما قولهم فهو مَحْمولٌ على الإطلاق. وإيَّاك والرأْفةَ على أحدٍ من هذه الفرقة الضَّالَّة رأْفَةَ رَجِيم، أو مخادعة رأيك فيهم فما أنت به من سوءِ باطنهم عليم، وخُذْ في أمرهم بالحزم ﴿وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللّه من الشَّيْطانِ الرَّجِيم﴾[الأعراف: ٢٠٠] ومن دخل في هذه الطائفة من غير أهلها أو تغيَّر عمَّا عُهِدَ عليه لا تُحْسِن له مُلتقىٰ، ولا تدع له مُرْتقىٰ، ولا تحمل أحداً منهم على الحلم ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بعهْدِهِ واتَّقَىٰ﴾ [آل عمران: ٧٦] وأنت كبيرُ قومٍ تَهْوِي إليك نَجَائبُهم من كل فجٍّ عميق، وتَرِدُ عليك ركائبُهم من الطَّريقة والطَّريق: فوسِّع لمُلْتَقَاهم صدرَكَ الرَّحيب، ونوِّع لقِراهم بِرَّكَ القريب؛ وآعلمْ بأنك أصبحت في بيوتك للوفود مُقيمٌ ومُقيل، وقبيحٌ بمن تخلَّق بصفات الكريم رَدُّ نزيل؛ فأيُّ مسافرٍ وقف لك على باب، أو متَّ إليك من خِرْقةِ الفقر بأسباب، عجِّل له الإذنَ في الدخول، وآضرِبْ له ببشْرِك به مثلاً في البُشْرىٰ بقُرْب الوصول: فأنتم قومٌ مبنى أمركم على التَّوكُّل فدَعْ هذا من التَّوَكُّل وما نَوىٰ، وأمُرْ بأن يُؤْخذ عُكَّازُه وتُفرَش سجَّادَتُهُ لتلقيَ غُرْبَتُهُ عَصاها ويستقرَّ بها النَّوىٰ؛ ومثل هذا المغترِب إن لم تُسْهِم له مَعَ مَنْ عِندَكَ بنصيب، لا يقدم عليك غريب، ولا يصحُّ له مع الغرباء ما يُقال: كلُّ غريبٍ للغريب نسيب: فمن مثلِ هذه الصَّدَقة كَسْبُه، وما أتاك حتىٰ توكَّل على اللّه ومن يتوكَّلْ على اللّه فهو حَسْبُه. وبقيَّةُ ما يُقاس وما يُقال، وما تُوشَّع به من وظائف الذِّكْر الحميد أرْدِيةُ بُكَر وآصال؛ فعن تعبُّداتك يحكي الحاكي، ومن تهجُّداتك يشكو الليل لو يعطف المشكوُّ على الشَّاكي، وبسببك يتنافس في العمل الزَّاكي، وبك يَتَأسَّىٰ طَرْفُ كل واحدٍ لولاك ما كان بالباكي ولا المُتَبَاكي. وتقوىٰ اللّه بها تبدو لطائفُ الأسرار، ويغدو ﴿الذين آتَّقَوْا رَبَّهم لهم غُرَفٌ من فوقها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تجري من تحتها الأنهار﴾ [الزمر: ٢٠] وهي

قُوتُ قلبِك، وقوّةُ حبِّك، وبها كانت أوّلُ صِلَتِك بالحق ووصولك إلى ربِّك، فما نذكرها إلا لنثبِّتك من نوازع وَجْدٍ كاد ريَّاها يطير بلُبِّك».

٢٣ ـ وصيَّةُ نقيبِ السَّادة الأشراف[١]:

«ونحن نُجِلُّك عن الوصايا إلا ما نتبرَّك بذكره، ويُسرُّك إذا آشْتملت على سرِّه؛ فأهلك أهْلَك. راقب اللّهَ ورسولَه جدَّك ﷺ فيما أنت عنه من أمورهم مسؤول، وآرفُقْ بهم فهم أولاد أمك وأبيك حَيْدَرَة والبَتُول؛ وكُفَّ يدَ من علمت أنه قد آستطال بشرَفِه فمدَّ إلى العِناد يدا، وآعلم بأن الشريفَ والمشروفَ سواءٌ في الإسلام إلا من آعتدى، وأن الأعمالَ محفوظةٌ ثم معروضةٌ بين يَدَي اللّه فقدِّم في اليوم ما تفرَحُ به غدا؛ وأزِل البدعَ التي يُنْسبُ إليها أهلُ الغُلوّ في ولائهم، والغُلوّ فيما يوجب الطعنَ على آبائهم، لأنه يُعلم أن السَّلَفَ الصالح رضي اللّه عنهم كانوا منزَّهين عما يدَّعيه خَلْفُ السَّوْءِ من آفتراق ذات بينهم، ويتعرَّض منهم أقوامٌ إلى ما يجرُّهم إلى مَصَارع حَيْنهم؛ فللشيعة عَثَراتٌ لا تُقال، من أقوال ثِقال؛ فسُدَّ هذا البابَ سَدَّ لبيب، وآعمل في حسم موادِّهم عملَ أريب، وقُمْ في نَهْيِهم والسيفُ في يدك قيامَ خطيب، وخوِّفهم من قوارعك مواقِعَ كلِّ سَهْم مُصيب؛ فما دُعِيَ بـ«حَيَّ على خيرِ العمل» إلى خيرٍ من الكتاب والسُّنَّة والإجماع، فآنظِم في نادي قومك عليها عُقودَ الاجتماع؛ ومن آعتزَى إلى آعتزال، أو مال إلى الزَّيديَّة في زيادةِ مقال، أو آدَّعى في الأئمة الماضين ما لم يدَّعوه، أو آقتفى في طرق الإماميَّة بعضَ ما آبتدعوه، أو كذب في قولٍ على صادِقهم، أو تكلم بما أراد على لسانِ ناطقهم، أو قال إنه تلقَّى عنهم سِرّاً ضَنُّوا على الأمة ببلاغه، وذادُوهم عن لَذَّة مَسَاغِه، أو رَوى عن يوم السَّقيفة

---

(١) أي نقيب الأشراف الطالبيين، وهم أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من فاطمة بنت رسول الله. وهذه الوظيفة كانت موجودة بمصر والبلدان التابعة لها، ويتولاها أحد شيوخ هذه الطائفة. ويكون جليل القدر وله النظر في أمورهم ومنع من يدخل فيهم من الأدعياء، وإذا تشكّك في أحدهم طلب منه شجرة نسبه. وعليه أن يعود مرضاهم ويمشي في جنائزهم ويسعى في حوائجهم ويأخذ على يد المعتدي منهم؛ ولا يقطع أمراً من الأمور المتعلّقة بهم إلا بموافقة مشايخهم.
(صبح الأعشى: ٢٧٣/٣، ٤٨١ و٣٧/٤).

والجملِ غيرَ ما ورد أخباراً، أو تمثَّل بقول من يقول: عبدُ شمسٍ قد أوقدت لبني هاشِمَ ناراً، أو تمسَّك من عقائد الباطن بظاهر، أو قال إن الذات القائمة بالمعنى تختلف في مَظَاهِر، أو تعلَّق له بأئمةِ السَّتْر[1] رَجاء، أو ٱنتظر مُقيماً[2] برضْوى عنده عَسَلٌ وماء، أو رَبَط على السَّرْداب فَرَسه لمن[3] يقود الخيلَ يَقْدَمُها اللِّواء، أو تلقَّت بوجهه يظنُّ علياً ـ كرَّم اللّه وجهه ـ في الغَمام[4]، أو تفلَّت من عِقال [العقل][5] في ٱشْتِراط العِصْمة[6] في الإمـام. فعَرِّفهم أجمعين أن هـذا من فَساد أذهـانهم، وسوءِ عقائد أديانهم؛ فإنهم عَدَلوا في التقرُّب بأهل هذا البيت الشريف عن مطلوبهم، وإن قال قائلٌ إنهم طَلبوا[7] فقل له ﴿كلاَّ بَلْ رَانَ على قُلوبِهم﴾ [المطففين: ١٤].

وٱنظرْ في أمور أنسابهم نظراً لا يدَعُ مجالاً للرِّيَب، ولا يستطيع معه أحدٌ أن

---

(١) من معتقدات الإسماعيلية أن لأئمتهم أدواراً في كل دور منها سبعة أئمة: ظاهرين أو مستورين. فإن كان أهل الدور ظاهرين يسمَّى ذلك الدور دورَ الكشف، وإن كانوا مستورين يسمَّى دور السَّتْر. وآخر الظاهرين عندهم إسماعيل الذي ينسبون إليه، وأول أئمة السَّتر ابنه المكتوم.

(انظر دائرة المعارف الإسلامية: مادة إسماعيلية وصبح الأعشى: ١٣/ ٢٣٩).

(٢) رضوى: جبل بالمدينة المنوّرة. والمقيم برضوى هو محمد بن الحنفية، كما تزعم طائفة الكيسانيّة.

(انظر معجم البلدان: ٣/ ٥١)

(٣) الإشارة إلى محمد بن الحسن العسكري، المهديّ المنتظر؛ وهو آخر الأئمة الاثني عشر عند الإمامية الاثني عشرية من الشيعة. وهو صاحب السِّرداب؛ إذ يقول الشيعة إنه دخل سرداباً في دار أبيه بسرَّ من رأى سنة ٢٦٥ هـ وعمره يومئذ تسع سنين ولم يخرج منه. وهم ينتظرون ظهوره في آخر الزمان من ذلك المكان.

(انظر وفيات الأعيان: ٤/ ١٧٦)

(٤) هذا من معتقدات غلاة النصيرية أو العلويين، إذ يزعمون أن مسكن علي بن أبي طالب السَّحاب، وإذا مرَّ بهم السحاب قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن، ويقولون إن الرَّعد صوتُه والبرقَ ضحكُه. وطائفة من غلاتهم ـ وهم الكلازيّة ـ يعتقدون بحلول عليّ في القمر؛ ولذلك يعبدونه. وبعضهم يعتقدون بحلوله في الشمس نهاراً ولذلك يعبدونها أيضاً. هذا في معتقد بعض الغلاة منهم؛ أما الفريق الأكبر من العلويين فلا يفتأون يعلنونَ إسلامهم، ومعتقدهم في الإمام علي بن أبي طالب لا يخرج عن معتقد الشيعة الاثني عشرية: أي أنه وصيُّ النبيِّ ﷺ.

(انظر صبح الأعشى: ١٣/ ٢٤٩؛ وإسلام بلا مذاهب لمصطفى الشَّكعة: ص ٣٠٤).

(٥) اللفظ ساقط من ط ق. وما أثبتناه من صبح الأعشى.

(٦) العصمة من شروط الإمامة لدى الشيعة.

(٧) المراد: إنهم طلبوا الحقَّ فأخطأوه.

يدخل فيهم بغير نَسَب، ولا يخرُج منهم بغير سَبب، وساوِقِ المتصرِّفين في أموالهم في كـل حِسـاب وآحْفظْ لهم كـلَّ حَسَب. وأنت أولى من أحْسَنَ لمن طَعَن في أسانيد [هذا] آلحديث الشَّريف أو تأوَّل فيه على غيرِ مُرادِ قائله ـ ﷺ ـ تأديباً، وأراهُم مما يُوصِّلهُم إلى الله وإلى رسوله طريقاً قريباً؛ ونكِّل بمن قد علمت أنه قد مـالأ على الحقِّ ومالَ إلى فريق الباطِل فَرَقا، وطوَى صَدْرَه على الغِـلِّ وغَلَب من أجله على ما سَبَق في علم الله من تقديم من تقدَّم حَنَقا، وحَار وقد أوْضحْتَ لهم الطَّريقة المُثلى طُرُقا؛ وآردعهم إن تعرضوا في القَدْح إلى نضال نصال، وأمنعهم فإنَّ فِرَقهم كلَّها وإن كَثُرت خابطةٌ في ظلام ضَلال؛ وقدِّم تَقْوى الله في كلِّ عَقْدٍ وحَلّ، وأعمل بالشَّريعة الشريفة فإنها السَّبَبُ المـوصولُ الحبـل؛ والله تعالى يـرفعك في الزُّلْفى إلى أشرف مَحَلّ، ويمدُّ لك رُوَاقَ عِزٍّ إذا أبرز له البرْقُ خَدَّه خجِل أو مدَّ الغمـامُ معه سُـرادقاتِـه آضمحلّ».

٢٤ ـ وصيَّةُ وكيل بيت المال المعمور[١]:

«وهو الوكيلُ في حقوق جميع المسلمين وما له معهم[٢] إلا حقُّ رجل واحـد، والمكلَّفُ بالمخاصمة عنهم حتَّى يُقِرَّ الجاحِد؛ وهـو القائمُ للدَّعْـوى لهم وعليهم، والمطلوبُ من الله ومنَّا بما يُؤخَذ لهم أو يؤخذ من يديهم، والمعَدُّ لتصحيح العقود، وترجيحِ جهةِ بيت المال في العَقَار المبيع والثمن المَنْقود، والمتكَلِّمُ بكتاب الوكالـة الشرعيَّة الثابتة، والثابتُ القَدَم والأقدامُ غيرُ ثابتـة، والمفْسـوح المجال في مجـالس (الحُكَّام][٣] والمجادِلُ بِلسان الحقِّ في الأحكام، والموقوفةُ كلُّ دعوى لم تُسمع في

---

(١) كان لمن يتولى وظيفة وكالة بيت المال التحدّث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض ودور وغير ذلك. وكانت هذه الوظيفة لا تُسند إلا لذوي الهيبة من شيوخ العدول. ويفوض إليه عن السلطان بيع ما يرى بيعه من كل ما يمتلك ويجوز التصرّف فيه شرعاً، وعتق المماليك وتزويج الإماء، وتضمين ما يقتضي الضمان، وإنشاء ما يرى إنشاءه من البناء والمراكب وغير ذلك. وكان مجلس من يتولى هذه الوظيفة بدار العدل، وتارةً يكون أرقى رتبة من المحتسب وأحياناً أقل منه.
(صبح الأعشى: ٤٨٣/٣ و ٣٦/٤؛ والتعريف بمصطلحات الصبح: ٣٦١).

(٢) في ط ق: «منهم»

(٣) في ط ق: «الأحكام».

وجهِهِ أو في وجه مَنْ أذِنَ له في سَمَاعها، والمرجوعُ إليه في إماتةِ كلِّ مخاصَمَةٍ حصل الضَّجَرُ من طُولِ نِزَاعها، وإبداء الدوافع، ما لم يجد بُدّاً من الإشهاد عليه بعدم الدافع، والانتهاءِ إلى الحق كان له أو عليه ولا يقف عند تثقيلِ مثقِّلٍ ولا شفاعةِ شافعٍ؛ وبوقوفه تُحدَّد الحدود وتُمتحن الشهود ويُمشىٰ على الطُرق المستقيمة، وتُحفظ لأصحابها الحقوقُ القديمة؛ وبه يتمُّ عَقْدُ كل بيعٍ وإيجار إذا كانت المصلحةُ فيها لعامَّةِ المسلمين ظاهرة، ولهم فيما يُوكَّل عنهم فيه الحظُّ والغِبْطةُ بحسب الأوقات الحاضرة.

ونحنُ نُوصِيه في ذلك جميعه بالعمل بما علم، والانتهاء في مُقتضىٰ قولنا إلى ما فَهِم، وتقديمِ تقوىٰ اللّه فإنه متىٰ قدَّمها بين يديه سَلِم، والوقوف مع رِضىٰ اللّه فإنه متى وقف معه غَنِم، والعمل بالشَّرْع الشَّريف كيفما توجَّهَت أحكامُه، والحذَر من الوقوف في طريقه إذا نفذت سِهامُه؛ ومَنْ مات وله ورَثةٌ معروفةٌ تستكمل بحقِّها ميراثه، وتحوزُ بحظِّها تُراثه: لا يُكلِّفهم ثبوتاً يكون من باب العَنَت، والمدافعة بحقٍّ لا يحتاج مستحِقُّه إلى زيادة ثَبَت؛ وإنما أنت ومَنْ كانت قضيَّتُه مُنْكرة، والمعروفُ من مستحقّي ميراثه نَكِرَة: فأولئك شدِّدْ في أمرهم، وأوْطِ شُهداءَهم في الاستفسار منهم على جَمْرِهم، وتتبَّع باطِنَ الحال لعلَّه عنك لا يَتَستَّر، ولا يمشي عليك فيه الباطلُ ويمشي شاهِدُ الزُّور بكُمَّيْه ويتَبَخْتَر؛ فإن تحقَّقْتَ صحَّةَ شهاداتِهم وإلا فأشْهِرْهُم في الدنيا ردعهم في الآخرة لا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ ولا يفْتَر؛ وكلُّ ما يُباع أو يؤجَّر آرجع فيه إلى العوائد، وتقلَّدْ أمْرَ الصغير، وجدِّد لك أمراً منا في الكبير، وذلك بعد مراعاة ما نجبُ مُرَاعاته، والتَّأنِّي كلَّ التأنِّي حتى يثْبُتَ ما ينبغي إثباتُه؛ وشهودُ القيمة عليهم المَدَار، وبشهادتهم يُقدَّر المِقْدار؛ وما لم يكونوا من ذوي الأقدار، ومن أهل الخبرة بالبَزِّ والجِدار، وممن آشترىٰ العَقَارَ وآستغلَّه وبنىٰ الدَّار، وإلا[1] فآعلم أنَّ مثله لا يُرجَع إليه، ولا يُعوَّل ولا سيَّما في حقِّ

---

(١) كذا في ط ق وفي الصبح أيضاً. والمراد أن المقوِّمين يشترط فيهم أن يكونوا بتلك الصفات وإلا فلا يؤخذ بتقويمهم ولا يعوَّل على كلامهم.

بيت المال عليه؛ فاتفقْ مع وُلاة الأمور من أهل الأحكام على تعيين من يُعيَّن لتقليد مثل هذه الشهادة، وتوقَّ[1] منهم من له كلّ هذه الخبرة حتّى تعرف أنه من أهل الزّهادة؛ ولك أن تدّعيَ بحقِّ المسلمين حيثُ شئْتَ ممّن ترى أن حقَّه عنده يترجّح، وأنّ بيّنتهم تكون عنده أوضح، فأما الدَّعْوى عليك فمن عادتها أن لا تُسمَعَ [إلا][2] في مجلس الحُكم العزيز الشافعي ـ أجلَّه اللّه تعالى ـ ونحن لا نغيِّر العوائد، ولا ننتقِضُ ما بنت الدُّولُ السَّالِفةُ عليه القواعد: فليكن في ذلك المجلس سَمَاعُها إذا تعيَّنت، وإقامةُ البيِّنات عليها إذا تبيَّنَتْ؛ واللّهَ اللّهَ في حقِّ بيت المال، ثم اللّهَ اللّهَ في الوقت الحاضر والمآل. ومَن تَسْتَنيبهم عنك بالأعمال لا تُقِرُّ منهم إلا مَنْ تَقَرُّ به عينُك، ويُوفّى به عند اللّه لا بما تحصّله من الدنيا دَيْنُك؛ ومن كان لعلمه مصْلِحاً، ولأمله [مُنْجحاً][3]: لا تُغيِّر عليه فيما هو فيه، ودَعْهُ حتى يتبيَّن لك خافِيه؛ ولتَسْتَقْصِ في كل وقت عنهم الأخبار، ولتستعلِم حقائقَ ما هم عليه بما تستصحبه من الأخبار، ولا تزال منهم على يَقين، وعمل بما فيه خلاصُ دنيا ودِين».

٢٥ ـ وصيَّةُ مدرِّس:

«وليطلُع في مِحْرابه كالبَدْر وحولَه هالَةُ تلك الحَلَقة، وقد وَقَتْ أهدابُ ذلك السَّوادِ منه أعظَمَ آسوداداً من الحَدَقة؛ ولْيَرْقَ سَجّادَته التي هي لِبْدَةُ جواده إذا آستَنَّ الجدال في المضمار[4]، ولْيُخْفِ [أضواءَ][5] أولئك العلماء الذين هم كالنُّجوم كما

---

(١) كذا في ط ق. وفي الصبح «وتعرَّف» وهي أصحّ في المقام.

(٢) ساقطة من ط ق؛ وهي ضرورية لاستقامة المعنى. والملاحظ أن رجوع وكيل بيت المال إلى القضاء الشافعيّ حصراً هو زيادة في علوّ شأنه، إذ أن قاضي القضاة الشافعي كان مقدَّماً على سائر قضاة القضاة من المذاهب الأخرى لأن المذهب الشافعيّ كان مذهب السلطة المملوكية في ذلك الوقت.

(٣) في ط: «مُصبحاً». وما أثبتناه من الصبح، وهو أوضح في المقام.

(٤) في ط ق: «إذا آستنّ في الجدال المضمار».
وآستنَّ بمعنى آضطرب.

(٥) ساقطة من ط ق ومن الصبح أيضاً. وقد زادها محقق الطبعة الأميرية من صبح الأعشى، ونحن نرى صواب ذلك.

تَتضاءَل الكواكبُ في مَطَالِعِ الأقمار؛ وليُبْرِزْ لهم من وراء المحراب كمِينَه، وليُفِضْ على جداولهم الجافَّة مَعِينه؛ وليَقْذِفْ لهم من جَنبات ما بين جَنْبَيه دُرر ذلك البحر العجّاج، وليُرِهم من غُرَرِ جياده ما يُعلم به أنَّ سوابِقَه لا يَهُولُها قَطْعُ الفِجاج؛ وليُظْهِر لهم من مَكْنون علمه ما كان يُخفيه الوَقار، وليَهَب من ممنون فضله ما يَهَبُ منه عن ظهر غِنًى أهلَ الافتقار؛ وليقرِّر تلك البحوث ويبيِّنْ ما يَرِدُ عليها وما يُرَدُّ به مَنْ مَنَعَها وتطرَّق بالنَّقْض إليها، حتى لا تنفصل الجماعةُ إلا بعد ظهور التَّرْجيح، والإجماع على كلمةٍ واحدة على الصحيح؛ وليُقْبِل في الدروس طَلْقَ الوجه على جماعته، وليسْتَمِلْهم إليه بجُهْدِ استطاعته، وليُرَبِّهم كما يربِّي الوالدُ الولد، وليستحسن ما تجيءُ به أفكارُهم وإلا فكم رجلٍ بالجَبْهِ لبنت فكرٍ وَأَد. هذا إلى أخْذِهم بالاشتغال، وقَدْح أذهانهم للاشتعال. وليُنَشِّيء الطلبةَ حتَّى يُنَمِّي منهم الغُروس، ويؤهِّل منهم مَنْ كان لا يُظَنُّ منهم أنه يتعلَّم لأن يعلِّم ويُلْقِيَ الدُّروس».

٢٦ ـ وصيَّةُ مُقرِيء:

«ولْيَدُم[١] على ما هو عليه من تِلاوة القرآن فإنَّه مِصباحُ قلبه، وصَلاحُ قُرْبه، وصَباحُ القَبُول المؤذن له برضى ربِّه؛ وليجعل سُوَرَه له أسواراً، وآياتِهِ تُظهِرُ بين عينيه أنواراً؛ وليتلُ القرآنَ بحروفه[٢] وإذا قرأ آستعاذ، وليجمع طُرُقه وهي التي عليها

(١) في ط ق: «وليقدم»

(٢) المراد الأحرف السبعة. ونحن نجد في الأحاديث الصحيحة المروية من طرق مختلفة ما يفيد أن رسول الله ﷺ صرّح بنزول القرآن على سبعة أحرف، ومن أوضح هذه الأحاديث ما رواه البخاري ومسلم: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسَّر منه». أما عبارة «الأحرف» ـ وهي جمع حرف ـ الواردة في الحديث فإن العلماء لم يتفقوا على معنى محدد لها: فذهب بعضهم إلى أنها القراءات، وذهب آخرون إلى أنها اللهجات أو اللغات، والبعض يرى أنها العلوم السبعة، وغير ذلك. والسبب في هذا الاختلاف أنه لم يرد عن النبي أو الصحابة نصٌّ واضح يحدد المراد بلفظ «الأحرف». لذلك فإن جميع الآراء بهذا الشأن إنما هي نتيجة الاستنباط والاستقراء. أما سبب نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف فالمشهور لدى العلماء أن ذلك إنما كان «للتخفيف على هذه الأمة وإرادة اليُسر بها، وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها». وللشيخ الدكتور صبحي الصالح بهذا الشأن رأي يستحق الوقوف عنده والتمعُّن فيه؛ فهو يرى ـ على سبيل الاستنباط والاستقراء وليس على سبيل الجزم ـ أن اللفظ القرآني

الجمهور ويترك الشواذّ، ولا يرتدّ دون غايةٍ لإقصار، ولا يَقِفُ فبعد أن أتمّ لم يبقَ بحمد اللّه إحْصَار، وليتوسّع في مذاهبه ولايخرج عن قراءة القراء السبعة[1] أئمة الأمصار، وليبذُلْ للطلبة الرِّغاب، وليُشبعْ فإن ذوي النَّهْمة سِغاب، وليُرِ الناسَ ما

= الواحد مهما يتعدد أداؤه وتتنوّع قراءته لا يخرج التغاير فيه عن الوجوه السبعة الآتية: الاختلاف في وجوه الإعراب سواء أتغير المعنى أم لم يتغير؛ والاختلاف في الحروف إما بتغير المعنى دون الصورة (الاختلاف بالنقط) وإما بتغيّر الصورة دون المعنى؛ اختلاف الأسماء في إفرادها وتثنيتها وجمعها وتذكيرها وتأنيثها؛ الاختلاف بإبدال كلمة بكلمة يغلب أن تكون إحداهما مرادفة للأخرى وإنما تتفاوتان بجريان اللسان بإحداهما لدى قبيلة دون الأخرى؛ الاختلاف بالتقديم والتأخير فيما يعرف وجه تقديمه أو تأخيره في لسان العرب العام أو في نسق التعبير الخاص؛ الاختلاف بشيء يسير من الزيادة والنقصان جرياً على عادة العرب في حذف أدوات الجرّ والعطف تارة وإثباتها تارة أخرى؛ اختلاف اللهجات في الفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والهمز والتسهيل وكسر حروف المضارعة وقلب بعض الحروف وإشباع ميم الذكور وإشمام بعض الحركات.

(انظر: قضايا لغوية في ضوء القراءات القرآنية ـ ودراسات في فقه اللغة للشيخ صبحي الصالح. وحول هذا الموضوع يمكن مراجعة: الإتقان للسيوطي، والبرهان للزركشي، وطبقات القرّاء لابن الجزري، ومناهل العرفان للزرقاني؛ وغيرها كثير).

(1) عبارة «القراءات السبع» لم تكن قد عرفت في الأمصار الإسلامية حين بدأ العلماء يؤلفون في القراءات. والسابقون منهم كأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي جعفر الطبري، وأبي حاتم السجستاني ذكروا في مصنفاتهم أضعاف تلك القراءات. وإنما بدأت هذه العبارة تشتهر على رأس المئتين بإقبال الناس في الأمصار الإسلامية على قراءة بعض الأئمة دون بعض. ويقع أكبر قسط من اللوم في هذه الأيام على عاتق الإمام الكبير ابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) الذي قام على رأس الثلاثمائة للهجرة في بغداد بجمع سبع قراءات لسبعة من أئمة الحرمين والعراقين والشام اشتهروا بالثقة والأمانة والضبط وملازمة القراءة، وجاء جمعه لها محض مصادفة واتفاق، إذ كان في أئمة القراء من هم أجلّ منهم قدراً وكان عددهم لا يستهان به، فإذا أبو العباس بن عمار (ت بعد ٤٣٠ هـ) يلوم ابن مجاهد ويقسو عليه في تعبيره فيقول: «لقد فعل مسبّع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كلَّ من قلَّ نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر. وليته نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة».

أما القرّاء السبعة فهم: عبدالله بن كثير الداريّ (ت ١٢٠هـ)، ونافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (ت ١٦٩ هـ)، وعبدالله اليحصبي المشهور بابن عامر (ت ١١٨ هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ)، ويعقوب بن إسحاق الحضرميّ (ت ٢٠٥ هـ)، وحمزة بن حبيب الزيات (ت ١٨٨ هـ)، وعاصم بن أبي النجود الأسدي (ت ١٨٧ هـ). والحق أن ثمة ضابطاً إذا توفّر في قراءة ما وجب قبولها؛ وبتوفّر هذا الضابط وجد ما يسمّى بالقراءات العشر والقراءات الأربع عشرة.
(انظر قضايا لغوية في ضوء القراءات القرآنية: ٤٣ ـ ٤٤).

وهبه اللّه من الاقتدار فإنه آحتَضَن السَّبْع(١) ودخل الغاب؛ وليتمَّ مبانِيَ ما أتم «آبنُ عامر» و«أبو عمرو» له التَّعمير، ولقَّهُ «الكِسائيُّ» في كسائه ولم يقل جدِّي «آبنُ كَثير»، وحُمَّ به «لحمزة» أن يعود ذاهبُ الزمان، وعرف أنه لا «عاصم» من أمر اللّه يلجأ معه إليــه وهـو الطُّوفان، وتدفَّق(٢) يتفجَّر عِلماً وقد وقفت السُّيول الدَّوافع، وضرَّ أكثرُ قرَّاء الـزمان بعـدم تفهيمهم وهـو «نـافـع»(٣)، وليُقبـل على ذوي الإقبـال على الـطَّلب؛ وليأْخُذهم بالتربية فما منهم إلا من هو إليه قد آنتسب؛ وهو يعلم ما مَنَّ اللّه عليه بحفظ كتابه العزيز من النَّعْماء، ووصل سَبَبَه منه بحبل اللّه الممتدِّ من الأرض إلى السماء؛ فليَقْدُر حقَّ هذه النِّعمة بحُسْن إقباله على التعليم، والإنصاف إذا سُئل فعِلْمُ اللّه ما يتناهى **﴿وفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم﴾** [يوسف: ٧٦].

٢٧ ـ وصيَّةُ مُحدِّث(٤):

وقد أصبح بالسُّنة النَّبوية مُضْطلِعاً، وعلى ما جمعته طُرُق أهل الحديث مطَّلعاً، وصحَّ [في] الصحيح أنَّ حديثَه الحَسَن، وأنَّ المُرسَلَ منه في الطلب مقطوعٌ عنه كلُّ ذي لَسَن؛ وأن سَنَدَه هو المأْخوذُ عن العوالي، وسَمَاعَه هو المرقص منه طول الليالي، وأن مثله لا يـوجد في نَسَبـه المُعْرِق، ولا يُعـرف مثله للحافِـظَيْن: «ابن عبـد البـرّ» بالمغرب «وخطيب بغداد»(٥) بالمشرق؛ وهو يعلم مِقدارَ طلب الطالب فإنه طالما شَدَّ

(١) السَّبْع من الحيوانات معروف. والمراد هنا السَّبع المثاني، إشارة إلى قوله تعالى: **﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾**. والمثاني من القرآن: ما ثُنِّي مرة بعد مرة، وقيل: فاتحة الكتاب وهي سبع آيات. وقيل: المثاني سور أولها البقرة وآخرها براءة، وقيل: ما كان دون المئين. وقيل: هي القرآن كله. والمعنى الأخير هو المراد هنا.
(انظر لسان العرب: ثني).

(٢) في الصبح «وطفِق».

(٣) نافع والأسماء التي وردت قبلاً هي أسماء القراء السبعة المعروفين ـ راجع الحاشية (١) في الصفحة السابقة.

(٤) يطلق على الحافظ لأحاديث النبي ﷺ ويكون عارفاً برواة الحديث عالماً بأسماء رجال السَّنَد.

(٥) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، المعروف بالخطيب: أحد الحفاظ المؤرخين المقدّمين. من أشهر مؤلفاته: تاريخ بغداد في أربعة عشر مجلداً. توفي سنة ٤٦٣ هـ. (وفيات الأعيان: ١/٩٢؛ والنجوم

له النِّطاق، وسعى له سَعْيَه وتجشَّم المَشَاق؛ وآرتحل لـه يشتدُّ بـه جِرْصُـه والمطايـا مُرْزِمه[1]، وينبِّهُهُ له طلبه والجفونُ مقفلةٌ والعيون مهوِّمه؛ووقف على الأبواب لا يُضْجِره طولُ الوقوف حتى يؤْذَنَ له في ولوجها، وقعد القُرْفُصاءفي المجالس لا تضيق به على قِصَر فرُوجها.

فليعاملِ الطلبةَ إذا أتوه للفائدة معاملةَ من جَرَّب، ولينشِّط الأقرباءَ منهم ويؤْنِس الغرباء فما هو إلا ممن طلب آونةً من قريب وآونةً تَغرَّب، وليُسْفر لهم صباحُ قصدِه عن النجاح، ولينْتقِ لهم من عقوده الصِّحاح، وليوضِّح لهم الحديث، وليُسرِح خواطـرهـم بتقريبِهِ ما كان يُسَار إليه السيرَ الحثيث، وليؤْتِهم ممـا وسَّع اللَّه عليـه فيه المجـال، ويعلِّمهم ما يجب تعليمه من المُتُونِ والرجال، ويبصِّـرْهم بمواقـع الجَرْح والتَّعْـديل، والتَّوْجيه والتعليل، والصَّحيح والمعتلِّ الذي تتناثر أعضاؤه سُقْماً كالعليل؛ وغير ذلك مما لرجال هذا الشأن به عناية، وما ينقِّب فيه عن دراية أو يُقْنَع فيه بمجرد رواية؛ ومثله ما يُزاد حِلْماً، ولا يُعرَف بمن رَخَّص في حديثٍ موضوعٍ أو كَتَم علماً».

٢٨ ـ وصيَّةُ نَحْوِيَ:

«وهو زَيْدُ الزمان، الذي يُضرب به المَثَل، وعَمْرو الأوان، وقد كَثُر من سيبويه المَلَل، ومازِنيّ الوقت ولكنّه الذي لم تُسْتَبَحْ منه الإبل[2]، وكِسائيُّ الـدَّهر الـذي لو

= الزاهرة: ٥/٨٧؛ والأعلام: ١/١٧٢) ـ وابن عبد البر هو يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البـرّ النمري القرطبي المالكي: من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ، أديب، بحاثة. ويقال له حـافظ المغرب. تـوفي سنة ٤٦٣ هـ. (المُغـرب في حلي المغـرب: ٢/٤٠٧؛ وفيـات الأعيـان: ٧/٦٦؛ والأعـلام: ٨/٢٤٠).

(١) يقال: أرزمت الناقة: حنَّت على ولدها، أو صوّتت حنيناً على ولدها.

(٢) المازني الذي استبيحت منه الإبل هو الشاعر الجاهلي حَزْن بن كهف بن أبي حارثة المازني: من سادات مازن وفرسانها. أغار بنو محلم بن ذهل بن شيبان على إبل جار له وذهبوا بها، فأتبعهم حزن وقتل منهم وردّ الإبل؛ وقال في ذلك أبياتاً من عيون الشعر، أوردها الآمدي. (انظر: الأعلام: ٢/١٧٥). أما المازنيّ النحوي فهو بكر بن محمد بن حبيب بن بقيّة، أبو عثمان المازني: احد الأئمة في النحو، من أهل البصرة. توفي سنة ٢٤٩ هـ. (وفيات الأعيان: ١/٢٨٣).

تقدَّم لما آختار غيره الرشيدُ للمأمون[1]، وذو السُّؤدَد، لا أبو الأسود، على أنه ذو السَّابقةِ والأَجْر الممنون؛ وهو ذو البرِّ المأثور، والقدر المرفوع، ولواؤه المنصوب وذيلُ فخاره المجرور؛ والمعروف بما لا يُنكر لمثله من الحَزْم، والذاهب عملُه الصالح بكل العوامل التي لم يُبْق منها لحسوده إلا الجَزْم، وهو ذو الأبنية التي لا يُفصح عن مثلها الإعراب، ولا يُعرف أفصحُ [منها] فيما أُخذ عن الأعراب؛ والذي أصبحت أهدابُه فوق عمائم الغمائم تُلاث[2]، ولم يزل طولَ الدهر يُشكَرُ منه أمسُه ويومُه وغدُهُ وإنما الكلمات ثلاث. فليتصَدَّ للإفادة، وليعلِّمهم مثل ما ذُكر فيه من علم النحو نحوَ هذا وزيادة؛ وليكن للطلبة نجماً به يُهتدى، وليرفع بتعليمه قَدْرَ كلِّ خبرٍ يكون خَبَراً له وهو المبتدا؛ وليقدِّم منهم كلَّ من صَلَح للتَّبريز، وآستحقَّ أن يُنصَبَ إماماً بالتمييز، وليُوردْ من موارده أعذَبَ النِّطاف، وليجرَّ إليه كلَّ مُضافٍ إليه ومُضاف؛ وليُوقفهم على حقائق الأسماء، ويعرِّفهم دقائقَ البحوث حتى آشتقاقَ الاسم هل هو من السُّموِّ أو من السِّيماء؛ وليبين لهم الأسماءَ الأعجميةَ المنقولةَ والعربيةَ الخالصة، وليدلَّهم على أحسن الأفعال لا ما يُشتَبه فيه بصفاتِ «كان» وأخواتها من الأفعال الناقصة، وليحفِّظهم المُثُلَ وكلماتِ الشعراء، ولينْصِبْ نفسَه لحدّ أذهان بعضهم ببعض نَصْبَ الإغراءِ؛ وليعامل جماعةَ المستفيدين منه بالعطف، ومع هذا كلِّه فليرفُقْ بهم فما بلغ أحدٌ علماً بقوة ولا غايةً بعَسْف».

٢٩ ـ وصيَّةُ مُتَطبِّب طبائعيّ[3]:

«وليتعرَّفْ أولاً حقيقةَ المرض بأسبابه وعلاماتِه، ويستَقْصِ أعراضَ المريض

---

(١) الكسائي هو علي بن حمزة بن عبدالله، أبو الحسن الكسائي: إمام في اللغة والنحو والقراءة. وهو مؤدب الرشيد العباسي وابنه الأمين. كان أثيراً عند الخليفة حتى أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين. توفي سنة ١٨٩ هـ (الأعلام: ٤/٢٨٣).

(٢) لاث العمامة على رأسه: لفّها وعصبها.

(٣) هو المعروف الآن باسم طبيب الأمراض الباطنية. (Dozy: Supp. Dict. Ar).

قبل مداواته، ثم ينظر إلى السِّن والفَصل والبَلَد، ثم إذا عرف حقيقةَ المرض، وقدَّر ما يحتمله المزاجُ من الدواء لما عَرَض، يَشْرَعُ في تخفيف الحاصل، وقَطْع الـواصل، مع حِفْظ القُوى. ولا يهاجم الداء، ولا يستغرب الدواء، ولا يقدم على الأبدان إلا بما يلائمها، ولا يبعد الشبه، ولا يخرج عن جادّة الأطباءولو ظن الإصابة حتّى يقوىٰ لديه الـظنُّ ويتبصَّر فيه برأيِ أمثاله. وليتجنب الـدواء، ما أمكنه المعـالجـةُ بـالغـذاء، والمركَّبَ، ما أمكنه المعالجةُ بالمفرد؛ وإياه والقياسَ إلا ما صحَّ بتجريب غيره في مثل مِزاج من أخذ في علاجه، وما عرض له، وسنِّه، وفصله، وبلدِه، ودرجة الدَّواء. وليحذر التجربة، فقد قال «أبقراط» وهو رأس القوم: إنها خطَر.

ثم إذا آضطُرَّ إلى وصف دواء صالح للعِلَّة نظر إلى ما فيه من المنافاة وإن قلَّتْ، وتحيَّل لإصلاحه بوصفٍ يصلُح معه، مع الاحتراز في وصف المقادير والكميَّات والكيفيَّات، في الاستعمال والأوقات، وما يتقدَّم ذلك الدواءَ أو يتأخَّر عنه. ولا يـأْمر بآستعمال دواء، ولا ما يُستغرب من غذاء، حتى يحقِّق حقيقته، ويعرف جديـدَه من عتيقه: ليعرف مقدارَ قوَّته في الفعل؛ وليعلم أن الإنسانَ هو بِنْيَةُ اللّه وملعونٌ من هَدَمها؛ وأن الطبيعة مكافيةُ وبُؤْسىٰ لمن ظلمها؛ وقـد سُلِّم الأرواح وهي وديعة اللّه في هـذه الأجسام، فليحفظها وليتّقِ اللّه ففي ذلك جميعُ الأقسام؛ وإيَّاه ثم إيَّاه أن يصفَ دواءً ثم يكون هو الذي يأتي به، أو يدلُّ عليه، أو المتولي لمناولته للمريض ليستعمله من يدَيه. وفي هذا كلِّه للّه المنة [ولنا] إذ هديناه له وأرشدناه إليه».

٣٠ ـ وصيَّةُ متطبِّب بالكُحْل[١]:

«وها أنت قد أُفردت بتسليم أشرفِ الحواسّ الخَمس، والجوارحِ التي لولاها لم تُعرف حقيقةُ ما يُدرك بـالسَّمع والـذَّوْق والشمّ واللَّمس؛ وهي العين التي تُفـدىٰ بالعين، وتوقىٰ ساعةَ البين؛ وقد جعلت منها لمعالجة أشرف الأعضاء، وأشرف إنسان يحيط بصَرُه بكل الفضاء؛ فآجعل عليها من مُداراتك الواقية، وأبْقِ بها من حُسْن الأثر

---

(١) أي طبيب العيون.

مـا يُرىٰ والعين بـاقية؛ وتلطّفْ بهـا في العلاج، وأرْفقْ بهـا فإنهـا من طبقاتٍ: منهـا الزجاجيَّةُ ومنها شبيهُ الزجاج. ولا تقدم عليهـا بمداواةٍ حتى تعـرف حقيقةَ المـرض، والسببَ الذي نال به ذلكَ الجوهرَ العـرض؛ ثم داوها مـداواة تجلو بها القـذىٰ عن البصر، وتشفي ما بها من السَّقام إلا الذي في عيون الغِيد من حَوَر، ويُقيم بأجفانها عليها سَوراً، ويُديم لإنسانها من ضوء البصر نوراً. ثم لاطِفْ بما يُناسب من الغـذاء ذلك الإنسـان، وترفّق به فإنك معروفٌ بالإحسان؛ وصُنْه عن قدح قادِح، وأعِنْه حتى لا يُقال يا أيها الإنسانُ إنك كادِح(١). وآعمل على ما فيه صَلاحُ ذاك السَّواد الأعظم، والإمتاع بذلك السواد الذي لا يُشترىٰ بملء الأرض ذهباً منه قَدْرُ نصف درهم؛ وتخيَّر من الكُحل ما فيه جلاءُ الأبصار، وشفاءُ العين مما يُخاف على الإنسان فيه الأخطار. وآفعل في هذا كلّه ما إذا كنت بسواد الحَدَق لم تنسخ، وإذا قيس قَـدْرُ مِيلٍ منـه لم يبعد إليه ألف فَرْسَخ؛ وآسْتَشِرِ الأطباءَ الطبايعية فيما أهَمّ، وفيمـا لا يُستغنىٰ فيه عن رأي مثلهم، من تخفيف مادة بالاستفراغ أو نَقْصِ دَم، إلى غير هذا مما إذا فعلتَه لـم تُلَمْ بعده بما ألَمّ».

٣١ ـ وصيَّة جَرَائحيّ(٢):

«وآعرف ما تحتاجُ إليه هذه الوظيفةُ وآجْبُر كلَّ كَسْر، وشُدَّ كلَّ أسر، وخُطَّ كل فَتْق، وقَـوِّ كلَّ رَتْق، وداوِ الكلوم، ودارِ بـاللُّطف فإنَّ إفـراطَ القوة في الـدواءِ يُلحق بـالسُّموم. وآعمـل على حِفْظ الأعصاب، وشَـدِّ الأعضـاء حتى تتمكَّن من معـالجة المصاب؛ والتوقِّي في كل أعماله(٣) فإنه في صناعةٍ كلُّها خَطَر، وجميعُ أمورها مغيَّبة لا يُـوقف لها على خَبَـر. وليُبادِرْ مـا يفوت، ولا يكلم أحـداً ما حَسُنَ للِّسـان حديث السُّكوت، وليحذَرْ قَطْع شِريانٍ ما قُطع إلا نزف دَمُ صاحبه حتى يموت. وليُعِدَّ معه ما يكون لإخراج النِّصَال فإنه يكون مع عساكرنا المنصورة أوقاتَ الحرب والسِّهامُ تغوص

---

(١) من الآية الكريمة: ﴿يا أيها الإنسانُ إنَّك كادحٌ إلى رَبِّكَ كدْحاً فمُلاقيه﴾ ـ الانشقاق: ٦.

(٢) الجرائحي والجرائحية: هذا الجمع ومفرده صيغة عامية للفظي: جراحيّ وجراحيون، أو جرّاح وجرّاحون

(٣) انتقال غير مبرّر من صيغة المخاطَب إلى الغائب.

في الأجسام، والرماح في رجل هي والحسام؛ وليكن في هذا كلّه مُزَاحَ الأعذار، مُزَالَ العوائق في مضايق أوقاتٍ لا يُستدرَكُ فيها فائت الأعمار؛ وليعدَّ لهذا الأمر عُدَّتَه، وليصْرِفْ إليه هِمَّته؛ وليفعل في هذا ما لا يبقىٰ عليه به جُنَاح، ولا يخطيء معه عملُه نجاح، ولا يقاس به أحد وقد أفاد عِلْمَه وأجاد عملُه وأجدىٰ، وظهرت بركةُ معالجة يده التي إذا وضعها على الجُرح يَهْدا».

٣٢ ـ وصيّةُ مُنجِّم:

«وقد أغناه ما رآه من مساعدة الأقدار لنا أن يُنجِّم، ونطقَتْ له الحالُ بسعادتنا فما زاد على أنه كان يترجِم، ولم نستخدِمْه لأنا نقول بتأثير الأفلاك ولا الاحتياج [إلى ما هنالك]، إلا أنَّ عادةَ الملوكِ جَرَت على ذلك؛ مع العلم بسَعَةِ علمه مما ورث عن الحكماء، وتكلم به على مَلَكُوت الأرض والسماء، وأنه جمع من هذه الصناعة ما لا يجيء منه «أبو مَعْشَرٍ البَلْخيّ»[١] بمِعْشار، ولا غيره من جميع الجماعة وفي الجملة «كُوشَيَار»[٢]. ومع هذا فما نمنعه من عَمَل ما لم يخطر على مثله من رِقْبَة الطوالع[٣]، ورؤْية المطالع، وتحرير الأوقات حين المواليد، وتَسْيير الكواكب لمعرفة ما يُعرف بالحساب من رؤُوس الأشهر وأيام العيد، وملازمة الخدمة الشريفة في السفر والحضر، ورؤية طلائعنا المنصورة فإنها أسْعَدُ من رؤية كل هلالٍ يُنتظر؛ والحذر مما نَهت الشريعةُ الشريفة عن قوله لئلا يُغْمِضَ عليه دِينَه علماءُ الإسلام، والقول في الكواكب إلا بما قيل فيها من أنها لا تعدو ثلاثةَ أقسام: منها معالِمُ للهُدىٰ ورجومٌ[٤] للشياطين ومصابيحُ تجلو الظَّلام».

---

(١) هو جعفر بن محمد بن عمر البلخي، أبو معشر المنجم البغدادي. توفي سنة ٢٧٢ هـ.

(انظر ترجمته وآثاره في فهرست ابن النديم: ٣٨٦؛ وهدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي: ٢٥١).

(٢) هو أبو الحسن كوشيار بن لبان بن باشهري الجيلي: من المنجمين. سكن بغداد ومات في حدود سنة ٣٥٠ هـ.

(هدية العارفين: ٨٣٨).

(٣) الطوالع: جمع طالع. والطالع في اصطلاح المنجمين أو الفلكيين هو ما تنبأ به المنجم من الحوادث بطلوع كوكب معيّن.

(٤) الرجوم: جمع رجم، وهي الحجارة الصغيرة التي يُرمىٰ بها.

٣٣ ـ وصيّة مُوَقِّت:

«وما أخَّر هذه المدة إلا وكلُّ شيءٍ إلى ميقات، ولأنَّ تقديمَ مثله من الأشياءِ التي كانت تُحسب لها الأوقات، وإلا فقد عرف أنه المقدَّمُ في الزمن الأخير، والمتفرِّدُ وقد هَمَّ مماثِلُه لمساواته نسقط عن درجة النَّظير، وأتقن علمَ الهيئة التي يُحاط بها علماً بملكوت السماء، وتُعرف بها شمسُ النهار ونجومُ الظَّلْماء؛ ويتحقَّق كيف دَوَرانُ الأفلاك ومقاديرها، وهيئة المنازل وتصويرها، وأنتقالات الكواكب السيَّارة وإلى أين ينتهي تسييرها، فليُبْصر كيف يكون، ولينظر الطالع ولا يأْمن أن يكون عليه من النجوم عيون؛ وليعرف ما على خطَّي المشرق والمغرب، ومركزَي وتَدَي السماءِ والأرض المشدود بهما رواق الفلك المطنب؛ وليحرِّر ذلك كلَّه تحريرَ من يعلم أنه هو المقلَّد في أداءِ الفرائض، والمقتحم في لُجَج السماءِ الغمراتِ التي لا يخوض معه فيها خائض، وأنَّ به يُقام الأذان، وتصلَّى الصلواتُ ويُفطر ويُصام في رمضان. وبعد تثويبه تسري العقول، ويبقن كشفُ حِجابِ لليل المسبول، وتخرج مطمئنَّةً القلوبُ بتسبيحه وتهاجم البيد وهي تُفترس بأنياب غول.

وكلُّ هذا متعلِّقٌ به فليراقب اللَّهَ في خَلاَص الذمَّة، ويتجنَّب الملامةَ مع أمّة سيِّدنا محمد ﷺ ومع الأئمة. ولا يزال محرراً للارتفاع في كل بلدٍ يحلّ به ركابُنا الشريف على حُكم عَرْضه، ومقادير الأبعاد بين سمائه وأرضه، مؤْذناً كلَّ من كان مؤَذِّناً بحين كل صلاةٍ في أوَّل وقتها، من غير تقديمٍ يؤَدَّىٰ به قبل الوجوب، أو تأْخيرٍ يضيق به الوقت الموسَّع على ذي الضرورة حين الوثوب، وليكن على يقينٍ بأنه بكل ما حصل فيه التَّقْصيرُ من هذا ومثله مطلوب».

٣٤ ـ وصيَّةُ رئيس اليهود:

«وعليه بضمِّ جماعته، ولمِّ شملهم بآستطاعته، والحكمِ فيهم على قواعد مِلَّته، وعوائد أئمته في الحكم إذا وضح له بأدِلَّته، وعقُودِ الأنكحة وخواصِّ ما يُعتبر عندهم فيها على الإطلاق، وما يُفتَقر فيها إلى الرِّضىَ من الجانبين في العَقْد والطَّلاق، وفيمن أوجَبَ عنده حكمُ دينه عليه التَّحريم، وأوجب عليه الانقيادَ إلى

التحكيم، وما آدَّعَوْا فيه التَّواتُرَ من الأخبار، والتضَافُر على العمل به مما لم يُوجَد فيه نصٌّ وأجمعت عليه الأحبار، والتوجُّه تلقاءَ بيت المقدس إلى جهة قِبلتهم، ومكان تعبُّد أهل مِلَّتهم؛ والعمل في هذا جميعه بما شرعه موسى الكليم، والوقوف معه إذا ثبت أنه فِعل ذاك النبيّ الكريم، وإقامةِ حدود التوراة على ما أنزل اللّه من غير تحريف، ولا تبديلٍ لكلمة بتأويل ولا تصريف، وآتِّباع ما أعطَوْا عليه العهد، وشدوا عليه العَقْد، وأبقَوْا به ذَمَاءهم، ووَقَوْا به دماءَهم، وما كانت تحكم به الأنبياءُ والربَّانِيُّون، ويُسلم إليه الإسلاميُّون منهم ويُعبِّر عنه العِبرانيُّون؛ كلُّ هذا مع إلزامه لهم بما يلزمُهم من حُكْم أمثالهم [أهلِ] الذمَّة الذين أقرُّوا في هذه الدِّيار، ووقاية أنفسهم بالخضوع والصَّغار، ومدِّ رُؤوسهم بالإذعانِ لأهل مِلَّة الإسلام، وعدمِ مُضَايقتهم في الطُّرق وحيث يحصل الالتباس بهم في الحَمَّام، وحملِ شعارِ الذمَّة الذي جُعل لهم حِليةَ العمائم، وعُقِد على رؤوسهم لحفظهم عَقْدَ التَّمائم؛ وليعلم أن شِعَارَهم الأصفَر، موجبٌ [لئلا][1] يُراقَ دمُهم الأحمر، وأنهم تحتَ عَلمِ علامته آمنون، وفي دَعَةِ أصائله ساكنون؛ وليأخذهم بتجديد صَبْغِه في كلِّ حين، وليأمرهم بملازمته ملازمةً لا تزال علائمها على رُؤوسهم تَبين، وعدم التَّظاهُر بما يقتضي المناقضَة، أو يُفهم منه المعارَضة، أو يدع فيه غير السَّيف وهو إذا كلَّم شديدُ العَارِضَة، وله ترتيبُ طبقات أهل مِلَّته من الأحبار فمن دونَهم على قَدْرِ آستحقاقهم، وعلى ما لا تخرج عنه كلمة آتفاقهم؛ وكذلك له الحديثُ في جميع كنائس اليهود المستمرَّةِ إلى الآن، المستقرَّةِ بأيديهم من حين عَقْدِ عَهْد الذِّمَة ثم ما تأكَّد بعده بطول الزمان، من غير تجديدٍ متجدِّد، ولا إحداث قدرٍ متزيِّد، ولا فعلِ شيءٍ مما لم تُعقد عليه الذمَّة، ويُقِرّ عليه سلَفَهم الأوَّلَ سَلَفُ هذه الأمة، وفي هذا كفايةٌ وتقوى اللّه وخَوْفُ بأسنا رأسُ الأمور المهمّة».

(١) في ط ق «لأن يراق» وهو خطأ بمقتضى السياق.

٣٥ ـ وصيَّةُ رئيس السَّامرة[١]:

«ولا يَعْجِزْ عن لَمّ شَعْثِ طائفته مع قِلّتهم، وتأمين سَرْبهم الذي لو لم يؤمِّنوا فيه لأكلهم الذئب لذلَّتهم؛ وليصُنْ بحسن السلوك دماءَهم التي كأنما صُبغت عمائمُهم الحمرُ منها بما طُلّ، وأُوقِد لهم منها النارُ الحمراء فلم يتّقوها إلا بالذُّل؛ وليعلم أنهم [شُعْبَةٌ][٢] من اليهود لا يخالفونهم في أصل المعتَقد، ولا في شيء يخرج عن قواعد دينهم لمن انتَقد، ولولا هذا لما عُدُّوا في أهل الكتاب، ولا قُنِع منهم إلا بالإسلام أو ضَرْبِ الرِّقاب؛ فليبنِ على هذا الأساس، وليُنْبِئْ قومَه أنهم منهم وإنما الناسُ أجناس، وليلتزمْ من فروعِ دينه ما لا يخالِف فيه إلا بأن يقول لا مِساس؛ وإذا كان كما يقول: إنه كهارونَ عليه السلام فليلتزم الجَدَد، وليَقُم من شرط الذمّة بما يُقيمُ به طُولَ المُدَد، وليتمسَّكْ بالمُوسويَّة من غير تبديل، ولا تحريفٍ في كلمة ولا تأويل؛ وليُحصِ عمله فإنه عليه مَسْطور، وليقف عند حدِّه ولا يتعدَّ طَوره في الطُور؛ وليحكم في طائفته وفي أنكحتهم ومواريثهم وكنائسهم القديمةِ المعقود [عليها] بما هو في عقد دينِه، وسببٌ لتوطيد قواعده في هذه الرتبة التي بَلَغها وتَوْطِينِه».

٣٦ ـ وصيَّةُ بطريركِ النَّصارى المَلَكيِّين[٣]:

«وهو كبيرُ أهل مِلَّته، والحاكمُ عليهم ما امتدَّ في مُدَّته؛ وإليه مرجِعُهم في

---

(١) السَّامرة: طائفة من اليهود؛ وهم أتباع السَّامريّ الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله في سورة الأعراف: «وَأَضَلَّهم السَّامريُّ». وقد اختلف في السامرة: هل هم من اليهود أم لا؟ والقرّاؤن والرَّبّانيّون ينكرون كون السامرة من اليهود. وللسامرة توراة تختصّهم غير التوراة التي بيد القرّائين والربّانيين والتوراة التي بيد النصارى. وهم ينفردون عن القرائين والربّانيين بإنكار نبوّة من بعد موسى ما عدا هارون ويوشع؛ ويخالفونهم أيضاً في استقبال صخرة بيت المقدس ويستقبلون طور نابلس ويوجهون إليه موتاهم.
(صبح الأعشى: ١٣/٢٦٨).

(٢) في ط ق «شيعة».

(٣) الملكيّون: طائفة مسيحية من الطقس البيزنطي، منتشرة في سوريا ومصر وفلسطين؛ وكنيستهم تسمّى كنيسة الروم. ويتكلم معظمهم العربية ويرأسهم بطرك يقيم في دمشق والقاهرة. سمّوا (الملكيين) لأنهم أيدوا القرار الذي اتخذه مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م ضد بدعة أوطيخا المونوفيزية (القائلة بطبيعة واحدة للمسيح) فلقبهم مخالفوهم ازدراءً لهم بالملكيين لوقوفهم في صف الملك مرقيانوس الذي كان يعاضد

التحريم والتحليل، وفي الحكم بينهم بما أُنزل في التوراة ولم يُنْسَخ في الإنجيل؛ وشريعتُه مبنيَّةٌ على المسامحة والاحتمال، والصبر على الأذى وعدم الاكتراث به والاحتفال؛ فخذ نفسك في الأوّل بهذه الآداب، وأعلم بأنك في المدخل إلى شريعتك طريقٌ إلى الباب: فتخلَّقْ من الأخلاق بكل جميل، ولا تستكثِرْ من مَتاع الدنيا فإنه قليل؛ وليُقدِّم المصالحةَ بين المتحاكمين إليه قبلَ الفصل البتّ فإنَّ الصُلْح كما يُقال سيِّد الأحكام، وهو قاعِدةُ دينه المسيحيّ ولم تخالف فيه المحمديّةُ الغرّاءُ دينُ الإسلام؛ ولينظِّف صدورَ إخوانه من الغِلِّ ولا يقنَعْ بما ينظِّفه ماءُ المعموديَّة من الأجسام؛ وإليه أمرُ الكنائس والبِيَع، وهو رأْسُ جماعته والكلُّ له تَبَع: فإياه أن يتَّخذها له تجارةً مُرْبحة، أو يقتطع بها مالَ نصرانيّ يقرِّبه فإنه ما يكون قد قرَّبه إلى المذبح وإنما ذَبَحه؛ وكذلك الدِّيارات وكلُّ عُمْر[1]، والقَلاليُّ فيتعيَّن عليه أن يتفقد فيها كلَّ أمر؛ وليجهد في إجراءِ أمورها على ما فيه رَفْعُ الشُّبُهات، وليعلم أنهم إنما آعتزلوا فيها للتعبُّد فلا يَدعُها تتَّخذُ منتزهات: فهم إنما أحدثوا هذه الرهبانية للتقلُّل في هذه الدنيا والتعفُّف عن الفروج، وحبسوا فيها أنفسَهم حتَّى إنَّ أكثرهم إذا دخل إليها ما يعود يبقىٰ له خروج؛ فليحذِّرْهم من عملها مِصْيَدةً للمال، أو خَلوةً له ولكن بالنساءِ حراماً ويكونُ إنما تنزَّه عن الحلال؛ وإيَّاه ثم إيَّاه أن يؤْوِيَ إليها من الغرباءِ القادمين عليه مَنْ يُريب، أو يكتمَ عن الإنهاءِ إلينا مُشْكِلَ أمرٍ وردعليه من بعيدٍ أو قريب؛ ثم الحَذَر الحذَرَ من إخفاءِ كِتابٍ يرِدُ إليه من أحدٍ من الملوك[2]، ثم الحَذَر الحَذَر من الكتابة إليهم أو المَشْي على مثل هذا السلوك؛ وليتجنَّب البحرَ وإيَّاه من آقتحامه فإنه يُغْرِق، أو تَلَقِّي ما يُلقيه إليه جناحُ غُرابٍ منه فإنه بالبَيْن ينعَق؛ والتَّقوىٰ مأمورٌ بها أهلُ كلِّ

— المجمع. ومنهم كاثوليك يعترفون برياسة بابا روما، وهم الروم الكاثوليك، وارثوذوكس لا يعترفون بهذه الرياسة. عرفهم المسلمون وناقشوا مذهبهم في طبيعة المسيح الواحدة كما فعل الشهرستاني في «الملل والنحل» وابن حزم في «الفصل في الأهواء والملل والنحل» والباقلاني في «التمهيد».
(الموسوعة العربية الميسّرة: ١٧٤٢).

(١) هو بالضمّ المسجد والبِيْعة. (انظر القاموس المحيط). والقلاليّ: جمع قلِّيَّة وهي شبه الصومعة.

(٢) المراد ملوك الفرنجة المعادين للمسلمين.

مِلّة، وكلّ موافِق ومخالِف في القِبْلة؛ فليكن عملُه بها وفي الكناية ما يُغني عن التصريح، وفيها رِضىَ الله وبها أمرَ المسيح».

٣٧ ـ وصيَّةُ بطريرك اليعاقِبة[1]:

ويُقال في وصيّة بطرك اليعاقبة مثلُ ذلك[2] إلا فيما يُنبَّه عليه. ويُسقط منه قولُنا: «وٱعلم بأنك في المدخل إلى شريعتك طريقٌ إلى الباب» إذ كان لا يدينُ بطاعة الباب[3] الذي هو رأس الملكانيين؛ وإنما هو رأسُ اليعاقبة نظيرُه للملكانيين؛ ويُقال مكانَ هذه الكلمة: «وٱعلم بأنك في المدخل إلى شريعتك قَسيمُ الباب، وأنتما سَوَاءٌ في الأَتْبَاع، ومتساويان فإنه لا يزدادُ مِصراعٌ على مِصراع». ويسقط منه قولنا: «وليتجنَّب البَحرَ وإيَّاه من ٱقتحامه فإنه يغرق» وثانيةَ هذه الكلمة إذ كان مُلْكُ اليعاقبة مغلغِلاً في الجنوب ولا بحر، ويُبدَل بقولنا: «وليتجنَّب ما لعلَّه يَنُوب، وليتوقَّ ما يأتيه سراً من تلقاء الحبشة حتَّى إذا قَدَر فلا يشمُّ أنفاسَ الجنوب، وليعلم أن تلك المادَّة وإن كثُرت مقصَّرة، ولا يحفِلْ بسُوْدد السودان فإن اللَّهَ جعلَ آيَةَ الليل مظلمةً وآيَةَ النهار مُبصرة» ثم يختم بالوصية بالتقوىٰ كما تقدَّم. ونحو هذا واللَّه سبحانه وتعالىٰ أعلم.

---

(١) فرقة مسيحية تنسب إلى يعقوب. وهي إحدى فرق ثلاث اختلفت حول طبيعة المسيح؛ والفرقتان الأخريان هما الملكانية والنساطرة. عاش اليعاقبة في مصر والنوبة والحبشة. ويدور مذهبهم على القول بأن المسيح هو الله والإنسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح. وفي العصر المملوكي كان جميع نصارى الحبشة أتباعاً لبطريرك اليعاقبة، وفي طاعته ملك الحبشة الأكبر، وعنه تصدر ولايته.
(الموسوعة العربية الميسرة: ١٩٨٢؛ وصبح الأعشى: ١١/٣٩٥).

(٢) أي مثل ما يقال في وصية بطرك الملكيين السابقة.

(٣) أي البابا رأس الكنيسة بروما. وكان يُقال أحياناً «البابَه» بإبدال الألف الأخيرة هاء.
(صبح الأعشى: ٥/٤٧٠ و٨/٤٢).

القسم الثالث

(في نُسَخ الأيْمان)

أ ـ يمينٌ شريفٌ يُستحلَف بها للمبايعة العامة[1]:

«أقولُ وأنا فلان: واللَّهِ واللَّهِ واللَّهِ، وتاللَّهِ وتاللَّهِ وتاللَّهِ، وباللَّهِ وباللَّهِ وباللَّهِ، واللَّه العظيم الذي لا إله إلا هو، الباريءُ الرحمن الرحيم، عالِمُ الغيب والشهادة، والسر والعلانية، وما تُخفي الصدور، القائمُ على كل نفسٍ بما كَسَبت، والمجازي لها بما عملت، وحقِّ جلالِ اللَّه، وقدرةِ اللَّه، وعظمة اللَّه، وكبرياء اللَّه، وسائر أسماء اللَّه الحسنى وصفاته العليا؛ إنني من وقتي هذا، وما مدَّ اللَّه في عمري، قد أخلصتُ نيَّتي، ولا أزال مجتهداً في إخلاصها، وأصفيت طويَّتي، ولا أزال مجتهداً في إصفائها، في طاعة مولانا السلطان (ويذكر لَقَبه ونَسَبه) ـ خلَّد اللَّه ملكه ـ وخدمتِهِ ومحبَّتِه وآمتثالِ مراسيمه، والعمل بأوامره؛ وإنني واللَّهِ العظيم حَرْبٌ لمن حاربه، سِلْمٌ لمن سالمه، عدوٌّ لمن عاداه، وليٌّ لمن والاه من سائر الناس أجمعين؛ وإنني واللَّه العظيم لا أُضمر لمولانا السلطان بنَسَبه سوءًا ولا غَدْراً، ولا خديعةً ولا مَكْراً، ولا خيانةً في نفس ولا مال، ولا سلطنةٍ ولا قلاع ولا حصون، ولا بلادٍ ولا غير ذلك، ولا أسعىَ في تفريق كلمة أحد من أُمَرائه ولا مماليكه ولا عَساكره ولا أَجْناده، ولا عُربانه

(١) هذه اليمين يحلّف بها أهل الدولة من الأمراء والوزراء والنواب ومن يجري مجراهم؛ وقد أهمل العمري نسخ الأيمان التي يحلّف بها الخليفة عند مبايعته. قال القلقشندي: «وهذه الأيمان قلَّ من تعرّض لها لقلة وقوعها، إذ الخليفة قلّما يحلّف لعلو رتبته. ومدار تحليف الخلفاء بعد القسم بالله على التعليق بوقوع المحذور عليهم، ولزومه لهم، مثل البراءة من الخلافة والانخلاع منها وما يجري مجرى ذلك. قال: ولم أقف على ذلك إلا في ترسّل الصّابي»
(انظر صبح الأعشى: ٢١١/١٣).

ولا تُرْكُمانه ولا أكراده، ولا آسْتمالَةِ طائفة منهم لغيره، ولا أوافق على ذلك بقولٍ ولا فِعل ولا نيَّة ولا مُكاتبة ولا مُراسلة ولا إشارة ولا رَمْز ولا كِناية ولا تصريح؛ فإن جاءَني كتابٌ من أحدٍ من خلق اللّه بما فيه مَضَـرَّةٌ على مولانـا السلطان، أو على دولته، لا أعمل به، ولا أصغي إليه، وأحمل الكتابَ إلى [ما] بين يَـدَيْه الشـريفتين، هو ومن أَحْضَره إن قَدِرتُ على إمساكه.

وإنني واللّه العظيم أَفِي لمولانا السلطان بهذه اليميـن من أوّلها إلى آخرها، لا أنقُضهـا ولا شيئاً منهـا، ولا أستثني فيها ولا في شيء منهـا، ولا أخالف شـرطـاً من شروطها؛ ومتىَ خالفتُها أو شيئاً منها، أو نَقَضْتها أو شيئاً منها، أو آستفتيت[1] فيها أو في شيءٍ منهـا طلبـاً لنقضهـا، [فكـلُّ مـا][2] أملكـه من صـامـتٍ ونـاطق صـدقةٌ على الفقـراء والمساكين، وكـلُّ زوجة في عَقْـد نِكـاحـه[3] أو يتـزوجهـا في المستقبل طالقٌ ثـلاثاً بتـاتاً على سـائر المـذاهب، وكلُّ مملوك أو أَمَةٍ في مِلْكـه أو يملكهم[4] في المستقبل أحرارٌ لوجه اللّه تعـالى، وعليه الحـجُّ إلى بيت اللّه الحرام بمكَّةَ المعظَّمة، والوقوفُ بعَرَفَةَ ثلاثين حُجَّةً مُتواليات متتابعاتٍ كَوامِل، حافياً حاسراً،

---

(١) في صبح الأعشى: «إستثنيت»

(٢) في ط ق «فكلما» وهو خطأ.

(٣) انتقال غير مبّرر من صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب. وقد علّق القلقشندي على هذا بقوله: «عجيبٌ من المقرّ الشهابي ما أتى به في نسخة هذه اليمين؛ فإنه أتى بها بلفظ المتكلم إلى قوله: «وكل زوجة» فعدل عن التكلم إلى الغيبة، وقال: «في نكاحه»؛ وكذلك ما بعده إلى قوله: «ومن أسر الكفار ويكون بريئاً من الله ومن رسوله إن خالفتُ هذا اليمين». فإن كان فرَّ في قوله: «وكل زوجة في نكاحه» خوفاً من أن يقول «في نكاحي» فتطلق زوجته هو، فلا وجه له: لأن الحاكيَ لا يقع عليه الطلاق. وكذا ما بعده من العتق وغيره. وأعجب من ذلك كله قوله: «ويكون بريئاً من الله ورسوله ومن دين الإسلام إن خالفت» فجمع بين التكلم والغيبة في حالة واحدة! على أن ما ذكره بلفظ الغيبة إنما هو فيما سطّره في النسخة. أما إذا كتبت اليمين التي يحلّف بها فإنها لا تكون في الجميع إلا بلفظ التكلم؛ فما المعنى في أنه خاف من الوقوع في المحذور عند حكاية القول ولم يخف مثل ذلك فيما يكتبه في نفس اليمين؟» قال: «وقد ذكر صاحب التثقيف جميع ذلك بلفظ التكلم، مع المخالفة في بعض الألفاظ وزيادة ونقص فيها».
(صبح الأعشى: ١٣/٢١٨).

(٤) في الصبح: «وكل عبيدي وإمائي أحرارٌ لوجه الله»

وعليه صَوْمُ الدَّهرِ كلّه إلا الأيام المنهيّ عنها، وعليه أن يفكَّ ألفَ رقبة مؤمنة من أسر الكفّار، ويكون بريئاً من اللّه تعالى ومن رسوله ﷺ ومن دين الإسلام إن خالفت هذه اليمين أو شـرطاً من شروطها.

وهذه اليمينُ يمبني، وأنا فلان. والنيَّةُ فيها بأسرها نيَّة مولانـا السلطان فلان، ونيَّةُ مستحلفيَّ له بها، لا نيَّة لي في باطني وظاهري سواها. أُشهد اللّه عليّ بذلك، وكفى باللّه شهيداً، واللّهُ على ما أقول وكيل».

ويَكتُبُ الحالِفُ آسمَه في الموضعين بخطّه أو بخطّ من يكتب عنه إن كان ممّن لا يكتب.

وقد يُزاد فيهـا لنّواب القـلاع ونُقبائها والوزراء وأربـاب التصرُّف في الأمـوال والدَّوَادَاريَّة وكُتَّاب السرِّ زياداتٌ:

ـ فأما نوّابُ القلاع ونقباؤها فممّا يُزاد في تحليفهم:

«. . . وإنني أجمع رجالَ هذه القلعة (ويسمّي القلعةَ التي هو فيها) على طاعة مولانا السلطان فلان وخدمته في حِفْظ هذه القلعة وحمايتهـا وتحصينها والـذبِّ عنها والجهادِ دونَهـا والمُدافعة عنها بكل طريق؛ وإنني أحفظ حَواصلَها وذخائرها وسلاحَ خاناتها على آختلاف أنواع ما فيها من الأقوات والأسلحة، وإنني لا أُخرج شيئاً منها إلا في أوقات الحاجة والضّرورة الدَّاعية المتعيّن فيها تَفْريقُ الأقوات والسلاح على قدر ما تدعو الحاجةُ إليه، وإنني أكون في ذلك كواحدٍ من رجال هذه القلعة؛ وكلُّ واحدٍ ممن يتبعني كـواحدٍ ممن يتبـع أتباعَ رجـال هذه القلعـة: لا أتخصَّصُ ولا أمكِّن من التَّخصيص؛ وإنني واللّهِ واللّهِ واللّهِ لا أفتح أبوابَ هذه القلعة إلا في الأوقات الجاري بها عادةٌ فتح أبـواب الحصون، وأُغلقهـا في الوقت الجـاري بها العـادة، ولا أفتحها إلا بشمس، ولا أغلقها إلا بشمس؛ وإنني أطالب الحرَّاسَ والدرَّاجةَ وأربابَ النُّوَبِ في هذه القلعة بما جرت به العوائدُ اللاَّزمة لكلٍ منهم، ممـا في ذلك جميعـه مصلحةُ مولانا السلطان فلان؛ ولا أسلِّم هذه القلعةَ إلا لمولانا السلطان فلان، أو بمـرسومـه

الشَّريف وأمارته الصحيحة وأوامره الصريحة؛ وإنني لا أستخدم في هذه القلعة إلا مَنْ فيه نَفْعُ هذه القلعة وأهليَّةُ الخدمة. لا أعمل في ذلك بِغَرَضِ نفسٍ لي، ولا أرخِّص فيه لمن يعمل بغرضِ نفسٍ له؛ وإنني أبذل في ذلك كلَّه الجهد، وأشمِّر فيه عن ساعِدِ الجِدّ».

ـ وأما الوزراءُ وأربابُ التصرُّف في الأموال فمما يُزاد في تحليفهم:

«. . . وإنني أحفظ أموالَ مولانا السلطان فلان ـ خلَّد اللَّه مُلكَه ـ من التَّبذير والضَّياع، والخَوَنة وتفريطِ أهل العجز، ولا أستخدم في ذلك ولا في شيءٍ منه إلا أهلَ الكفاية والأمانة، ولا أضَمِّن جهةً من الجهات الدِّيوانية إلا مِنَ الأمناءِ القادرين، أو ممن زاد زيادةً ظاهرةً وأقام عليه الضمّان الثِّقات، ولا أؤخر مطالبةَ أحدٍ بما يتعيَّن عليه بوجهِ حَقٍّ من حقوق الدِّيوان المعمور، والموجبات السلطانية على آختلافها؛ وإنني واللَّه العظيم لا أرخِّص في تسجيل ولا قياس، ولا أُسامح أحداً بموجَبٍ يجب عليه، ولا أخرج عن كلِّ مصلحةٍ تتعيَّن لمولانا السلطان فلان ودولته، ولا أخلِّي كلَّ ديوان يرجع إليَّ أمرُه ويوكل بي أمرُ مباشرته من تصفُّحٍ لأحواله، وآجتهادٍ في تثمير أمواله، وكفِّ أيدي الخونة عنه، وغلِّ أيديهم أن تصلَ إلى شيءٍ منه؛ ولا أدع حاضراً ولا غائباً من أمور هذه المباشرة حتى أجدَّ فيه وأبذُلَ الجهدَ الكلِّيَّ في إجراءِ أموره على السَّداد، وحُسنِ الاعتماد، وإنني لا أستجدّ على المستقرّ إطلاقه ما لم يُرسم لي به، إلا ما فيه مصلحةٌ ظاهرة، لهذه الدولة القاهرة، ونفعٌ بيِّنٌ لهذه الأيام الشريفة؛ وإنني واللَّه أُؤَدّي الأمانةَ في كل ما وُكل بي ووُلِّيت من القَبْض والصَّرف، والولاية والعزل، والتَّقديم والتأخير، والتقليل والتكثير، وفي كلِّ جليلٍ وحقير، وقليل وكثير».

ـ وأما الدَّواداريَّة وكُتَّاب السرّ فيزاد فيهما:

«. . . وإنني مهما آطَّلعت عليه من مصالح مولانا السلطان فلان ونصائحه، وأمرِ داني مُلكه ونازحِه، أوصله إليه، وأعرضه عليه، ولا أخفيه شيئاً منه ولو كان عليّ، ولا أكتمه ولو خِفْتُ وُصولَ ضَرَره إليّ».

ويُفْرِد الدوادار:

«بأنني لا أؤدّي عن مولانا السلطان رسالةً في إطلاق مال، ولا آستخدام مُستخدَم، ولا إقطاع إقطاع، ولا ترتيب مُرَتَّب، ولا تجديد مُستجدّ، ولا سَداد ثاغر، ولا فَصْل مُنازَعة، ولا كتابه توقيع ولا مرسوم، ولا كتاب صغيراً كان أو كبيراً إلا بعد عَرْضِه على مولانا السلطان فلان، ومشاورته، ومعاودةِ أمره الشريف ومراجَعَته».

ويُفْرِد كاتبُ السرّ:

«بأنه مهما تأخَّر قراءته من الكتب الواردة على مولانا السلطان فلان، من البعيد والقريب، يعاود فيه في وقت آخر؛ فإن لم يعاوِدْ فيه لمجموع لفظه ـ لطوله الطُّولَ المملّ ـ عاوَدَ فيه بمعناه في الملخصات؛ وأنه لا يجاوب في شيء لم ينصّ المرسومُ الشريف فيه بنصٍّ خاص ـ مما لم تجرِ العادة بالنصِّ فيه ـ لا يجاوب فيه إلا بأكمل ما يرىٰ أنَّ فيه مصلحة مولانا السلطان فلان ومصلحة دولته؛ بأشدّ جواب يقدر عليه، ويصل آجتهادُه إليه؛ وأنه مهما أمكنه المراجعة فيه لمولانا السلطان فلان راجعه فيه، وعمل بنَصّ ما يرسم له به فيه».

ب ـ أيمانُ أهل الكتاب:

يَمينُ اليهود[1]

«إنني واللّهِ واللّهِ واللّهِ العظيم، القديم الأزليّ الفَرْد الصَّمَد، القديمِ الواحد

(١) أوّل ما أستحدثت هذه الأيمان لأهل دين اليهود ـ فيما ذكره محمد بن عمر المدائني في كتابه: القلم والدواة ـ في زمن الفضل بن الربيع وزير الرشيد؛ أحدثها كاتبٌ له قال له: كيف تحلِّف اليهوديّ؟ قال: أقول له: «وإلا برئتَ من إلهك الذي لا تعبد غيره ولا تدين إلا به، ورغبتَ عن دينك الذي ارتضيته، وجحدت التوراة وقلت: إن حمار العُزَيْر راكبُ جملِ موسى، ولعنك ثمانمائة حَبْر على لسان داوود وعيسى ابن مريم، ومسخك الله كما مسخ أصحاب السَّبت فجعل منهم القردة والخنازير. وخالفتَ ما دوّنه دانيال وأشلوما ويوحنّا، ولقيتَ الله بدم يحيى بن زكريا، وهدمتَ الطور صخرة صخرة، وضربت بالناقوس في بيت المقدس، وتبرأ منك الأسباط وآباؤهم: إسرائيل وإسحاق وإبراهيم، وغمست لحيةَ الجاثليق في معمودية النصارى، وأنقلبت عن السبت إلى الأحد، وإلا قدّر الله لك أن تلقى الذي يخرج من الماء ليلة السبت، وصيَّر الله طعامك لحم الخنزير وكروش الجمال ومعَد الخنازير، وسلّط الله عليك وعلى اهلك

الأحد، المدْرِك المهلك، باعِثِ موسى بالحق، وشادِّ عَضُدِهِ وأَزْرِه بأخيه هارون، وحقِّ التوراة المكرمة وما فيها وما تضمَّنته، وحقِّ العَشْرِ كلماتٍ التي أُنزلت على موسى في الصُّحف الجوهر، وما حَوَتْه قُبَّةُ الزمان، وإلا تعبَّدت فرعونَ وهامان، وبرئت من إسرائيل[1]، ودِنْتُ بدين النَّصرانية، وصدَّقت مريمَ في دعواها، وبرَّأْتُ يوسف النجَّار، وأنكرت الخطاب، وتعمَّدت الطُّور بالقاذورات، ورميت الصخرة بالنجاسة، وشرِكْتُ بُخْتُ نَصَّر[2] في هَدْم بيت المقدس وقَتْل بني إسرائيل، وألقيت العَذِرة على مَظَانِّ الأسفار، وكنت ممن شَرب [من] النهر ومال إلى جالُوتَ، وفارقت شيعة طالوتَ، وأنكرت الأنبياء، ودَلَلْت على دانيال، وأعلمت جبَّارَ مصر بمكان إرْمِيا، وكنت مع البغيِّ والفواجر يوم يحيى، وقلت: إن النار المضيئة من شجرة العَوْسَج نارُ إفك، وأخذتُ الطرقَ على مَدْيَن، وقلت بالعظائم في بنات شُعَيْب، وأَجلَبْتُ مع السَّحَرة على موسى، ثم برئت ممن آمن منهم، وكنت مع من قال: اللَّحاقَ [اللَّحاقَ] لندركَ من فرّ، وأشرت بتخليف تابوتِ يوسفَ في مصر، وسلَّمت إلى السَّامريِّ، ونزلت أريحا مدينةَ الجبَّارين، ورضِيت بفِعْل سَكَنَةِ سَدُوم، وخالفت أحكامَ التوراة، وآستبحتُ السَّبت وعدَوْت فيه، وقلت إن المِضَلَّة ضلال، وإن الحنكة مُحال، وقلت بالبَدَاءَة على اللَّه في الأحكام، وأجَزْت نَسْخَ الشرائع، وأعتقدت أن عيسى ابنَ مريمَ المسيحُ الموعودُ به على لسان موسى بن عِمران، وآنتقلت عن اليهودية إلى سواها من

= بختنصَّر ثانية يقتل المقاتلة ويسبي الذريّة ويخرِّب المدائن، وأراك الله الأيدي التي تنال الرُّكب من قبل الأسباط، وأخذك الله بكل لسان جحدته وبكل آية حرَّفتها. وقلتَ في موسى الزُّور، وإنه في محلِّ ثُبور، وفي دار غرور، وجحدت إهْيَا أشَرْ إهْيَا أصبئوت آل شدّاء».
(انظر صبح الأعشى، ١٣/٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(١) في الصبح: «من بني إسرائيل»

(٢) روايات المؤرخين المسلمين مختلفة ومتضاربة حول شخصية بختنصَّر: فمنهم من يجعله ملكاً على فارس، ومنهم من يجعله مرزباناً على العراق من قبل ملك فارس لهراسب؛ أرسله ملكه إلى بيت المقدس لإجلاء اليهود عنها. وقد عاش بختنصَّر هذا ما بين المئتين السادسة والخامسة قبل الميلاد.
(انظر مروج الذهب للمسعودي: ١/٢٢٨؛ والطبري: ١/٣١٦؛ وابن الأثير: ١/١٩٨؛ ودائرة المعارف الإسلامية: ٦/٣٧٧).

الأديان، واستبحتُ لحمَ الجمل والشحمَ والحوايا وما اختلط بعظم، وتأوّلت أن آكلَ ثمنه غيرُ آكله[1]، وقلت مقالة أهل بابلَ في إبراهيم، وإلا أكون محرّماً حُرمةً تجمع عليها الأحبار، وتُقلَّب عليها حُصُر الكنائس، ورُددتُ إلى التِّيه، وحُرمت المنَّ والسَّلْوى، وبرئت من كل الأسباط، وقعدت عن حرب الجبَّارين مع القُدْرة والنَّشاط».

يمينُ النَّصارى

«إنني واللَّهِ واللَّهِ واللَّهِ العظيم، وحقِّ المسيح عيسى ابن مريم، وأمِّه السيدة مريم، وما أعتقده من دين النصرانية، والملَّة المسيحية، وإلاّ أبرأ من المعموديّة، وأقول إن ماءها نجس، وإن القَرابينَ رجس، وبرئتُ من مَرْ يُوحَنَّا المعمدان والأناجيل الأربعة، وقلت إنَّ مَتَّى كَذُوب، وإن مريم المجدلانيَّة باطلةُ الدَّعوى في إخبارها عن السيد اليسوع المسيح، وقلت في السيدة مريم قول اليهود، ودِنْتُ بدينهم في الجُحود، وأنكرت اتِّحاد اللاَّهوت بالنَّاسوت، وبرئت من الآب والابن ورُوح القُدُس، وكذَّبت القُسُوس، وشاركت في ذبح الشَّمامِس، وهدمتُ الدِّيارات والكنائس، وكنت ممن مال على قسطنطين ابن هالاني، وتعمَّد أمَّه بالعظائم، وخالفت المَجامِعَ التي أجمعت عليها الأساقِفُ برومِيَّة والقُسْطَنطينية[2]، ووافقت البَرْذَعانيَّ[3] بأنطاكية، وجحدت مذهبَ الملكانيَّة، وسفَّهت رأْي الرُّهبان، وأنكرت وقوع الصَّلب على السَّيد

---

(١) قال القلقشندي في الصبح: «كان من حق العمري أن يقول: ولم أتأوّل أن آكل ثمنه غير هو غير آكله؛ لأن اليهود القرّائين والربّانيين يتأوّلون أن آكل ثمنه هو غير آكله وإنما تمنع ذلك السّامرة؛ فكان من حقه أن يورد ذلك في يمين السّامرة.

(٢) الإشارة إلى المجامع الدينية الثلاثة التي انعقدت بسبب مشكلة نسطوريوس القائل بأن المسيح ليس إلهاً حقيقةً؛ وهذه المجامع هي: مجمع أفسوس سنة ٤٣١ م، ومجمع خلقيدونية سنة ٤٥٠ م، ومجمع القسطنطينية سنة ٥٥٣ م. وقد قررت هذه المجامع أن للمسيح طبيعتين: إلهية وإنسانية متحدتين في أقنوم واحد وقوام إلهي واحد. ولم يبق مع نسطوريوس في النهاية إلا كنيسة فارس، وتدعى أحياناً بالكنيسة الأشورية.

(الموسوعة العربية الميسرة: ١٨٣٢).

(٣) هو يعقوب البرذعاني تلميذ سويرس بطرك أنطاكية. وكان راهباً بالقسطنطينية فكان يطوف البلاد ويدعو إلى مذهب ديسقُرس رأس طائفة اليعاقبة (صبح الأعشى: ١٣/٢٧٨).

اليسوع، وكنت مع اليهود حين صلبوه، وجدْت عن الحواريين، وأستبحت دماء الدَّيرانيين؛ وجذبت رداء الكبرياء عن البطريرك، وخرجت عن طاعة الباب، وصُمْتُ يوم الفصح الأكبر، وقعدت عن أهل الشَّعانين، [وأبيت][1] عيد الصَّليب والغِطاس، ولم أحْتفل بعيد السَّيدة، وأكلت لحمَ الجمل، ودنت بدين اليهود، وأبَحْت حُرْمَة الطلاق، وخُنْت المسيح في وديعته، وتزوَّجت في قرنٍ بامرأتين، وهدمت بيدي كنيسة قُمامة[2]، وكسرت صليب الصَّلَبُوت، وقلت في البنوَّة مقالَ نُسْطورس، ووجَّهت إلى الصخرة وجهي، وصدَّيت عن الشرق المنير حيث كان المَظْهر الكريم، وإلا برئت من النورانيين والشعشعانيين، ودِنْتُ غير دين النصارى، وأنكرت أنَّ السَّيد اليسوع أحيا الموتى، وأبرأ الأكْمَه والأبرص، وقلت إنه مَرْبُوب، وإنه ما رؤيَ وهو مصلوب، وأنكرت أن القُرْبانَ المقدَّس على المذبح ما صار لحمَ المسيح ودمه حقيقة، وخرجت في النصرانية عن لاحِبِ[3] الطريقة، وإلا قلت بدين التَّوحيد، وتعبَّدت غير الأرباب، وقصدت بالمظانيات غيرَ طريق الإخلاص، وقلت إن المَعادَ غيرُ روحانيّ[4]، وإن بني المعمودية تَسيحُ في فَسِيحِ السماء، [وأثبتُّ][5] وجودَ الحُور العِين في المَعاد، وإن في الدار الآخرة التَّلَذُّذات الجسمانية[4]، وخرجت خروج الشعرة من العجين من دين النصرانية، وأكون من ديني محروماً، وقلت إن جرجس لم يُقتل مظلوماً».

---

(١) في ط ق «وأهنت». والتصحيح من الصبح.

(٢) هي كنيسة القيامة؛ ويقال لها: كنيسة بيعة القمامة. وقد هدمت هذه الكنيسة سنة ٤٠٠ هـ بأمر الحاكم بأمر الله وظلَّت خربة حتى سنة ٤٢٩ هـ حين عقد الأمبراطور ميشيل الخامس هدنة مع والي بيت المقدس من قبل المستنصر بالله. وقد تعهَّد بتحرير خمسة آلاف أسير مسلم ومنح الحق في إعادة بناء الكنيسة فأرسل المهندسين والمعماريين فوراً من القسطنطينية. وسبب تسميتها بالقمامة ـ على ما ذكره ياقوت ـ أنها بنيت في مكان كان مزبلة أهل البلد (سَفَرنامة: ٧٤؛ ومعجم البلدان: ٤/٣٩٦).

(٣) الطريق اللاحب: الواضح المستقيم.

(٤) ذكر القلقشندي أن هذه اليمين هي للملكانيين من النصارى، وأنهم كانوا يؤمنون بالمعاد الروحاني والجسماني معاً.

(انظر صبح الأعشى: ١٣ / ٢٨٠ ـ طبعة دار الكتب العلمية).

(٥) في ط ق «وأبيت» وهو خطأ واضح.

فإن كان من اليَعَاقبة بدّل قوله« «اتّحاد اللاّهوت بالنّاسُوت» بقوله: «مماسّة اللاّهوت للناسوت» ويُبطل قوله: «ووافقت البَرْذَعانيّ بأنطاكية، وجحدت مذهب المَلكانية» ويبدّل بقوله: «وكذَّبْتُ يعقوبَ البرذَعانيّ، وقلت إنه غيرُ نصراني، وجحدت اليعقوبية، وقلت إن الحقّ مع الملكية». ويبطل قوله: «وخرجت عن طاعة الباب» ويبدّل بقوله: «وقاتلت بيدي عمد شيون، وخرَّبت كنيسته وكنت أوّلَ مفتون» وإن كان من النَّساطرة أبدل القولين وأبقى ما سواهما، وقال عوض «مماسَّة اللاهوت للناسوت»: «إشراق اللاّهوت على الناسوت»؛ ويُزاد بعد ما يحذف: «وقلت بالبراءة من نسطورس وما تضمنه الإنجيل المقدَّس»[1].

يمينُ السَّامِرَة[2]

وهي على نحوٍ من يمين اليهود، لأنهم منهم؛ وقد قال العلماءُ: «إن وافقت أصولُهم أُصولَ اليهود أقرُّوا [بالجزية][3] وإلا فلا». وقد خرجت لهم نسخة يمين تفردهم لموضع خلافهم لفرق اليهود وهي:

«أقول وأنا فلان، إنني واللّهِ واللّهِ واللّهِ العظيم، البارىء، القادر، القاهر، القديم، الأزليّ، ربّ موسى وهارون، منزِّل التوراة والألواح الجوهر، منقذِ بني إسرائيل، وناصب الطُّور قِبْلةً للمتعبِّدين، وإلاَّ كفرت بما في التوراة، وبرئت من نبوَّة موسى، وقلت بأن الإمامة في غير بني هارون، ودكّيْت الطُّور، وقلعت بيدي أثَرَ البيت المعمور، واستبحت حُرْمَة السَّبت، وقلت بالتأْويل في الدين، وأقررت بصحَّة توراة اليهود، وأنكرت القول بأن لا مِسَاس[4]، ولم أتجنَّب شيئاً من الذبائح، وأكلت

---

(١) وقد أورد القلقشندي في الصبح: ١٣/ ٢٩٠ نسخة يمين حلَّف عليها ملك النوبة النصراني للسلطان الملك المنصور قلاوون عند استقراره نائباً عنه في بلاد النوبة.

(٢) كان من حقّه أن يورد هذه اليمين قبل يمين النصارى، أي بعد يمين اليهود القرّائين والربانيين.

(٣) الزيادة من صبح الأعشى. والمراد بالعلماء علماء الشافعية.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: «فاذهب فإنَّ لك في الحياة أن تقول لا مِساس ـ طه: ٩٧». يقال إن موسى همَّ بقتل السامريّ، فقال الله تعالى له: لا تقتله فإنه سخيّ. ويقال: لما قال له موسى: «فاذهب فإن =

الجَـدْيَ بلبن أمّه، وسعيت في الخـروج إلى الأرض المحظور عليَّ سكَنُهـا، وأتيت النساءَ الحُيَّضَ زمانَ الـطَّمْث مستبيحاً لهنّ، وبِتُّ معهن في المَضَـاجع، وكنت أوَّلَ كافر بخلافة هارون، وأنِفْتُ منها أن تكون».

يمينُ آلمَجُوس[1]

«إنني والله الربِّ العظيم، القـديم، النور الأوَّل، ربِّ الأربـاب وإله الآلهـة، مـاحي آيِ الـظُّلَم، والموجِـد من العدم، مقـدِّر الأفـلاك ومسيِّـرهـا، ومنوِّر الشُّهُب ومصـوِّرها، خـالق الشمس والقمر، ومُنْبِت النجم والشجـر، والنار والنـور، والـظِّل والحَرُور، وحقِّ «جُيُومُرْتَ»[2] وما أوْلد من كرائم النَّسـل، و «زرادشت» وما جاءَ به من القـول الفصل، والـزَّنْـد ومـا تضمَّن، والخَطِّ المستـديـر ومـا بيَّن، وإلا أنكـرت أنَّ «زرادشت» لم يأْتِ بالدائرة الصحيحة بغير آلة، وأن مملكة «إفْريدونَ» كانت ضلالة، وأكون قد شَرِكْت «بهراسف»[3] فيما سفك طُعماً لحيَّتَيْه، وقلت إن كابيان[4] لم يسلَّط عليه، وخرَّقت بيدي الدِّرَفْسَ[4]، وأنكـرت ما عليـه من الوضـع الذي أشـرقت عليه

= لك. . الخ» خاف فهرب فجعل يهيم في البريّة مع السِّباع والوحش، لا يجد أحداً من الناس يمسّه حتى صار كالقائل: لا مساس؛ لبعده عن الناس وبُعد الناس عنه.
(انظر تفسير الطبري وتفسير القرطبي).

(١) المجوسيّة هي الملّة التي كان عليها الفرس ومن دان بدينهم. وهم ثلاث فرق: الكُيُومَرْتيَّـة والثَّنَويَّـة والزرادشتية.
(حول هذه الملة بالتفصيل انظر صبح الأعشى: ١٣/ ٢٩٤ وما بعدها).

(٢) جيومرت أو كيومرت هو الذي تنسب إليه الفرقة الكيومرتية من المجوس. وهؤلاء أثبتوا إلهاً قديماً سمّوه «يزدان» وهو النور، وإلهاً مخلوقاً سمّوه «أهرمان» وهو الظلمة؛ وقد خرج أهرمان على طاعة يزدان فجرت بينهما محاربة كان آخر الأمر فيها أن أصطلحا أن يكون العالم السفليّ لأهرمان سبعة آلاف سنة ثم يسلّمه ليزدان. ثم إنه أباد الذين كانوا في الدنيا قبل الصلح وأهلكهم، وبدأ برجل يُقال له كيومرت أو جيومرت، وحيوان يقال له الثور، فكان من جيومرت البشر، ومن الثور البقر وسائر الحيوان.

(٣) هو نفسه بيوراسب الملك الفارسيّ، رابع ملوكهم؛ وهو الضحّاك، يقال له بالفارسية: الدهاش، ومعناه: عشر آفات. وكان ظلوماً غشوماً. وكان على كتفه سلعتان مستورتان بثيابه يحركهما إذا شاء، فكان يدّعي أنهما حيَّتان، ويزعم أن ما يأخذه من الرعيّة يطعمه لهما ليكفّهما عن الناس وأنهما لا يشبعان إلا بأدمغة بني آدم. أما إفريدون المقدّم ذكره فهو أحد ملوكهم، وهو الذي قتل الضحّاك، لذلك فإنهم يعظمونه.

(٤) هو رجلٌ ظهر بأصبهان كان الضحّاك قد قتل له ابنين، فأخذ كابيان المذكور دِرَفْساً (وهو الحربة) وعلق

أجرامُ الكواكب، وتمازجت فيه القوى الأرضية بالقوى السمائية، وكذّبت «ماني» وصدَّقت «مَزْدَك»[1]، وآستبحت فُضُول الفروج والأموال، وقلت بإنكار الترتيب في طبقات العالم، وألاّ مَرْجِعَ في الأبوّة إلّا إلى آدم، وفضّلت العرب على العجم. وجعلت الفُرْسَ كسائر الأمم، ومسحت بيدي خطوط الفَهْلَويَّة[2]، وجحدت السياسة السَّاسانيَّة، وكنت ممن غزا الفُرْسَ مع الرُّوم، وممن خطَّأ سابور في خلع أكتاف العرب، وجلبت البلاء إلى بابل، ودِنْت بغير دين الأوائل، وإلّا أطفأْت النار، وأنكرت فعل الفلك الدوَّار، ومالأْت فاعِلَ الليلِ على فاعل النهار، وأبطلت حكم النَّيروز والمهرجان، وأطفأت ليلة الصَّدَقِ مصابيحَ النيران، وإلا أكون ممن حرَّم فروج الأمهات، وقال بأنه لا يجوز الجمع بين الأخوات، وأكون ممن أنكر صوابَ فِعْل أردشير، وكنت لقومي بئسَ المولى وبئسَ العشير».

ج ـ أيمانُ طوائفَ من أهل البِدَع:

الطائفة الأولى: الشّيعة.

أما الرَّافضةُ وأنواع الشِّيعة فهم طوائف كثيرة يجمعهم حبُّ عليّ رضي الله عنه، وتختلف فِرقهم في سواه.

فأما مع إجماعهم على حبِّه فهم مختلفون في آعتقادهم فيه؛ فمنهم أهلُ غُلُوّ مفرط وعُتُوّ زائد: ففيهم من أدّى به الغُلُوّ إلى أن آتّخذ عليّاً إلهاً وهم النُّصَيْريّة، ومنهم من قال إنه النبيُّ المرسَلُ وغلَّط جبريل، ومنهم من قال إنه شريكٌ في النبوّة والرسالة،

ـــ بأعلاها قطعة نطع كان يتّقي بها النار، ونادى في الناس بمحاربة الضحّاك فأجابه خلقٌ كثير. وهو الذي أشار بتولية إفريدون.

(1) ماني هو صاحب مذهب المانويّة. والمانوية مذهب تأثّر بالبوذية والغنوصيّة، كما أخذ من الزرادشتية. قضت النصرانية على هذا المذهب حوالى ٥٠٠ م. وكان ماني يقول بنبوّة المسيح ولا يقول بنبوّة موسى. أما مزْدَك فهو رأس المزدكيّة؛ ومذهبه يقوم على ثنائية النور والظلمة؛ وكان يدعو إلى الشراكة في المال والنساء لأن بسببهما تحصل المباغضة والشقاق. قتله شروان بن قباذ.

(2) هي الفارسيّة القديمة.

ومنهم من قال إنه وصيُّ النبوّة بالنصّ الجليّ؛ ثم تخالفوا في الإمامة بعده، وأجمعوا بعده على الحسن ثم الحسين. وقالت فرقةٌ [منهم]: وبعدهما محمد بن الحنفيّة.

[وجماهير القوم الموجودين في هذه الممالك خمسُ فرق ظاهرة وهم][1]: النُّصيْريّة، والإسمعيلية، والإماميّة، والزَّيديّة، [والدُّروز].

النُّصَيريَّة

وهم القائلون بألوهيّة عليّ، وإذا مرَّ بهم السَّحابُ قالوا: السَّلامُ عليك [يا] أبا الحسن؛ ويزعمون أنّ السَّحاب مسكنُه، ويقولون إن الرَّعدَ صوتُه، وإن البرقَ ضحكُه، وإنّ سلمان الفارسيّ رسولُه؛ ويحبُّون ابن مُلْجَم، ويقولون إنه خلّص اللاّهوت من النّاسوت؛ ولهم خطابٌ بينهم، مَن خاطبوه به لا يعود يرجع عنهم، ولا يُذيعه ولو ضُربت عنقُه؛ [وقد] جرِّب هذا كثيراً.

وهم طائفة ملعونة مرذولة، مجوسيّةُ المعتقد، لا تحرِّم البنات ولا الأخوات ولا الأمهات؛ ويحكى عنهم في هذا حكايات، ولهم اعتقاد في تعظيم الخمر، ويرون أنها من النُّور، ولهم قول في تعظيم النُّور مثل قول المجوس أيضاً أو يقاربه. وأَيْمانهم:

«إنني وحقِّ العليِّ الأعلى، وما أعتقده في المَظْهر الأسنى، وحقِّ النور وما نشأ منه، والسَّحاب وساكنه، . . . وإلّا برئت من مولاي عليّ العليّ العظيم، وولائي له، ومظاهر الحقّ، وكشفت حجاب سلمان بغير إذْن، وبرئت من دعوة الحُجَّة نُصَيْر[2]، وخُضت مع الخائضين في لعنة ابن مُلْجَم[3]، وكفرتُ بالخطاب، وأذعت السرَّ

---

(١) هذه الجملة مرتبكة في ط ق. وهي هناك: «وجماهير القوم الموجودين فرق ظاهرة في هذه الممالك النصيرية . . الخ». وقد رتبناها بما يسهل تناولها وينطبق على النصّ الأصلي. وكذلك الزيادات الموجودة بين معقوفين هنا أو في أماكن أخرى من المتن فهي مضافة إما لضرورة انتظام السياق اللغوي والمعنوي، وإما من مصادر أخرى نقلت عن التعريف، وخصوصاً صبح الأعشى للقلقشندي.

(٢) هو غلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

(٣) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادي الذي قتل الإمام علياً بعد التحكيم في صفين. وكان الخوارج قد أعدوا ،

المصون، وأنكرت دعوى أهل التَّحقيق، وإلاّ قلعت أصل شجرة العنب من الأرض بيدي حتى أجتثَّ أصولها وأمنع سبيلها، وكنت مع قابيل على هابيل، ومع النُّمرود على إبراهيم، وهكذا مع كلِّ فِرعون قام على صاحبه، إلى أن ألقى العليَّ العظيم وهو عليَّ ساخط، وأبرأ من قول قَنْبر[١]، وأقول إنه بالنَّار ما تَطَهَّر».

الإسماعيلية.

وهم القائلون بانتقال الإمامة بعد جعفر الصَّادق إلى ابنه الأكبر إسماعيل، وهو جدّ الخلفاء الفاطميين بمصر. وهذه الطائفة هم شيعةُ تلك الدولة، والقائمون بتلك الدعوة، والقائلون لتلك الكلمة؛ وهم ـ وإن أظهروا الإسلام، وقالوا بقول الإماميَّة ثم خالفوهم في موسى الكاظم، وقالوا بأنها لم تصِرْ إلا إلى أخيه إسماعيل ـ فإنهم طائفة كافرة، تعتقد التَّناسُخ والحُلول؛ ثم هم مختلفون فيما بعد: فمنهم نِزَارِيَّة وهم القائلون بإمامة نزار، [والبقيَّة مُستَعْلويَّة ويقولون بإمامة المستَعْلي بالله][٢]. وهؤلاء تجمعهم يمينٌ واحدة؛ ثم نبيِّن موضع الخلاف بينهم فيما يأتي.

= خطة لقتل علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص. وتوجّه ابن ملجم إلى الإمام علي فأصاب منه مقتلاً، ولم يوفق كلٌّ من البرك بقتل معاوية وعمرو بن بكر بقتل ابن العاص. قتل ابن ملجم سنة ٤٠ هـ على أثر فعلته الشنعاء.

(١) خادم الإمام علي بن أبي طالب. كان من أهل التقوى والورع وقد روى عن علي.
(تهذيب الأسماء واللغات: ٢/٦٠).

(٢) في ط ق «والبقيّة على صرافتهم». والعبارة غير واضحة. وقد انقسم الإسماعيليون إلى مستعلوية ونزارية بعد المستنصر بالله أبي تميم مَعَدّ، خامس خلفائهم بمصر. فأما المستعلوية فيقولون إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر إلى ابنه المستعلي بالله، أبي القاسم أحمد ثم إلى ابنه الآمر بأحكام الله أبي علي المنصور، ثم إلى الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم، ثم إلى الظافر بأمر الله أبي المنصور إسماعيل، ثم إلى الفائز بنصر الله أبي القاسم عيسى بن الظافر، ثم إلى العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، وهو آخر خلفائهم بمصر. وقد توفي سنة ٥٦٤ هـ بعد أن قطع صلاح الدين الخطبة له، وخطب للخلفاء العباسيين ببغداد. أما النزاريّة فإنهم يقولون بأن الإمامة انتقلت بعد المستنصر إلى ابنه نزار بالنصّ من أبيه دون المستعلي. ومن أشهر دعاة الإسماعيلية النزارية الحسن بن الصبّاح صاحب قلعة ألَمُوْت.
(انظر صبح الأعشى: ١٣/٢٣٥ وما بعدها؛ ودائرة المعارف الإسلامية: ٣/٣٨٤).

واليمينُ الجامعة لهم أن يقول:

«إنني واللهِ واللهِ واللهِ الواحد الأحد، الفرد الصَّمد، القادر القاهر، الذي لا إلهَ إلا هو، وحقِّ أئمة الحقّ، وهُداة الخَلْق عليٍّ وبنيه أئمة الظُّهور والخَفَاء[1]، وإلّا برئتُ من صحيح الولاء، وصدَّقت أهلَ الباطل[2]، وقمت مع فرقة الضَّلال وانتصبت مع النَّواصِب[3] في تقرير المُحال، ولم أقل بانتقال الإمامة إلى السيِّد الحسين، ثم إلى بنيه بالنصِّ الجليّ، موصولةً إلى جعفر الصادق، ثم إلى ابنه إسماعيلَ صاحبِ الدَّعوة الهاديَة، والأُثرة الباقية، وإلا قَدَحْت في القدَّاح[4]، وأثَّمت الداعيَ الأوّل، وسعيت في اختلاف الناس عليه. ومالأتُ على السيِّد المهديّ، وخذلت الناسَ عن القائم، ونقضت الدولة على المعزّ، وأنكرت أن يوم غَدير خُمٍّ لا[5] يُعدُّ في الأعياد، وقلت أن لا عِلْمَ للأئمة بما يكون، وخالفتُ من ادَّعى لهم العِلمَ بالحِدْثَان، ورميت آلَ بيت محمد بالعظائم، وقلتُ فيهم بالكبائر، ووالَيْت أعداءَهم، وعاديت أولياءَهم.»

ثم من هنا تزيد النزاريّة:

«وإلاّ فجحدت أن يكون الأمرُ صار إلى نزار، وأنه أتى حَمْلاً في بطن جارية

---

(١) راجع ص ١٦٩ من هذا الكتاب، حاشية (١)

(٢) في الصبح «الأباطيل»

(٣) النواصب هم الذين ينطوون على كره عليّ بن أبي طالب؛ وهي تسمية أطلقها الشيعة عليهم مقابل تسمية الشيعة بالروافض.

(٤) هو عبد الله بن ميمون القدَّاح، أحد الدعاة المتقدّمين لأهل البيت. توفي سنة ١٨٠ هـ. وفي صبح الأعشى أنه سمّي بالقدّاح لأنه كان يعالج العيون ويقدحها. أما صاحب الأعلام فذكر أنه عُرف بالقداح، وهي صناعته؛ وكان يبري القداح، أي السِّهام.
(الأعلام: ١٤١/٤؛ وصبح الأعشى: ٢٤٣/١٣).

(٥) كذا في ط ق وفي صبح الأعشى. وصوابه إسقاط لا النافية؛ ذلك أن يوم غدير خُمّ من الأعياد العظيمة الشأن عندهم. وغدير خُمّ هو المكان الذي نزل فيه النبي ﷺ وخطب في الناس قائلاً: «اللهمَّ من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللَّهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذُل من خذله، وأدر الحقَّ معه حيثُ دار»

لخوفه خوض بلاد الأعداء، وأن الاسم لم يغيّر الصورة[١]. وإلّا طعنت على الحسن بن الصبّاح، وبرئت من المولى علاء الدين صاحب الألمُوْت، ومن ناصر الدين سِنَانٍ الملقّب براشد الدين[٢]، وكنت أوّل المعتدين، وقلت إن ما روَوْه كان من الأباطيل، ودخلتُ في أهل الفِرْية والأضاليل.»

وأما من سواهم من الإسماعيلية المنكرين لإمامة نزار فيقال لهم عوض هذا:

«وإلّا قلت إن الأمرَ صار إلى نزار، وصدّقت القائلين إنه خرج حمْلاً في بطن جارية، وأنكرتُ مِيتتهُ الظاهرة بالإسكندرية، وادّعيت أنه لم ينازع الحقّ أهلَه، ويحاذب الخلافةَ ربّها، ووافقت شيعته، وتبعت الحسن بن صبّاح، وكنت في النزاريّة آخر الأدوار.»

ثم يجمعهم آخر اليمين أن يُقال:

«وإلّا قلت مقالةَ ابن السّلار في النّفاق، وسدّدت رأيَ ابن أيُّوب[٣]، وألقيت

---

(١) في ط ق «وأن الاسم لم يغيّر كتغيير الصورة»

(٢) يرى القلقشندي أن العمريّ قد وقع في الوهم هنا: فناصر الدين سنان الملقّب براشد الدين إنما هو من إسماعيلية الشام الذين هم شيعة المستعلويّة لا من الإسماعيلية النِّزارية الذين هم ببلاد المشرق؛ فكان من حقّه أن يُلحق عبارة: «وبرئت من ناصر الدين سنان الملقب براشد الدين» بيمين من سواهم من الإسماعيلية الذين هم المستعلوية.

(٣) قوله «وإلا قلت مقالة ابن السّلار في النِّفاق... الخ» فإن ذلك مما يختص بالمستعلوية، لأن ابن السّلار كان وزير الظافر الفاطمي، والظافر من جملة الخلفاء القائمين بمصر بعد المستعلي الذين خالفت النزارية في إمامتهم. وابن السّلار هذا (تولى الوزارة من ١٥ من شعبان ٥٤٤ هـ إلى ٦ من المحرم ٥٤٨ هـ) وكان سنيّ المذهب، وقد أنشأ في سنة ٥٤٦ هـ مدرسة للشافعية في الإسماعيلية تحت إشراف الفقيه الكبير الحافظ السلفي. وكذلك قضية ابن أيوب (وهو صلاح الدين) إنما كانت مع العاضد آخر خلفاء الفاطميين من المستعلويّة. إذن فالذي جعله جامعاً لهم إنما هو مختص بإسماعيلية الشام الذين هم شيعة المستعلوية دون النزارية. لذلك كان من حق العمري أن يقتصر في زيادة يمين النزارية على آخر «وبرئت من المولى علاء الدين صاحب ألمَوْت» ويزيد في يمين سواهم من الإسماعيلية بعد قوله «آخر الأدوار»: «وإلا برئت من ناصر الدين سنان الملقب براشد الدين، وكنت أول المعتدين، وقلت إن ما رآه كان من الأباطيل، ودخلت في أهل الفرية والأضاليل» ثم يقول بعد ذلك: «وإلا قلت مقالة ابن السّلار في النفاق، وسدّدت رأي ابن أيوب، وألقيت بيدي الراية الصفراء، ورفعت السوداء، وفعلت في أهل القصر تلك الفعال، وتمحّلت ذلك المحال».

بيدي الرَّاية الصفراء، ورفعت السوداء، وفعلت في أهل القصر تلك الفعال، وتمحَّلْت مثل ذلك المُحال.»

الإماميَّة

وأما الإمامية فهم القائلون بأنهم[1] اثنا عشر إماماً: أوَّلهم عليّ كرَّم الله وجهه، وآخرهم المنتظر في آخر الزمان[2]، وهم الذين خالفتهم الإسماعيليّة، فقالت الإسماعيلية بإمامة إسماعيل ابن جعفر وقال هؤلاء بإمامة موسى الكاظم ابن جعفر. وهم مسلمون إلا أنهم أهلُ بِدْعَةٍ كبيرة سبَّابة.

وهؤلاء يمينُهم

«إنني واللهِ واللهِ واللهِ العظيم، الربِّ الواحد الأحد، الفردِ الصَّمَد، وما أعتقده من صِدْقِ محمدٍ ﷺ ونصِّه على إمامة ابن عـمِّه ووارث علمه عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه يومَ غدير خُمّ، وقوله: «مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللَّهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وأدِرِ الحقَّ على لسانه كيفما دار» وإلَّا كنت مع أوَّل قائم يوم السَّقيفة[3]، وآخرَ متأخِّر يومِ الدَّار، ولم أقل بجَوَاز التَّقيَّة خوفاً على النفس، وأعْنَتُّ ابنَ الخطَّاب، واضطهدتُ فاطمة الزَّهراء، ومنعتُها حقَّها من الإرث[4]، وساعدتُ في تقـديم تَيْمٍ وعَدِيٍّ وأُميَّة[5]، ورضيت بحُكم الشُّورىٰ، وكذَّبتُ حسَّان بن ثابت يـوم عائشة[6]،

---

(١) أي أئمتهم.

(٢) والأئمة الاثنا عشر عندهم: علي بن أبي طالب، الحسن بن عليّ، الحسين بن عليّ، علي بن الحسين، محمد الباقر، جعفر الصادق، موسى الكاظم، عليّ الرضا (وهو الذي عهد إليه المأمون العباسي بالخلافة ومات قبل أن يموت المأمون) ثم ابنه محمد الجواد، عليّ الهادي، الحسن العسكري ثم ابنه محمد الحجَّة وهو المهديّ المنتظر.

(٣) هي سقيفة بني ساعدة التي اجتمع فيها المهاجرون والأنصار لاختيار من يخلف النبي. وكان فيها ما كان.

(٤) يشيرون إلى إرث فاطمة من رسول الله في أرض فَدَك؛ وقد ردَّها أبو بكر الصديق إلى بيت المال.

(٥) كان تقديم تيم بخلافة أبي بكر، وتقديم عَدِيّ بخلافة عمر، وتقديم أمية بخلافة عثمان.

(٦) الإشارة إلى حديث الإفك في عائشة رضي الله عنها.

وقمت معه يوم الجمل، وشهرت السَّيفَ مع معاوية في صفين، وصدَّقت دعوى زياد، ونزلْتُ على حكم آبن مَرْجانة(١)، وكنت مع عمر بن سَعْد في قتال الحسين، وقلت إن الأمر لم يَصِرْ بعد الحسن إلى الحسين، وساعدتُ شِمْرَ بن ذي الجَوْشَن(٢) على فعال تلك البليَّة، وسبَيْت أهل البيت، وسُقْتهم بالعِصِيِّ إلى دمشق، ورضيت بإمارة يزيد، وأطعت المغيرةَ بن شُعْبة(٣)، وكنت ظهيراً لعمرو بن العاص، ثم لبُسْر بن أبي أَرْطَأة(٤)، وفعلت فِعْلَ عُقْبة بن عبد الله المرّيّ، وصدَّقت رأي الخوارج، وقلت إن الأمرَ لم ينتقل بعد الحسين بن عليّ في أبنائه إلى تمام الأئمة إلى الإمام المهديّ المنتظر، وذلَّلْتُ على مقاتل أهل البيت بني أميّة وبني العبّاس، وأبطلتُ حُكمَ التَّمَتُّع(٥)، وزِدْتُ في حَدِّ الخمر(٦) ما لم يكن، وحرَّمت بيع أمَّهات الأولاد، وقلت برأيي في الدِّين، وبرئت من شيعة أمير المؤمنين، وكنت مع [هوىً](٧) أهل الشام والغَوْغاء القائمة بالنَّهْرَوان(٨)، وآتَّبعت خطأ أبي موسى، وأدخلت في القرآن ما لم يُثبته آبنُ مسعود، وشرِكْتُ آبنَ مُلجَمَ وأسْعَدته في صَدَاق قَطَام(٩)، وبرئت من

---

(١) هو عبيد الله بن زياد ابن أبيه. ومرجانة أمه. وعلى يده كانت الفاجعة بمقتل الحسين بن علي في كربلاء.

(٢) من كبار قتلة الحسين. وهو الذي آحتزَّ رأسه.

(٣) لإشارته على معاوية بتولية يزيد من بعده.

(٤) بعثه معاوية إلى الحجاز في عسكر فدخل المدينة وسفك بها الدماء، واستكره الناس على البيعة لمعاوية. وتوجه إلى اليمن بعد ذلك فوجد صبيين لعبيد الله بن عباس عاملِ عليّ على اليمن فقتلهما.

(٥) هو زواج المتعة. وهو عقد زواج منقطع ينتهي تلقائياً بانتهاء المدّة المحدّدة في العقد بين الطرفين. وهذا النوع من عقود الزواج كان موجوداً في عهد النبي ومن بعده إلى أن أبطله عمر بن الخطّاب.

(٦) الإشارة إلى نجدة بن عامر الحنفي الخارجي، رأس النجدات من الخوارج، حيث زاد في حدّ الخمر وغلَّظ فيه تغليظاً شديداً كما حكاه الشهرستاني عنهم.

(٧) الزيادة من الصبح.

(٨) وهم الخوارج الذين خالفوا علياً بعد قضية التحكيم بصفّين، وأقاموا بالنهروان من العراق لقتال عليّ، ورئيسهم يومئذ عبد الله بن وهب، فسار إليهم عليّ وكانوا أربعة آلاف فقتلوا عن آخرهم. وقيل: لم يبق منهم سوى تسعة أو سبعة تفرقوا في الأمصار. ولم يقتل من أصحاب عليّ سوى سبعة.

(٩) كانت قطام قد اشترطت على ابن ملجم حين خطبها ثلاثة آلافٍ وعبداً وقينةً وقتلَ علي بن أبي طالب.

محبَّة همْدان[1]، ولم أقل باشتراط العصمة في الإمام، ودخلت مع أهل النَّصب الطَّلام.»

الزَّيديَّة.

وأما الزَّيديَّة[2] فهم أقربُ القوم إلى القَصْد الأَمم[3]، وقولهم إن أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ أئمةُ عَدْل، وإن ولايتهما كانت لما تقتضيه المصلحةُ، مع أن عليًّا ـ رضي الله عنه ـ أفضلُ منهما، ويرَوْن جَوَازَ ولاية المفضول على الفاضل في بعض الأحيان لما تقتضيه المصلحةُ أو لخوف الفتنة. ولهذه الطائفة إمامٌ باقٍ إلى الآن باليمن. وصنعاءُ دارُه، وأمراءُ مكَّة المعظَّمة منهم.

وحدثني الشريفُ مبارك ابن الأمير عُطَيفة بن أبي نُمَيّ أنهم لا يدينون إلا بطاعة ذلك الإمام، ولا يرَوْن إلا أنهم نوَّابُه، وإنما يتوقَّون صاحبَ مصر لخوفهم منه وللإقطاع، وصاحبَ اليمن لمداراتهم لواصلِ الكارِم[4] ورسوم الأنعام. وكانت لهؤلاء دولة قديمة بطبرستان فزالت إلا هذه البقيّة.

وهؤلاء أيمانهم أيمانُ أهل السُّنَّة، ويُزاد فيها:

«... [وإلا برئت][5] من معتقد زيد [بن عليّ]، ورأيت أن قولي في الأذان: «حَيَّ على خير العمل» بِدْعة، وخلعت طاعة الإمام المعصوم الواجب الطَّاعة،

---

(١) وهي قبيلة همدان لمشايعتهم علياً ومحبتهم أهل البيت. ويروى عن عليّ أنه قال:

لو كنتُ بوَّاباً على باب جنَّةٍ ... لقلتُ لهَمْدانَ ادخلي بسلامِ

(٢) وهم القائلون بإمامة زيد بن علي بن الحسين السِّبط.

(٣) الأَمم: البيِّن من الأمور، والوسط.

(٤) المراد بالكارم البهار من فلفل وقرنفل ونحوهما مما كان يجلب من الهند عن طريق ثغور اليمن. وقد عرفت تجارة هذه المواد باسم فئة من التجار كان معظمهم من بلاد «الكانم» الإسلامية التي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربي، فنسبوا إلى أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى «الكارم»، ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة.

(التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٧٣).

(٥) في ط ق: «ويزاد فيه: والبراءة من معتقد زيد» وهو خطأ واضح.

وادّعيت أنّ المهديّ المنتظر ليس من ولد [الحسين][1] بن علي، وقلتُ بتفضيل الشيخين على أمير المؤمنين عليّ وبنيه، وطعنت في رأي ابنه الحسن على ما اقتضته المصلحة وطعنْت عليه فيه».

الدُّرزِيَّة

وأما غيرُ هؤلاء ممن يُحتاج إلى تحليفه، ويضمّه نطاقُ التَّصرُّف في لفيفه، فهم طائفةُ الدُّرزيَّة؛ وهـي بئسـت الطائفة الآمنة الخائفة؛ وشأنهم شأنُ النُّصيريَّة في استباحة فروج المحارم وسائر الفروج المحرَّمة، وهم أشدُّ كفراً ونفاقاً منهم، وأبعدُ من كلِّ خير، وأقرب إلى كلِّ شرّ. وانتماؤهم إلى أبي محمَّد الدُّرْزيّ؛ وكان من أهل موالاة الحاكم أبي عليّ المنصور بن العزيز خليفة مصر. وكانوا أولاً من الإسماعيلية، ثم خرجوا عن كلِّ ما تمحّلوه، وهدموا كلَّ ما أثَّلوه؛ وهم يقولون برَجْعة الحاكم، وأنَّ الألوهيَّة انتهت إليه وتديَّرت[2] ناسوته، وهو يغيب ويظهر بهيئته، ويقتل أعداءه قتل إبادةٍ لا مَعَاد بعده؛ وهم ينكرون المَعَاد من حيث هو، ويقولون نحو قول الطبائعيّة: إن الطبائعَ هي المولِّدة، [وإن] الموت بفناء الحرارة الغريزية كانطفاء السِّراج بفناء الزيت إلا من اعتُبِط[3]، ويقولون: دَهرٌ دائم، وعالم قائم؛ أرحامٌ تدفع، وأرضٌ تبلع.

وأصلُ هذه الطائفة هم الذين زادوا في البسملة أيام الحاكم فكتبوا: «بسم الحاكمِ اللهِ الرحمن الرحيم»، فلما أُنكر عليهم كتبوا: «بسم اللهِ الحاكمِ الرحمن الرحيم» فجعلوا في الأوّل «اللهَ» صفةً للحاكم، وفي الثاني العكس. ومن هؤلاء أهلُ كسروان[4] ومن جاورهم. وكان شيخُنا ابن تَيْميَّةَ - رحمه الله - يرى أنَّ قتالهم وقتالَ

(١) في ط ق «الحسن» وهو خطأ.

(٢) أي سكنت ناسوته. والناسوت هو العنصر الإنساني البشري مقابل اللاّهوت وهو العنصر الإلهي.

(٣) اعتُبط: مات بغير علّة.

(٤) كسروان في جبل لبنان.

النُّصيريّة أولى من قتال الأرمن؛ لأنهم عدوٌ في دار الإسلام، [وشرُّ بقائهم أضرُّ].

وهؤلاء أيمانُهم:

«إنني والله، وحقّ الحاكم، وما أعتقده في مولاي الحاكم، وما أعتقده أبو محمّد الدُّرزيُّ الحُجّة الواضحة، ورآه الدُّرْزيُّ مثل الشمس اللائحة، وإلاّ قلت إن مولاي الحاكم مات وبَلِي، وتفرّقت أوصاله وفني، وأعتقدت تبديل الأرض والسماء، وعوْد الرِّمم بعد الفناء، وتبعتُ كلَّ جاهل، وحظرْتُ على نفسي ما أُبيح لي، وعمِلتُ بيدي على ما فيه فسادُ بدني، وكفرت بالبيْعة المأخوذة، وألقيتها ورائي منبوذة.»

الطائفة الثانية: الخوارج.

وأما الخَوارج فهم الفرقةُ المباينةُ للسنَّة والشِّيعة؛ وهم الذين أنكروا التَّحكيم وقالوا: لا حُكمَ إلاّ للّه، وكفَّروا عليّاً رضي الله عنه ومعاوية وسائر مَنْ خالفهم ممن لم يَرَ رأيهم؛ وهم طوائف، ومنهم الآن الوَهْبيَّة.

وأيمانُهم أيمانُ أهلِ السنَّة، ويُزاد فيها:

«... وإلاّ أجزْت التَّحكم، وصوّبتُ قول الفريقين في صفّين، وأطعت بالرِّضا مني حُكمَ أهلِ الجَوْر، وقلت في كتاب الله بالتأويل، وأدخلت في الدِّين ما ليس منه، وقلت إنَّ إمارة بني أميّة عدلٌ، وإن قضاءهم حقٌّ، وإن عمرو بن العاص أصاب، وإن أبا موسى ما أخطأ، وآستبَحْتُ الأموالَ والفُروجَ بغير حقّ، وآجترَحْت الكبائر والصَّغائر، ولقيت اللّه مُثقلاً بالأوزار، وقلتُ إن فِعلةَ عبد الرحمن بن مُلْجَم كفرٌ، وإن قاتِلَ خارجة[1] آثم، وبرئت من فَعْلة قَطام، وخلعت طاعة الرؤوس، وأنكرتُ أن تكون الخلافةُ إلاّ في قريش، وإلا فلا روَّيت سيفي ورُمحي من دماء المخطئين».

---

(١) هو خارجة بن أبي حبيبة، صاحب شرطة عمرو بن العاص بمصر. قتله عمرو بن بكر الخارجيّ على ظنّ أنه عمرو بن العاص. وفي تاريخ الطبري: ٣/١٥٩: «خارجة بن حذافة».

الطائفة الثالثة: القَدَرِيّة[1].

ويمينُهم: «واللهِ واللهِ واللهِ العظيم، ذي الأمر الأُنُف، خالقِ الأفعالِ والمشيئة، وإلاّ قلت بأن العبدَ [غيرُ][2] مُكتسِب، وأن الجَعْد بن دِرْهم محتقِب[3]. وقلت إن هشام بن عبد الملك أصاب دماً حلالاً منه، وإن مروان بن محمد كان ضالاً في أتّباعه، وآمنت بالقدر خيره وشرّه، وقلت إن ما أصابني لم يكن ليخطئني، وما أخطأني لم يكن ليصيبني، ولم أقل إنه إذا كان أمرٌ قد فُرِغ منه ففيمَ أسدِّدُ وأُقارِب، ولم أطعن في رواة الحديث: «أعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خلِقَ له» ولم أتأوَّل معنى قوله تعالى: ﴿وإنَّهُ في أُمِّ الكتابِ لدينا لعَليٌّ حكيم﴾ [الزخرف: ٤]، وبرئت مما أعتقد، ولقيتُ اللّهَ وأنا أقول إن الأمرَ غيرُ أُنُف، وباللّه التوفيقُ والعِصْمة.»

د ـ في الأيمان التي يحلِّف بها الحُكماء[4]:

«إنني واللهِ واللهِ واللهِ العظيم، الذي لا إلهَ إلا هو، الواحدُ الأحد، الفردُ الصَّمد، الأبديّ، السَّرْمديّ، الأزليّ، الذي لم يزل عِلَّةَ العِلل، ربُّ الأرباب، ومدبِّر الكل، القدير القديم، الأوّل بلا بداية، والآخر بلا نهاية، المنزَّهُ أن يكون حادثاً أو

---

(١) وهم المعتزلة. وأصل تسميتهم بالمعتزلة أن واصل بن عطاء أحد أئمتهم كان يقرأ على الحسن البصري فاعتزله بمسألة خالفه فيها. وهم يسمّون أنفسهم أهل التوحيد والعدل. ومن أئمتهم المشهورين: أبو الهُذَيل العلاّف، وإبراهيم النظّام، وبشر بن المعتمر، ومعمر بن عبّاد، والجاحظ، وأبو علي الجبّائي وغيرهم. وعندهم أنه لا قَدَر سابقٌ بل الأمر أُنُف، وأن الله تعالى إنما يخلق الأفعال والمشيئة، والعبدُ هو المكتسب لأفعاله. والمعتزلة رأس تيّار نشيط في تاريخ الفكر الإسلامي وهو تيار المتكلمين الذين أرادوا الدفاع عن الإسلام في وجه أعدائه من المسلّحين بالفلسفة والمنطق.

(٢) ساقطة من ط ق. وهي ضروريّة.

(٣) محتقب: أي مرتكب للإثم. والجعد بن درهم هو أحد المقدّمين عندهم، اجتمع على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة، أيام ولايته على الجزيرة الفراتية في خلافة هشام. وأخذ عنه مروان مذهبه في القول بالقَدَر وخلق القرآن، وعلت رتبته عنده، وبه سمّي مروان المذكور بالجعديّ. ومن الخلفاء الذي اتبعوا مذهبهم المأمون العباسيّ، وفي عهده كانت المحنة المعروفة بمحنة «خلق القرآن» أيام الإمام أحمد بن حنبل.

(٤) أي الفلاسفة.

عَرَضاً للأحداث، الحيُّ الذي اتَّصف بصفات البقاء والسَّرْمديّة والكمال، والمتردِّي برداء الكبرياء والجلال، مدبِّر الأفلاك، ومُسيِّر الشُّهُب، مُفيض القُوى على الكواكب، وباثُّ الأرواح في الصُّور، مكوِّنُ الكائنات، ومنمِّي الحيوان والمعدن والنبات، . . . وإلا فلا رقيتْ روحي إلى مكانها، ولا اتَّصلتْ نفسي بعالمها، وبقيتُ في ظُلَم الجهالة وحُجُب الضَّلالة، وفارقتْ نفسي غير مرتسِمةٍ بالمعارف ولا مكمَّلةٍ بالعلم، وبقيت في عَوَز النَّقْص وتحت إمرةِ الغَيّ، وأخذتُ بنصيب من الشِّرك، وأنكرتُ المعَاد، وقلتُ بفناء الأرواح، ورضيتُ في هذا بمقالة أهل الطبيعة، ودُمتُ في قيد المركَّبات وشواغِل الحسّ، ولم أدرك الحقائقَ على ما هي عليه، . . وإلا فقلتُ إن الهيُولىٰ[1] غيرُ قابلةٍ لتركيب الأجسام، وأنكرت المادّةَ والصورة، وخرقتُ النَّواميس، وقلتُ إن التَّحسينَ والتَّقبيحَ إلى غير العقل، وخُلِّدتُ مع النَّفوس الشرِّيرة، ولم أجد سبيلاً إلى النجاة، وقلت: إن الإلٰهَ ليس فاعلاً بالذَّات، ولا عالماً بالكلِّيات، ودِنْتُ بأن النبوَّاتِ متناهيةٌ وأنها غيرُ كَسْبيَّة[2]، وجِدْتُ عن طرائق الحكماء، ونقضت تقريرَ القدماء، وخالفت الفلاسفة، ووافقت على إفساد الصُّور للعبث[3]، وحيَّزْتُ الربَّ في جهة، وأثبتُّ أنه جسمٌ، وجعلته فيما يدخل تحت الحدّ والماهيَّة، ورضيت بالتَّقليد في الألوهية».

---

(١) الهيولىٰ: لفظ يونانيّ بمعنى الأصل والمادة. وفي الاصطلاح الفلسفي هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال، محل للصورتين الجسمية والنوعية. والهيولى الكليّة هي الجسم المطلق الذي يحصل منه العالم الجسماني، أي الأفلاك والكواكب والأركان الأربعة: أي الماء والهواء والتراب والنار، والمواليد الثلاثة.

(انظر التعريفات للجرجاني: ٢٥٧ ؛ والكليّات للكفوي: ٥/٧٠).

(٢) حكى الصلاح الصفديّ في «شرح لاميّة العجم» أن السلطان صلاح الدين الأيوبي إنما قتل عمارة اليمنيّ الشاعر، حين قام فيمن قام بإحياء الدولة الفاطمية بعد انقراضها، مستنداً إلى بيتٍ نُسب إليه من قصيدة وهو قوله:

وكان مبدأُ هذا الدين من رجلٍ سعى فأصبح يُدعى سيِّدَ الأمم

وهو في هذا جعل النبوّة مكتسبة، وبالتالي فإنّ الأنبياء غير محدَّدين باختيار من الله.

(انظر ابن خلكان: ٣/٤٣٢).

(٣) كذا أيضاً في الصبح؛ ولعله: «إفساد العبث للصور».

القسم الرابع

(في الأمانات والدَّفن والهُدن والمواصَفات والمفاسخات)

أولاً: الأمانات

فأما الأماناتُ فهي أقواها دلالـةً على آشتداد سُلطانِ من كُتِبَ عنـه [الأمان] إذ كانَ يؤمِّنُ الخائفَ أمناً لا عِوَضَ عنه في عاجل ولا آجل. ويختلف الشأْن في ذلك، ويجمعُ المقاصِدَ أن يُكتب بعد البسملة:

«هذا أمَانُ اللَّه تعالىٰ، وأمانُ نبيّه سيِّدنا محمدٍ نبيِّ الرَّحمة ـ ﷺ ـ وأمانُنا لفلانِ آبن فلان الفلاني (ويذكر أشهرَ أسمائـه وتعريفَـه) على نفسه وأهله ومـاله، وجميـع أصحابه وأتباعه وكلِّ ما يتعلَّق به: من قليلٍ وكثير، وجليل وحقير، أماناً لا يبقىٰ معه خوفٌ ولا جَزَعٌ في أول أمره ولا آخره، ولا عاجله ولا آجله، يخصُّ ويعُمُّ، وتُصان به النفسُ والأهلُ والولدُ والمالُ وكلُّ ذاتِ اليَد. فليحضُرْ هو وبنوه، وأهلُه وذووه وأقربوه، وغِلمانُه وكلُّ حاشيته، وجميعُ ما يملكه من دانيته وقاصِيته، وليصِلْ بهم إلينـا، ويفِدْ على حضرتنا في ذِمام اللَّه وكلاءته وضَمان هذا الأمان، له ذمَّةُ اللَّه وذِمَّةُ رسوله ـ ﷺ ـ أن لا ينالَه مكروهٌ منا، ولا من أحدٍ من قِبَلِنا، ولا يُتعرَّض إليه بسُوءٍ ولا أذًى، ولا يُرَنَّقُ له موردٌ بقَذًى؛ وله منّا الإحسان، والصَّفاءُ بالقلب واللسان، والرعاية التي تؤمِّن سِرْبَه، وتهنِّيء شِرْبَه، ويطمئنُّ بها خاطِرُه، ويرفرف عليه كالسَّحاب لا يناله إلا ماطِرُه.

فليحضُر واثقاً باللَّه تعالىٰ وبهذا الأمان الشريف؛ وقد تلفَّظنا له به ليزدادَ وُثوقاً، ولا يجدَ بعدَه سُوءُ الظنّ إلى قلبـه طريقـاً؛ وسبيلُ كـل واقفٍ عليه إكـرامُه في حـال حضوره، وإجراؤه على أحسن ما عُهِد من أموره، وليكن له ولكل من يحضُر معه وما

يُحضر أوفرُ نصيب من الإكرام، وتبليغُ قُصارى القصد ونهاية المرام؛ والاعتمادُ على الخطِّ الشريف أعلاه»[1].

ثانياً: الدَّفن[2].

وهو وإن كان أقوى من هذا سبباً، وأسلَّ لما في الصُّدور، فإنه مؤخَّر عن رُتبته لقلة وقوعه عند الملوك، وبُعد طريقهم فيه عن جادّة السلوك. وهو كثيرٌ مُتداولٌ بين العُربان، ولا يطمئنّ خاطرُ المذنب منهم إلا به. وطريقتُهم فيه أن يجتمع أكابرُ قبيلة الذي يَدْفِن بحضور رجالٍ يثق بهم المدفونُ له، ويقوم منهم رجلٌ ثم يقول [للمجنيّ عليه][3]: نريد منك الدَّفْنَ لفلان، وهو مُقِرٌّ بما أهاجك عليه، ثم يعدِّد ذُنوبه التي أَخذ بها، ولا يُبقي منها بقيَّة. ويُقِرُّ الذي يَدفِنُ القائلَ على أنَّ هذا جملةُ ما نَقمه على المدفون له، ثم يحفُر بيده حفيرةً في الأرض ويقول: «قد ألقيتُ في هذه الحفيرة ذُنوبَ فلان التي نقمْتُها عليه، ودفنتُها له دفني لهذه الحفيرة». ثم يردُّ تراب الحفيرة إليها حتى يدفِنها بيده. ولم تجرِ للعرب عادةٌ بالكتابة في ذلك، بل يُكتفى في هذا بما كان بمحضر كبار الفريقين؛ ثم لو كانت دماءً أو قتلى عُفِّيت وعَفَتْ بها آثارُ الطلائب.

---

(١) وذُكرت صورة الأمان في «تثقيف التعريف» لابن ناظر الجيش بصيغة أخرى أخصر من هذه، وزاد فقال: ثم التاريخ والمستند والحسبلة. قال: ولا يكتب فيه «إن شاء الله» لأنها تقتضي الاستثناء فيما وقع من الأمان المذكور. قال القلقشندي: والتحقيق ما ذكره صاحب «موادّ البيان» وهو أن مقاصد الأمان تختلف باختلاف الأحوال؛ والذي يضبط إنما هو صورة الأمان؛ أما المقاصد فإن الكاتب يدخل في كل أمان ما يليق به مما يناسب الحال. ومن غرائب الأمانات ما حكاه محمد بن المكرّم في كتابه «تذكرة اللبيب» أن رسل صاحب اليمن وفدت على الأبواب السلطانية في عهد السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٠ هـ في شهر رمضان وسألوا السلطان في كتب أمان لصاحب اليمن وأن يُكتب على صدره: «صورة أمان له ولأولاده» فكتب له ذلك وشملته العلامة السلطانية وعلامة ولده وليّ العهد الملك الصالح علي؛ وأعلمهم السلطان أن هذا مما لم تجر به عادة، وإنما أجابهم إلى ذلك إكراماً لمخدومهم وموافقة لغرضه واقتراحه. (انظر صبح الأعشى: ١٣/ ٣٤٥ وما بعدها).

(٢) والمراد به دَفنُ ذنوب من يكتب له حتى لم تُرَ بعد.
(صبح الأعشى: ١٣/ ٣٥٢)

فأما إذا كانت من الملوك كُتب بعد البسملة:

«هذا دفنٌ لذنوب فلان، من الآن لا تُذكر ولا يُطالب بها، ولا يؤاخذ بسببها، اقتضته المَراحِم الشريفة السلطانية الملكية الفلانية ـ ضاعف اللّه حسَناتها وإحسانَها: وهي ما بدا من الذنوب لفلان من الجرائم التي ارتكبها، والعظائم التي احتقبها، وحصل العفو الشريف عن زَلَلها، وقابل الإحسانُ العميم بالتغمُّد سُوءَ عملها؛ وهي كذا وكذا (وتُذكر) دَفْناً لم تبقَ معه مؤاخذةٌ بسبب من الأسباب، ومات به الحقد وهِيل عليه التراب، ولم يبقَ معه لمطالبٍ بشيء منه مطمع، ولا في إحيائه رجاء ـ وفي غير [ما وَارَتِ][(١)] الأرضُ فَاطمَعْ ـ وتصدَّق بها سيدُنا ومولانا السلطانُ الأعظم (ويذكر ألقابه واسْمه) ـ تَقَبَّل اللّه صَدقته ـ وعفا عنها، وقطع الرجاءَ باليأس منها، وأبطل منها كلَّ حقّ يُطلب، وصفح منها عن كل ذنب كان به يُسْتَذنب، ودفنها تحت قدمه، ونسيها في علم كرمه، وخلّاها نَسْياً مَنْسياً لا تُذكر في خِفارة ذِمَمه، وجعله بها مقيماً في أمن اللّه إلى أن يبعث اللّه خلقه، ويتقاضى كما يشاء حقّه، لا يُعقّب في هذا الأمان معقّب[(٢)]، ولا ينتهي إلى أمدٍ له نظر مترقّب، لا يُنْبَشُ هذا الدَّفين، ولا يوقف له على أثر في اليوم ولا بعد حين، ولا يُخشى فيه صبر مصابر، ولا يقال فيه إلّا: وَهَبْها كشيءٍ لم يكن أو كنازحٍ به الدارُ أو من غَيَّبته المقابر.

ورُسم بالأمر الشريف العالي، المولويّ، السلطانيّ، الملكيّ، الفلانيّ، أعلاه اللّه وشرَّفه، وغفر به لكل مُذنِبٍ ما أسلفه، أنْ يُكتب له هذا الكتاب بما عُفيَ له عنه وحفر له ودفن، وأصبح بعمله غير مرتهن، ودُفن له فيه دفْنَ العرب، وقطع في التَّذكُّر له [أَرَبُ كلِّ ذي أَرب][(٣)]، ودُرس في القبور الدَّوَارِس، وغُيِّب مكانه فيما طُمر في الليالي الدَّوامِس.

وسبيلُ كل واقفٍ على هذا الكتاب ـ وهو الحُجَّة على من وقف عليه، أو بلغه

---

(١) في ط ق «من وارث» وهو خطأ.

(٢) في صبح الأعشى: «لا يتعقّب ـ متعقّب».

(٣) في ط ق «أدبُ كل أدب». وما أثبتناه من صبح الأعشى.

خَبَرُه، أو سمعه، أو وضح له أثَرُه ـ أن يتناسى هذه الوقائع، ويتَّخذها فيما تضمَّنته الأرضُ من الودائع، ولا يذكر منها إلا ما آقتضاه حِلمنا الذي يُؤْمَنُ معه التَّلف، وعفوُنا الذي شمل وعفا اللّه عما سلف».

ثالثاً: الهُدَن

أما الهُدَن فآعلم أنها تكون بين ملكين؛ وأكثر ما تكون من ملك الإسلام لملك كافر؛ وتكون إلى [أجل][1] معلوم يُهادِن بها أحدُهما الآخرَ على نفسه، وعساكره، وبلاده، ورعاياه، وما يدخل في دائرته، وينضوي إلى سائرته. أو على شيء يقرِّره له على ذلك، وإما لا على شيء.

فأما إذا كان من الجانبين فتلك مُواصَفَة[2]؛ وسيأتي، فآعلم ذلك.

فأما الهُدنة فسبيل الكتابة فيها بعد البسملة:

«هذا ما هادَن عليه، وأجَّل إليه، مولانا السلطان فلان ـ خلَّد اللّه سلطانه، وشرَّف به زمانه ـ الملك فلان الفلانيّ: هادنه حين تردَّدت إليه رسُلُه، وتوالت عليه كُتُبه، وأمَّله ليمهله، وسأله ليكفَّ عنه أَسَلَه، حين أبت صِفاحُه أن تصفح، وسماءُ عَجاجه بالدماء إلا أن تَسْفَح؛ فرأى ـ سدَّد اللّه آراءه ـ أن الصُّلح أصْلَح، وأن معاملة اللّهِ أرْبَح، وهادن هذا الملكَ (ويسمِّيه) على نفسه وأهله، وولده ونَسْله، وجميع بلاده، وكلِ طارفه وتِلاده، ومالَهُ من ملكٍ ومال، وجِهاتٍ وأعمال، وعسكر وجنود، وجموع وحشود، ورعايا في مملكته من المقيم والطارىء، والسائر بها والسّاري، هدنةً مُدَّتُها لأوّل تاريخ هذه الساعة الراهنة وما يتلوها مدَّةَ كذا وكذا (ولهم عادة أن

---

(١) في ط ق «رحل» وهو خطأ.

(٢) سمِّيت بذلك لأن الكاتب يصف ما وقع عليه الصلح من الجانبين. على أن الكتّاب يخصّون لفظ المواصفة بما إذا كانت المهادنة من الجانبين. ولا شك أن ذلك جارٍ في لفظ المُوادعة والمسالمة والمقاضاة أيضاً: لأن «المفاعلة» لا تكون إلا بين اثنين، إلا في ألفاظ قليلة محفوظة على ما هو مقرر في علم العربية. أما لفظ الهدنة فإنه يصدق أن يكون من جانب واحد، بأن يعقد الأعلى الهدنة لمن هو دونه. على أنها عند التحقيق ترجع إلى معنى المفاعلة، إذ لا تكون إلا بين اثنين.

يحسبوها مدة سنين شمسية فيحرِّر [الكاتب] حسابها بالقمرية ويذكر سنينَ وأشهراً وأياماً وساعاتٍ حتى يستكمل السنين الشمسية المهادن عليها) يحمل فيها هذا الملك فلان إلى بيت مال المسلمين، وإلى تحت يد مولانا السلطان فلان قسيم أمير المؤمنين، في هذه المدّة (ويذكر المقرَّر ويحرِّر، ثم يقول:) يقوم به هذا الملك من ماله، ومما يتكفّل بجبايته من جزية أهل بلاده وخراج أعماله، يقوم به (ثم يذكر أقساطه) قياماً لا يُحْوِجُ معه إلى تكلُّف مُطالبَه، ولا إلى تناوله بيد مُغالبَه.

على أن يكُفَّ مولانا السلطان عنه بأسَ بأسائه، وخيْلَه المطلَّةَ عليه في صباحه ومسائه، ويضمَّ عن بلاده أطراف جنوده وعساكره وأتباعهم، ويؤمِّنه من سطائهم وسراعهم، ويمنع عن بلاد هذا الملك المتاخمة لبلاده، والمزاحمة لدَوافق أمداده، ويردَّ عنها وعما[1] جاورها من بقيَّة ما في مملكته، وهي كذا وكذا (وتُذكر) أيدي[2] النهب، ويكفَّ الغارات ويمنع الأذى، ويردَّ مَنْ نزح من رعايا هذا الملك إليه ـ ما لم يدخل في دين الإسلام وشهد الشهادتين ويقرّ بالكلمتين المعتادتين ـ ويؤمِّن جلاَّبةَ هذا الملك وتجّاره والمتردِّدين من بلاده إلى بلاد الإسلام في عوارض الأشغال. ولا يحصل عليهم ضررٌ في نفس ولا مال؛ وإن أخذت المتجرِّمةُ لهم مالاً أو قتلت منهم أحداً أمر بإنصافهم من ذلك المتجرِّم، وأن يؤخذ بحقِّهم من ذلك المجرم. وعليه مثلُ ذلك فيمن يدخل إليه من بلاد الإسلام، وأن لا يفسح لنفسه ولا لأحد من جميع أهل بلاده في إيواء مسلم متنصِّر، ولا يرخِّص لذي غمًى منهم ولا متبصِّر. وإنه كلما وردت عليه كتبُ مولانا السلطان فلان، أو كتبُ نوّابه، أو أحد من المتعلِّقين بأسبابه، يسارع إلى امتثاله والعمل به في وقته الحاضر ولا يؤخِّره ولا يمهله، ولا يطرحه ولا يهمله.

وعليه أن لا يكون عوناً[3] للكفّار، على بلاد الإسلام وإن دنت به أو بعدت

---

(١) في الصبح «وعمّن».

(٢) مفعول به لفعل «يردّ» المتقدّم.

(٣) في الصبح «عيناً». وكلاهما يصحّ في المقام.

الدّار، ولا يواطيء على مولانا السلطان فلان أعداءه وأوّلهم التتار[1]، وأن يلتزمَ ما يلزمه من المُسْكَة بالمسْكَنة. ويفعل ما تسكت عنه به الأسنّة وما أشبهها من الألسنة؛ وعليه أن يُنهيَ ما يتجدّد عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهل ملّته. وينبّه على سوء مقاصدهم، ويعرِّف ما يهمُّ سماعُه من أحوال ما هم عليه.

هذه هدنةٌ تمّ عليها الصلح إلى منتهى الأجل المعيَّن فيه ما آستمسك بشروطها، وقام بحقوقها، ووقف عند حدها الملتزم به، وصَرَف إليها عنان آجتهاده، وبنى عليها قواعد وفائه، وصان من التكدير فيها سرائر صفائه. سأل هو في هذه الهدنة المقرَّرة، وأجابه مولانا السلطان إليها على شُروطها المحرَّرة، وشهد به الحضورُ في المملكتين وتضمَّنته هذه الهدنة المسطَّرة. وبالله التوفيق». (ويؤرَّخ بالعربي والسّرياني).

أما المواصَفات: فهي ما يقرّر بين ملكين على تقرير من الجانبين ـ كما تقدَّمت الإشارةُ إليه. وسبيلُ الكتابة فيها بعد البَسْملة:

«هذه هدنة آستقرَّتْ بين السلطان فلان والسلطان فلان: هادن كلُّ واحد منهما الآخرَ على الوفاء عليه، وأجّل له أجلاً ينتهي إليه، لما آقتضته المصلحةُ الجامعة، وحُسمت به موادُّ الآمال الطامعة. تأكّدت بينهما أسبابُها، وفتحت بهما أبوابها، وعليهما عهدُ الله على الوفاء بشرطها والانتهاء إلى أمَدِها، ومدّ حبل الموادَعة إلى آخر مُدَدِها، ضربا لها أجلاً أوّلُه ساعةُ تاريخه وإلى نهاية المدة، وهي مدة كذا (ويذكر نحو ما تقدم)؛ على أن كل واحدٍ منهما يُغمِدُ بينه وبين صاحبه سيفَ الحرب، ويُكفُّ ما بينهما من السِّهام الراشقة، وتُعقل الرماح الخطّارة[2]، وتُقرّ على مرابطها الخيل

---

(1) قال القلقشندي: «الظاهر أنه كان يكتب بهذه النسخة عن صاحب الديار المصرية والممالك الشامية لمتملّك «سيس» لأن متملّك «سيس» ـ وهي بلاد الأرمن ـ كان يمالىء التتار ويميل إليهم ويساعدهم في حرب المسلمين.

(2) رمح خطّار: ذو اهتزاز شديد. وخطران الرمح: ارتفاعه وانخفاضه للطعن.

المغيرة؛ وبلادُ السلطان فلان كذا وكذا، وبلاد السلطان فلان كذا وكذا، ومن في مملكة كل منهما من الثغور والأطراف والموانئ والرساتيق[1] والجهات والأعمال: برّاً وبحراً، وسهلاً وجبلاً، ونائياً ودانياً، ومن فيها: من ملوكها المسمّى وبنيه، وأهله وأمواله، وجنده وعساكره، وخاصّ ما يتعلق به وسائر رعيته على اختلاف أنواعهم، وعلى أنفرادهم واجتماعهم، البادي والحاضر، والمقيم والسائر، والتُّجّار والسَّفّارة، وجميع المترددين من سائر الناس أجمعين؛ على أن يكون على فلان كذا، وعلى فلان كذا (ويعيّن ما يعيّن من مال أو بلاد أو مساعدة في حرب أو غير ذلك) يقوم بذلك لصاحبه، وينهض من حقّه المقرَّر بواجبه؛ وعليهما الوفاء المؤكَّدُ المواثيق، والمحافظة على العهد والتمسُّك بسببه الوثيق، هدنةً صحيحة صريحة، نطقا بها، وتصادقا عليها، وعلى ما تضمّنته المواصفة المستوعبة بينهما فيها، وأشهدا الله عليهما بمضمونها، وتواثقا على ديونها، وشَهِدَ من حضر مقام كلٍّ منهما على هذه الهدنة وما تَضَمَّنَتْه من المواصفة، وجرت بينهما على حكم المناصفة، رأيا فيها سكون الجماح، وغضّ طَرْف الطِّماح؛ وعلى أنَّ على كلٍّ منهما رعاية ما جاوره من البلاد والرعيَّة، وحملهم في قضاياهم على الوجوه الشرعيَّة؛ ومنْ نزح من إحدى المملكتين إلى الأخرى أُعيد، وما أُخذ منها باليد الغاصبة آستُعيد؛ وبهذا تمّ الإشهاد، وقرىء على المسامع وعلى رؤوس الأشهاد».

رابعاً: المُفاسَخات

وهي نوعان: فَسْخٌ ومفاسَخة.

فالفَسْخُ: ما وقع من أحد الجانبين، فيه نَقْضُ عهدٍ حصلت المواثقة عليه؛ وقلّ أن يكون في هذا إلا ما يُبعث به على ألْسِنة الرُّسل. وقد كتب عمي الصَّاحِبُ شرف

---

(1) الرزداق والرستاق: كل موضع فيه مزدرع وقرى؛ ولا يقال ذلك للمدن.

الدين أبو محمد عبد الوهاب[١] ـ رحمه اللّه ـ سنة دخول العساكر الإسلامية مَلَطْية[٢] سنة أربع عشرة وسبعمائة فسْخاً على «التَّكْفُور»[٣] متملّك «سيس» كان سبباً لأن زاد قطيعته.

والذي أقول فيه: إنه إن كُتب فيه، كُتب بعد البسملة:

«هذا ما آستخار اللّه تعالى فيه فلانٌ، آستخارةً تبيَّن[٤] له فيها غَدْرُ الغادر، وأظهر له بها سِرَّ الباطن ما[٥] حقَّقه الظاهر؛ فسخ فيها على فلان ما كان بينه وبينه من المَهادنة التي كان آخرُ الوقت الفلاني آخرَ مدَّتها، وطهَّر السيوفَ الذُّكور[٦] فيها من الدماءِ إلى آنقضاء عدَّتها، وذلك حين بدا منه من موجبات النَّقْض، وحل المعاهدة[٧] التي كانت يُشَدُّ بعضُها ببعض، وهي كذا وكذا (وتُذكر وتعدّ) مما يوجبُ كلُّ ذلك إخْفار الذمّة، ونقْض العهود المرعيَّة الحرمة، وهدّ قواعد الهدنة، وتخْلية ما كان قد أُمسك من الأعِنَّة. كتب [إنذاراً، وقدَّم حذاراً][٨]؛ وممن[٩] يشهد بوجوب هذا الفسخ، ودخول ملة تلك الهدنة في حكم النَّسخ، ما تشهد به الأيام، ويحكم به عليه[١٠] النصرُ المكتتب للإسلام. وكُتب هذا الفسخُ عن فلان لفلان وقد نَبَذ إليه عهدَه،

---

(١) خدم الملك الأشرف، والملك الناصر، وسيف الدين تنكز؛ ونقله الملك الناصر إلى كتابة السّر في دمشق فتوفي فيها سنة ٧١٧ هـ. كان إماماً في كتابة الإنشاء عارفاً بتدبير الممالك.
(النجوم الزاهرة: ٩/ ٢٤٠ والدرر الكامنة: ٢/ ٤٢٨).

(٢) مدينة في تركيا. سماها الروم «ميليتين». وكانت من أجلّ الثغور الإسلامية أمام الروم؛ وهي إلى الجنوب من سيواس.

(٣) التكفور لفظ أجنبي معناه: المتوّج، أطلقه الأرمن على ملوكهم.

(٤) في ط ق «بين». وما أثبتناه من الصبح.

(٥) في ط ق «ما».

(٦) سيف ذكر: قويّ قاطع.

(٧) في الصبح: «المعاقدة».

(٨) في ط ق «كتب للإنذار، وقدّم والحذار» وما أثبتناه من الصبح.

(٩) كذا في ط ق وفي الصبح. ولعل الصواب: «ومما».

(١٠) في ط ق «غلبة».

وأنفذ إليه سهمه وأنجز وعْده[1]، بعد أن صبر مَليّاً على مسالاته ، وأقام مدّة يداوي مرض وفائه ولا ينجع فيه شيءٌ من مُداواته؛ ولينصرنَ اللّه من ينصُره، ويحذر من بأس مكره من يحذرُه.

وأمر فلان بأن يُقرأ هذا الكتاب على رؤوس الأشهاد، ليُنقل مضمونُه إلى البلاد، أنفةً من أمر لا يتأدّى به الإعلان، وينصب به لهذا الغادر لواء لا يقال [إذ يقال][2]: هذا اللواء لغدْرة فلان [بن فلان][2].

وأما المفاسخة: فتكون من الجهتين؛ وصورةُ ما يُكتب فيها:

«هذا ما آختاره فلانٌ وفلانٌ من فسْخ ما كان بينهما من المهادنة التي هي إلى آخر مدة كذا: آختارا فسْخ بنائها، ونسْخ أنبائها، ونقْض ما أُبرم من عقودها، وأُكِّد من عهودها. جرت بينهما على رِضًى من كلٍّ منهما بإيقاد نار الحرب التي كانت أُطفئت، وإثارة تلك الثَّوائر التي كانت كُفيت. نبذاه على سَواءٍ بينهما، وأعتقادٍ من كل منهما، أنَّ المصلحة في هذا لجهته، وأسقط ما يحمله للآخر من رِبْقته، ورضيَ فيه بقضاء السيوف، وإمضاء أمر القَدر والقضاء في مُساقاة الحتوف؛ وقد أشهدا عليهما بذلك اللّه وخَلْقه ومنْ حضر، ومن سمع ونظر؛ وكان ذلك في تاريخ كذا؛ واللّه الموفق والهادي إلى طريق الحقّ».

---

(١) عبارة الصبح: «... وأنجز وعده، وأنفذ إليه سهمه بعد أن صبر ملياً على مسالاته».

(٢) الزيادة من صبح الأعشى.

(في نِطاق كلِّ مملكة وما هو مُضافٌ إليها من المدن والقلاع والرَّساتيق)

أمّا نِطاقُ كلِّ مملكة، فسأذكر مملكة الإسلام، وما تجري فيه لكُتّابها الأقلام؛ وأبتدئُ بالقاهرة التي هي اليوم أمّ الممالك وحاضرة البلاد؛ وهي في وقتنا دارُ الخلافة وكرسيُّ الملك، ومنبع العلماء ومحطُّ الرِّحال، وتبعها كلُّ شرق وغرب، وبُعْدٍ وقُرب، خلا الهند: فإنه نائي المكان، بعيدُ المدى، يقع إلينا من أخباره ما نُكْبِره، ونسمع من حديثه ما لا نألفه.

وكان يحقُّ لنا أن نجعل كلَّ النُّطْقِ بالقاهرة دائراً، وإنما نفردها بما آشتملت عليه حدودُ الديار المصرية، ثم ندير بأمّ كل مملكة نِطاقها، ثم إليها مرجع الكلِّ، وإلى بحرها مصبُّ تلك الخُلُج.

[أولاً: في ذكر مملكة الديار المصرية]

ومصرُ يشتمل عليها أربعةُ حدود:

ـ فأما الحدُّ القِبليّ[1] فينتهي من ضفّة القُلْزُم حيث عيذاب على بلاد الحَدَاربة[2]، إلى الروم من بلاد النوبة خلف الجنادِل التي على مصبِّ النيل، إلى جبال المعدن، إلى صحراء الحبشة.

---

(١) أي الجنوبي.

(٢) في ط ق وفي صبح الأعشى «الحدارية» بالياء المثناة. وصوابه: الحداربة، بالباء الموحدة. وهم بطن من العرب بسواكن من بلاد البجاة. وسواكن بلد مشهور على سواحل بحر الحجاز قرب عيذاب (معجم قبائل العرب: ١/٢٤٩).

وأما الحدُّ الشرقيّ فينتهي إلى بحر القُلزم؛ وغالب ما بينه وبين مجرى النيل مُنقَطَعُ رمال ومحاجر وجبال؛ ويسمّى ما ساحل البحر في هذا الحدّ: برّ العجم، ثم يتسع من حيث السُّويس وما أخذ شرقاً عن بركة الغُرُنْدُل[1] التي أغرق الله فيها فرعون فينتهي الحدُّ إلى تيه بني إسرائيل[2] حتى يقع على أطراف الشام.

وأما الحدُّ [الشَّماليّ][3] وتسمّيه أهل مصر: البحريّ فما بين الزَّعْقة ورفح حيث الشجرتان؛ وما إخال اليوم بقاء الشجرتين[4]، وإنما هما موضع الشجرة التي تُعلَّق فيها العوامُّ الخِرق، وتقول هذه مفاتيح الرمل، وهي حيث الكُتُب المجنبة عن البحر الشامي قريباً من الزَّعْقة. فأما الأشجار التي بالمكان المعروف الآن بالخرُّوبة[5]، ويُعرف قديماً بالعُشّ ـ وقد بُنِيَ بها خان سبيل، وعملت ساقية يجري منها الماء إلى حوض تستقي منه المارَّةُ والحُلَّال ـ فهي وإن عظمت محدثة عن زمان من حدّد الأقاليم وليست في موقع ما ذكروه. ثم يأخذ هذا الحدُّ مُساجلاً مع البحر الشامي.

وأما الحدُّ الغربيّ فآخره في العمارةِ معمُورُ الإسكندرية، آخذاً على الليونة إلى العميدين، إلى العقبة، وهو آخر حدّ مصر؛ ثم يعطف الحدُّ على الواحات مقتبلاً على الصعيد حتى يقع على الحدّ القبليّ[6].

---

(١) قال القلقشندي في كلامه على بحر القلزم ـ وهو البحر الأحمر ـ إنه يمتد حتى ينتهي إلى القصير، فُرْضة قوص؛ ثم يتسع في جهتي الجنوب والشرق حتى يكون اتساعه تسعين ميلاً، وتسمّى تلك القطعة المتّسعة: بركة الغرندل.
(صبح الأعشى: ٣/٢٤٠)

(٢) هو الموضع الذي ضلَّ فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه. وهي أرض بين أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال الشراة من أرض الشام.
(معجم البلدان: ٢/٦٩ ؛ والروض المعطار: ١٤٧).

(٣) في ط ق «الشاميّ» وهو خطأ.

(٤) قال ياقوت: هما شجرتان كانتا بين رفح والعريش.

(٥) في معجم البلدان: الخروبة: حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا.

(٦) على هذا النحو تقريباً جرى تعيين حدود مصر في صبح الأعشى للقلقشندي وفي تقويم البلدان للسلطان

[في ذكر كُوَرها]

وهذا أوانُ ذكر النِّطاق فنقول: لمصر وجهان: قبليّ وبحريّ.

الوجه القِبليّ

هو أجلُّهما قدراً، وأطولهما مَدًى، وأكثرهما جَدًى؛ وهو:

١ - **بلاد الجيزة**[١]: وهي أقربُها إلى القاهرة غربيّ النيل. ويقع قبالة القبليّ منها بلاد إتْفِيح[٢].

٢ - **بلاد إتْفِيح**: شرقيّ النيل في برّ القاهرة، تصاقب بركة الحَبَش[٣] وبساتين الوزير[٤].

= عماد الدين صاحب حماه. إلا أنه في «تقويم البلدان» جعل ابتداء الحدّ الشمالي نفس رفح، ونهاية الحد الغربي حدود بلاد النوبة.

قال في الصبح: وقد خالف في ذلك القضاعيّ فجعل الحدَّ الشمالي من العريش وجعل الحدُّ الجنوبي يقطع بحر القلزم وينتهي إلى ساحل الحجاز بالحوراء: أحدِ منازل طريق الحجاز من مصر. والحد الشرقي يمتد على ساحل البحر الشرقي إلى مدّين إلى أيلة إلى تيه بني إسرائيل إلى العريش؛ فأدخل بحر القلزم - من حدّ الحوراء إلى نهايته في الشمال، وما على ساحله من برّ الحجاز مما يسامت العريش - في أرض مصر.

قال: وفيه نظر! والظاهر ما تقدّم: لأن البر الشرقي من القلزم معدود من ساحل الحجاز من جملة جزيرة العرب، وهي ناحية على انفرادها؛ وكأن الذي حمل القضاعيّ على ذلك مسامتة هذا الساحل لحدّها بساحل البحر الرومي.

قال: واعلم أن جميع المحدّدين لها - وإن اختلفت عباراتهم في ابتداء الحدّ الشمالي الفاصل بينها وبين الشام، هل هو من العريش أم من رفح، أو بين الزعقة ورفح - متفقون على أن ابتداء الحدّ حيث الشجرتان؛ وكأنهما شجرتان قديمتان حدّد في الأصل بهما.

(١) مدينة الجيزة اختطها عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ؛ وقيل: فرغ منها سنة ٢٢ هـ. وفي سبب بنائها رواية طويلة ذكرها ابن دقماق في «الانتصار».
(الانتصار: ٤/ ١٢٥ - ١٢٦).

(٢) يقال: إتفيح وإطفيح، بالتاء المثناة والطاء.

(٣) كانت تُعرف قديماً ببركة المعافر وحمير، وتعرف بإسطبل فاش، وكانت في ملك محمد بن علي المادرائي وزير آل طولون بجميع ما تشتمل عليه من المزارع والجنائن. وتسميتها نسبة إلى قتادة بن قيس بن حبشي الصدفي الذي شهد فتح مصر.
(الانتصار: ٤/ ٥٥).

(٤) منسوبة إلى الوزير أبي الفرج يعقوب بن كلّس وزير العزيز بالله؛ ويقال إنها منسوبة إلى الوزير محمد بن =

٣ ـ بلاد البَهْنسا: وهي مما يلي الجيزة مقتبلاً في برّها[١].

٤ ـ بلاد الفَيُوم: تصاقب البَهْنَسا من غربها، وبينهما منقطعُ رمل. والفَيّوم هو الذي يجري بحرُه[٢] دائماً مستمراً؛ وينقسم به الماء في مقاسيم مثل دمشق؛ ولا يعرفون قسمة الماء إلا بالقصبات.

٥ ـ بلاد الأُشْمونَيْن[٣] والطَّحاويَّة: وتلي البَهْنَسا من جنوبيه.

٦ ـ بلاد مَنفَلُوط: وتلي بلاد الأشمونَيْن من جهة الجنوب.

٧ ـ بلاد أُسْيُوط:[٤] جنوبي بلاد منفلوط.

= علي المادراني، وقيل إنها منسوبة إلى الوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة وزير كافور الإخشيدي. وهي سبعة بساتين كانت من عند مقابر النصارى إلى البحر. وقيل كان بها مكان يسمّى العروسة

(الانتصار: ٤/٥٧).

(١) أي الجهة الجنوبية.

(٢) المراد هنا بحيرة الفيّوم، وهي بركة قارون. وهي بركة تصب فيها المياه بشكل مستمر وليس لها مصرف تتصرّف إليه لإحاطة الجبال بها، ولذلك غلبت على كثير من قرى الفيّوم وعلا ماؤها على أرضها.

(صبح الأعشى: ٣/٣٣٧، ٤٥١)

(٣) في معجم البلدان: «أشمون»، وأهل مصر يقولون: الأشمونين. والاسم «أشمونين» ـ بصيغة المثنى ـ يطابق الاسم المصري القديم: «خمونو» والاسم القبطي: «شمون». وأُطلق اليونان والرومان عليها اسم: «هرمو بوليس ماجنا».

(معجم البلدان: ١/٢٠٠، ودائرة المعارف الإسلامية: ٣/٤٤١)

(٤) ضبطها السمعاني في «كتاب الأنساب» والفيروزابادي في «القاموس» بضمّ الألف. وضبطها ياقوت بالفتح. وذكرها الحميري في «الروض المعطار» في حرف الهمزة؛ أما ابن دقماق في «الانتصار» فقد حذف الهمزة وقال: «سيوط» و «الأعمال السيوطية». ووقعت كذلك في شعر ابن الساعاتي بغير ألف في قوله:

لِلَّهِ يومٌ في سُيُوطَ وليلةٌ   عمرُ الزمانِ بمثلها لا يغلَطُ

قال القلقشندي: «وإثبات الألف فيها هو الجاري على ألسنة العامة بالديار المصرية، والثابت في الدواوين حذفها».

٨ ـ **بلاد إخميم**[١]: وهي مصاقبةٌ لعمل أسيوط في جنوبيه. وإخميم شرقيّ النيل؛ ويقارب دِمْنتها البَرابي[٢] المشهورةُ في البلاد، المضروبُ بها المثلُ على الألسنة. وهي وإن كانت شرقيّ النيل فكل بلادها ومزارعها غربيّ النيل.

٩ ـ **بلاد قُوص**: وقُوص أيضاً شرقيّ النيل؛ وهناك جلُّ العمارة وموضع الحَرْث والزرع. وفي غربيّ النيل قبالَتها البلادُ المعروفة بغرب قَمُولا[٣]، وهي من مضافات قوص وبلادها؛ ثم أُسْوان[٤] وهو من عمل قُوص، وواليه نائب عنه؛ ويُخرج مما بين قُوص وأسوان إلى صحراء عَيْذاب حتى ينتهي إلى عَيْذاب، وهي قرية حاضرة البحر، ومنها يعدَّىٰ إلى جُدّة، ويكون بها جندٌ من قُوص؛ وواليها ـ وإن كان من قِبَل السلطان ـ فإنه نائب[٥] لوالي قُوص؛ ووالي قوص أعظمُ ولاة مصر وأجلُّهم.

---

(١) ضبطها في تقويم البلدان ومعجم البلدان ومعجم ما استعجم: بكسر الهمزة في أولها. وفي دائرة المعارف الإسلامية: أخميم، بالفتح، كانت تعرف عند قدماء المصريين باسم «أبو» أو «ختني ميز» ومنها اشتق اسمها القبطيّ: «شمين». وكان اليونان يطلقون عليها اسم: «رخمّس أو بانوپوليس».

(٢) البرابي: جمع برباة أو بَرْبا. وهو أسم أطلقه المصريون على جميع المعابد والآثار القديمة. وهذا القول الذي قال به ابن جبير يؤيده ياقوت إذ يقول: «بَرْبا كلمة قبطية، وهي اسم للبناء المحكم القديم الذي كان يقام في الأيام الوثنية وكان يستعمل موضعاً للسحر. ويستعمل سفروس الأشموني ـ المؤرخ النصراني لبطاركة الإسكندرية ـ كلمة «بربا» بمعنى محدد وهو المعبد الوثني تمييزاً له من العمائر المقامة للعبادة المسيحية. والكلمة العربية «بربا» هي رواية في رسم الكلمة القبطية «بربيه» أي المعبد، واستعمالها أكسبها الجمع الفصيح أي «برابي».

قال القلقشندي: «واعلم أن أكثر البرابي بالوجه القبليّ من الديار المصرية، وبالوجه البحري القليل منها، وقد استولى الخراب على جميعها، وذهبت معالمها ولم يبق إلا آثارها. والذي وقفت عليه في التواريخ ووقفت على آثار غالبه ورسومه سبع بَرَابٍ وهي: بربا سَمَنُّود بظاهر سمنّود من الأعمال الغربية بالوجه البحري؛ وبربا تُمَيّ بالمرتاحيَّة من الوجه البحري على القرب من مدينة تُميّ الخراب؛ وبربا إخميم بظاهر مدينة إخميم: وهي أعظم البرابي وأحسنها صنعة، ولم تزل عامرة إلى أواسط المائة الثامنة؛ وبربا دَنْدَرَة من الأعمال القوصيّة؛ وبربا الأقْصُر؛ وبربا أُرْمَنْت؛ وبربا إسنا».

(انظر دائرة المعارف الإسلامية: ٦/٥٦٤؛ وصبح الأعشى: ٣/٣٢٣)

(٣) كذا في ط ق. وفي معجم البلدان والانتصار: «قَمُولة»

(٤) ضبطه السمعاني بفتح الهمزة وسكون السين المهملة؛ أما ابن خلكان فضبطه بضم الهمزة وغلّط السمعاني في فتحها؛ وكذلك فعل ياقوت في معجم البلدان. والجاري على ألسنة العامة فتحها.

(٥) ذكر القلقشندي أن والي أسوان في أيامه قد أصبح مستقلاً بنفسه لا حكم لوالي قوص عليه.

هذه جملةُ الوجه القِبليّ؛ وفيه الصَّعيدان[1]: الأدنى والأعلى. فالأدنى هو كل ما سفل عن الأشمونَيْن إلى القاهرة، والأعلى هو كل ما علا عن الأشمونَيْن إلى أسوان. وغالب زرْعه ورفعه، وجلب قوته وحب ضَرْعه غربيّ النيل. وما يوجد شرقيّ النيل قليل، وهو تبع لا متبوع.

الوجه البحريّ

وهو كلُّ ما سفل عن الجيزة[2] إلى حيث مصبُّ النيل في البحر الشاميّ بدمياط ورشيد؛ وهو أعرضُ من الوجه القبليّ، وبه الإسكندرية وهي مدينة مصر العظمى.

فأما ما وقع منه شرقيَّ النيل في برّ القاهرة المتَّصل بها فأقربها منه: **الضَّواحي**[3]؛ وهي القرى التي أمرُها بيد والي القاهرة؛ ثم **قَلْيُوب**[4]؛ ثم **الشرقيّة**[5] ومدينتُها بُلْبَيْس[6].

وأما ما وقع [بين فرقتي النيل الشرقية والغربية][7] في هذا الوجه فأقربُها إلى

(١) سمّي صعيداً لأن أرضه كلما ولجت في الجنوب أخذت في الصعود والارتفاع.

(٢) في صبح الأعشى: «كل ما سفل عن القاهرة».

(٣) جمع ضاحية؛ وهي في أصل اللغة: البارزة للشمس؛ والضواحي هي ما يجاور القاهرة من جهة الشمال من القرى. وعدّتهم إحدى وثلاثون بلدة كما جاء في الانتصار: ٥/٤٣.

(٤) المراد عمل القليوبية، وفيه خمسة وخمسون بلداً (الانتصار: ٥/٤٧) وعمل القليوبية مصاقب للضواحي من شماليها مما يلي جهة النيل. وكانت قليوب عاصمة محافظة القليوبية حتى سنة ١٨٥٠ م. ثم أصبحت عاصمتها «بنها» ـ (الموسوعة العربية الميسرة: ١٣٩٣)

(٥) عمل الشرقية مصاقب للضواحي من شماليها مما يلي جهة المقطّم. وقد عدّد صاحب «الانتصار» الأعمال الشرقية على مدى سبع عشرة صفحة ـ (الانتصار: ٥/٥١ وما بعدها).

(٦) ضبطها في القاموس بضم الباء كقُنْفُذ. قال: وقد يفتح أوله. وفي معجم البلدان بكسر البائين وسكون اللام. وفي معجم ما استعجم للبكري بفتح أوله وسكون ثانيه. وفي تقويم البلدان بكسر الباء الأولى وسكون اللام وفتح الباء الثانية وسكون المثناة تحت ثم سين مهملة. قال القلقشندي: والجاري على الألسنة ضم الباء في أولها.

(٧) عبارة ط ق «وأما ما وقع غربي أحد مرمي النيل الفرقتين في هذا الوجه» وهي مشوّشة. وما أثبتناه من صبح الأعشى.

الجيزة جزيرة بني نَصْر، ثم مُنُوف، وكلاهما عملٌ واحد. والاسم لمُنُوف؛ وهي كانت مدينة مصر العظمى زمن فرعون موسى، ثم أَبْيَار وهي من عمل مُنُوف أيضاً. واسم مُنُوف: مَنْف(1). ثم يليها بلاد «**الغربية**» ومدينتها «محلَّة المرحوم»(2)؛ وهي عملٌ جليل متَّسع يضاهي قوص؛ ثم يليه «**أَشْمُون**»(3) وتُعرف «بأُشمون الرمَّان» لكثرة وجود الرمَّان بها؛ وهي بلاد **الدَّقَهْلِيَّة والمُرْتاحِيَة**. ثم يليها «**دمْياط**» - حماها اللَّه - وهي أحد الثغور، والضالّة المستنشَدة بعد طول الدهور، ويليها أحد مَصَبَّي(4) النيل.

ثم ما هو غربي الفرقة الثانية من النيل فأقربُه إلى الجيزة **بلاد البحيرة**، ومدينتها: «دَمَنْهور الوحش». وهذه البلاد تشتمل على بَرٍّ مقفر وطوائفَ من العرب، وبها «بِركة النَّطْرون» الذي لا يعلم في الدنيا أن يستغلّ(5) من بقعة صغيرةٍ نظير ما يستغلُّ منها: فإنها نحو مائة فدَّان تغلُّ نحو مائة ألف دينار.

---

(1) قال القلقشندي في الصبح: «لقد وقع للمقرّ الشهابي ابن فضل الله في «التعريف» في بلاده وأعماله من الوهم ما لا يليق بمصري... من ذلك أنه غلط في مُنُوف فظن أنها مَنْف، وبينهما بعد كبير: إذ مَنْف جنوبي الفسطاط على اثني عشر ميلاً منه، ومُنوف شمالي الفسطاط والقاهرة في أسفل الأرض».

(2) هنا أيضاً يقع العمري في الخطأ - كما أشار القلقشندي - ووجه الخطأ أن «محلَّة المرحوم» قرية من قرى عمل الغربية. أما مدينة بلاد الغربية فهي «المحلَّة الكبرى» أو «المحلَّة» كما غلب عليها على وجه الإطلاق. قال في المشترك: ويقال لها أيضاً: محلَّة الدَّقَلا.

(3) يجعل العمري هنا أشمون غربي «الغربية» أي مما يلي الفرقة الغربية من النيل. وجعلها القلقشندي من أعمال شرقي الفرقة الشرقية من النيل وهي: عمل الضواحي وعمل القليوبيّة وعمل الشرقيّة ثم عمل الدقهليّة والمرتاحيّة، وأشمون أو أشموم هي مقرّ الولاية بهذا العمل الأخير. لذلك كان من حق العمري ذكر أشمون بعد ذكره لمدينة بلبيس أعلاه.

والذي عليه أكثر المصادر: أشموم بالميم (هكذا في تقويم البلدان، ومعجم البلدان، والمشترك، والانتصار). وذكرها في «اللباب» بالنون. وهذا الإبدال عزاه في تقويم البلدان للعامة.

(4) هو مصبّ الفرقة الشرقية من النيل في بحر الروم أو الشامي أو البحر المتوسط.

(5) المراد أنهم يستخرجون منها معدن النَّطْرون. قال ابن ممَّاتي: النَّطرون من المعادن التي توجد بأرض مصر يستخرَج من الطرانة الواقعة غربي النيل وهو أجود أصنافه، ويستخرج أيضاً من الفاقوسية. ومنه الأحمر والأخضر وهو الأكثر استعمالاً.

(قوانين الدواوين: ٣٣٤)

ثم يلي بلاد البحيرة مدينة **الإسكندرية**: ثغر الإسلام المفترّ، وحمى الملك المخضّر ـ حرسها الله وكفاها ـ وهي مدينة لا يتّسع لها عمل، ولا يكثر لها قرى. فهذه جملةُ[1] الوجه البحري.

ثم لم يبقَ مـا يُنبَّه عليـه إلا «**قَطْيَـا**» وهي قـريـة في الـرمـل[2] جعلت لأخـذ المُوجَبات، وحفظ الطرقات؛ وأمرُها مهمّ، ومنها يطالع بكل وارد وصادر.

وأما «**الواحـات**»[3] فجاريـة في إقـطاع أمرائهم يـولّون عليهـا كل مُقْـطَع في إقطاعه؛ ومغلُّها كأنه مصالحة لعدم التمكُّن من استغلاله أُسوَةً ببقية ديار مصر لوقوعه منقطعاً في الرمال النائية والقِفار النازحة. وهذه جملةُ[4] نُطُق القاهرة المحيطة بمصر سفلاً وعلواً، وبالله التوفيق.

[ثانياً: في ذكر المملكة الشاميّة]

أمـا الشام فيحـدّه جميعه من القبلة [إلى] البـرّ المقفر: تيـه بني إسرائيـل وبرّ الحجاز والسّماوة إلى مرمىٰ الفرات بالعراق. وهذه المحادّات كلها من جزيرة العرب.

---

(١) لعله نسي أن يذكر عمل «المزاحمتين» وهو ما جاور خليج الإسكنـدرية من جهـة الشمال إلى البحـر الرومي، وبعضه في البر الشرقي من النيل، وحاضرته مدينة «فُوّة»
(انظر صبح الأعشى: ٤٠٣/٣)

(٢) المراد: قرية في الرمل المعروف بالجفار على طريق الشام على القرب من ساحل البحر الرومي.

(٣) ذكرها القلقشندي باسم «بلاد ألْواح» نقلاً عن السمعاني في «اللّبـاب»، وذلك بـإثبات الهمـزة الأولى ولفظها. أما في «المشترك» فقال: «واح بغير ألف ولام ويجمع على واحات». وهي ناحية غربي بلاد الصعيد. والواحات ثلاث: واح الأولى مقابل الأعمال البهنساويّة، وهي أعمرها وأكثرها ثمراً، وتعرف بواح البهنسا وبواح الخاصّ. والثانية مقابل شمالي الأعمال الأسيوطية، وتعرف بالواح الداخلة. والثالثة مقابل جنوبي الواح الثانية، وتعرف بالواح الخارجة.

قال في مسالك الأبصار: ولا تعدّ في الولايات والأعمال ولا يحكم عليها من قبل السلطان.

(٤) نسي أن يذكر أيضاً: «بَرْقـة» أو قسماً من بـرقة. قـال القلقشندي: «والتحقيق أن بـرقة قسمـان: قسم محسوب من الديار المصرية، وهو ما دون العقبة الكبرى إلى الشرق، وقسم محسوب من إفريقية، وهو ما فوق العقبة المذكورة إلى الغرب.
(صبح الأعشى: ٤٤٨/٣)

ويحدُّه جميعه من الشرق طرف السَّماوة والفرات.

ويحدُّه من الشمال البحر الشامي[1].

ويحدُّه من الغرب حدُّ مصر المتقدّم ذكره. وهذه الحدود هي الجامعة على ما يُحتاج [إليه]، وإذا فُصّلت [تحتاج] إلى زيادة إيضاح.

ثم نقول: للناس في الشام أقوال: فمنهم من لا يجعله إلا شاماً واحداً، ومنهم من يجعله شامات[2]، فيجعل بلاد فلسطين والأرض المقدّسة إلى حدّ الأردن شاماً، ويقولون: الشام الأعلى؛ ويجعل دمشق وبلادها من الأردن إلى الجبال المعروفة «بالطوال» شاماً، ويقع على قرية «النَّبْك» وما هو على خطّها؛ ويجعل سوريا: وهي حمص وبلادها إلى رحبة مالك [بن طوق] شاماً، ويجعلون حماة وشَيْزَر من مضافاتها، وثَمَّ من يجعل منها حماة دون شَيْزَر؛ ويجعل قِنَّسْرين وبلادها وحلب مما يدخل في هذا الحدّ إلى جبال الروم وبلاد العواصم والثغور - وهي بلاد سيس - [شاماً]. فأما عكّا وطرابُلُس وكلُّ ما هو على ساحل البحر فكلُّ ما قابَل منه شيئاً من الشامات حُسب منه؛ ونبَّهنا على هذا كلّه ليُعرف.

فأما ما هو في زماننا، وعليه قانونُ ديواننا، فإنه إذا قال السلطان: بلاد الشام، ونائب الشام، لا يريد به إلاّ دمشق ونائبها؛ وولايته من لَدُن العريش - حدِّ بلاد مصر - إلى آخر سَلَمْيَةَ مما هو شرق بشمال، وإلى الرَّحبة مما هو شرقٌ محض. وقد أُضيف إليها في أيام سلطاننا بلاد جَعْبَر[3]، وحقُّها أن تكون مع حلب. فعلى هذا قد صارت

---

(1) كذا في صبح الأعشى عن التعريف. وفي ط ق «ويحده من الشام البحر الشامي» والصواب أن يقال: «ويحدّه من الشمال بلاد الروم» وليس البحر الرومي: إذ أن البحر الرومي هو الأبيض المتوسط الذي يحدّ بلاد الشام من الغرب؛ وهذا ما يتناسب مع تحديد «تقويم البلدان». وفي تحديد حدود بلاد الشام اختلاف فيما بين من كتبوا في المسالك والممالك من الجغرافيين المسلمين
(انظر في ذلك: صبح الأعشى: ٤ / ٧٨ وما بعدها).

(2) وقد قسّم المتقدّمون الشام إلى خمسة أجناد هي: جُند فلسطين، وجند الأردن، وجند دمشق، وجند حمص، وجند قنّسرين.

(3) تغيّر نظام جعبر الإداري في عهد المماليك إذ ألحقت بدمشق فترة من الزمن ثم بحلب فيما بعد.
(انظر دائرة المعارف الإسلامية: ١٢ / ٤٥)

مملكة دمشق مشتملةً على الشام الأعلى وما يليه وما يلي ما يليه وبعضَ الشّام الأدنى، وليس يخرج عنها من ذلك إلاّ حماة، وما أُخرج مع صفد ومع طرابلس وأُفردا به، والكرك؛ ويكون في نيابة نائبها نيابة غزّة ونيابة دمشق ونيابة حمص وبعضُ شيء مما يقتضي الحقُّ أن يكون في نيابة حلب.

ونحن نذكر ذلك على ما هو الآن، فاعلم أن نيابة الشام تشتمل على ولاية بَرٍّ وأربع صَفَقات:

فأما البرُّ فهو ضواحي دمشق؛ وحدُّه من القبلة قرية الخيارة المجاورة للكُسْوة وما هو على سمتها طولاً، ومن الشرق [الجبال] الطِّوال إلى النَّبْك وما وقع على سَمْتها [من القرى] آخذاً على عَسَّال(١) وما حولها من القرى إلى الزَّبَداني، ومن الغرب ما هو من الزَّبَداني إلى قرى القيران(٢) المسامتة للخيارة المقدّمة الذكر، وفي هذا مرج دمشق وغُوطتها.

وأما صَفَقاتُها(٣) فأربع صَفَقات:

الصَّفْقَة الأولى
(الساحلية والجبلية)

وأمُّ هذه البلاد مدينة غزّة؛ والنِّيابةُ بها، ولنائبها الحديثُ في هذه الصَّفقة، مع مراجعة نائب الشام. وأما الولايةُ والعزل بها فلنائب الشام(٤)، إلا في مرقريتا(٥) وبيت

(١) كذا في ط ق وفي الصبح. وفي ياقوت: غسّان، بالنون.

(٢) كذا في ط ق. وفي الصبح «القِران».

(٣) كانت مملكة دمشق كبرى الممالك الشاميّة وأوسعها رقعة؛ وقد قسَّمها المماليك لهذا السبب إلى أربع مناطق إدارية عرفت بالصَّفقات.
(انظر منطلق تاريخ لبنان: ص ١٣١)

(٤) يذكر القلقشندي أن غزّة كانت أكثر الأحيان «تقدمة عسكر» مضافة إلى دمشق، وتارة «نيابة مستقلة» تضاف إليها الصفقة الساحلية بكمالها فيكون لها حكم النيابات. وفي جميع الأحوال فإن «مقدم العسكر» فيها أو «النائب» إنما كان يولّى من الأبواب السلطانية وليس بأمر نائب السلطنة بالشام كما يذكر العمري. أما وصاية نائب السلطنة بدمشق على متولي غزة فإنها تكون قائمة عندما تكون غزة بمثابة تقدمة عسكر.

(٥) كذا في ط ق. ولعلّ الصواب «مرقيّة» وهي قلعة حصينة في سواحل حمص كانت خربت فجدّدها معاوية =

جبريل والدّاروم فإن نائب غزّة يولّي ولاتها.

وهذه الصَّفقة هي الشام الأعلى، ينقص منه ما هو من نهر الأردن إلى أول حدّ قاقون[1]. فأما ما يدور بهذه [الصفقة][2] من النطق والولايات الجلية فالجبليّ منه: بلد الخليل[3] عليه السلام، وهو أقربها إلى غزّة، ثم القدس الشريف، ثم نابلس.

وأما الساحليّ: فولاية مدينة غزّة، ثم الرملة ـ وهي فلسطين ـ ثم لُدّ، ثم قاقون.

الصفقة الثانية
(القِبليَّة)

سمِّيت بهذا لأنها قِبليّ دمشق؛ وحدُّها من القِبلة جبال الغَوْر القِبلية المجاور لمرج بني عامر، ومن الشرق البرِّية، ومن [الشمال][4] حدُّ ولاية برّ دمشق القبليّ، ومن الغرب الأغوار إلى بلاد الشقيف[5].

ومدينتُها «بُصرىٰ»، وبها قلعةٌ كأنها قلعة دمشق، وكانت دار مُلك لبعض بني أيوب.

ومَقَرُّ الولاية بأذْرِعات[6] ـ أعني ولاية الوالي الحاكم على مجموع الصفقة.

وهذه الصفقةُ أوّلها من جهة القبلة «البلقاء» ـ ومدينتها «حُسْبان» ـ ثم

ــــــــــــــــ

= ورتب فيها الجند وأقطعهم القطائع.
(معجم البلدان: ١٠٩/٥)

(١) حصن بفلسطين قرب الرملة. (معجم البلدان: ٢٩٩/٤).

(٢) في ط ق «المملكة». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) بلد الخليل هي «حَبْرون»، وقد غلب عليها اسم «الخليل» ويقال لها أيضاً «حبرى».
(الروض المعطار: ١٨٦، ومعجم البلدان: ١٩٩/٢؛ ومعجم ما استعجم: ٤٠٨).

(٤) في ط ق «الشام». والتصحيح من الصبح.

(٥) بلاد الشقيف إلى الشمال من نهر الليطاني في لبنان، في المنطقة المعروفة بجبال عامل أو جبال عاملة.

(٦) هي اليوم درعا. وأذرعات في الصبح مفتوحة الراء؛ وفي ياقوت والبكري مكسورة.

الصَّلْت»[1]، ثم عجلون - وجبل «عوْف» منه، ومدينة [هذه القلعة]: الباعُونة[2].
وعجلون اسم القلعة المبنيَّة على الجبل المطلّ على [الباعونة]: وهو حصن جليل على صغره، وله حصَانة ومَنعة منيعة. ثم أذْرعات؛ ولأذرعات ولاية خاصة بها.

وأول حدّ هذه الصَّفقة من الشرق: «صَرْخد»، ولها قلعة، وكان بها متملّك من المماليك المعظمية، وقد يُجعل بها من يحطّ عن ملك أو نيابة معظمة.

ثم يلي صرْخد: بُصْرى، ثم «زُرَع»[3]، ثم أذْرعات. وقد يتّصل عمل بُصرى بأذْرعت من القبلة لوقوع «زُرَع» متشاملة. ويلي «زُرَع» مغرباً عنها: «نَوَى»[4]، وينتهي من عملها إلى أذْرعات. ويلي «نوَى» مغرباً عنها بشمال بلاد الشَّعْرا[5]: والولاية بها تكون تارةً في قرية «حان»[6] وتارة في قرية «القنيطرة». ويليها مغرباً بشمال «بانياس»: وبها قلعة «الصُّبَيْبَة»، وهي من أجلّ القلاع، مبنيّة في أعلى البقاع.

واعلم أن الأغوار كلَّها لهذه الصفقة، خلا ما هو مختصّ «بالكَرَك».

ومدينة الغَوْر المضاف إلى هذه الصفقة: «بَيْسان»، وبها مقرُّ الولاية. وهذه جملة الصفقة القِبليّة.

---

(1) قوله «ثم الصَّلْت» يعني أن يكون الصَّلْت عملاً مستقلاً عن البلقاء وعن عجلون. أما في مسالك الأبصار فقد جعل العمري نفسه الصَّلْت داخلاً في عمل عجلون. قال القلقشندي: والذي رأيته في التذكرة الآمدية نقلاً عن شهاب الدين بن الفارقيّ أحد كتاب الإنشاء بدمشق في الدولة الناصرية ابن قلاوون يوافق كلام التعريف. قال: وأخبرني بعض كتّاب الإنشاء أن المستقرّ الصَّلت فقط، والبلقاء مضافة إليها، وعليه يدلّ كلام أورده القاضي تقي الدين ابن ناظر الجيش في التثقيف.
(صبح الأعشى: ٤/ ١١٠).

(2) في ط ق «الباعونة» بالتاء المثلثة فوق. وهو خطأ.

(3) بضم الزاي المعجمة وفتح الراء المهملة. وهي بلدة من بلاد حوران، لها عمل مستقلّ.

(4) بفتح النون والواو. وهي بلدة صغيرة، عن دمشق من جهة الغرب إلى الجنوب على نحو مرحلة.

(5) هي عن بانياس شرق بجنوب.

(6) في ط ق «خان» بالخاء المعجمة. والصواب بالحاء المهملة.

الصَّفقة الثالثة

(الشماليّة)

أما الصَّفقة الثالثة وهي المعروفة بالشمالية فحدُّها من القبلة حدُّ ولاية برِّ دمشق الشاميّ وبعض الغربيّ؛ ومن الشرق قرية «جُوسيَة» التي بين القرية المعروفة «بالقصَب» من عمل حِمص وبين القرية المعروفة [بالفيجة][1] من عمل بَعْلَبَكّ؛ ومن [الشَّمال][2] «مَرْج الأَسَل» المستقلّ عن قائم الهرمل حيث يمدّ «نهر الأُرُنْكا»[3] - وهو العاصي - والبلاد المفردة لطرابُلس من كل ما تشامل عن جبل لبنان إلى البحر[4]؛ ومن الغرب ما هو على سَمْت البحر منحدراً عن صور [إلى] حدّ ولاية برّ دمشق القبليّ والغربيّ.

[وتشتمل هذه الصفقة على خمسة أعمال]:

الأول (عمل بَعْلَبَكّ): وبها القلعة الحصينة الجليلة التي هي من أجلّ مباني الأرض؛ وإنما بُنيت قلعة دمشق على مثالها، وهيهات لا تُعدُّ من أمثالها! وأين قلعة دمشق من قلعة بعلبكّ؟! وحجارتُها تلك الجبال الثَّوابت، وعُمُدها تلك الصخور النَّوابت. - [شعر: البحر البسيط].

قد يبعُدُ الشيءُ من شيءٍ يُشابِهُهُ إن السماءَ نظيرُ الماءِ في الزَّرَقِ

وكانت دارَ مُلك موروثة جليلة الذِّكر، نبيهة الشأن؛ ومن عشِّها دَرَج نجمُ الدين أيوب، والد الملوك الأيّوبية. ولبعلبكّ ولاية خاصة بها، ومن مضافاتها ولايتان جليلتان

---

(١) في ط ق «اللفيكة» والتصحيح من الصبح. والفيجة قرية بين دمشق والزبداني عندها مخرج نهر دمشق بردى.

(معجم البلدان: ٤/٢٨٢)

(٢) في ط ق «الشام».

(٣) في معجم البلدان «الأُرُنْد»؛ وهو اسمه قرب أنطاكية عند مصبّه في البحر المتوسط. وهذا النهر يجري قسم منه في لبنان والقسم الآخر في سوريا.

(٤) عبارة صبح الأعشى: «... حيث يمدّ العاصي بطرابلس، وكل ما تشامل عن جبل لبنان إلى البحر»

وهما عملا البقاعين المعروفين بالبعلبكيّ وبالعزيزي.

الثاني (عمل البقاع البعلبكيّ): [نسبة إلى بعلبك لقربه منها؛ وليس له مقرُّ ولاية][(١)].

الثالث (عمل البقاع العزيزيّ)[(٢)]: ومقرُّ الولاية به «الكرك» المعروف «بكرك نوح». وهاتان الولايتان الآن منفصلتان عن بعلبكّ. وهما مجموعتان لوالٍ واحد جليل مُفرَد بذاته.

الرابع (عمل بيروت): وهو يصاقب بلاد بعلبك من شمّها بغرب؛ وهو عمل جليل. ومدينةُ بيروت هي الشام[(٣)]؛ وهي به نظيرُ الإسكندريّة بمصر.

الخامس (عمل صيدا): وهي ولاية جليلة واسعة العمل، ممتدّة القرى.

وهذه جملة الصفقة الشمالية.

الصفقة الرابعة
(الشرقية)

وحدُّها من القبلة قرية «القَصَب» المجاورة لقرية «جُوسِيَة» المقدّم ذكرها. آخذاً هذا الحدّ على «النَّبْك» إلى «القريتين»[(٤)]، ومن الشرق السَّمَاوة إلى الفرات وينتهي

---

(١) بين معقوفين ساقط من ط ق. وقد زدناه من صبح الأعشى نقلاً عن التعريف.

(٢) قال في صبح الأعشى: «وتسميته بالعزيزي نسبة إلى الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين». ـ أما في دائرة المعارف الإسلامية: ٣٥٨/٧ فقد جاء: «البقاع العزيز، أو العزيزي، نسبة إلى «العزيز» وهو معبود متّصل بإله الشمس؛ وقد نسبت تلك الهضبة إليه لا إلى أحد أبناء صلاح الدين.

(٣) المراد: هي بيروت الشام، أي أنها كانت تابعة لبلاد الشام.

(٤) القريتان: قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سُخنة وأرك. أهلها كلهم نصارى. وبينها وبين تدمُر مرحلتان.
(معجم البلدان: ٣٣٦/٤)

إلى مدينة «سَلَمْيَة»[١]؛ ولها قلعة تقاربها تعرف بـ «شُمَيْمِش»[٢]؛ ومن الشمال ما بين سَلمية إلى الرَّسْتن؛ ومن الغرب نهر الأرُنْط وهو العاصي؛ ومدينة هذه الصَّفقة حمص: وهي دارُ مُلك البيت الأسديّ[٣]، ولم يزل لملكها في الدولة الأيوبيّة سطوة تُخاف وبأس يُحذر. وبها القلعة المصفَّحة، ولا مَنعةَ لها؛ ولها نيابةٌ جليلة وعسكر.

وتشتمل هذه الصَّفقة على ولاية «قَارَا»[٤]: وهي قبليّ حمص، وولاية مدينة حمص نفسها، وولاية سَلمية، وولاية تَدْمُر - وهي ما بين القريتين والرَّحْبة.

وبهذه الصفقة مدينة الرَّحْبة على الفرات، وبها قلعة ونيابة، وفيها بحرية وخَيَّالة وكشَّافة وطوائفُ من المستخدمين. فهذه جملة هذه الصفقة الشرقية[٥]، وبها تمَّت الصفقات الأربع.

ولم يبقَ من مضافات الشام إلاَّ جَعْبَرة؛ وهي مجدَّدة[٦] البنيان مستجدَّة لأنها جدِّدت منذ سنوات بعد أن طال عليها الأبد، وأخنىٰ عليها الذي أخنىٰ على لُبَد[٧].

---

(١) ضبطها في صبح الأعشى بكسر الميم ثم ياء مثناة مشدّدة. وفي معجم البلدان والقاموس بسكون الميم ثم ياء مثناة مخففة. وفي البكري بكسر الميم ثم ياء مثناة مخففة. قال ياقوت: وأهل الشام لا يعرفونها إلا «سلميَّة» أي بالياء المثناة المشدّدة.

(٢) كذا في ط ق. وقد وردت في «تشريف الأيام والعصور» للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر: «شميميس»، وقد صوّبها المحقق بقوله «شميمس» Scheumimis.
(تشريف الأيام والعصور: ص ٣٩)

(٣) يعني أسد الدين شيركوه عمّ السلطان صلاح الدين الأيوبي.

(٤) في معجم البلدان وتقويم البلدان: قارة.

(٥) ذكر القلقشندي من أعمال هذه الصفقة عمل مِصْياف. قال: كانت أولاً مضافة إلى طرابلس ثم أفردت عنها وأضيفت إلى دمشق. وسيأتي العمري على ذكرها في أعمال بلاد طرابلس.

(٦) جدّد بنيانها في أواخر الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، كما أشار القلقشندي.

(٧) أي بعد أن درست وانتهت. قال النابغة:

أضحتْ خلاءً وأضحى أهلها احتملوا ... أخنىٰ عليها الذي أخنىٰ على لُبَدِ

و«لُبَد» اسم آخر نسور لقمان بن عاد. ولذلك قصة مشهورة.
(انظر لسان العرب: ٣/٣٨٥ وما بعدها)

وبتمام ذكرها تمّ ما يُطلق عليه الآن الشّام في المصطلح على ما يجري على لسان سلطاننا ويصرَّح به فيما يُكتب عنه.

[القاعدة الثانية من قواعد البلاد الشامية]

(حلب)

ويحدُّها من القبلة المعرّة وما وقع على سمْتها إلى الدّمنة الخراب والسلسلة الروميّة ومجرى القناة القديمة الواقع ذلك كله بين «الجبار» والقرية المعروفة بـ «قبّة ملاعب»؛ ويحدّها من الشرق البرّ حيث يحدّ «بردى» آخذا على جبل الثلج ونهر الجُلاَّب[1] على أطراف «بالس»[2] إلى الفرات دائرة بحدّها. وبهذا التقسيم تكون بلاد جعْبر داخلة في حدودها. ويحدّها من الشمال بلاد الروم مما وراء بهسْنىَ وبلاد الأرمن مما وراء نهر جاهان[3]، ومن الغرب ما أخذ مع بلاد الأرمن على البحر الشامي.

ولحلب قلاعٌ وولايات. فأما القلاع فهي:

قلعة البيرة[4]: وهي التي لا تُماثل، ولها عسكر ومَنعة، ولنائبها مكانة جليلة.

قلعة المسلمين: وهي المعروفة بقلعة الروم. كانت مسكناً لخليفة الأرمن، ولا

---

(١) وهو نهر بمدينة حرّان التي بالجزيرة، مسمى باسم قرية يقال لها خُلاَّب.
(معجم البلدان: ٢/١٤٩)

(٢) بالس مدينة شمالي الشام على الفرات عند تحوّل النهر من مجراه الجنوبي إلى الشرق. واسمها اليوم «إسكي مسكين».
(دائرة المعارف الإسلامية: ٦/١٢٢)

(٣) أو نهر جيحان. وهو الاسم العربي الذي يطلق علىPyramus وهو النهر الشرقي من النهرين اللذين يخترقان سهول كيليكية. وينبع من نبع فيّاض غير بعيد من البستان. وهذا النهر يصب اليوم في خليج إلى الغرب من أياس. وفي عهد المماليك خلع اسمه على البلاد التي انتزعها الناصر محمد بن قلاوون من دولة كيليكية الأرمنية والتي عرفت باسم «الفتوحات الجاهانية».
(دائرة المعارف الإسلامية: ١٣/٩٩؛ وصبح الأعشى: ٤/٨٥)

(٤) هي قلعة في البرّ الشرقي في الشمال عن الفرات، وإلى الشرق من قلعة الروم.

يزال بها طاغُوتُ الكُفر. فقصدها الملك الأشرف خليل[1] ـ تغمَّده اللَّه برحمته ـ ونزل عليها، ولم يزل بها حتى آفتتحها وسمّاها قلعة المسلمين. وهي من جلائل القلاع.

قلعة الكَخْتا: وهي ذات عمل متَّسع، وعسكر متطوِّع مجتمع.

قلعة كَرْكَر: [وهي قلعة حصينة شاهقة في الهواء يُرى الفرات منها كالجدول الصغير. وكانت من أعظم الثغور في زمان التتار][2].

قلعة بَهَسْنَى: وهي الثغر المتاخم لبلاد الدروب[3]، والمشتعل جمرُه في الحروب. به عسكر من التُركمان والأكراد، ولا يزال لهم آثار في الجهاد. ولنائبها مكانة جليلة، وإن كان لا يلتحق بنائب البيرة.

قلعة عَيْنتاب: وهي مدينة حسنة. [وبها قلعة حصينة منقوبة في الصخر][4].

قلعة الرَّاوَنْدان: [وهي قلعة حصينة على جبل مرتفع أبيض، ذات أعين وبساتين وفواكه، وواد حسن. ونهرها من تحتها نهر «عِفْرين»][4]

قلعة الدَّرْبَساك: [وهي قلعة حصينة من جند قِنَّسرين شمالي حلب. وبها مسجد جامع، ويمر بها النهر الأسود][4].

قلعة بَغْراص[5]: وكانت ثغر الإسلام في نحر الأرمن حتى آستُضيفت الفتوحات الجاهانيّة[6]. وبها «الرُّصَصُ»[7] وهو عضو من أعضائها، وجزءٌ من أجزائها.

---

(١) الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاوون. خلف والده على السلطنة سنة ٦٨٩ هـ ومكث في الحكم ثلاث سنين. قتل سنة ٦٩٣ هـ (الخطط التوفيقية: ١/٨٨)

(٢) الكلام بين معقوفين من «تقويم البلدان». وقد زدناه للفائدة. إذ أن العمري اقتصر على ذكر اسمها فقط.

(٣) أي بلاد ممرات طوروس. (انظر في ذلك دائرة المعارف الإسلامية: ٧/٥١٤)

(٤) الزيادة من صبح الأعشى. وهي غير منقولة عن التعريف.

(٥) ضبطه السمعاني في الأنساب بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وراء مهملة وألف ثم سين مهملة. قال القلقشندي: والجاري على ألسنة الناس ضمُّ أوله.

(٦) راجع الصفحة السابقة، حاشية (٣).

(٧) في صبح الأعشى «رُصَصْ». قال: براء مهملة مضمومة وصادين مهملتين الصاد الأولى مفتوحة؛ وهي بلدة على الساحل الرومي.

قلعة القُصَيْر: وهي لأنطاكية[1].

قلعة الشُّغْر وبكاس: وهما كالشيء الواحد[2].

قلعة حجر شُغْلان: [بالقرب من بَغْرَاس شمالي حلب على مسافة قريبة جداً][3].

قلعة أبي قُبَيْس: [وهي قلعة حصينة غربيّ حلب مما يلي الساحل][3]

قلعة شَيْزر: [وهي من جند حمص غربي حلب، على نحو ثلاث مراحل منها][3].

فهذه جملةُ قلاعها؛ وهي على هذا الترتيب؛ وإن كانت عَيْنتاب داخلة عن النِّطاق فإنها في موقعها بين ما ذكر، وبالله التوفيق.

وأما ولاياتها فأجلُّها الغربيَّات، وهي «سَرْمين» وما معها. وجملةُ ولايات حلب هي:

كَفْرطاب[4]، وفامِيَة[5]، وسَرْمين، والجَبُول، وجبل سِمْعان، وعَزاز[6]، وتلّ باشر، غير ما في هذه القلاع مما له ولاية مُضافة إليه[7].

---

(١) قال في مسالك الأبصار: وهي قلعة غربي حلب على نحو أربع مراحل منها.

(٢) قال في الصبح: اسمان لقلعتين بينهما رمية سَهْم؛ وهما مبنيان على جبل مستطيل وتحتهما نهر يجري ولهما رستاق ومسجد جامع. قال في تقويم البلدان: وهما في الجنوب عن أنطاكية.

(٣) الزيادة من صبح الأعشى وهي غير منقولة عن التعريف.

(٤) قال في الصبح: بسكون الفاء ـ على إضافة كَفْر إلى طاب. وهذا هو الجاري على الألسنة وهو الصواب. وأصله من الكَفْر وهو التغطية، والمراد مكان الزرع والحَرْث لتغطية الحب بالزراعة كما في قوله تعالى: «كمثَل غيثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُه»، يريد الزرّاع. قال: ووقع في كلام صاحب حماة (أي في تقويم البلدان) بفتح الفاء وهو وهم. قلت: وكذلك ضبطها ياقوت في معجم البلدان.

(٥) ويقال لها أيضاً «أفامية».

(٦) بزاي مكسورة في الآخر. والجاري على الألسنة «أعْزاز».

(٧) وقد ذكر في صبح الأعشى ـ زيادة على ما جاء في التعريف ـ الأعمال التالية: عمل قلعة حَارِم، عمل مَنْبِجْ، عمل تيزين، عمل الباب وبُزاعا، عمل دَرْكوش، عمل أنطاكية، عمل ملطية، عمل دَرَنْدة، عمل =

ولمدينة حلب نفسها ولايةُ برٍّ كما لدمشق. وهذه جملة البلاد الحلبية.

[القاعدة الثالثة من قواعد البلاد الشاميَّة]

(حماة)

وحدُّها من القِبلة [مدينة] الرَّسْتن وما سامَتَها آخذاً ما بين «سَلَمْية» و«قبَّة ملاعب» إلى حيث مجرى النهر[1] والآثار القديمة؛ وحدّهامن الشرق البرُّ آخذاً على سَلَمية إلى ما آستقلَّ عن قبة ملاعب؛ وحدُّها من الشمال آخر حدّ المعرَّة من انقراتا[2] (؟)؛ وحدّها من الغرب مُضَافات مِصياف وقلاع الدعوة. وليس لها نطاق يدور على غير ولاية برِّها الخاص بها نفسها، و«بَارين» و«المعرَّة».

[القاعدة الرابعة من قواعد البلاد الشاميّة]

(طرابلس)

وحدُّها من القِبلة جبلُ لبنان ممتداً على ما يليه من مَرْج [الأسد][3] حيث يمتدّ نهر العاصي؛ ومن الشرق نهرُ العاصي؛ ومن الشمال قلاع الدَّعْوة؛ ومن الغرب البحر [الروميّ].

وبلاد طرابُلُسَ لها قلاعٌ وولايات.

فأما القلاع فهي: حِصْن عكَّار ـ وحِصْن الأكراد: وهو حِصنٌ جليل وقلعة

= آياس، عمل دَبْرَكي، عمل طرَسوس، عمل أدنة (أطنة)، عمل سِرْفَنْدكار، عمل سيس، عمل قلعة باري كَرُوك، عمل كاوَرًا، عمل كَوْلاك، عمل كِرْزال، عمل كُومي، عمل تلّ حمدون، عمل الهارونيتين، عمل قلعة نجمة، عمل قلعة حُمَيْمِص، عمل قلعة لؤلؤة، عمل قلعة تامرون، عمل سنياط كلا، عمل بلسلوص.

(انظر صبح الأعشى: ٤/١٢٣ ـ ١٤٤)

(١) المراد نهر العاصي.

(٢) كذا في ط ق. وفي صبح الأعشى: «العراسا» كذا بالإهمال. وفي ضوء الصبح للقلقشندي: «من الغرب».

(٣) في ط ق «الأسل». وما أثبتناه من الصبح.

شَمَّاء، لا تبعد منها السماء؛ وكانت محلّ النِّيابة ومقرّ العسكر قبل فتح طرابلس - وبلاطُنُس - وصَهْيُون - ثم قلاع الدَّعوة[1] وهي: العُلَّيْقة، والمَيْنقة، والكَهْف، والمرْقب، والقدْمُوس، والخَوابي، والرُّصافة، ومصْياف[2]: وهي دار ملك هذه القلاع الإسماعيلية، ولها على قُلَلها الرُّتب العليّة.

وأما ولاياتها فهي: أَنْطَرْطُوس، واللاذقية، وجُبَّة المُنَيْطَرة، وبلاد الضَّنِّيين، ومنهما بُشَرّيه[3]، وجَبَلَة (وبها مقام إبراهيم بن أدهم[4] رحمة الله عليه) وأَنْفة؛ وجُبَيل[5]، ومن تُعل في تلك [القلاع] مما له ولاية. فهذه جملة البلاد الطَّرابُلُسية.

[القاعدة الخامسة من قواعد البلاد الشاميَّة]

(صفد)

وحدُّها من القِبلة الغَوْر حيث جسر الصِّنَّبْرَة من وراء طبريَّة؛ ومن الشرق الملاَّحة الفاصلة بين بلاد الشَّقيف وبين حُولَة بانياس. ومن الشمال نهر «ليطا»[6]. ومن الغرب البحر.

وولاياتها: الشَّقيف؛ وهو الشَّقيفُ الكبير المسمَّى بشقيف أَرْنُون، وهو قلعة مُنيفة منيعة، ولها برٌّ له والٍ - وولاية جينين - وولاية عَكَّا - وولاية النَّاصِرة - وولاية

---

(١) سميت بذلك لأنها كانت بيد الإسماعيلية؛ وهم يسمّون أنفسهم أصحاب الدعوة الهاديَة؛ وكانوا يعرفون في ديوان الإنشاء بالقُصَّاد، وبين العامة بالفداوية.

(٢) كانت في أيام العمري مضافة إلى طرابلس ثم نقلت بعد مدّة وجيزة إلى دمشق.

(٣) قال في صبح الأعشى: هكذا مكتوب في التعريف. والجاري على الألسنة «بُشرّاي» بإبدال الهاء ياء مثناة تحت. قلت: ولعلّها المعروفة اليوم باسم «بْشَرّي».

(٤) قال الزركلي في «الأعلام»: وإبراهيم بن أدهم أخباره كثيرة وفيها اضطراب واختلاف في نسبته ومسكنه ومتوفاه. ولعل الراجح أنه مات ودفن في «سوفنن» حصن من بلاد الروم - كما في تاريخ ابن عساكر. كما نقل الزركلي عن المناوي أن إبراهيم بن أدهم مات بالجزيرة سنة ١٦٢ هـ وحمل فدفن بصور. (الأعلام: ١ / ٣١)

(٥) لم يذكرها القلقشندي في أعمال طرابلس.

(٦) هو نهر الليطاني الذي يصبّ في المتوسط عند منطقة القاسميّة في جنوبي لبنان.

صور؛ وبصور كنيسة يقصدها ملوكُ من البحر عند تمليكهم ليملَّكُوا بها وإلا فما يصحُّ لهم تمليك، وشرطهم أن يدخلوها عنوة: فلهذا لا يزال عليها الرَّقبة، لذلك وهم على هذا يأتونها مباغَتةً فيقضون منها ما أرادوا ثم ينصرفون[١].

[القاعدة السادسة من قواعد البلاد الشاميّة]
(الكَرَك)

ويُعرف بكَرَك الشَّوْبَك. وحدُّه من القِبلة عَقَبة الصوَّان. ومن الشرق بلاد البلقاء. ومن الشَّمال بحيرة سَدُوم، وهي المعروفة بالمنتنة وبحيرة لُوط. ومن الغرب تيهُ بني إسرائيل.

والكَرَكُ حصنُ الإسلام، ومعقِلُه والسلام. بناه الملك العادل ابن أيّوب، وشيَّد بناءَه، ووسَّع فناءَه؛ وكان ديراً لرهبان عملوا به مراكبَ ونقلوها إلى بحر القُلْزُم لقَصْد الحجاز [لأمورٍ سوَّلتها لهم أنفسُهم][٢] فأوقع الله بهم بالعزائم الصَّلاحيَّة، والهمم العادِليَّة، وأُخذوا، وأمر السلطان صلاح الدين بهم فحملوا إلى منًى وذُبحوا بها على جَمَرات العَقَبة حيث تُذبح البُدُن بها. ولم تزل الملوك تُعِدُّه لمخاوفها، وتدَّخر به أموالها، وتخلِّف فيه أبناءَها. والشَّوْبَك الآن من مُضافاته، إلا أنَّ قلعته أُخليت من الرجال، وسُدَّ بابها. ورسم الولاية قائم، ومتولِّيها يكون من قِبَل السلطان؛ وهو يراجع من له الحكم في الكَرَك.

وللكَرَكِ ولايةُ برٍّ يحكم على بلاده. والبلقاء تارةً تُضاف إليه، وتارةً لا تُضاف؛ وهي الآن نائبة عنه مع دمشق لا معه.

وأما ما بقي مما أفرده بالذكر ما اتَّصل بذيل المملكة الحلبيَّة، وهو الفتوحات

---

(١) على ذكر هذه الولايات الستّ اقتصر العمري. وزاد القلقشندي عليها ستَّ ولايات أخرى ـ نقلاً عن العمري نفسه في مسالك الأبصار ـ وهي: عمل بيْرصفد ـ عمل طَبَريَّة ـ عمل تِبْنِين وهُونين ـ عمل عَثْليث ـ عمل الشَّاغور ـ عمل الإقليم ـ

(٢) الزيادة من الصبح عن التعريف.

الجاهانية. وأتيت [بها] هنا إذ لم يكن لها تعلق بمملكة تُذكر فيها، وليست هي من الشامات في شيء، وإنما هي من بلاد الأرمن المسمَّاة قديماً ببلاد «العواصم والثُّغور»[1] والعهد بفتحها قريب. وجُعلت نيابة جليلة نحو حمص، وجُعل أمرُها إلى نيابة الشام؛ ثم جعلت إلى حلب، وأمرُها مزَلْزَلٌ حتى الآن.

وحدُّها من القِبلة البحر، ومن الشرق البلاد الحلبية حيث باب إسكندرونة، ومن الشمال نهر جاهان يفصل بينها وبين بلاد الدُّروب، ومن الغرب الباقي بأيدي الأرمن ومدينتها آياس، وبها عدة قلاع خربت عند الفتح أجلُّها: كاوَرًّا والبقيَّة ونَجْمة، وتلّ حمدون، وحُمَيْمِص، والهارونيَّتان: وهما حصنان بناهما هارون الرشيد. والبقيَّة من بناء[2] المأمون.

وبهذا تمَّ ذكر النِّطاق بمصر والشَّامات وما معها من جميع الممالك الإسلامية إلا الحجاز، وهو قطعةٌ من جزيرة العرب، وليس أمرُه بمضبوط، ولا بحفظ الثِّقة منُوط. وقد تقدَّم في رسوم المكاتبات من تحديد الممالك ما هو المهمُّ المقدَّم، وفي ذلك غِنًى، واللّه وليُّ التوفيق بمنِّه وكرمه.

---

(١) بلاد العواصم والثغور: اسم على مسمّى واحد. وهي اسم لناحية. وأول من سمّاها بذلك هارون الرشيد حين بنى بها مدينة طَرَسُوس سنة ١٧٠ هـ. والذي يظهر أنها سميّت بذلك لعصمتها ما دونها من بلاد الإسلام من العدو؛ إذ كانت متاخمة لبلاد الكفر، واقعة في نحر العدو. وذكر السلطان عمان الدين صاحب حماة في تاريخه أن الرشيد في سنة ١٧٠ هـ عزل الثغور كلها من الجزيرة وقِنَّسرين وجعلها حيِّزاً واحداً وسماها: العواصم.

(٢) ذكر في تقويم البلدان أنها من بناء السلطان محمود بن زنكي.

(في مراكز البريد، والحمام، وهُجُن الثَّلج والمراكب المُسْفَرة به في البحر، والمَناوِر والمُحْرِقات)

الباب الأول

في البريد

اعلم أن البريد المحرَّر هو أربعةُ فراسخ، والفَرْسَخُ هو ثلاثة أميال، والمِيلُ ثلاثة آلاف ذراع بالهاشميّ، والذِّراعُ أربعةٌ وعشرون إصبعاً، والإصبَعُ أربعُ شُعَيْراتٍ: ظَهْرٌ واحدة إلى بطنِ أخرى، والشُّعَيْرة أربعُ شَعرات من ذنب بغل. فهذا هو[1] البريد المعمول عليه كل عمل.

فأما مراكز البريد الموضوعة الآن فإنها ليست على هذا العمل، لتَفاوُتِ الأبعاد، إذ ألْجأَتِ الضرورةُ إلى ذلك: تارةً لبُعد ماءٍ، وتارة للأُنس بقرية، حتى إنك لتَرى في هذه المراكز البريدين قَدْرَ بريد واحد[2]؛ ولو كانت على التَّحرير الذي عليه الأعمال لما كانت تفاوتت.

وقد كان البريد في عهد الأكاسرة والقياصرة، ولكن لا أعرف على أي الحالين[3] كان، ولا أظنُّه إلا على المحرَّر، إذ كانت حكمتهم تأبىٰ إلا ذلك.

فأما أوَّلُ من وضع البريد في الإسلام فمعاوية بن أبي سفيان

---

(١) ويكون مقدار البريد بالأمتار: ٢٢١٧٦ متراً، أي حاصل ضرب: ٥٥٤٤ متراً (وهو طول الفرسخ) بالعدد أربعة، أي أربعة فراسخ.
(انظر النظم الإسلامية لصبحي الصالح: ص ٤١٧)

(٢) عبارة القلقشندي التي نقلها عن التعريف: «حتى إنك لترى في هذه المراكز البريد الواحد بقدْر بريدين». والذي أثبتناه عبارة ط ق.

(٣) أي هل كان على المقدار المحرَّر المحدَّد أو كانت مقاديره متفاوتة كما هو الحال في أيام العمري.

ـ رضي الله عنه ـ حين آستقرَّت له الخلافة، ومات أمير المؤمنين عليّ ـ رضي اللّه عنه ـ وسلَّم له آبنُه الحسنُ، وخلا من المنازع، فوضع البريد لتسرعَ إليه أخبارُ بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجالٍ من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعرَّفهم ما يريد، فوضعوا له البُرُدَ وآتَّخذوا لها بغالاً بأكفّ كان عليها سفر البريد.

وقيل: إنما فُعِل ذلك زمنَ عبد الملك بن مروان[1] حين خلا وجهُه من الخوارج عليه: كعمرو بن سعيدٍ الأشدق، وعبد اللّه بن الزبير، ومُصْعَب بن الزبير، والمختار بن أبي عُبَيْد. وكان الوليدُ بن عبد الملك يحمل عليه الفُسَيْفِساء ـ وهو الفِصُّ المُذْهَب ـ من القُسْطَنطينية إلى دمشق، حتى صفَّح منه حيطانَ المسجد الجامع. [ومساجدَ] مكَّةَ والمدينةِ والقدس الشريف. ولم يبقَ منه الآن إلاّ ما هو بجامع دمشق في الصَّحن، وبقيَّةٌ بمكة في تَوْسِعة المهديّ، قريب باب بني شَيْبة ودار العجلة، وإلى الآن به آسم المهديّ، وبقيَّةٌ بقبّة الصخرة؛ وأما باقيه فذهب.

ثم لم يزل البريدُ قائماً، والعمل عليه دائماً، حتى آن لبناء الدولة المروانية أن يَنْتقض، ولحبلها أن يَنتكِث، فآنقطع ما بين خُراسان والعراق، لانصراف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية. ودام الأمر على هذا حتى آنقرضت أيام مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، ومَلَك السفَّاحُ ثم المنصور ثم المهديّ والبريدُ لا يُشدُّ له سَرْج، ولا يُلجم له دابّة.

ثم إن المهديَّ أغزىَ آبنَه هارونَ الرشيدَ الرُّومَ، وأحبَّ أن لا يزال على عِلم قريب من خَبَره، فرتَّب ما بينه وبين معسكر آبنه بُرُداً كانت تأتيه بأخباره، وتُريه متجدِّدات أيامه؛ فلما قَفَل الرشيد قطع المهديُّ تلك البُرُد؛ ودام الأمر على هذا باقي

---

(١) الذي ذكره العسكري في «الأوائل» أن عبد الملك إنما أحكمه؛ أما الذي وضعه فمعاوية. وذكر عن عبد الملك أنه قال لابن الدُّغُنْدغة: ولَّيتك ما حضر بابي إلا أربعة: المؤذِّن، فإنه داعي الله تعالى فلا حجاب عليه، وطارقَ الليل، فشرٌّ ما أتى به ولو وجد خيراً لنام، والبريد، فمتى جاء من ليلٍ أو نهار فلا تحجبه، فربما أفْسَد على القوم سنةً حَبْسُهم البريدَ ساعة، والطعامَ إذا أدرك، فافتح الباب وارفع الحجاب وخلِّ بين الناس وبين الدخول. ثم قال العسكري: ويذكر هذا الكلام عن زياد أيضاً

مُدّته ومدّة خلافة موسى الهادي بعده.

فلما كانت خلافة هارون الرشيد ذكر يوماً حُسْنَ صنيع أبيه في البُرُد التي جعلها بينهما، فقال له يحيى بنُ خالد: لو أمر أميرُ المؤمنين بإجراء البريد على ما كان عليه صلاحاً لملكه. فأمره به. فقرّره يحيى بن خالد ورتّبه على ما كان عليه أيام بني أميّة، وجعل البغال في المراكز؛ وكان لا يُجهَّز عليه إلا الخليفةُ أو صاحبُ الخبر، ثم استمرَّ على هذا. ولما دخل المأمون بلاد الروم ونزل على نهر البَرْذَوْن[١]، وكان الزمان حراً والفصل صيفاً، قعد على النهر ودلّى رجليه فيه وشرب ماءه، فاستعذبه واستبرده واستطابه، وقال لمن كان معه: ما أطيبُ ما شُرِبَ عليه هذا الماء؟ فقال كلُّ رجلٍ برأيه، فقال: أطيب ما شُرِب عليه هذا الماءُ رُطَبُ «إزاز»، قالوا له: يعيش أميرُ المؤمنين حتى يأتيَ العراقَ ويأكلَ من رُطَبها الإزاز. فما استتمّوا كلامَهم حتى أقبلت بغال البريد تحمل أَلطافاً منها رُطَب إزاز. فأتيَ المأمون منها فأكل وأمعَن، وشربَ من ذلك الماء فأكثر. فعجب الحاضرون لسعادته في أنه لم يقم من مَقامه حتى بلغ أمنيته، على ما كان يُظنُّ من تعذُّرها؛ فلم يقم المأمون [من مَقامه] حتى حُمَّ حُمَّى حادة كانت فيها مَنِيَّته.

ثم قطع بنو بُوَيْه البريدَ [حين][٢] علَوْا على الخلافة وغلبوا عليها؛ وإنما أرادوا بقطعه أن يَخْفى على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم أحيانَ قَصْدِهم بغداد؛ وكان الخليفة لا يزال يأخذ بهم على بَغْتَة.

وجاءت الملوك السلاجقة على هذا؛ وأهمَّ ملوكَ الإسلام اختلافُ ذات بينهم وتنازعُهم، فلم يكن بينهم إلاّ الرسل على الخيل والإبل[٣]، في كل أرضٍ بحسَبها.

فلما أتت الدولة الزَّنْكية أقامت لهذا النَّجّابة[٤]، وأُعدّت لها النُّجُب المنتَخَبة.

---

(١) والبرذون: بليدة من نواحي خوزستان قرب بصنّى.

(معجم البلدان: ١/ ٣٨١)

(٢) في ط ق «حتى» وهو خطأ.

(٣) في الصبح «على الخيل والبغال».

(٤) أي رجال البريد؛ ويقال أيضاً: البريديّة والبريديّون. واحدها بريديّ.

ودام هذا كل زمانها وزمان بني أيوب ـ رحمهم الله ـ إلى آخر أيامهم، وسقوط أقدامهم. وتبعها على ذلك أوائلُ الدولة التركية، حتّى صار الملك إلى الملك الظاهر بيبَرْس ـ رحمه الله ـ واجتمع له ملك مصرَ والشّام وحلب إلى الفرات، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق فعيَّن لها نائباً ووزيراً وقاضياً وكاتباً للإنشاء. وكان عمِّي الصاحبُ شرف الدين أبو محمد عبدُ الوهاب ـ رحمه الله ـ هو كاتبَ الإنشاء. فلما مثُلَ لديه ليودِّعه أوصاه بوصايا كثيرة آكدُها مواصَلتُه بالأخبار وما يتجدَّد من أخبار التتار والفرنج، وقال له: إن قدرْتَ أن لا تبيِّتَني كلُّ ليلة إلا على خبر، ولا تصَبِّحني إلاَّ على خبر فافعلْ. فعرَّض له بما كان عليه البريد في الزمان الأول وأيام الخلفاء وعَرَضه عليه فحسُن موقِعُه منه وأمر به. قال عمي: فكنت أنا المقرِّرَ له قُدَّامه وبين يديه. وحدَّثني بذلك مفصلاً مطولاً عن عمّي جمالُ الدين عبد الله الدَّوَاداريّ البريديّ المعروف بابن الشَّديد. وهاهو الآن على ذلك. وهو جناحُ الإسلام الذي لا يُحَصُّ[1]، وطَرَفُ قادمته التي لا تُقَصُّ[2].

وسنذكر مراكز البريد[3] في الممالك الإسلامية ونبدأ بمصر:

مركز قلعة الجبل

ونقدِّم من مصر ما هو من مركز قلعة الجبل المحروسة إلى نواحيها الخاصة

---

(١) حصَّ الشَّعْرَ: حلقه، والريش: قصَّه ونتفه.

(٢) وتابع القلقشندي العرض التاريخي لحال البريد قائلاً: ولم يزل البريد بعد ذلك مستقراً بالديار المصرية والممالك الشامية إلى أن غشيَ البلادَ الشامية تمرلنك صاحب ما وراء النهر، وفتح دمشق وخرَّبها وحرَّقها سنة ٨٠٤ هـ، فكان ذلك سبباً لحصِّ جناح البريد وبطلانه من سائر الممالك الشامية. ثم سَرَى هذا السُّمُّ إلى الديار المصرية فألحقها بالهمل، ورماها بعد الحَلْي بالعَطَل. فذهبت معالم البريد من مصر والشام، وعفت آثاره، وصار إذا عرض أمرٌ من الأمور السلطانية في بعض نواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية ركب البريديُّ على فرس له، يسير بها الهوينا سير المسافر إلى المكان الذي يريده، ثم يعود على هذه الصورة، فيحصل بواسطة ذلك الإبطاء في الذهاب والإياب.
(صبح الأعشى: ٤/ ٤٠٩)

(٣) وهي الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريديّة فيها فرساً بعد فرس.

بها، وهي ثلاث جهات: جهة إلى قوص ثم إلى أسْوان، وجهة الإسكندرية، وجهة دِمياط. ثم نذكر بعدها ما هو من مركز القلعة إلى الفرات - نهاية حدّ الممالك المحروسة من الشرق.

١ - فأما ما هو إلى جهة قوص: فمن مركز القلعة إلى «الجيزة»؛ ثم منها إلى «زاوية [أمّ][(١)] حسين» وإلى «مُنْية القائد» - وهي الآن المركز - ثم منها إلى «وَنَا»[(٢)]؛ ثم منها إلى «بَبَا»[(٣)]؛ ثم منها إلى «دَهْرُوط»؛ ثم منها إلى «أقلوسنا»[(٤)]؛ ثم منها إلى «مُنْية ابن خصيب»: وهي مدينة على ضفة النيل، ذاتُ مَرْأى جميل، وبها مدارس وحمامات وسوق غير قليل. ويقال إنَّ الخَصيب أيَّامَ ولايته مصر عمَّرها وأنشأها لابنه وسمّاها باسم ابنه فعرفت به. وبها «رَبْع الكريمي» مطلٌّ الطاقات على النيل، يفصل بينهما ساحةٌ متوسِّطة المساحة، يسرح فيها النظر؛ ثم منها إلى «الأُشْمُونَيْن»: وهي إحدى مدن الصعيد، وبها مقرُّ الولاية كما تقدم؛ ثم منها إلى «ذَرْوَة سَرْبام»[(٥)]؛ وتُعرف بذَرْوَة الشريف، نسبةً إلى الشريف حصن الدين بن ثعلب[(٦)]، فإنها كانت دار مقامه، وبها قصورُه ودُورُه. وكان قد خرج وملك الصَّعيد، وعجز عنه ملوك مصر، وأمِنَ أيامَ المعزِّ أَيْبَك ومن بعده فلم يظفر به، ثم خدعه الظاهر بيبرس ومنَّاه العوَض بالإسكندرية، فلما أناب، أعْلَقَ به الظَّفْرَ والنَّاب، وجُهِّز إلى الإسكندرية ليتملكها فشُنق على بابها. والذَّرْوَة هذه على ضفَّة النيل وفوهة «بحر المَنْهى» وهو «البحر

---

(١) ساقطة من ط ق.

(٢) بلدة من عمل البَهْنسا.

(٣) بباءين مفتوحتين. وهي من قرى الصعيد على غربي النيل. قال في معجم البلدان: وبمصر عدة قرى تشتبه في الخط وتختلف في اللفظ وهي: بَبَا (بالفتح)، ونَبَا (بفتح الباء ونون) من كورة السُّمَنُود، وتَبَا (بتاءين مثناتين من فوقهما) من كورة المنوفيّة، ونَنَا (بنونين مفتوحتين) من كورة البَهْنسا، وبَيَا (بباء موحدة وياء) في كورة حوف رمسيس. - معجم البلدان: ١/٣٣٣.

(٤) في معجم البلدان وفي الانتصار: «قلوسنا»

(٥) في الانتصار «دروة سرمام» بالدال المهملة، وميم بدل الباء.

(٦) في صبح الأعشى: «نسبة إلى الشريف ناصر الدين محمد بن تغلب»

اليوسفيّ» المشتقّ منه إلى الفَيُوم، ويُنسب عمله إلى يوسف عليه السلام؛ ثم منها إلى «مَنْفلُوط»: وهي من مدن الصعيد، وأجلّ خاصّ[1] السلطان؛ ثم منها إلى «أسْيُوط»: وهي من مدن الصعيد وأحسنها جباية وظاهراً؛ ثم منها إلى «طِمَا»؛ ثم منها إلى «المراغة» وربما سمّيت «المرائغ»؛ ثم منها إلى «بلسْبُورة»[2] وبعضهم يُبدل السين زاياً؛ ثم منها إلى «جَرْجَا»[3]؛ ثم منها إلى «البُلْينة»[4]؛ ثم منها إلى «هوّ» ويليها «الكوْم الأحمر»: وهما من خاصّ[1] السلطان، وعندهما ينقطع الرِّيف في البرّ الغربي، ويكون الرمل المتصل «بدنْدرا» ويسمّى «خانق[5] دنْدرا»؛ ثم من «هوّ» هذه إلى «قُوص»؛ ثم من «قُوص» يركب البريد الهُجُن إلى «أسوان» وإلى «عَيْذاب»، ثم إلى «النُوبة» أو إلى «سَواكِن» على ما يكون[6].

٢ ـ أما إلى الإسكندرية فالمراكز إليها في طريقين.

ـ فالوسطى تشقُّ العامِرَ الآهل، وهي من مركز القلعة المحروسة إلى «قلْيُوب»؛ ثم منها إلى «مَنُوف»؛ ثم منها إلى «المحلّة» وهي «محلة المرحوم»[7] مدينة الغربية؛ ثم منها إلى «النَّحْريرية»[8]؛ ثم منها إلى الإسكندرية.

ـ والطريق الأُخرى وهي الآخذة على البرِّ وتسمّى طريق الحَاجِر، وهي من مركز

---

(١) في ط ق «خالص» وهو خطأ. والمراد أنها من أملاك السلطان. وكان لأملاك السلطان والنواحي التابعة له ديوان يعرف بديوان الخاص.

(٢) وفي الانتصار: «بلسفورة». وهي من أعمال إخميم.

(٣) في ط ق «جرجة». وما أثبتناه يناسب رسم الصبح والانتصار.

(٤) ويقال فيها «البُلْينا» بإبدال الهاء ألفاً. وهي بلدة من عمل قوص.

(٥) في صبح الأعشى: «خان دندرا»

(٦) قال في صبح الأعشى: ومن أراد المسير من قوص إلى جهة أسوان ركب الهجن من قوص إلى أسوان ثم منها إلى بلاد النوبة. ومن أراد المسير إلى عيذاب سار من قوص إلى «كيمان قفْط» على القرب من قوص.

(٧) قال القلقشندي: لقد وهم صاحب التعريف فسمّى قاعدة الغربية بمحلة المرحوم؛ وإنما محلة المرحوم ـ وهي بلدة من بلاد الغربية أيضاً ـ هي غير المحلّة الكبرى.

(٨) النّحريريّة، بالنون الموحدة ولبس بالتاء المثناة فتنبّه.

القلعة إلى الجيزة، ثم منها إلى «جزيرة القط»[1]، ثم منها إلى «وَرْدَان»، ثم منها إلى «الطَّرَّانة»، ثم منها إلى «زاوية مُبرك» وأهل تلك البلاد تقول: «أنْبَارَك»[2]، ثم منها إلى «دمنهور الوحش» مدينة أعمال البحيرة، ثم منها إلى «لُوقين»، ثم منها إلى الإسكندرية.

٣ ـ وأما طريق دِمْيَاط فتتشعَّب من «السَّعيدية» الآتي ذكرُها في المراكز الآخذة إلى الفرات، وقصدها يسلك من القلعة في المراكز الآتي ذكرها إلى السَّعيدية، ثم منها إلى «أُشْمُوم الرمَّان» ثم منها إلى دِمَّياط. وبهذا تمَّ ذكر المراكز الخاصة بالديار المصرية.

وأما المراكز الآخذة من قلعة الجبل المحروسة إلى الفرات فمنها إلى «سِرْيَاقُوس»[3] ـ وكان قبل هذا بـ«العُشّ» وكان طويل المدى في مكان منقطع، وكان لا يزال تتشكَّى منه البريديَّة فصلح بنقْله، وحصل به الرفق لأمورٍ لو لم يكن منها إلا قربُه من الأسواق المجاورة للخانقاه[4] الناصرية وما يوجد فيها، وأُنْسه بما حوله [لكفى][5]، ثم منها إلى «بئر البيضاء» ثم منها إلى «بُلْبَيْس» وهي آخر المراكز التي لخيل السلطان، وهي الخيل التي تُشترى بمال السلطان، ويُقام لها السُّوَّاس والعلوفات، ثم مما يليها خيل البريد المقرَّرة على عُربان ذوي إقطاعات عليها خيول موظفة تُحضَر في هلال كل شهر إلى مراكز أصحاب النوبة، فإذا آنسلَخ الشهرُ جاءَ غيرهم، وهم هذا يُسمُّوْن خيلَ الشَّهَّارة. وعلى الشَّهَّارةِ والٍ من قِبَل السلطان يستعرض في رأْس كل

---

(١) هي قرية من اخر عمل الجيزة من الجهة البحرية. وهي ليست بالجزيرة المحاطة بالماء كما يوهم اسمها.

(٢) ويقال لها أيضاً «طيلاس» كما في الصبح، و«طملاس» كما في الانتصار.

(٣) بلدة من ضواحي القاهرة.

(٤) الخانقاه: كلمة فارسية معناها بيت. وقيل أصلها خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك. والخوانق حصلت في الإسلام في حدود الأربعمائة من الهجرة وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله. (انظر خطط المقريزي: ٢/٤١٤)

(٥) هذه الزيادة ضرورية لتتميم المعنى.

شهرخين صحب النَّوْبة فيه، ويُدوِّغها بالدَّاغ(١) السلطانيّ. وما دام أنها تستجدّ فهي قائمة، فمتى اكترى أهلُ نوبةٍ ممن قبلهم تلفت المراكز، إذ كان لا [يهلُ الشَّهـر](٢) وفي خيل تنسخ قوّة، لا سيّما والعرب قلّ أن تعْلِف. وأوّل هذه المراكز «السَّعيديّة»؛ ثم منها إلى «الخطَّارة»؛ ثم منها إلى «قبر الوايلي» وقد آستُجِدَّ به أبنية [وأسواق](٣) وبساتين حتى صار كأنه قرية؛ ثم منها إلى «الصَّالحية» وهي آخر معمور الديار المصرية؛ ثم بئر «غزي»(٤) وماؤه مجلوبٌ من بئر وراءه؛ ثم منها إلى «القُصَيْر» وقد كان كريم الدين وكيلُ الخاصّ الناصري بنى بها خاناً ومسجداً ومئذنة، وعمل ساقية، فتهدَّم ذلك كله، ولم يبقَ له من يجدِّده، وبقيت المئذنة، وقد رُتِّب لها زيت للتنوير. وهذا «القُصَيْر» يقارب المركز القديم المعروف «بالعاقولة» المقارب لقنطرة الجسر الجاري تحتها فواضلُ ماء النيل أوانَ زيادته إذا خرج إلى الرمل؛ ثم منها إلى «حَبْوَة» ولا ماء لها، ولا بناء بها، وإنما هي موقف تقف بها خيلُ العرب الشهَّارة، ويُجلب إليها الماءُ من بئر وراءها؛ ثم منها إلى «الغرابي»؛ ثم منها إلى «قَطْيا»(٥)؛ ثم منها إلى «صُبيحة نخلة مَعْن» ومن الناس من يقتصر على إحدى هذه الكلمات في تسميتها؛ ثم منها إلى «المُطَيْلب»؛ ثم منها إلى «السَّوادة» ـ وقد حوِّلت عن مكانها الأول فصار المسافر لا يحتاج إلى تعريج إليها؛ ثم منها إلى «الورَّادة» وهي قرية صغيرة وبها المسجد الأشرفيّ على قارعة الطريق، بناه الملك الأشرف خليل ـ تغمَّده الله برحمته ـ وبه رِفقٌ للمارة، وهو مأوى لمبيت السُّفَّارة. وقد كان فخر الدين كاتبُ المماليك بنى إلى جانبه رباطاً بيع بعده؛ ثم منها إلى «بئر القاضي» وهذا المدى

(١) الدَّاغ: كلمة فارسية، تجمع على داغات. والداغ السلطاني هو علامة السلطان أي خاتمه. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٣٢)

(٢) في ط ق «يهيل» والتصحيح من الصبح.

(٣) في ط ق «وسواقي». وما أثبتناه من الصبح.

(٤) في صبح الأعشى: «بئر عفرى» وفي الموسوعة الفلسطينية ١/ ٣٨٩: «بئر غذى»

(٥) قال في الصبح: وهي قرية صغيرة بها تؤخذ المرتَّبات السلطانية من التجار الواردين إلى مصر والصادرين عنها، وهناك رملٌ بالطريق يُختم في الليل ويُحفظ ما حوله بالعُربان حتى لا يمرُّ أحد ليلاً. فيكون من القاهرة إلى قطيا اثنا عشر بريداً.

بينهما طويل جداً يَملُّه السَّالك؛ ثم منها إلى «العريش» وقد أحسن كريمُ الدين - رحمه اللَّه - بعمل ساقية سبيلٍ به، وبناءِ خانٍ حصين فيه يأوي إليه من أجدَّ لمسراه، وينام فيه آمناً من طوارق الفرنج؛ ثم منها إلى «الخرُّوبة» المقدّمة الذكر. وبها السَّاقية والخانُ المذكوران فيما تقدَّم بناهما فخر الدين كاتب المماليك - رحمه الله - وحكمه في تحصين السِّقَارة حكمُ الخان الكريمي بالعريش؛ وهذا آخر مراكز تعرب الشهُّارة، ثم مما يليها خيلُ السلطان ذوات الإصطبلات والخدمة تشترى بمال السلطان [وتعْلف](1) منه، وأوَّلها «الزَّعقة» ثم منها إلى «رفح» ثم منها إلى «السَّلقة» وكان قبل هذا البريد «ببئر طرنْطاي» حيث الجُمَّيْز ويسمَّى سطر. وكان في نقله إلى «السَّلقة» المصلحة؛ ثم من «السَّلقة» إلى «غزّة»(2).

مراكز غزَّة

[والذي يتفرّع عنه مراكز ثلاث جهات، وهي: الكرك، ودمشق، وصفد].

١ - [فأما الطريق إلى الكرك] فمن غزّة إلى «ملاقِس» وهو مركز بريد؛ ثم من «ملاَقس» إلى بيت جبريل وهو بلد الخليل عليه السلام؛ ثم منها إلى «جنبا»؛ ثم منها إلى «الصَّافية» ثم منها إلى «الكرك».

٢ - ومن قصد من غزّة دمشقَ أتىَ «الجينين» وهو مركز بريد؛ ثم أتى «بيت داراس»(3) وبها خانٌ بناه ناصر الدين الخَزْنَدار التُّنْكُزي، وكان قديماً «بياسور» وكان طويل المدى وكانت المصلحة في نقله؛ ثم منها إلى «قطرة»(4) وهو مركز مستَجدّ، وهناك بئر سبيل وآثار لطاجار الدَّوَادار الناصريّ، وهو كان المشير بتجديد هذا المركز،

---

(١) في ط ق «وتكلف» والتصحيح من الصبح.

(٢) في صبح الأعشى: ثم من السَّلقة إلى الدَّروم، ثم منها إلى غزّة. ويكون من قطيا إلى غزّة أحد عشر مركزاً.

(٣) في ط ق «دراس» وفي صبح الأعشى «دارس» والذي أثبتناه من الموسوعة الفلسطينية. قال القلقشندي: والناس يقولون: تدارس.

(٤) في الصبح «قطرى» وفي ط ق «قطري» والذي أثبتناه من الموسوعة الفلسطينية.

وحصل به رِفْقٌ عظيم لبُعد ما بين «لُدّ» وبيت داراس أو ياسور؛ ثم منها إلى لُدّ، ثم منها إلى «العَوْجا» وهي زَوْراء عن الطريق لو نُقلت منه لكان أرفق؛ ثم منها إلى «الطِّيرة» وبها خان كان شرع فيه ناصر الدين الدوادار التُّنكزيّ ثم كمل بيد غيره؛ ثم منها إلى «قاقون» ثم منها إلى «فَحْمة» ثم منها إلى «جينين» وهي على صفد. وقد عمَّر طاجارُ الدوادار بها خاناً جميل البناءِ جليل النَّفْع ليس على الطريق أحسن منه ولا أحْصن، ولا أزْيَد نفعاً منه ولا أزْيَن.

٣ ـ ومَنْ قصد منه[١] صَفَد أتى [تِبْنِين][٢] ثم إلى حِطِّين وبها قبرُ شعيبٍ عليه السلام؛ ثم منها إلى صَفَد.

ومن قصد دمشق توجَّه منها[١] إلى «ذَرْعين»[٣] [ومنها] ينزل على درب «عين جالوت» ماراً عليها وهي مركز مستجدٌّ حصل به أعظم الرِّفق والراحة من العقبة التي يُسلك عليها بين جينين وبَيْسَان مع طول المدى؛ ثم من «ذَرْعين» إلى بَيْسَان ومنها إلى «المَجَامِع» وهو مركز مستجدّ كنتُ المشيرَ به، وهو عند جسر أُسامة[٤] حصل به الرفق لبُعد ما كان بين بَيْسَان وزَحْر، وقد كانت الطريق قديماً من بيسان على «طَيْبَة»[٥] إلى «أُرْبَد» وكانت غايةً في المشقَّة، وكان المسافر ما بين بَيْسَان وطَيْبة يحتاج إلى خوض الشريعة[٦] وبها معدِّيَّةٌ للفارس دونَ الفرَس، وإنما يعبر الفرسُ سباحةً؛ وكان في هذا من المشقَّة ولا سيّما أيامَ زيادةِ الشريعة وكَلَبِ البَرْد ما لا يوصف: لقطع الماء، ومعاناة العِقَاب[٧] التي لا يشقُّها جناحُ العُقَاب، وإنما الأمير الكبير كافلُ الشَّام الطَّنْبغا ـ رحمه الله ـ نقل هذه الطريق وجعلها على «القُصَيْر المُعِينيّ»[٨] حيث هي اليوم، ونقل

(١) أي من مركز جينين

(٢) في ط ق «تبين» وهو خطأ. وتبنين بلدة في جنوبي لبنان على تلة مرتفعة عليها قلعة حصينة من بناء الصليبيين

(٣) كذا في ط ق وفي الصبح. وفي الموسوعة الفلسطينية «زرعين».

(٤) ويعرف حالياً بجسر المجامع.

(٥) ذكرها في صبح الأعشى باسم «طيبة آسم».

(٦) هو نهر الأردن.

(٧) جمع عَقَبة.

(٨) في الصبح «القصير» فقط. وفي ط ق «القصير العينيّ» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه؛ وهو منسوب إلى

المركز من الطَّيبة إلى «زَحْر» حين غرق بعضُ البريديّة الجبليين بالشَّريعة ـ لا نسي اللّه ذلك لفاعله ـ ولما بُعثتُ من الأبواب السلطانية إلى الشام سنة إحدى وأربعين وسبعمائة أستطَلْت المدى ما بين بيسان وزَحْر فأشرتُ بتجديد هذا المركز فأستجدّ؛ ثم من هذا المركز إلى «زَحْر»؛ ثم منها إلى أَرْبِد؛ ثم منها إلى «طفْس»؛ ثم منها إلى «الجامع» وكان قديما بالمكان المسمّى «برأس الماء» فلما ملكه الأمير الكبير كافل الشام تَنْكز ـ رحمه اللّه ـ نقل المركز منه إلى هذا الجامع فقرب به المدى ما بينه وبين «طَفْس» وكان بعيداً فما جاء إلا حسناً؛ ثم منها إلى «الصّنمين»؛ ثم منها إلى «غَبَاغِب»؛ ثم منها إلى «الكُسْوَة»؛ ثم منها إلى دمشق المحروسة.

[في ذكر مركز دمشق وما يتفرّع عنه من المراكز]

ومن دمشق تتشعَّب المراكز: فمن أراد منها طريق البيرة أو الرَّحبة اللتين هما آخر حدّ الممالك الإسلامية من الشرق أتى منها القُصَيْر؛ ثم منها إلى القطيفة. ثم منها الافتراق:

ـ فطريق البيرة: منها إلى القَسْطَل؛ ثم منها إلى «قارا»؛ ثم منها إلى «بريج العطش» وقد كان مقطع طريق وموضع خوف، فبنَى به قاضي القضاة نجم الدين أبو العباس [أحمد بن صَصْرَى][(١)] التغلبي ـ رحمه الله ـ مسجداً وبركةً، وأجرى الماء إلى البِركة من مِلْكٍ كان له هناك وقفه على هذا السبيل، فبدَّل الخوف أمناً، والوَحْشة أُنساً ـ لا نسي اللّه له ذلك ـ ثم منها إلى «الغسولة» ومنها تتشعَّب طريقٌ إلى طرابلس على «القَصَب» سيأتي ذكرها؛ [ثم من الغسولة إلى «شُمْنَين» ومنها إلى حمص][(٢)] ثم من حِمص إلى الرَّسْتَن؛ ثم منها إلى حماة؛ ثم منها إلى «لطْمِين»؛ ثم منها إلى

= معين الدين. وقد قال: المعينيّ لتميزه عن «القصير» الذي بمصر.

(انظر معجم البلدان: ٤/٣٦٧)

(١) في ط ق «لعهد ابن حصري». وفي الأعلام: هو أحمد بن محمد بن سالم، أبو المواهب، نجم الدين ابن صَصْرى: قاض من الكتاب. توفي سنة ٧٢٣ هـ.

(٢) الزيادة من صبح الأعشى.

طرابلس؛ ثم منها إلى «المعرّة» ثم منها إلى «أنقراتا»؛ ثم منها إلى «إياد»؛ ثم منها إلى قِنَّسْرِين؛ ثم منها إلى حلب؛ ثم منها إلى «الباب»؛ ثم منها إلى «السّاجور»؛ ثم منها إلى البيرة: وهي في البرّ الشرقي. والبيرةُ أجلُّ قلاع الإسلام، وعقائل المعاقل التي لم تُفترع على طول الأيام.

ـ ومن أراد الرَّحبة فطريقُه من القطِيفة المقدَّمة الذكر على «العَطَنة» وليس بها مركز، وإنما بها خانٌ تُفرَّق به صَدَقة من الخبز والأحذية ونعال الدّواب؛ [ثم] إلى «جُليجِل»؛ ثم منها إلى «المصْنَع»؛ ثم منه إلى «القريتين»؛ ثم منها إلى «الحسير» ومنها إلى «البيضاء»، ومنها إلى «تَدْمُر» وهي المدينة الغريبة البناء المنسوبة إلى عمل الجنّ؛ ومنها إلى «أَرَك»؛ ومنها إلى «السُّخْنَة»؛ ومنها إلى «قُباقِب» ومنها إلى «كَوَاثِل»[1] وهي اليوم عُطّل؛ ثم منها إلى الرَّحبة، وهي والبيرة المقدَّمة الذكر آخر الحدّ الشرقي كما تقدم.

وأما ما يتشعَّب من المراكز من دمشق فمنها إلى «بريج الفلوس» إلى «أُرَيْنِبة» إلى «لغران» إلى صَفَد.

ـ ومن دمشق إلى خان[2] ميسلون إلى «زُبْدَان»[3] إلى الحُصَين إلى بيروت.

ـ ومن خان ميسلون المذكور إلى جِزّين إلى صيدا.

ـ ومن خان مَيْسَلون أيضاً إلى كَرَك نُوح ـ عليه السلام ـ مقرّ ولاية البقاع، ثم منها إلى بَعْلَبكّ إن أراد. وآعلم أنَّ بين صيدا إلى بيروت قَدْرُ مركز لمن أراد.

ـ ومن دمشق إلى الزَّبداني إلى بعْلَبَكّ.

ـ ومن أراد من بعلبكّ حِمصَ توجّه منها إلى «القَصَب» [ثم] إلى الغَسُولة.

---

(١) في ط ق «كوائل» وهو خطأ.

(٢) في الصبح: إلى ميسلون.

(٣) في ط ق «زبدل». والتصحيح من الصبح.

ـ ومن أراد منها[1] طرابُلُس توجَّه منها إلى القَصَب؛ ثم منها إلى «قَدَس»؛ ثم منها إلى «أقْمار»؛ ثم منها إلى «الشَّعْراء» ثم منها إلى «عرقا» ثم منها إلى طرابلس. ومن دمشق إلى طرابلس ركوبُ مـراكز حِمْص إلى الغَسُولة المقـدَّمة الـذكر ثم إلى القَصَب ثم ما ذكر.

ـ ومن دمشق إلى «جَعْبر» مراكزُ حمص، ثم من حمص إلى «سَلَمْيَة» ثم منهـا إلى «بُغَيْدِيدَ»؛ ثم منها إلى سوريا؛ ثم منها إلى «الحُصّ»[2] ثم منها إلى جَعْبَر.

ـ ثم مَنْ أراد من جَعْبَر «رأسَ العين» توجَّه من جَعْبَر إلى «عين بَـذَال» ثم منها إلى «صَهْلان» ثم منها إلى «الخابور» ثم منها إلى رأْس العين

ـ ومن دمشق إلى مِصْيَاف: المراكزُ [المذكورةُ] إلى حمص، ثم من حمص إلى مِصْيَاف.

ـ ومن دمشق إلى الكَرَك: المراكزُ [المذكورةُ] إلى «طَفْس» ومنها إلى «القنية» ومنها إلى «البرج الأبيض» ومنها إلى «حُسْبَان» ومنها إلى «ديباج» ومنها إلى «اكرية»[3] ومنها إلى الكرك.

ـ ومن دمشق إلى مركز ولاية الولاة بالصَّفقة القبلية: المراكزُ إلى «طَفْس»، ثم منها إلى أذْرِعَات.

فهذه جُملةُ مراكز دمشق إلى كل جهة؛ فأما مِقدارُ الولايات فمن كل واحدة إلى ما يليها، حتى يتوصَّل المسافرُ على البريد إلى حيث أراد.

---

(١) أي من الغسولة.

(٢) في ط ق «الخُصّ» بالخاء المعجمة، وهو خطأ. والحُصّ بالمهملة موضع بنـواحي حمص. والخُصّ بالمعجمة قرية قرب القادسية.

(انظر معجم البلدان: ٢/٢٦٣ و ٣٧٥)

(٣) كذا في ط ق. وهي ساقطة من مخطوطة صبح الأعشى، وقد زادها المحقق بهـذا الرسم عن أصـل التعريف الذي أخذنا عنه. ولعلّها «الكَرِيَّة» ـ انظر معجم البلدان: ٤/٤٥٩.

مراكز حَلَب

وقد ذكرنا ما هو منها إلى «البيرة» وهي أجلُّ ثغورها، وعليها مدرجة جمهورها.

ـ فأما ما سواها فمن حلب إلى «السموقة» ثم منها [إلى] «سندار»[١]؛ ثم منها إلى «بيت الفار»؛ ثم منها إلى «عيْنتات» ثم منها إلى «بَهَسْنَى».

ـ ثم منها يدخل إلى جهة «قَيْسارِيَّة» والبلاد المعروفة الآن ببلاد الروم، وهي بلاد الدروب. وقد آستضفنا[٢] في هذا الحين القريب منها إلينا: قَيْسارِيَّة ودرنْدَة، وإنما المستقرُّ المعروف أن آخر حد الممالك الإسلامية من هذه الجهة: بَهَسْنَى.

ـ وآعلم أن من «عَيْنتات» إلى «قلعة المسلمين» إلى جسر الحجر، ثم إلى الكَخْتَا، وهي آخر الحدّ من الطرف الآخر[٣].

ـ ومن حلب إلى «أرْحاب»، ومنها إلى «تِيزِين»، ومنها إلى «بَغْرا»، ومنها إلى «بَغْراص» وهي كانت آخر الحدّ مما يلي بلاد الأرمن؛ وقد آستضفنا نحن في هذا الحين ما آستضفنا فصار من «بَغْراص» إلى «باياس» وهي أوَّل جبل الأرمن، ثم إلى آياس: وهي الآن مدينة الفتوحات الجاهانية المستضافة.

ـ ومن حلب إلى «الجَبُّول»؛ ثم منها إلى «بَالِس»؛ ثم منها إلى «جَعْبَر». فهذه جملة مراكز حلب. وأما بقايا القلاع ومَقَارُّ الولايات فمن شُعَب هذه الطرق أو من واحدة إلى أخرى.

مراكز طرابُلُس

ـ اعلم[٤] أن من طرابلس إلى «مَرْقية»؛ ثم منها إلى «بِلِنْيَاس»[٥] ثم منها إلى

---

(١) في الصبح «سندرا».

(٢) يعني أهل الممالك الإسلامية.

(٣) الجملة غير تامّة، فهو لم يذكر خبر «أنّ». ومراده أن الطريق إلى قلعة المسلمين: من عينتاب إليها، أي قلعة المسلمين، ثم إلى جسر الحجر... الخ.

(٤) يجري الكلام هنا على طريق اللاذقية.

(٥) في ط ق «بلنياس». وهو خطأ.

اللاَّذَقية: وهي مدينة ذات ميناء يقال إنه ليس على البحر أحسنُ منه؛ وقد كان كريم الدين همَّ بعمارته وإدارته فعاجله ما سبق نبَّه عليه الكتاب، وصرف عنه وقد وضع رجله إليه في الرِّكاب.

ـ ثم من اللاَّذقية إلى «صِهْيَون»: وهي قلعة جليلة وكانت دار متملِّك[١]، وإليها تحيَّز الملك الكامل سُنْقُر الأشقر، إذ كسر بعد ملك ما بين العريش والفرات، وقد كان المظفَّر بيبَرْس الجاشنكير ـ بعد عوْد سلطاننا وأخذ غصبيته من يده ـ قد سأل في تَرْكِه بصهيون.

ـ ثم من صهيون إلى «بَلاَطُنُس»: وهو من مشاهير القلاع. ومن شاء فمن صهيون إلى «بـرْزَيْه»: وهو حصن سمِّيَ باسم من عمره أو عُرف بملكه. ومن شاء فمن بلاطُنُس إلى [العُلَيقة][٢] أول قلاع الدَّعوة مما يلي بلاد طرابلس؛ ثم منها إلى «الكَهْف»؛ ثم منها إلى «القُدْمُوس»؛ ثم منها إلى «الخوابي»؛ ثم منها إلى «الرُّصَافة»، ثم منها إلى «مِصْياف». فهذه جملة مراكز طرابلس. فأما مَقَارُّ الولايات فمن واحدة إلى أخرى. وبتمام ذكر ذلك تَمَّ ذِكْرُ جميع مراكز البريد بالممالك المحروسة.

فأما من أطراف ممالكنا إلى حضرة «الأردو»[٣] حيث هو مُلك بني هولاكو فلهم مراكز تسمّى: خيل الأولاق وخيل اليام يُحمل عليها، ولكنها لا تشترى بمال السلطان، ولا تُكلَّف منه[٤]، وإنما هي على أهل تلك الأرض نحو مراكز العرب في رمل مصر ونحو ذلك.

---

(١) في صبح الأعشى: «دار مُلك». وأظن الصواب ما ورد في ط ق، والذي أثبتناه هنا. ذلك أن العمري وسائر كتاب ذلك العصر كانوا يميزون بين «الملك» و«المتملِّك». فالمتملِّك هو الذي يستطيع أن يغتصب ناحية ما من نواحي ديار المسلمين أو يسترجعها منهم بالقوة، كما كان الحال مع متملِّك سيس.

(٢) في ط ق «القليعة» وهو خطأ.

(٣) أردو: لفظ مغولي معناه: المعسكر. وقد استعمل في المراجع العربية والفارسية في هذا العصر للدلالة على معسكر إيلخان الدولة المغولية بفارس.

(٤) في الصبح: «ولا يكلَّف ثمنها». ولعلَّها: «ولا تُعْلَفُ منه» أي من مال السلطان.

الباب الثاني

في مراكز الحمام [1]

وأول ما نقول إنه نشأ من بلد الموْصِل، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميُّون بمصر وبالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام؛ وللفاضل محيي الدين بن عبد الظاهر في ذلك كتاب سمَّاه: «تمائم الحمائم»[2].

فأما أولُ من آعتنى به من الملوك ونقله من المَوْصِل فهو الشهيد نور الدين محمود بن زنكي ـ رحمه الله ـ سنة ٥٦٥ هـ.

وآعلم أن الحمام بمصر قد آنقطع تدريجُه بالوجه القبلي، وقد كان متصلاً إلى قوص وأُسْوان وعَيْذاب، ولم يبق الآن منه إلا ما هو من القاهرة إلى الاسكندرية، ومن القاهرة إلى دِمْياط، ومن القاهرة إلى السُّوَيْس، ومن القاهرة إلى بُلْبَيْس متصلاً بالشام.

ومن بِلْبَيْس أيضاً إلى الصَّالحيَّة، ومن الصالحيَّة إلى قَطْيَا، ومن قَطْيَا إلى الورَّادة، ومن الورَّادة إلى غزَّة.

ومن غزَّة إلى بلد الخليل عليه السلام؛ ومن غزَّة إلى القدس الشريف؛ ومن غزَّة إلى نابُلُس.

---

(١) ويقال فيها: مطارات الحمام الرسائليّ.

(٢) وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك: أبو الحسن بن مُلاعب الفوارس البغدادي، فصنَّف فيه كتاباً للناصر لدين الله الخليفة العباسيّ ببغداد، وذكر فيه أسماء أعضاء الطائر وريشه، والوشوم التي توسم في كل عضو، وألوان الطيور، وما يستحسن من صفاتها، وكيفية إفراخها، وبُعد المسافات التي أُرسلت فيها. قال القلقشندي: وأظن أن كتاب ابن عبد الظاهر نتيجة عن مقدّمته.

ومن غزَّة إلى لُدّ، ومن لُدّ إلى قاقون، ومن قاقون إلى جينين، ومن جينين إلى صَفَد، ومن جينين إلى بَيْسَان، ومن بَيْسَان إلى أَرْبَد، ومن أَرْبد إلى طَفْس، ومن طَفْس إلى الصَّنَمين، ومن الصَّنَمين إلى دمشق.

ومن كل واحدة من هذه المراكز إلى ما جاورها من المشاهير: مثل من بَيْسَان إلى أذْرِعات، ومن طَفْس إليها لإشعار والي الولاة.

ثم من دمشق يسرح الحمامُ إلى بعلبك، ويسرح إلى قارا، ويسرح إلى القَرْيَتين.

ثم من قارا إلى حمص، ومنها إلى حماة، ومنها إلى المعرَّة، ومنها إلى حلب

ومن حلب إلى البيرة، وإلى قلعة المسلمين، وإلى بَهَسْنَى، وإلى بقية ماله شأن مما حولها.

ثم من القريتين إلى تَدْمُر، ومنها إلى السُّخْنة، ومنها إلى قُبَاقِب، ومنها إلى الرَّحبة. وقد تعطَّل الآن تدريج السُّخْنة إلى قُبَاقِب، وإنما صار يسوق ببطائق تَدْمُر الواقعة بالسُّخْنة منها إلى قُبَاقِب، ثم يسرَّح على الجناح من قُباقِب إلى الرَّحبة.

وبهذا تمَّ ذِكْرُ الحمام في سائر الممالك الإسلامية[١].

---

(١) لم يذكر العمري الأبراج الموصلة إلى أسوان وعيذاب والإسكندرية ودمياط. كما جاء في الموسوعة الفلسطينية أن مراكز الحمام من غزّة إلى الكرك كانت: الخليل والصَّافية والكرك. كما ارتبطت غزّة بأبراج مدينتي بيت المقدس ونابلس.
(الموسوعة الفلسطينية: ١/٣٩٠)

الباب الثالث

مراكز هُجْن الثلج[1] [ومَراكبه]

وهي لا تعمر بالهُجْن إلا أوانَ نقل الثلج من دمشق إلى حضرة السلطان بقلعة الجبل، وذلك ممّا حدث في أثناء دولة سلطاننا ـ تغمَّده اللَّه برحمته ـ وأستمرّ. وقد كان قبل هـذا لا يُحمل إلا في البحـر، خاصـةً من الثغور الشـامية ببيـروت وصيدا. ويُفرض على البقاع وبعلبك إرفادهما في ذلك؛ وكـان يسيراً فكثـر، وقرّ منـه على طرابلس مما آستقر على «جُبّة بشرّي» والمنيطرة.

والمراكب تأتي دِمْياط في البحر، ثم يخرج الثلج في النيل إلى ساحل «بُولاق» فينقل منه على البغال السلطانية ويحمـل إلى «الشَّرابْخـاناه»[2] الشـريفة ويُخزَّن في صِهْريج أُعدَّ له؛ وهو الآن يُحمل في البر والبحر. ومدَّةُ ترتيب حَمْله من حزيران إلى آخر تشرين الثاني. وعِدَّة نقلاته في البر إحدى وسبعون نَقْلةً متقاربة مدة ما بينها، وقد صار يزيد على ذلك. ويُجهَّز بكل نَقْلة بريديٌّ يتدَرَّكه، ويجهَّز معه ثلَّاج خبير بحَمْله ومداراته، يُحمل على فرس ببريد ثـانٍ. وآستقرَّ في وقتٍ أن يُحمَـل المـلَّاح[3] على خيل الولاية.

(١) وهي التي تحمل الثلج من الشام إلى مصر. وذكر العسكري في «الأوائل» أن أول من حُمل إليه الثلج الحجاج بن يوسف بالعراق.

(٢) سبق التعريف بها.

(٣) كذا في ط ق. ولعلّ الصواب «الثلّاج»، كما هي عبارة الصبح.

والمُرْصَد في كل نَقْلة خمسة أحمال؛ والمستقرُّ في كل مركـز له ستَّةُ هُجْن: خمسةٌ للحَمْل، وواحد للهجَّان.

ومراكز الهُجْن: من دمشق إلى الصَّنَمين، ثم إلى طَفْس[1]، ثم منها إلى أَرْبَد، ثم منها إلى بَيْسان، ثم منها إلى جينين، ثم منها إلى قاقون، ثم منها إلى لُدّ، ثم منها إلى غزَّة، ثم منها إلى العريش (وهو آخر ما قرِّرت إقامته على مملكة الشام، خلا جينين فإنه على صَفَـد) ثم من العريش إلى الـورَّادة، ثم منها إلى المُـطَيْلِب، ثم منها إلى قَطْيـا، ثم منها إلى القُصَيْر، ثم منها إلى الصَّالحية، ثم منها إلى بُلْبَيْس، ثم منها إلى القلعة ـ حُرِسَتْ.

ومن الورَّادة إليها[2] تركب الهُجْنُ من المناخات السلطانية والكُلفة على مال مصر. فهذه جملة مراكز الهُجْن.

[في المراكب التي تنقل الثلج]: فأما عدد المراكب المُسْفَرة به في البحر فكانت في أيام الظاهر بيبرس ثلاثة مراكب في السنة، لا تزيد على ذلك. ودامت على أيام سلطاننا في السلطنة الثالثة، وبقيت صدراً منها، ثم أخذت في التَّزايد إلى أن بلغت أَحَدَ عشَرَ مركباً من مملكتي الشام وطرابلس، وربما أنافت على ذلـك. ثم قُلِّل منها آستغناءً. وآخرُ عهدي بها من السبعة إلى الثمانية تُطلب من الشام ولا تُكلَّف طرابُلُسُ إلا المساعدة، وكل ذلك بحسب آختلاف الأوقات وداعي الضرورات. وإذا سافرت سافر معها من يتداركها من ثلاَّجين لمداراتها. والواصلون بها على المراكب يعودون على البريد في البرّ.

ولا يصل [الثلجُ] متوفَّراً إلا إذا أُخذ من الثلج المجلَّد، وأُجيد كَبْسُه، وآحْتُرِز عليه من الهواء، فإنه أسرع إذابةً له من الماء. ومنذ قُرِّر مـا يُحمل منـه على الظهـر آستقرَّ منه خاصُّ المشروب، لأنه يصل أنظفَ وآمَنَ عاقبةً؛ على أن كل المتسفِّـرين

---

(١) في صبح الأعشى: من الصنمين إلى بانياس إلى أربد.
(٢) أي إلى قلعة الجبل بالقاهرة.

يأخذون الجاشنيَّ[1] منه بحضور «أمير مجلس»[2] «وشادّ الشَرابْخاناه السلطانية»[3] وخُزّانُها. فأما المنقولُ في البحر فلسوى ذلك؛ وللمجهِّزين به من الخلع والإنعام رُسومُ مستقرّة، وعوائدُ مستمرّة. وقد نُبّه على ذلك كلّه لموضع الفائدة فيه. وبهذا تمّ ذِكْرُ المراكز بجميع الممالك الإسلامية بمصْراً وشاماً[4].

---

(١) لعلّ المراد به: الثلج الرديء الذي له طعم أو رائحة نتيجة ما يعلق به من جراء نقله. فلفظ «جاشنا» بالفارسية معناه: الذوق؛ والذي يتذوّق الطعام السلطاني كان يسمّى: الجاشنكير، وكان يسمّى أيضاً: الشيشنيّ.

(٢) هو الذي يتحدّث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحداً. ومن عمله أيضاً أنه يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير في الترتيب وغيره.
(صبح الأعشى: ٤/١٨ و ٥/٤٥٥)

(٣) وهو الذي يتحدّث في أمر الشرابخاناه السلطانية: من مشروبات تقدّم للسلطان وسكر وفواكه وغير ذلك. ومن يتولى هذه الوظيفة يكون تارةً مقدّماً وتارةً طبلخاناه. وهذه الوظيفة كانت بمصر، ولا وجود لها بدمشق. (صبح الأعشى: ٤/٢١ و١٨٨)

(٤) وقد جرت العادة أن واصل الثلج في كل نقلة في البر والبحر تُكتب به رجْعةٌ من ديوان الإنشاء؛ وهذا هو وجه تعلّقه بديوان الإنشاء. (صبح الأعشى: ١٤/٣٩٧)

الباب الرابع

في المَنَاوِر والمُحْرِقات

أما المَنَاوِر: فهي مواضِعُ رَفْع النار في الليـل، والدُّخـان في النهار، لـلإعلام بحركات التَّتار إذا قصدوا البلادَ للدخول لحرب أو لإغارة.

ولما يُرفع من هذه النيران، أو يدخَّن من هذا الدخان، أدِلَّةٌ يُعرف بها اختلافُ حالات رؤْية العدوّ والمخبر به باختلاف حالاتها، تارةً في العَدَد، وتارة في غير ذلك. وقد أُرْصِد في كل مُنَوِّرٍ الدَّيَادِبُ[1] والنظَّارة: لرؤْية ما وراءَهم وإيراءِ ما أمامَهم، ولهم على ذلك جَوَامِكُ[2] مقررة لا تزال دارَّة. فمنذ أصلح اللَّهُ بين الفئتين، وأمِنَ جانب الجهتين، قد قلَّ بذلك الاحتفال، وصُرِف عن البال.

والمَنَاوِرُ المذكورة تارةً تكون على رؤُوس الجبال، وتارةً تكون في أبنية عالية، ومواضِعها تعرَّف بها أكثر السفَّارة؛ وهي من أقصىَ ثغور الإسلام كالبيرة والـرَّحْبة إلى حضرة السلطان بقلعة الجبل؛ حتىَ إن المتجدِّدَ بُكرةً بالفرات كان يُعلم بهـا عشاءً، والمتجدِّدَ عِشاءً كان يُعلم بها بُكرةً.

---

(١) الدَّيادب والنظَّارة بمعنى واحد، أي: المراقبون المترصِّدون. ولفظ الديادب جمع دَيْدبـان؛ وما زال مستعملاً إلى اليوم في مصر.

(٢) الجوامك هي الرواتب. ومفردها: جامكيّة. واللفظ من الفارسية «جامه» بمعنى اللباس، ومعناها اللغوي كما يرى دوزي: مصروفات دولاب الملابس. والجامكية في الاصطلاح: الجراية الشهرية تعطى من غلّة الوقف، فهي من ناحية أجر، ومن ناحية منحة.

(انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ٥٩)

فأما طريق الرَّحْبة: فكان ينوِّر بمدينة «عانا»[1] قومٌ من النُّصَّاح (بحجّة أمرٍ سوى التّنوير، ويسْتُر عليهم أهل البلد حبا لملوكنا) فتُرى نارُه أو دخانُه «بخربة الروم» وبالجرف أيضاً؛ ويُرفع فيهما أو في إحداهما فيرى من كل منهما بوادي الهيكل؛ ويُرفع فيه فيُرى بالقناطر؛ ويرفع بالقناطر فيُرى بالرَّحْبة ـ وقاها ـ اللّه ـ ويُرفع فيها فيُرى في كوائل؛ ويُرفع فيها فيُرى في منْظَرة قُباقب؛ ويُرفع فيها فيُرى بحفير أسد الدين؛ ويُرفع فيها فيُرى بالسُّخْنة؛ ويُرفع فيها فيرى بمنْظَرة أُرك؛ ويُرفع فيها فيُرى بالبُوَيْب (وهو قنطرة بين أُرَك وتَدْمُر) ويُرفع فيها فيُرى بمنظَرة تَدْمُر؛ ويُرفع فيها فيُرى بمنظرة البيضاء؛ ويُرفع فيها فيُرى بالحَيْر؛ ويُرفع فيها فيُرى بجُلَيْجِل؛ ويُرفع فيها فيُرى بالقريتين؛ ويُرفع فيها فيُرى بالعطنة؛ ويُرفع فيها فيُرى بثنيَّة العُقاب، ويُرفع فيها فيُرى بمئذنة العروس؛ ويُرفع فيها لما حولها إنذاراً للرعايا وضمّاً للأطراف؛ ويرفع حول دمشق بالجبل المطلّ على بَرْزة فيُرى بالمانع، ويُرفع به فيُرى بتلّ قرية الكتيبة؛ ثم يُرفع فيها فيُرى بالطُّرَّة؛ ويرفع فيها فيُرى بجبل أُرْبد وبجبل عَجْلون، ثم يُرفع بها فينوِّر بجبل طَيِّبة، ثم يُرفع بها فيُرى بالمنوِّر المعمول إزاءَ البئر الذي برأس الجبل المنحدر إلى بَيْسان ويعرف بعَقبة البريد (وقد عُدِل الآن بطريق البريد عنه)[2] ويُرى منه أطرافُ أعمال نابُلُس ـ نحوَ جبال أبزيق وما حولها ـ ويُرفع من هذا المنوِّر الذي برأس عَقبة البريد فيُرى بالجبل المعروف بقرية جينين؛ ثم يُرفع منه فيُرى بجبل فحْمَة؛ ثم يُرفع منه فيُرى بشُرْفة قاقون؛ ثم يُرفع منه فيُرى بأطراف أعمال نابلُس، ويُرى على قَصْد الطريق بذرْوَة الجبل المصاقِب لمجدل يابا؛ ثم يُرفع منه فيُرى بمركز ياسور (وقد عدل البريد الآن عنه)؛ [ثم يُرفَع منه فيُرى بالجبال المطلّة على غَزَّة][3]؛ وتُرفع بغزة على

---

(١) ويقال أيضاً: عانة، وعنَّة، وعانات: وهي في العراق بين الرَّقَّة وهيت.

(٢) عبارة صبح الأعشى التي نقلها القلقشندي عن التعريف: «ولا عدول بطريق البريد الآن عنه». (الصبح: ١٤/٣٩٩)

(٣) ساقطة من ط ق. والزيادة من صبح الأعشى، وهي يقتضيها السياق.

أعالي الحذب المعروف بحذب غزّة. ثمَّ لا مُنوِّر ولا إخبار بلسان النار[1] إلّا على الجَناح والبريد.

ثم اعلم أنَّ من جميع ما ذكرناه مَناورُ تتشعَّب إلى ما خرج عن جادَّة الطريق إلى البلاد الآخذة على جَنْب جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً. فأما هذه المناورُ الآن فرُسُومٌ قد عفتْ، وجُسومٌ أكلَتْ شُعُلُ النار أرواحها فانْطَفَتْ؛ والحمدُ للَّه على أمْنِ إطفاء نارها؛ وإخفاء مَنارها.

وأما المُحْرِقات: فقد كان الاهتمام بها أوَّل شيء؛ وهي مواضع مما يلي بلادنا من حد الشرق داخلة في تلك المملكة[2]، كان يجهَّز رجالٌ لتحرق زرعها ونباتها؛ وهي أراضٍ مخصبة كانت تقوم بكفاية خيل القوم مَرْعًى إذا قصدوا البلاد، فكانت تُحرَّقُ إضعافاً لهم وإقعاداً لحركاتهم، إذ كانوا من عادتهم لا يتكلفون عُلوفةً لخيلهم، بل يَكِلونها إلى ما تُنبت الأرض: فإذا كانت أرضاً مخصبة سلكوها، وإذا كانت مُجدبة تجنَّبوها. وكانوا لا يفطنون لقصد حريقها، ثم فطَّنهم أهلُ المداجاة، فصاروا يربطون عليها الطريق؛ ويمسكون منها بالأطراف، وقُتل عديدٌ بسببها، وأحرقوا بأشَدِّ من نارها. وكان يُنفَق في هذه المحرقات في كل سنة من الخزانة بدمشق جُمَلٌ من الأموال، ويجهَّز فيها أجلادُ الرجال. وكان شأنُهم في الإحراق أستصحابَ الثعالب الوحشية والكلاب المنفّرة، ثم يكمن المجهَّزون لذلك عند أُمناءِ النصَّاح وفي كهوف الجبال وبطون الأودية؛ وتمضي الأيام حتى يكون يومٌ ريحُه عاصفٌ وهواؤه زَعْزَع، تعلَّق النارُ موثوقة في أذناب الثعالب والكلاب، ثم تُطلق الثعالب، والكلابُ في أثرها وقد جُوِّعت، فتجدُّ الثعالب في الهَرَب، والكلابُ في الطَّلَب، فتحرق ما مرَّت به [من الزرع والنبات]، وتُعلقُ الريحُ النارَ منه فيما جاوره، هذا إلى ما كانت تُلقيه الرجال بأيديها في الليالي المظلمة، وعشايا الأيام المعتمة. وكان أصحابُنا يجدون في هذا رِفْقاً ودفعاً عن مباغَتَة الأطراف ومهاجمة الثغور.

(١) عبارة صبح الأعشى: «ولا إخبار بشأن التتار». والعبارتان تؤدّيان نفس المعنى.

(٢) يعني مملكة بني هولاكو من التتار.

وهذه مواضعُ المُحْرِقات وهي: ببلاد البُقعة أرضُ البُقعة، والثَّرْثار، والقينة، وباشزة، والهَتَّاخ، ومشهد ابن عمرو[1]، والمُوَيْلح، وبلاد نِينَوىٰ وهي من الموصل الآن. ونِينَوىٰ كانت ذات الذكر القديم، ويُقال إنها البلد المرسل إليه يونس عليه السلام. والمُحْرِقات بها: ببرطلة والقنيطرة؛ وقد كان علي باشا آبن حجك حين دانت له الدولة قد عَزَم على أن يبتنيَ بها مدينةً جليلة تكون مقراً للسلطان، إيثاراً لعدم مفارقة الأوطان، فعاجله ما حُمَّ له من حِمَامه، وفراغ الدنيا من أيامه.

وتَمامُ المُحْرِقات: الوادي، والمَيْدان، والباب[2] (وأظنه يعرف بعرب طَيّ)، والصُّوَيْمعة[3]، والمرج المعروف ببني زَيْد، والمرج المحترق، ومنازل الأويراتية (وهي أطراف هذه المواضع إلى جبل الأكراد. وكل هذه الأرض مجال خيلهم وقرارة سيلهم) وبلاد سنجار ـ المنطق، والمَنْظَرة، والمَزْيَدة، وتحت الجبال عند التُّليلات.

فأما أرض الجبال[4] فإنها كانت لا تُحرَق، وأبوابها بغير طارقِ خيرٍ لا تُطرق، إذ هي بلدُ البقيَّة القادريَّة من ولد شيخ الإسلام عبد القادر الجيلي المعروف عند العامة بالكيلانيّ ـ نفع الله به وببقيّته الصالحة ـ؛ وهذه الذرِّية معظَّمةٌ في الجهتين، ولهم عند ملوكنا المكانة العالية، لقديم سَلَفهم، وصميم شرفهم، ولما للإسلام وأهلِهِ من إسعافهم بما تصل إليه القدرةُ ويبلُغه الإمكان.

ومن تمام المُحْرِقات: البازار[5]، وأعالي جبل سنْجار، وكلُّ ما يقدر عليه في تلك الديار. فهذا جملة ما على الخاطر، وغاية ما يستحضره على طول المدة الذاكِر؛ وإنما هو مثال، وما تُضرب به الأمثال.

---

(١) في الصبح «مشهد ابن عمر»

(٢) في ط ق «اليرت». وما أثبتناه من الصبح.

(٣) في الصبح «الصومعة»

(٤) أرض الجبال: اسم أطلقه العرب على العراق العجمي، وهو ميديا القديمة. وهو بالتحديد الولاية التي يحدّها شرقاً صحراء خراسان وفارس، وغرباً أذربيجان، وشمالاً جبال البرز، وجنوباً خوزستان.
(دائرة المعارف الإسلامية: ١١/٤٠)

(٥) في صبح الأعشى: «التارات».

القسم السابع

في أوصاف ما تدعو الحاجةُ إلى وصفه مما يكثر ذكرهُ في المُكاتبات

ويشتمل على سبعة فصول:

- الأول: في الآلات ما يندرج معها بحكم التَّبع.
- الثاني: في الحيوان.
- الثالث: في الأمكنة.
- الرابع: في المياه وما هو من لازمها.
- الخامس في الكواكب.
- السادس: في الأزمنة.
- السابع: في الأَنْواء.

الفصل الأول

في الآلات: وهي أنواع

النوع الأول: السِّلاح.

في السَّيْف: وسَلَّ منه سَيْفاً بمضي حُكمُه على الرِّقاب، ويقضي على المرء بما تُبقي بقاياه للأعْقاب؛ يجدُّ به اللاّعب، ويتلقّى بصدره المتاعب؛ ويدْنو من العدوّ آقتباسُه، ويعزُّ عليه إذا تَألَّى[1] في الحرب فما يُقسَم به إلا رأسُه؛ لا يُمنَعُ دونه زَرَدٌ مَوْضُون[2]، ولا بَيْضٌ[3] مكنون؛ قد توقَّد شُعَلا، وسفل الفِرنْدُ[4] في تيَّاره وعَلا؛ وكادَ لولا السَّلُّ يأكل غِمْدَه، ويقطع حتَّى بَنْدَه؛ وقد تَرَدَّى حامِله منه بابن صاعِقَه، وأرى الآجالَ منه كل بارِقه؛ وقد قذف في اللُّجِّ سَعيرَه، وقبل في إبلاغ الآجال سفيرَه؛ كأنَّ على مَتْنِه سلخ أَيْم[5]، أو كأنه متلفِّعٌ بقِطعٍ من غَيْم؛ قد أسْبل الضَّاربُ منه ذيل ذُبابه[6]، وراعَ الأعداءَ فما خافوا من أسَده المزَمْجِر إلا سقوطَ ذُبابه؛ فأدنى به لأجله كلَّ مُحْضَر، وجنىَ منه ثمرَ الوقائع يانعاً من ورق الحديد الأخضر.

ـ **وفيه**: وسَلَّ سيفاً سالَ المنونُ من لُعابه، وسار الصوتُ في إهابه؛ وتناوَم عِذَارُه[7] مِلْءَ جفونه فما هَجَع، وتناوب للوثوب للمُهَج فما رجع، وتباكى على من قتل

---

(١) تألّى: اجتهد، وحَلَف.

(٢) الدرع المقاربة النَّسْج المتداخلة الحلق بعضها في بعض.

(٣) البيضة: آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه. وربما كان ذلك من زَرَد.

(٤) الفِرنْد: ما يلمح في صفحة السيف من أثر تموّج الضوء؛ وهو السيف نفسه.

(٥) الأيْم: الحيَّة الذكر، جمع أُيوم.

(٦) ذباب السيف: حد طرفيه.

(٧) العذار: شفرة النصل.

فجَرَتْ دموعُه دماء، وتحرَّق على مَنْ سَلِم فتوقَّدت ضلوعُه ناراً وترقرقت مآقيه ماء.

في الرُّمح: وأعدَّ له كلَّ معتدل الكعوب، يجدُّ به اللاّعب وهو ملعوب؛ يُضرِّسُ الحربَ بأنيابه، ويتمسَّك الموتُ المطنب بأسبابه؛ يُجري الدماءَ بالأنابيب[(١)]، ويأخذ الفارسَ بالتَّلابيب؛ تُحرزُ بـه المكاسب، ويُلقط بِبَنـانـه من الأرواح مـا لا يُحْصيـه الحاسِب؛ يودُّ البرقُ المعترضُ في السَّحـاب لو أنَّـه في هيئته تصـوَّر، ويتمنَّى نطاقُ البروج في السماء لو أنَّه بشُـرُفاتـه تسوَّر، ويتيمَّن الأوليـاء بثغْره الضَّـاحك ويتشـاءم الأعداء بكعبه المدوَّر؛ يُري له كل طعنة نجْلاء تفجَّر عيها الانهار، ونُطفةٍ زرقاء يقدح شجرها الأخضر النار؛ يعدُّ الموتُ لأسله كلَّ سليل، ولا يوجد فيهـا مَطعَنٌ وللطاعن فيها كلُّ سبيل.

في الطَّبَرْزِين وهو الطَّبَر[(٢)]: وما منهم إلا منْ مشىَ أمامَ ركابنا بطَبَـرْزينه وهـو الطَّبَرْ، وأري من عِيانه ما لا يبلغه الخبر؛ تقرُّ له السيوفُ على نفوسها، ويمضي حُكمه على الـدَّبابيس[(٣)] فتحمله الى رؤوسهـا؛ متى جُرِّد من غـلافه قيـل: هـذا معينٌ قـد نَضَخ[(٤)]، ومتى فتكَ به حامِلُه إن شاء قتل فأجرىَ الدماءَ وإن شاء رَضَخ.

---

(١) يتَّخذ الرمح من القنا، وهو قصب مسدود الداخل، واحدته قناة؛ ويقال لمفاصلها: أنابيب، ولعقدهـا: كعوب. فإن كان قد نشأ في نباته مستقيماً بحيث لا يحتاج إلى تثقيف قيل له: الصَّعْدة، وإن احتاج إلى تقويم مقوَّم قيل له: مثقَّف. وإذا اتُّخذ الرمح من الخشب كالزَّان ونحوه يسمّى: الذَّابل. ويقال للحديد الذي في أعلى الرمح: السِّنان، وللذي في أسفله: الزُّجّ والعقب. ويوصف الرمح: بالأسمر لأن لـون القنا السُّمرة، وبالعَسَّال وهو الذي يضطرب في هزِّه، وباللَّدْن وهو الليِّن، وبالسَّمْهريّ نسبة إلى بلدة يقال لها سَمْهرة من بلاد الحبشة، وقيل إلى السمهرة وهي الصَّلابة. كما يوصف بالخطِّيّ نسبة إلى الخطّ وهي بلدة بالبحرين.

(٢) الطَّبَرْزِين ويجمع على طَبَرْزينات: وهو باللغة الفارسية الفأس. ولذلك يسمّى السكَّر الصلب: الطَّبَرْزد يعني الذي يكسر بالفأس. ويُعرف عند أهل بغداد اليوم بـ «الطَّبر». وإلى الطَّبر تُنسب «الطَّبَرْدارية» وهم الذين يحملون الأطبار حول السلطان.
(صبح الأعشى: ٢/١٥٠؛ ورسوم دار الخلافة: ١٣)

(٣) الدّبّوس: ويسمّى العامود؛ وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها في قتال لابس البيضة ومن في معناه. ويقال إن خالد بن الوليد كان يقاتل به.

(٤) نضخ الماء نضْخاً ونضوخاً: اشتدَّ فورانه من ينبوعه.

في السِّكِّين: وقد شرعت السِّكِّينةُ تنضنضُ[1] لسانها، وتعطي على خُشونة الحدِّ ليانَها؛ وقد كتب الفِرِنْدُ عليها سطوراً، وضرب الشُّبْرُ[2] عليها سوراً؛ وأَطْلَعَ ليلُ الغُلُفِ صبيحتَها الغرَّاء، وطبع حديدَها الازرقُ من الجوهر ما يصير بالدماء، ياقوتةً حمراء، واتَّخذ منها الصاحب في وقت المضيق، ومثل الأخ عند وضعها في نحور الأعداء ولكنّه شقيق.

في القَوْس: وتنكَّب قوساً موعدُ الآجال إهلالُ هلالها، وتَفَيُّؤُ الأبطال بظلالها؛ يشقُّ غُدْرانَ الزَّرَد منها نُونٌ[3]، ويُرسل على عـذَرات الأعداء منها مَنُون؛ تئنُّ ولا يُعرف علاج أمراضها، ويبعد على السيوف ما تقدر عليه من بلوغ أغراضها؛ قد أفاضت من السِّهام الراشقة سَجْلَها، وأثبتت في مستنقع الموت رجلَها؛ وآستوت في قبضة الرامي، وباشرت القتل ونابَ غيرها الدَّامي؛ كم أماتت نفوسَ الأعداء بكَمدها، وتقيَّأتْ دماً من مُهجهم بما رمت من كبدها، فأصمَّت الرمايا وما فارقت ظلَّ الإبهام، وتقاسمت النصر هي والسيف ولكن كان لها دونه أوفرُ السهام.

ـ وفيها: وأخرج قوسه والأرواح في قبضتها، والبرقُ في خاطف وَمْضتها؛ والسهامُ قد أرْخت ذوائبَ نصالها، والاوتار لا تروِّع بفصالها؛ كأنها نصفُ دائرة المَنْجَنُون[4]، أو تَعْريقَةُ نون؛ لا يُشبع سَغَبُها، ولا يُدفع شغَبُها؛ مُعْطِيةٌ مَنُوع، واهِبةٌ تَرُوع؛ صابرةٌ لا تُعرف بندم، سائرةٌ لها رجلٌ إلا أنها لا تمشي بالقدم؛ طائرةٌ ومالَها جناح، غائرةٌ وما طلع على كواكبها الصباح؛ هلالٌ لا يعوزُ رائيه بصير، ضاق فِتْرٌ بمراميه عن مسير.

في السِّهام والكنائن: وقد آعتدَّ معه من الكنائن كلَّ دِيمة، ذات وَبْلٍ مستديمة؛

---

(١) نضنض لسانه: أقلقه وحرّكه. والنضناض من الحيّات: الذي لا يثبت في مكانه لشرّته ونشاطه، أو الذي يخرج لسانه ينضنضه.

(٢) هو الغلاف الجلدي الذي يحيط بنصلها.

(٣) النون: الحوت.

(٤) المَنْجَنون: الدولاب التي يُستقى عليها.

لما يصبُّ منها من صوائب نَبْل قد بريتْ فيها السهام بَرْيَ القِداح، وريْشتْ لصيد ما لا تصيده ذواتُ الجناح؛ ووُصلت من النُّصُول بكل مُشْتدِّ العَقب، قويّ العَصَب؛ مُرْهف الصِّقال، مخُوف الصِّيال؛ تقع حيث وقع، وإذا فاضت السيوفُ غُدْراناً بلّت منه نَقَع؛ يصل إلى ما لو تطاول إليه الرمح للبّب(١) به معتقِله، أوجال في خاطر السيف لضرب به ضاربَـه وقيّد بـه صيقله؛ لا يتكشّف ضَلَلُه(٢) إذا تجلّى القتام، ولا تعيـا حِيَلُه إذا ادّرَعت الفوارس لردّ السِّهام؛ بلاءٌ مُنْزل، وقضاءٌ مُرسَل؛ وحَتْفٌ عـاجل لا يلقـاه إلا حائن، وضُرٌّ بيّنٌ ولهذا لا تزال تتشكّى الكنائن.

في قوس البُنْدُق ويسمّى الجُلاهِق(٣): وبَرَز إلى مَصَارِع الطير ومعه من قِسِيِّ البنـدُق كـلُّ صـائلةٍ بـالحَيْن، صـائبـة بـالعينِ؛ قـد تلفّعت بـالحـرير، وتـوشّعت بالحَبير(٤)؛ ولبست مثل حُلَل الربيع، وسلبت من ريش الطير المختلف الألوان ما ظهر عليها حُسْنُه البديع؛ وقد تعقّفت رؤوسها كأنها جِيْمات الأصداغ، وتَـدَبَّجت قُمُصها فكـأنهـا تعلمت من السمـاء حسن الأصبـاغ؛ وأوتـرت من الأوتـار بمـا طلبت مثله من الطيور، وأسبلت عليها إزْرَ مكداناتها(٥) لأن الحسناء لا يحسن بها السُّفور؛ قـد أصمَّتْ ببندُقهـا، ورَمَت الطيـورَ من أفقها؛ وأصبـح في يـد قبضتهـا كـلُّ محلَّق بجناحه، ومخلَّقٍ(٦) بدمه وجهَ مسائه أو صَباحه، تمدُّ من مقرِّه بُنْدقَها في الوتر شَبَكا، وتزمجر ولا ترثي لمن شكا؛ ترمي الطير منها أمثال الأبابيل(٧)، ويمسك بوعدهـا في أخذ كل ما سَنَحَ في الجوّ لا كما يمسك الماءَ الغَرابيل.

---

(١) لبَّبَ الرجلَ: جمع ثيابه عند نحره في الخصومة ثم جرَّه. ويقال: أخذ فلانٌ بتلابيب فلان.

(٢) الضَّلَل: الماء الجاري تحت الصخرة لا تصيبه الشمس، أو الجاري بين الشجر. والقَتَام: الغبار الأسود.

(٣) وهو قوس يتخذ من القنا ويلفّ عليه الحرير ويغرّى؛ وفي وسط وَتَره قطعة دائرة تسمّى الجوزة توضع فيها البُندقة عند الرمي. والبندق الذي يرمى هو حبّات من الطين توضع في آلة من جلد تسمّى: الجراوة.

(٤) الحَبير: الثوب الناعم الموشّى.

(٥) كذا في ط ق. ولعله: «كماداتها».

(٦) خلّقه: طيّبه بالخَلُوق، وهو ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران.

(٧) الأبابيل: الجماعات، ويجيء في موضع التكثير.

في الجراوة والبُنْدُق[1]: ومعه جِرَاوَةٌ كأنها أفقُ أنجم، أو كنانة أَسْهُم؛ لا يزال الطير الأمن بطوالعه يُنْكب، وفي مطالعها يطل دمه إذا غاب كوكب منها بدا كوكب؛ قد بعثت بالبُنْدُق مراميها فما شاء راميها اغتصب، وصال به لا بها وبالقوس مما ليس في قوّة جلد ولا عصب.

في العامود وهو الدَّبُّوس[2]: ثم ضاق به المجال، وسئم سيفه من قطع الآجال؛ فاخترط من تحت فخذه عاموداً تُهَدُّ به الأبنيةُ المشيَّدة، وتتساقط به الفوارس كأنهم خُشُبٌ في عمد ممدّدة؛ قد كُمِّمَ بالحديد، وارتجَّ موقعه فلما قيل إنه شاشٌ عمَّم به رأس الصِّنْديد؛ يموت به قتيله ولا يتنصَّف، ويفزع وجيبُه وما هو إلا أصلابُ رجال تتقصَّف؛ يأمن به الضاربُ ما يخاف بالسيف في الضِّراب، ويقدِّمه قُدَّامَه لا تحميه عنه الحميلة[3] ولا يُبعد قربه القِراب؛ لا ترى بشِقْشِقَته[4] الأبطال إلا خمودا، ولُجج السيوف إلا جُمودا، ورأس القتيل إذا أهوى إليه إلا كان عليه من فَلَق الصَّباح عمودا؛ لا يحصِّنُ منه خَوذةٌ ولا سِرْبالٌ[5]، ولا يَهاب إبراقَ سيوفٍ ولا نِبال؛ تتكسَّر الاصلابُ الصِّلابُ به تكسُّرَ الزجاج، وتُفَلَّق به بيْضُ الخُوذ مثل بَيْض الدجاج.

في العَصا: وقد خفَّ [عليه][6] محْمَلُها فهو لا يضعها عن عاتقه، ولا يُعِدُّ سواها لإزالة عائقه؛ قد اتَّخذ منها آيةً مُوسَوِيَّةً[7] أصبحت بها يدُه بيضاء، وتصرَّف بها كيف شاء؛ وكان يعتمد عليها إذا وقف، ويجمع عليها فريقَه إذا اختلف؛ وطالما قرع بها كاهِلَ المُنازِع، وكان له في قمع الأعداء بها غيرُ هذا من المنافع: يلين قسوتهم إذا امتنعوا، ويلقف بالأذراء بها ما صنعوا.

---

(١) راجع ص ٢٦٧ ـ حاشية (٣).

(٢) راجع ص ٢٦٥ ـ حاشية (٣).

(٣) الحميلة: علاقة السيف ونحوه. الجمع: حمائل.

(٤) الشِّقْشِقة: شيء يخرجه الجملُ من فيه إذا هاج وهَدَر.

(٥) السِّربال: الدِّرع.

(٦) في ط ق «عليها».

(٧) إشارة إلى الآية التي جاء بها موسى أمام الملإ من قوم فرعون: ﴿فألْقى عَصاهُ فإذا هي ثُعْبانٌ مُبين، ونزع يَدَهُ فإذا هي بيضاءُ للنَّاظرين﴾ [الاعراف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

في البَيْضَة[1]: وقد لبس منها بيضةً زانَها بياضُ مَفْرِقه، وطلع فيها ضوءُ البدر في أُفقه؛ وأتى فيها كأنه قد تلبَّس شعلة لهَب، وعكس بها شعاع الشمس كأنه فضةٌ قد مسَّها ذهب؛ لا يجد له السيفُ فيها مَضْرِبا، ولا يمدُّ له العجاجُ عنيه مِضْرَبا[2]؛ لم يزل يوصَفُ صَبْرُها المذكور. ويلبس الكوافي منها من لا يطمع بما تحت ذيله الذكور؛ قد جعلت نفسَها دون رأس لابسها فداء، وآلتْ أن لا تزال تدفع عنه أعداء.

في الدِّرْع: وأقبل في سابغةٍ ضاقت عيونُها[3] فلمحت السنونَ آزْورارا، وأطَّردت متونُها تشبُّ الوقائعَ نارا؛ تكحَّل بالغبار خزَرَ حَدَقِها، وتطرقُ أبواب الشجاعة بحلقها؛ تردُّ على الشمس شعاعَها، وتُبدي على اللَّمْس مَناعها؛ لامٌ[4] ليست للتعريف، وموجٌ غنيٌّ عن التصريف؛ بأسُها شديد، وبصرها حديد، وبحرُها بعائمه لا يميد؛ تلافيها السيوفُ فتقف عند حدّها، وتخاطبها ألسنةُ الرماح فتحسنُ في ردِّها؛ تفيض على النِّصال فتُخمد لها بَرْقا، وتحشر مجرمي الذوابل زرقا؛ تسمع حديثاً للقتال منقولا، وتردُّ الطاعِنَ فيها مغلولا.

في التُّرْس[5]: وحمل بيده تُرْساً لا يزال به السيفُ يَنْكص على عَقِبه، ويردّ وما زاد على أنْ حصل منه على عُجْبِه؛ كأنما صُنع لمدافعة الأجل، أو صُنع ليحمل عن الضارب فضيحةَ ما يلقاه من الخجل؛ كأنما شبَّ فيه الموتُ وآلْتهب، وطلعت من مشرقه الشمسُ فقيل إنها تُرْسٌ من الذهب.

---

(١) راجع ص ٢٦٤ ـ حاشية (٣).

(٢) المَضْرِب (بفتح الميم وكسر الراء): مكان الضرب؛ والمِضْرَب (بكسر الميم وفتح الراء): الفسطاط العظيم. والعَجاج: الغبار والدخان.

(٣) أي عيون الزَّرد. قال القلقشندي: واعلم أن لبس العرب في الحرب كان الزَّرد، أما الآن فقد غلب عمل القَرْقَلات من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضها ببعض.

(٤) أي لأْمٌ أو لأْمة، وهي كل أدوات الحرب [واللأْمة تجمع على لأْم ولُؤَم.

(٥) وهو الآلة التي يُتَّقى بها الضرب والرمي عن الوجه ونحوه، وتسمّى: الجُنَّة (بضم الجيم ـ أخذاً من الاجتنان وهو الاختفاء). وربما قيل لها: الحَجَفة. ثم هي تارة تكون من خشب، وتارة تكون من حديد، وتارة تكون من عيدان مضموم بعضها إلى بعض بخيط القطن ونحوه. وإن كانت من جلد قيل لها: دَرَقة.

النوع الثاني
آلات الحصار

في المنْجنيق[1]: وأندرتها[2] المنجنيقَ من بعدها، وحذَّرتْها: إلا تتخلَّى وتنفي ما عندها؛ فلما أبتْ إلا آمتناعا، وأن ترخي عقيلتُها المخضوبةُ عليها من الستائر قناع، تقدَّمت إليها المجانيقُ وقد شدَّت نطاقها، وشمَّرت للحرب ساقها، ورمت قبل القلعة قلبَ ساكنها بالوجل، ولطَّخت قبل الدماء بالشفق خدَّها بالخجل، وآستأنَّت في قصدها وجاءت إليها على عَجَل؛ ورَغَتْ رُعُودُها وتلك هدَّة واجب[3]، وقامت في قتالها بالواجب، وأثَّرت في أبدان البَدَنات أمَرَا[4]، وتقدَّمت فما خلَّت في طريقها حجرا؛ وجادلتِ السُّور فما أحسن الردّ، ولعبت معه لعب النَّرْد، فنشط اللاَّغب[5]، وآنبسط اللاَّعب، حتى (آستردتا خيذتها)[6] المغصوبة، وغلبت لما جارت عليها الفُصوص والمجانيقُ منصوبة؛ فقلعت السُّور والباشُورة[7]، وقلبت المدينة من صورة إلى صورة، فما مضت إلا ساعة، وقد بقي صيتُها إلى قيام الساعة.

وفيه: ونصَبْنا عليها من المجانيق ما سامى قلاعها، وسام آقتلاعها؛ وهدم

---

(١) قال ابن قتيبة في كتابه «المعارف» وأبو هلال العسكري في «الأوائل»: «وهو آلة من خشب لها دفَّتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف، وفيه تُجعل كفَّة المنجنيق التي يُجعل فيها الحجر، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه، ثم يُرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفَّة فيخرج الحجر منه؛ فما أصاب شيئاً إلا أهلكه. وأول من وضع المنجنيق: جذيمةُ الأبرش ملك الحيرة» ومما يلتحق بالمنجنيق: الزيارات، وهي اللوالب والحبال التي يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمى به الحجر. والمنجنيق بمثابة المدفعيّة الأرضية في أيامنا هذه.

(٢) الضمير يعود إلى القلعة.

(٣) وجب، يجِبُ، وُجوباً: سقط إلى الأرض. ووجب القلب، وَجيباً: خفق واضطرب. ووجب فلانٌ: مات.

(٤) الأمر: جمع أمرَة، وهي العلامة. والبدنات: الدروع.

(٥) لغب فلانٌ لغْباً: تعب وأعيا، فهو لاغبٌ.

(٦) كذا في ط ق. ولعله «حتى آستردَّت خريدتُها المغصوبة» والخريدة: اللؤلؤة لم تُثقب.

(٧) الباشورة مكان في مدخل القلعة يكون ضيقاً ومتعرّجاً حتى يعيق اندفاع المهاجمين.

سُوْرَها، وهَتَم[1] ثغورها؛ وفجَّر حجارتها لا بالأنهار، وأضجر سيَّارتَها وما غاب نهار؛ وأتت على البلد ومَن فيه، وأتت على ما نطق به لسانها ملءَ فيه؛ وما هانَ أمرُها وهو عنيد، ولا لانَ قلبُها وهو حديد؛ ولا قصر باعُها وهو طويل، ولا آختصر عنانها وهو مَديد؛ من كل مُحكمة التَّرتيب، محكمة التَّدريب، مبسوطة اليد تنادي السماءَ من مكان قريب؛ مفتولة السَّاعد، مقبولة المساعد؛ يتحرَّك لسانها كأنها تعاتب، ويتحرَّر سِنَانُها كأنها قلمُ كاتب؛ لها فخذٌ كريم لا تلوي به على نَسَب، وحبلٌ متينٌ ولا يُتمسَّك منه بسبب؛ قد أثبتت في مستنقع الموت رجلَها، وأنبتت في غابات القنا أصلها؛ وأصبحت كالرجال، لا يُعرف ما في صناديقها المقفلة، وكالأعمال لا تخفُّ كِفَّاتُها المثقَلَة؛ لا تُكاثَر [في] مَجَال، ولا تكابر أنها تَلْقفُ ما صنعوا من عِصِيّ وحبال؛ قد آستلَّت كأنها عُقاب، وآمتدَّت كأنها سَحاب؛ وهدرت كأنها رعود، وآستترت كأنها خُود[2]؛ وآضطرمت كأنها حريق، وآضطربت كأنها طليق؛ وأطلَّت كأنها أَجَل، وولَّت كأنها وَجَل، وطلَّتْ دماءً دبَّتْ في صفحات البَذِيَّات كأنها خَجَل؛ وأنَّت وغيرُها الثَّاكِل، وسَغبت وفي الثغور المضَغُ منها فضْلَةُ الآكل؛ فناجت تلك الشُّرُفات بما محَىٰ محاسنَها، وتتبَّع في المكان مكامِنَها؛ وأرعدت فرائصُ الحجارة، وأخْلَت السُّورَ من النظَّارة؛ وولَجتِ المدينةَ وولعت بمبانيها الهائلةِ ففرَّقت شملَها، وبعقودها الطائلة فحلَّت نظمَها وعجَّلت حَلَّها؛ وألقت عن المدينة نِطاقَ السُّور، وفكَّت عن الجِيد عِقْدَ جَيْبه المزرور؛ ودخلت العساكِرُ المنصورة إلى داخل المدينة هجماً من كلِّ مكان، ووثْباً على آثار الثَّوْر كأنه ما كان؛ ومُلِكَ البلدُ[3] بمجموعه ورفعت به الأعلام، وسُمعت به دعوةُ الإسلام؛ وتُسُنِّمت ذِرْوَةُ الأبراج للأذان، وتُسُلِّمت ولصانع المنجنيق اليد وله الإحسان.

في الزِّيَارات[4]: وشدَّ من الزِّيارات كلَّ ذات معجزة خارقة، ورجل دائسةٍ في

---

(١) هَتَم الشيءَ: كسره. والأهتم: الذي تكسَّرت ثناياه.

(٢) مفردها: خَوْد؛ وهي الشابة الناعمة الحسنة الخَلق.

(٣) في ط ق «البلاد».

(٤) راجع الصفحة السابقة ـ حاشية (١).

الأرض ولها يدٌ لأعناق المعاقِل خانقة؛ تَهْدُر مثل الفَنِيق[1] إذا أَزْبد، وتباري المنجنيق فتقول: هذه صنعةٌ ما لي فيها يد.

في السَّتائر[2]: وتستَّرت تلك المحجبَّة، وتسوَّرت بأسوار أخرى من السَّتائر غدت النَّواظِرُ منها متعجِّبه، ثم طفقت لا تنظر إلا من وراء سُتُور تلك السَّتائر، ولا يُعرف بها ما في داخلها إلا كما يُعرف ما في السَّرائر؛ وقفت دريئةً للسِّهام إلا أنها سهامُ المنجنيق، وصبابةً لكلِّ صبٍّ لا يرى منظرَها الأنيق؛ وأقام مَنْ فيها خلفَها يخاتِل، وغايته أن يدافع عن نفسه وهو يوهِم أنه يقاتِل.

في السِّهام الخطائيّة[3]: ومن السِّهام خطائيَّةٌ لا تخطي صوائبُها، ولا تخطي مهلكَ قرية مصائبُها؛ قد حُشيَتْ صدورُها غضباً، وكاثرت السهامَ بأجنحة النار غلباً، لا تُنَكِّبُ[4] طرقُها، ولا تفرِّق الأعداء ويحرقهم إلّا[5] رعْدُها المجلجِل وبرقُها.

في مكاحِل البارود[6]: ومن مكاحِل كم أعمى عينَ بلد كحْلُها، وكم لقح بَدَنَةً[7] مُبْدِنةً فحْلُها؛ وكم رمى فيها نُطْفة نار، وآشتملتْ أحشاؤها منه على جنينٍ كانت النار عليها به أهونَ من العار؛ لا تُبالي بالأعداء إذا أخرجت لهم خفايا سرِّها،

(١) الفنيق من الإبل: الفحل.

(٢) وهي آلات الوقاية من الطوارق وما في معناها مما يستر به على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال ونحو ذلك.

(٣) في صبح الأعشى: «الخطابة». قال: وهي سهام عظام يرمى بها عن قسيّ عظام توتَّر بلوالب يجرّ بها ويرمى عنها فتكاد تخرق الحجر.

(٤) أي لا يحيد عن طرقها.

(٥) كذا هي عبارة ط ق. ولعله: «وتفرِّق الأعداء ولا يحرقهم إلا رعدُها... الخ»

(٦) قال في صبح الأعشى: وهي المدافع التي يُرمى عنها بالنِّفْط. وحالها مختلف: فبعضها يرمى عنه بأسْهُم عظام تكاد تخرق الحجر، وبعضها يرمى عنه ببُنْدُق من حديد من زنة عشرة أرطال بالمصريّ إلى ما يزيد على مائة رطل. قال: وقد رأيت بالإسكندرية ـ في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين ـ مدفعاً قد صنع من نحاس ورصاص، وقيِّد بأطراف الحديد رُمِيَ عنه من الميدان ببُنْدُقة من حديد عظيمة محمَّاة فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر، وهي مسافة بعيدة.

(٧) البدنة: ناقة أو بقرة تُسمَّن لتنحر قرباناً.

ولا تخشى إذا أبدت للقوم خبايا شرِّها؛ توردُ القلاعَ منها النارَ ذاتَ الوَقُود، وتَرُضُّ ببنادقها رؤوس الشُّرُفات وتكسر أضلاعَ العقود؛ فكم دخل بندُقُها المدينةَ هَجْماً، وقذف شيطانَها المَريدَ[1] بشهابٍ كأنَّ له رَجْمَا.

في قوارير النِّفْط[2]: وقد صَدَمهم من النِّفط تلك القَوارير، وأُجيل في بحر أفكارهم أخبارُ تلك القراقير[3]؛ ورَمَت القلاعَ منها ببلاءٍ يقتلع قليعتَها، ويسدُّ ذريعتَها؛ فإذا هي في تلك البروج متسلِّقَة، وبحبال تلك العقيلة متعلِّقة؛ ثم إذا بها قد نشرت عليها رايتها الحمراء، ودبَّت بعقارب البارود المصوَّرة الضرَّاء؛ وآمتدَّت أغصانُ شجرتها وقد توقَّدت ناراً تتأجَّج، وتفتَّحت ورداً إلا أنه كلما ذَبُل تضرَّج.

النَّوع الثالث
الآلاتُ المُلوكيَّة[4]

في التَّخْت[5]: وعقد لإجماعٍ على مُلْكِه، ونظم لاجتماعٍ في سِلْكِه؛ فآنْحَلَّ الرِّتاج، وحلَّ على التَّخْت فحلَّى التَّخْتَ والتَّاج؛ وكان للسَّرير، أجلَّ مما جُلِّلَ به من الحرير؛ وأعظَمُ مما صُفِّح به من الذهب، بعضُ ما وَهَب؛ فشَرَّف قَدْرَ ذلك العود، وتمنَّى أنَّ زمانَه في الغصن الأخضر لا يعود؛ وأتى تَخْتُ أفريدونَ[6] دونَه، ووَدَّ عرشُ بلقيسَ أن يكونه؛ فما علا مثلُه قَدْرُ تَخْت، ولا قُدِّر لمثله بَخْت.

في المِنْطَقَة[7]: وأنْعَمَ عليه بمنطَقَةٍ شدَّ بها ظهرَه، وشدَّ أُزْرَه؛ وناط بها من

---

(١) الشيطان المَريد: الخبيث المتمرِّد الشرِّير.

(٢) وهي قُدور ونحوها يجعل فيها النِّفط ويُرمى بها على الحصون والقلاع للإحراق.

(٣) القراقير: نوع من السفن الطويلة العظيمة.

(٤) الآلات المتعلِّقة بالملوك. ويحتاج الكاتب إلى وصفها عند وصف المواكب الحفيلة التي يركب فيها السلطان.

(٥) ويقال له: السَّرير؛ وهو ما يجلس عليه الملوك في المواكب.

(٦) من ملوك الفرس العظام.

(٧) وهي ما يُشدُّ في الوسَط؛ وكان يقال لها أيضاً: الحياصَة. قال القلقشندي: «وهذه الآلة قد ذكرها في «التعريف» في الآلات الملوكيَّة، على أن ملوك الزمان [ويعني زمانه] لم تَجْرِ لهم عادةٌ بشدِّ مِنطقة، وإنما يُلبسها الملكُ للأمراء عند إلباسهم الخِلَع والتَّشاريف».

العلائق ما يحسن تحت عاتقه، ولا يزال يذكر بها عند المنعم بها بعلائقه؛ قد زُيّنت بها الخصور، وتطلّب ما ضاع تحتها من صُبب الثياب فأصبحت عليه تدور؛ فضمّ ذلك الوشاحُ الخصْر إليه، وقال ذهبُه: كم لي أدور وما وقعت لي عينٌ عليه.

في الخاتم: وتناول خاتم الأمان بيده، وختم على ما ختم بعسْجده؛ فكأنما سَلب به الثُّريَّا ما كانت يدُها قد ادّخرته لِبَنانِها، وجعلته ألْسِنَةُ الشموس الملغلغة خاتماً لبَيانها.

في المِنْديل[1]: وتناول منه منديل الأمان[2]، وكفيل السلامة الوافي بالضَّمان؛ يشدُّ الوسَطَ فلا ينْحلّ، ويقوم مقام المنطقة في المحلّ؛ جرت على عادة الطمأنينة به الجوادُ، وبشَّر يداً تناولته بأنها لا تمسُّ بعده بمنديل إلا أعراف الجياد.

في الخَرْمَدان[3]: والخرْمدانُ كمامةُ ثمر، وغمامة سماء تحتها قمر؛ ذوْحُ أوراق، وقرارة ما تكدَّر أوراق؛ كأنما قُدَّت من جلْدة الليل، وعلّقت بالثُّريَّا وطرفت بسهَيْل.

في القَلَم: وقلمهُ بالسُّيوف الركَّع يُخْدَم، والرماحُ بمطاولته تَقرع السِّنَّ مما تندَم؛ تُوَقَّى سودُ أهدابه بالأجفان، وينزل لقرى كرمه الضِّيفان؛ يروِّع بالصرير، وينقل عن الأسود الزئير؛ قد قصَّر مُجَاريه، وعُدَّ من الأبرار لتمجيد باريه.

في الدَّواة: وما فتِئت أرْشِيَةُ الأقلام تستقي من قَليبها[4]، وتستر بخضابها الأسود بياضَ مَشيبها؛ منبعُ الأرزاق، وموضع الإرفاق؛ ذات الليل الذي

(١) وهو منديل يجعل في المنطقة المشدودة في الوسط مع الصُّوْلق وغيره. والصُّوْلق عبارة عن حقيبة كبيرة يعلقها المملوك في الجانب الأيمن من حياصته.

(٢) كان من عادة الملوك إرسال الخاتم أو المنديل إلى الخائف تأميناً له وعلامة للرضا عليه والصَّفح عما جناه واقترفه.

(انظر صبح الأعشى: ٢/١٤٠)

(٣) لم نعثر فيما بأيدينا من المصادر على معنى هذا اللفظ. والظاهر أنه نوع من المظلات.

(٤) القليب: البئر. الأرشية: جمع رشاء، وهو حبل الدلو.

كلّه نجوم وأقمار، ومنبت السَّمُرات[1] ذَواتِ الأثمار؛ قد تردَّت بمثل جناح العُقاب، وأردت الأعداءَ وجعلت بأيدي الأولياء العِقاب.

وفيها: وقُدِّمت له الدَّواة وهي رُتْبَةُ التَّشريف، وآلة التَّصريف؛ والأفق الذي يبعث إلى كل أرض غَمَاماً، ويراسل في كل دَوْحٍ حَمَاماً؛ وتحوي حِكَمَ الأقاليم أقلامُها، وينفلق عن صباح المعاني ظلامُها؛ وتتفجَّر الأرزاق من منبعها، ويشكر أيادي النَّيْل وما يجيء من القلم قدر إصبعها؛ يروِّع الأعداءَ مَدَدُ مِدادها، وتخاف لِقاها ولا تهاب الجيوش لأنها تعلم أنها إنما جاءت لتكثير سَوادها.

في المِرْمَلَة[2]: وماجَ منها كثيب، ونَبع قَليب؛ وهبَّت بها رمال، ودبَّت مثل أكارع[3] النِّمال؛ وملأت سُحُبُها مدارجَ الدُّروج[4]، وسدَّت على فضاء البيضاء الفروج؛ فأنبتت لوقتها الرِّياض، وجمعت بالرمل الحُمرةَ والبياض؛ فجاءت على تفصيل ما فيها والجُملة، وبدت من تحت سُجوفها كُلُّ رملة أحسن من رملة؛ فأبهج ذلك الرداءُ الرخيص مُشَبْرَقا[5]، وسحب ذيلَه برمل زَرُود[6] والنَّقا؛ فعاد قرطاسيُّ القرطاس كميتاً لم يخضِّبه النَّجيع، ونوَّارُ المُهْرَق[7] شقيقاً لم يُنْبِته الربيع؛ وأمِنَت به سماء الخطِّ أن تُطْمَس، وأظلَّت أنداء السُّحُب بيوم قد أشمس؛ فبثَّ في بياض النهار حُمرةَ الشَّفَق، وكَلَّلَ السطور بما يُكلِّل به لُؤْلُؤُ الطَّلِّ الورق؛ وتنبَّهت به تلك الحروف فعبَّرت أحسنَ التَّعبير، وغدت وكأن رمالها من الطيب مِسْكٌ والتُّراب عبير.

في السَّرْج واللِّجام: وكم ثَمَّ سَرْج ينافسه الجبينُ في تكوينه، والهلال في

---

(١) السَّمُر: ضرب من شجر الطلح.

(٢) يوضع فيها الرمل لتجفيف حبر الكتابة.

(٣) الأكارع: الأرجل المستدقَّة التي ليس عليها لحم.

(٤) مفردها: دَرْج، وهو الورق يُكتب عليه.

(٥) المشبرَق: الممزَّق والمقطَّع.

(٦) زَرُود والنَّقا: رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة. (معجم البلدان)

(٧) المهرَق: الصحيفة البيضاء يكتب فيها.

تنوينه؛ يضيء منه كوكب، ويسري منه أمن مركب؛ كأنه فترٌ قد أشار بقرب المسير، أو مُخنَّفٌ جيء به لتبشير؛ كأنما غشَّاه الأصيل بذهبه، أو وشَّاه البرق بلهبه؛ قُرن بأمثاله وإن لم تستوِ كل شروط المقابلة، وأضحت عليها أولياؤنا إخواناً على سُرُر متقابلة؛ هذا إلى لُجُم لو لم تمسك الخيل الشَّكائم لطارت، ولو لم تأبه لها بالأعنَّة لما سارت؛ مما لم يصحَّ لملك قبلنا ولا تهيَّأ، ولا قاد في عنانه البرقَ وقد أُسرج وأُلجم بالثريَّا.

في الكُور والزِّمام[١]: وأرخينا أزمَّةَ المطيِّ وما منها إلا موشَّحٌ على كُوره، متأهِّبٌ لبكوره؛ قد تقلَّدت بزمامها، وتقدَّمت المطايا لاهتمامها؛ وأفلت من الكُور هلالاً، ومدَّت من الوشح ظلالاً؛ وأمست لا يحثُّها إلا بارق على أضا[٢]، ولا تبعد على راكبها مسافةٌ وزمامُها بيده وما ضاق الفضا.

في السَّوْط: وقد اتَّخذ لها سَوْطاً يزيد في أدبها، ويوجب به في السرعة دأْبها؛ فلم يزل يسوق عهاد جيادها ببرقه، ويصبُّهُ عليها فتتصبَّب عرقاً مثل وَدْقه[٣].

في الأعلام ـ وهي العصائب: ونُشرت العصائب[٤] المنصورةُ فهبَّت بالسعادة ريحُها، وظلَّلت الكتائب فيحُها؛ وحوَّمت حولها العقبانُ واثقة بما تُطعم من جَزَرها[٥]، وبما تطمع به من نِهاب عسكرها؛ وعرفت لها ميامن كل راية صفراء، ورفعت فجرت وراءها الجيوش ونصبت للإغراء؛ وأحاطت بالعصابة السوداء الخليفتية فكانت سُوَيْداءَ قلبها، ومضت بها فكانت سيوفاً بعثت من قُربها.

في المظلَّة ـ وهي الجِتْر[٦]: ورفعت علينا قبَّةٌ تُظلِّلنا من الشمس حيث سرنا،

(١) الكُور: هو ما يقعد فيه الراكب في ظهر الإبل، والعرب تسمِّيه: الرُّحل. والزِّمام: هو ما يُقاد به الإبل، وهو بمثابة العنان للفرس.

(٢) الأضا: جمع أضاة، وهو الغدير.

(٣) الوَدْق: المطر، شديده وهيِّنه.

(٤) يقال: الأعلام والعصائب والسناجق، وهي بمعنى واحد.

(٥) جزر السباع: اللحم الذي تأكله. ومنه قول عنترة:

وتركته جزر السباع ينُشْنه يقضمن حُسن بنانه والمعصم

(٦) ضبطه القلقشندي في صبح الأعشى: ٤/ ٧ «بجيم مكسورة ـ قد تبدل شيناً معجمة ـ وتاء مثناة فوق» أما

وتقيم معنا حيث صرنا؛ لم يُرفع على غير الرماح أساسُها، ولم يتوَّج بغير السماء راسُها؛ قد بُنيتْ على صَهَوات الجياد، وأعدَّت دون الأبنية لأوقات الجلاد؛ فهي رُواقُنا المنصوبُ في كل سُرًى وسَيْر، وبساطُ ملكنا السليمانيّ الذي تسري أمامه الوحش وتظلّله الطير.

في الطُّبول: ودُقَّت الطبولُ حتى ظُنَّ أن الأرض قد آنقلبت، وأن الجبال مع الرجال قد أُجلبت؛ حتَّى خُيِّلت في يوم العَرْض أنه **يوم** القيامة، وأنه يومُ العرض الأكبر فما تمنَّى آمْرُؤٌ إلا السَّلامة.

في البُوْقَات: وأُعدَّت البوقاتُ في جَنَبات العسكر المنصور، وأُرْجِفت الأرضُ فما قيل إلا أن إسرافيلَ نفخ في الصُّور؛ وقد أعلن نفرها، ولم يسمع في الحرب إلا سفرها؛ فلم يزل يفاجيء الأعداءَ منها الانتكاس، ويرسل عليهم بإرعاد السيوف بها شواظاً من نار ونحاس؛ فلوزُجر البحرُ بصوتها لم يجر، ولولا الريح أسمع من حجر.

في الصَّرْناي[1] ـ وهو الزَّمْر: وقد صبر ذلك الصَّرْناي، على الصَّبر على النَّاي؛ لولاه لم يعرف زنَام، ولا آشتهر حديثه مع المعتصم بين الأنام؛ لم يبلغ مدى صوته شَبَّابَه، ولا يحقُّ لبياض مشيبها إلا أن يفديَ شبابه.

في المِشَدَّة ـ وهي الرَّقَبة[2]: وشُدَّت على فرس النوبة الرَّقَبةُ السلطانية تعجب النظَّار، وتحدث المسرَّة بما فيها من ذائب النُّضار[3]؛ كأنما لمعت بذهب البروق

= في الجزء الثاني من الصبح: ص ١٣٣ فقال: «واسمها بالفارسية: الجتر ـ بنون بين الجيم والزاي المعجمة». قال: ويعبّر عنها العامة الآن بالقبَّة والطَّير. وهي قبة من حرير أصفر تحمل على رأس الملك، على رأس رمح بيد أمير يكون راكباً بحذاء الملك يظلُّه بها حالة الركوب من الشمس في المواكب العظام.

(١) في صبح الأعشى: «والزَّمْر المعروف بالصُّهان».

(٢) وهي لباس لرقبة فرس السلطان من حرير أصفر، قد طُرِّزت بالذهب الزَّركش حتى غلب عليها وصار الحرير غير مرئي فيها.

(٣) النُّضار: الذهب الخالص.

غواديها، وعلمت الخيلُ مقدار الشَّرف بها فطالت به هواديها؛ وذلك في سعة تحقّقت بها الآمال ما كانت مرتقبة، وبيد وليٍّ ما شدَّ منها رقبةً حتى فكَّ ألف رقبة.

في الغاشية[1]: وحملت الغاشية بين أيدينا وسارت بها الحاشية. وطار بها الخبر فلم يبقَ بلدٌ إلا قال: هل أتاك حديث الغاشية؛ ومشى بها حاملها وهي تتمايل سروراً ببلوغ الأرب، وفرحاً بأيامنا المقبلة أوجب لها هذا الطَّرب.

في الخيل الجِفْتا[2] - وذكرت هنا لمناسبتها هذه الآلات -:

وتقدَّم «الجِفْتَا» وهما راكبان على فرسين أشهبين صُوحِبَ بينهما حتى تآلفا، وآبْيَضَّا لما طُبعا على الصَّفا؛ قد آقتسما اليمين والشمال، وسارا وهما للهدوِّ مثل دبيب النِّمال؛ ما آنفصلا مذ آعتنقا، ومذ تلازما ما آفترقا؛ داما على وُدٍّ غير مختلف، وآتَّحدا حتى صارا كالواحد مثل لام الألف.

النَّوع الرابع
آلات السَّفَر

في المِحَفَّة[3]: وآتَّخذ من المِحَفَّة مهداً يجد به راكبُه الراحة، ويقطع به البرَّ

---

(١) أصل الغاشية السَّرج أو الغطاء المزركش الذي يوضع على ظهر الفرس فوق البردعة. يقول القلقشندي: وهي غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب. تُحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب، يحملها الركابدارية، رافعاً لها على يديه، يلفتها يميناً وشمالاً.

(٢) جِفْت: كلمة تركية مأخوذة من الكلمة الفارسية: جفْت ومعناها الزَّوج أو الاثنان. والخيل الجفْتا أو الجِفْتاه: فرسان أشهبان قريبا الشَّبَه، برقبتين من زركش، وعدة تضاهي عدّة مركوب السلطان، كأنهما معدّان لأن يركبها السلطان، يعلوهما مملوكان من المماليك السلطانية، على رأس كل منهما قبعة من زركش، يركبان أمام السلطان في أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة في الميدان الكبير ونحو ذلك.

(دائرة المعارف الإسلامية: ١٢/١٦؛ وصبح الأعشى: ٤/٧)

(٣) وهي محمل على أعلاه قبة، وله أربعة سواعد: ساعدان أمامها وساعدان خلفها، تكون مغطاة بالجوخ تارة وبالحرير أخرى، تحمل على بغلين أو بعيرين يكون أحدهما في مقدمتها والآخر في مؤخرتها، إذا ركب فيها الراكب صار كأنه قاعد على سرير.

(صبح الأعشى: ٢/١٤٥)

وكأنه مركب يشقُّ به البحرَ سِباحة؛ لا يعرف ممتطي صهوته بُعْدَ المدىٰ أو اقترب، ولا مرتقي ذِرْوَته متى طلع نجم أو غرب؛ قد حُملت على البغال فهي تمور مَوْرا، ويجوب بها الفلا لا تعرف نَجْداً ولا غَوْرا؛ يصل السَّريَّ وعَينُه لا تفارق الغِرَار[1]، ولا يكلِّف يدَه مَسْكَ العِنان ولا العِذار.

في المِحْمَل[2]: وقدمت الرِّكاب، ورُفعت تلك القِباب؛ وحَدَا بها الحادي، وطار بها إذ أطربها بجانب الوادي؛ فتراقصت البُخْتُ بتلك القِباب حتى مالت عَذَبُها[3]، ومادت على تلك التِّلاع الشَّوَارف كسبها؛ وأضحت تُسأل لديها الذِّمم، وأمست الريحُ كالغَيْرىٰ تجاذبُها فصول الرِّبْط[4] واللِّمم؛ وشدَّت على مَطا[5] المطايا منها بروجٌ مشيَّدة، وكُسيت أحسنَ الملابس لما كانت معنا مجرَّدة.

في الخِيام: ونُصبت له من الخيم في كل أرض دارُ مِحْلاَل، وشُيِّدت أفنيةٌ تتفيَّأُ لها ظلال؛ قد سدَّت الأطنابَ عُمُدها، وكأنَّ وتَدَ السماء عامُودُها ووتَدَ الأرض وتَدُها؛ وأقلَّت قمراً واستقلَّت فَلَكاً، وسَمَتْ سماءً تحوي ملكاً؛ وبنيَ منها من الخيام كل رفيع، وكل بيت بنيَ على الأسباب والأوتاد ولم يُدركه التَّقْطيع؛ فوَسِعَت الأرضُ تلك الأفْنية؛ وأعربت عن جملة السماء تلك الأبنية؛ وأصبحت بينما تُزَاح أعذارها للمقام تُزال، وأهلها لا يستقرُّ بهم وطنٌ ولا دارٌ كأنهم فوق متنِ الريح نزال؛ فأحسنت في صَحَابتها، وأمطرت لا نَوْء دون سحابتها؛ ولم يزل حولها موارد هيام، وحيث نُصبت قيل: سُقيتِ الغَيْثَ أيتها الخيام.

---

(١) الغِرار: القليل من النوم.

(٢) كذا ضبطه في صبح الأعشى. وفي القاموس كمجلس. وهو كالمحفَّة إلا أنه يُحمل على أعلا ظهر الجمل بخلاف المحفَّة التي تحمل بين جملين أو بغلين.

(٣) العذَبة: طرف الشيء. والبُخت: الإبل الخراسانية، تجمع على: بخاتي.

(٤) الرِّبْط: جمع رَبْطة، وهي المُلاءة. واللِّمَم: جمع لِمَّة، وهي شعر الرأس المجاور شحمة الأذن.

(٥) المَطا: الظهر. والمطايا من الدواب: ما يُمتطى.

في الخَرْكاه[1]: ورُفعت منها قبَّةٌ آمتدَّت السُّحُب دون سُجوفها، وعقدت قُبَّة السماء على سقوفها؛ وعمِّرت عُمْر النُّسور ما عاش لُبَدُها[2]، ورُبطت ربْط السَّوابق[3] لا يُنزل عنها طول الدَّهر لِبَدُها؛ وقوي بقوة التركيب على ضعف تلك الأعضاء وَهْنُها، ولا يُنَفِّشُ بسَوافي الريح عِهْنُها[4]، ولا تزال لبابيدُها الحمرُ مشربةً ندى وَرْدِ الخدود، مؤذنة بطول بقائها الأيام مالكها بالخلود.

في أَداوِيّ[5] **الماء**: وحُملت معهم أداويُّ ماء يُتبرَّد في تلك الهواجر بنسيمها، ويُقال في ظلِّ نعيمها؛ ولا يُستأمن عليها كلُّ خديم، ولا يغضب المتزوِّد بها أن يقدّد ولا يقدُّ لها أديم؛ لو أنها وعود لما استطاع إخلافها، أو أمهات لما رضي إلا أخلافها؛ سُحبٌ تسري مع حاملها، وتُغنيه فلا ينتجع مواقع الغمام آستغناءً بحاصلها.

في الحياض: وقد صدرت عن تلك الحياض الإبلُ برِيِّها، وامتلأت جَنباتُها بما طالت به يد عبقريِّها[6]؛ ثم أضحت تلك الرُّواء[7] دَوَافِق، يمْتاح لها الدِّلاء كأنها شُعُوبٌ[8] منصبَّة، ويمتار منها كلَّ قِرْبة لا تُرَدُّ كأنها تعتقد ذلك قُربَة.

في الجِفان[9]: وشكراً لتلك الموائد الممدودة، والجفان الموروودة، وتلك

---

(١) وتجمع على خركاوات. وهي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد.

(صبح الأعشى: ٢/١٤٦)

(٢) لُبَد: اسم آخر نسور لقمان، وقد عاش طويلاً.

(انظر لسان العرب: لبد)

(٣) السابقة من الخيل: السريعة.

(٤) العهن: الصُّوف. والريح السَّافية (ج سواف) التي تسفو التراب وتذروه.

(٥) لعل المراد بها حياض الماء التي يحفظ بها ماء شرب المسافرين، وذلك لتمييزها عن الحياض التي تنقل الماء لسقي الدواب، وهي الآتية بعد هذا. ولم نجد في كتب اللغة التي بين أيدينا لفظ «أداويّ».

(٦) العبقريّ من الرجال: السيِّد؛ ومن الحيوان والأشياء: الفاخر الجيِّد.

(٧) الرُّواء من الماء: العذب.

(٨) جمع شَعْب؛ والشَّعْب: كل ما سال من شراب وغيره.

(٩) جمع جَفْنَة؛ وهي الآنية التي يوضع فيها الطعام. وقد كانت العرب تفتخر بكبر الجفان لدلالتها على =

المَناسِف التي لو كانت كالجِبال لكانت بكثرة أمتداد الأيدي إليها قد نُسفت، أو كالجمال البَوارك لكانت بأثقال ما حملت من المطاعم قد عسفت؛ من جفان كالجواب[1]، ما للائم فيها جواب.

في القُدور: وقد أمسَوْا أولي أقدار عالية، وقدورٍ بذهب النيران حالية؛ كأنها جبالٌ راسية، أو جمال سارية، من كل قِدْرٍ كأنها على موقِد النار زنجيَّةٌ متورِّكة، أو ليلةٌ ظلماءُ بأطراف النهار من كل ناحية متمسِّكة.

في نار القِرى[2]: وقد لبس اللَّيلُ بها قميصاً من أُرجوان، وبات موقِدُها مثل مَلَكٍ يدعو إلى رِضوان؛ كم تفرَّعت منها في الليل شجرةُ ذهب، أو أنقضَّ كوكبٌ له ذنَب؛ قد آدَّرع الليلُ منها بزعفران، ونَبَت محمرُّ الشقيق في مواقد النيران؛ فغشِيَها الطارِقُ والمنتاب، ودنا منها كلُّ ساري ليلٍ إلا المُرْتاب.

في الأثافيّ[3]: وتخلَّفت ثلاثُ تلك الأثافيّ وقد فرشت بعدهم الرماد، وأصبحت في جملة الجماد؛ كأنها نُقَطُ الثَّاء من سؤال كل سائل: أين ثوَوْا، أو نُقَطُ الشين من قول كل قائل: هنا كانوا أو هنا شَوَوْا؛ لا تمُرُّ عليها الركائب إلا مجدَّة، ولا يأتي إلا لعل حروفها تستمدُّ من تلك الأثافيّ مدَّة.

في أضواء المشاعل[4]: وتكاثرت تلك الأضواء حتى طوت جَنْح الليل، وطفح

= الكرم. وفي ذلك يقول الأعشى في مدح المحلَّق:

نفى الذَّم عن آل المحلَّق جفنةٌ ... كجابية الشيخ العراقيِّ تفهَقُ

(١) الجواب: صوت الجَوْب، وهو انقضاض الطير.

(٢) هي نارٌ توقد ليلاً ليراها الأضياف فيهتدوا بها إلى الحيّ. وقد ذكر أبو هلال العسكري في «الأوائل» للعرب ثلاث عشرة ناراً، منها: نار المزدلفة، ونار الاستمطار، ونار الحلف... الخ.

(انظر الأوائل للعسكري ـ باب نيران العرب؛ وصبح الأعشى: ١/٤٦٦)

(٣) الأثافيّ: ثلاثة أحجار توضع عليها القِدْر؛ أو هي آلة ذات ثلاث قوائم تعلَّق عليها القِدر عند الطبخ.

(٤) المشعل: آلة من حديد كالقفص مفتوح الأعلى، وفي أسفله خرقة لطيفة، توقد فيه النار بالحطب فيسطع ضوءه، يحمل أمام السلطان في السفر ليلاً.

(صبح الأعشى: ٢/١٤٦)

النهار مثلَ السَّيْل، وآمتلأت الآفاقُ نجوماً فلم يَحْتَج أحدُ يسأل عن سُهيْل؛ هذا وخبرها دون العيان، وعنصرها مثل العقْيان.

في الفانوسَيْن[1]: وقد توقَّد في دُجَىٰ الليل منهما فرْقَدان، وتآلف منهما أخوان متَّقدان؛ تنظر الظَّلْماء منهما بعينين، وتولـول شُغلُهما فتحسبهما السابقـة أذنين؛ قد حُملا على رؤوس الرماح تُطعَنُ بهما لَبَّةٌ[2] الظلام، وتُنشَرُ منهما عليها مُذْهَباتُ الأعلام؛ فلم يَخْفَ بهما مَنار، وكل علم في رأسه نار.

النَّوع الخامس

آلات الصَّيد

في الفَخّ: وسقط على داهية ضمَّت له بين الجوانح، وضمنت لحتفه ما في أيدي الجوارح؛ وأمسكه قوس الفخّ بكيده، وزاده قيداً على قيده؛ فأعجزه المصير، وضاق به منه فِتْرُ عن مسير.

في الشِّباك: وأُلقيتْ لها شباكُ أصابتها بعيونها، وصارت لـمَنُونها؛ وجُمعت عليها أطرافُها فلم يَنْجُ منها حاسِرٌ ولا مدَّرِع، ولا خلص من حبالها سابِقٌ ولا متَّبع؛ وأمسكتْ تلك الأبطالَ المدجَّجةَ إمساكَ النَّقَد[3]، وألقتها في شِباكها ولم تستَعِذْ من شرِّ النفَّاثات في العُقَد[4]؛ فساقت حتى أقصىٰ قصيِّها، وآستلانت أعصىٰ عَصِيِّها، وجاءت إليها بسحر السَّحَرة بما ألقت من حبالها وعِصِيِّها؛ فأمسكت تلك السَّوانِح، ووقفت في ميادينها تلك السَّوابح.

---

(١) كان الفانوس عندهم عبارة عن آلة كُرِيَّة ذات أضلاع من حديد، مغشّاة بخرقة من رقيق الكتَّان الصافي البياض، يتخذ للإضاءة بغرز الشمعة في أسفل باطنه فيشفُّ عن ضوئها

(المصدر السابق)

(٢) اللَّبَة: موضع القلادة من العنق.

(٣) النَّقد: صغار الغنم.

(٤) النفَّاثات في العُقد: الساحرات.

في الزَّبْرِيطانة[1]: ورمى بالزَّبْرِيطانة فقذف ليلها المظلم أنجما، وأتبع بها مارد الطير فأمسى بشُهْبها مُرْجما؛ فنفخ بها في غير ضرم؛ وأنتفخ من غير ورم؛ وقام ينفث فيه فألقى سُمَّ الأَسْوِد[2]، ومدَّ إلى شُمّ الذُّرى بساعد، وسرحها بيده فكان السِّماك الرَّامح[3]، وكثر به الصَّرْعى فكان سعْد الذَّابح؛ وصبَّب منها فوَّارة بنادقها الصِّغار ما تساقط من الماء، ووشيجها المقوّم ما صعد إلى السماء.

في الصَّنانير: وعُطفت لها من الصَّنانير تلك المحاجن، وأُغْلقت فيها تلك المحاسن؛ ودُلِّيت إليها في خيطٍ كان لعنقها حبلاً من مسد، وشُمِّمت هواءَ الدنيا فكان سببَ لها إلى مفارقة الروح الجسد، وأُخرجت من تحت سُتور الماء مُخْبَآتُها، وأُسْتُوْذِنَت أبكارُها وإذْنُها صُماتُها[4]؛ ثم لما لُبِّبَتْ تلك الطرائد وخيطت بتلك الأَسَافيّ[5] أفواهُها، وريعت بشنقها في تلك الجبال وفي لُجَج البحر أشباهُها، حملت منكّسةً على رماح من قصَب، وأُصيبت بسهام ما وُصلت بجلد ولا عَصَب.

النَّوع السادس

آلات المُعَامَلة

في الميزان: ونُصبَ من الميزانُ عَدْلٌ يُرجع إليه، ويُعتمد في الإنصاف عليه؛ مُحسِنٌ لا يغيِّر إحسانه، ومنصِفٌ بغير الحقِّ لا يحرِّك لسانه؛ لا يسعى به إلا مَنْ

(1) كذا ضبطه في ط ق وهي صنج الأعشى. وفي القاموس: «الزَّبَطانة». وفي اللسان: «السَّبطانة». قال في صنج الأعشى: وهي آلة من خشب مستطيلة كالرمح مجوّفة الداخل، يجعل الصائد بُنْدُقة من طين صغيرة في فيه، فينفخ بها فيها فتخرج منها بحدّة فتصيب الطير فترميه. قال في اللسان: هي قناة جوفاء مضروبة بالعقب يُرمى بها الطير، وقيل: يرمي فيها بسهام صغار ينفخ فيها نفخاً فلا تكاد تخطيء. والسَّبطانة هي قناة البندقيّة أو المدفع، وتُسمّى أيضاً: الأَسْتون.

(2) الأسود من الحيّات: العظيمة فيها سواد. واحدتها: أسْوَدة.

(3) السِّماك الرامح: نجم يقدمه نجم آخر مستطيل الشعاع يقولون هو رمحه. وسَعْدُ الذَّابح: كوكبان متقاربان سُمّي أحدهما ذابحاً لأن معه كوكباً صغيراً غامضاً يكاد يلزق به فكأنه مكبٌّ عليه يذبحه.

(4) صُماتُها: أي صَمْتُها. وقالوا في البِكْر يُعرض عليها الزواج: إذْنُها صُماتُها.

(5) كذا في ط ق. ولم نعثر عليه في معاجم اللغة. ولعله: «آلاثافيّ».

نَجَح، ولا يثقل في كفَّته إلا مَنْ رَجَح؛ يردُّ بقيامه بالقِسْطاس المستقيم المفتري، وإن لم يكنْ من الميزان بُرْجُ الزهرة فربما كان بيتُ المشتري؛ ولم يزل يُستعاذُ من خِفَّته، ويعزّ من ثقل كفُّه بما في كِفَّته؛ وقد أُعدَّ يومَ القيامة لأعمال الأنام، ورآه سيِّدُ هذه الأمَّة قد تدلَّى من السماء فيما قصَّه من المَنَام.

في الكَيْل: ومُذ فَتح الكَيْلُ فَمَه صُدِّق، وأعتبروا به ولم يبقَ إلا مصدِّق؛ ورجعوا إلى حُكمه وهو أصلح، ومُذ علَّم على رقمه وتقلَّصت شَفَتُه قيل: أفلح؛ قد طلع رقمُه، وأضطلع به قَرْمُه[1]؛ أحدُ ما أمر القرآن بالوفاء بقِسْطِه، وصحَّ به السَّلم بشرطه؛ لم يُسِغْ للذِّراع ولا للميزان تصريفَه، ولا أدرك أحدُهما مُدَّهُ ولا نصيفَه.

في الذِّراع[2]: وقد صحَّ معه القياس، وقُدِّر عليه اللِّباس، وتفاصَل على الرِّضى به الناس؛ ميزانٌ نُصب بالقِسْط لا يفتقر إلى مثاقيل، ولا يرجح عنده ثقيل؛ لا يحتاج في إعطاء الحقِّ إلى تعليق، ولا يضطرُّ إلى تدقيق النظر لتحقيق؛ به تُحصَر المساحة، وتَبْرَأُ الساحة؛ ويحدُّ من الحدِّ ما يُتبَع، ويقوم به نَوْء الذراع ولا يُقاس للثريا بشبر ولا للجوزاء بإصبع.

في المقَصّ: وذُكر هنا تبعاً ـ: وهو الذي طالما واصَلَهُ المرءُفقطع، وجهد فلم يقع، في كل يد له غير درهم فأقتنع؛ روحان في جَسد، واثنان بقلب واحدٍ خلا من الحَسَد؛ كم صاحَ فأصبح كلُّ ذي شِقَّةٍ بعيدة به صاعقاً، وجثا بين القوم على ركبتيه ثم قَصَّ قصَّاً صادقاً.

---

(١) القَرْم: السَّيد المعظَّم؛ ومن الفحول: الذي يترك من الركوب والعمل ويودع للضِّراب.

(٢) ذكر الماوردي في الأحكام السلطانية سبعَ أذرع هي: العُمَريَّة، والهاشمية، والبلاليَّة، والسوداء، واليوسُفيَّة، والقصبة، والمَهْرانيَّة. ولكل منها طول مختلف عن طول الأخريات؛ وكل واحدة تستعمل في مجالات محددة. (انظر الأحكام السلطانية: ١٩٤؛ والنظم الإسلامية لصبحي الصالح: ٤١٢.

النوع السّابع

آلات الطَّرَب

في الدُّف: وضَرَب بالدُّفَ فأحسَنَ إذ ضرب، وجاء بمجموع الطَّرَب؛ قد حمَّل الشمسَ منه دارَةَ القمر، وطلع وحُسْنُه قد بَهَرَ العيونَ وقَمَر[١]؛ فناسَبَ في فتح بَنانه عليه وآنضمامه، وأظهر نَقْصَ آلات الطَّرب كلها بتمامه.

في الشَّبَّابَة[٢]: ولم يزل يهوىٰ منها ناحلةً صفراءَ بادٍ شُحوبُها، ظاهرٌ نحيبُها؛ أنابيبُ في أجوافها الريحُ تَصْفُر، إذا سُدَّ منها مِنخرٌ جاش مِنْخَر؛ الرماح بها كَلٌّ[٣] على القصب، وبَنَانٌ ممسكها مملَّكٌ وهي تاجُه الذي به آعتصب؛ يودُّ هفيفُ الدَّوْح أنه منها يتعلَّم، ويقول لديها الحضور الصَّموت ونحن سكوتٌ والهوى يتكلَّم؛ قد جلب الملهى بها السرورَ أو سبَّب، وآستعار طربَها لوصف الحبائب فلهذا إذا ذَكر حبيبَه قيل قد شبَّب.

في العود: آلةٌ لا يَضرب بها إلا مُجيد، ولا تكون إلا بين صَدْرٍ وجيد؛ يُسِرُّ وقد وُتِر، ويطلق وهو في قبضة اليد قد أُسِر؛ كأنما علمته الحمائمُ أصواتها حين نشأت في الدَّوْح، وألقتها عليه فنقلها إلى الغناء من النَّوْح؛ كم عَمرَ مجالسَ السرور وهو في مثل الحرب، وأطرب وهو في تقييد وضَرْب؛ ماسَ رطيبا، وطاب ولا غَرْوَ للعود إذا نفح طيبا.

في الرَّباب: وضربَ بالرَّباب فتذكر زمانه بالحبائب، وأيامه بتلك الربائب؛ فآهتزَّ إلى الأحباب، وطرب بزينبَ والرَّباب؛ وطاب صوتُه على التَّرديد، ورقَّ وقلبهُ

---

(١) قَمَرَ العيون: بَهَرَها.

(٢) من آلات النفخ، تتّخذ من القَصَب المجوَّف. ويقال لها اليراع أيضاً. تسمية لها باسم ما اتخذت منه؛ وربما عبِّر عنها بالمزمار العراقيّ.

(٣) الكَلُّ: من يكون عبئاً على غيره.

من حديد؛ فلاحت به لأوقات السرور شارِقة، وحَثَت به كؤوس المُدام ولا غرو أن يكون للرِّباب بارِقَة.

في الطُّنْبور: آلة لولاها لما حَصَل النِّفاقُ لدنانير[1]، ولا آحتاج الطَّرب في دخوله إلى دستور الدساتير؛ حسُنَ موضوعاً، وتفرَّق كل طرب فيه وجاء مجموعاً.

في الجَنْك[2] ـ وهو آلةٌ محدثة ـ: وضمَّت من الجَنْك ما طال عُنقاً، وطاب عَبْقاً؛ وأحدث فأَحْدَثَ الطَّرب، وآختُصَّت العَجَمُ منه بما لم يُعهد للعرب؛ لا يبعد من مقاربه فَهْم، ولا يكون سهمُ سرور إلا والجَنْكُ دونها هو المتَّصل بالسهم.

النوع الثامن

آلات اللَّعِب

في النَّرْد[3]: وهو للزمان مثال، ولجملة السَّنة تمثال؛ مَهَارِكُه عددُ أيام الشهر، وفصوصُه تجيء مثل القضاء والقدر في تصريف الدهر؛ وخصاله سبعة كالجمعة؛ وبيضُه وسودُه مثل الليالي والأيام، وكله نَقْصٌ ويُطلب فيه التَّمام؛ وفيه تمثال لمدد الآجال، والتَّنقُّل من حال إلى حال؛ وما يأتي بغير كَسْب وما لا بدَّ فيه من أنه يُكتَسَب، وما يكون بسبب وغير سَبَب؛ مما نجم من آفاق العجم إلا أنه محرَّم، ونارٌ تتضرَّم.

---

(١) دنانير: مغنية مشهورة، كانت مولاة لرجل من أهل المدينة، خرَّجها وأدَّبها، واشتراها يحيى بن خالد البرمكي فنبغت في بيته. لما نكب البرامكة امتنعت عن الغناء لغيرهم. توفيت سنة ٢١٠ هـ. (الأعلام: ٢/٣٤١).

(٢) اللفظ فارسيّ. وهي آلة ذات أوتار. قال الشيخ أحمد النجفي: آلة من المعازف كانت في القديم تستعمل في الموسيقا، ذات ستة وأربعين سلكاً. وقال بعضهم إنها العود. قال القلقشندي: ورأس هذه الآلة ممال إلى أسفل.

(تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ٦٨ ـ وصبح الأعشى: ٢/١٦٠).

(٣) قال في صبح الأعشى: وضعه أردشير بن بابك أول طبقة الأكاسرة من ملوك الفرس، ولذلك قيل له: النَّرْدَشير. وقد رتَّب الرقعة اثني عشر بيتاً بعدد شهور السنة. والمهارك ثلاثين قطعة بعدد أيام الشهر، وجعل الفصوص بمثابة الأفلاك، والنقط فيها بعدد الكواكب السَّيَّارة. (انظر صبح الأعشى: ٢/١٥٧ ـ ١٥٨). وهذه الآلة تعرف بطاولة الزهر.

في الشَّطْرَنْج[1]: معركةٌ لا تُطلُّ فيها الدماء، وميدان خيل لا تجري فيه الشَّهْباءُ ولا الدَّهْماء؛ قد قُرنت رُخاخُه، ونُصبت للخيل فخاخُه؛ وآمتدَّت أسوار بَيادقه، وقعدت شاهاتُه الملوكُ على نَمارقه؛ وأوسعت فيه الأفكارُ المجال، وأتت فيه بغرائب البداية والارتجال؛ وطالما عُقد فيه البَنْد، وأُوريَ بالمراشَقة فيه الزَّنْد؛ وهالت فيه الأفيال، وبلغت فيه الفَرَازينُ ما لم تبلغه الأَقْيال.

النوع التاسع

المُسْكِرات وآلاتها

في وصف الخمر على الجادة المعتادة: وسعى السَّاقي بكاسها، وصبَّ الذهبَ من أكياسها؛ وفضَّ عنها طينةَ ختام كانت طابعاً لشمسها، ودواءً مما يُخامر العقولَ من مَسِّها؛ وراضَهَا بالمِزاج ولولاه لجمحت، ولاينها بملاطفته حتى جَنَحت؛ وآفتضَّ منها بِكْراً لم تَعْنَسْ، وقَدَح منها ناراً لو رآها عابدُها لزَمْزَمَ أو العيسويُّ لقدَّس.

في ذَمِّها: وهي التي أَتْرَع الشيطان كأسها دِهاقاً، ولم يَرْضَ إلا بالعقول عليها إنفاقاً؛ لم تورِثْ كَرْمَتُها الظلالَ إلا للضَّلال، ولا خلقت طينتُها إلا للخَبال؛ أوَّل ما سوِّدت بالقار صحيفةُ دَنِّها، وأساءت بالمساوَرَة معاشرة خِدْنِها؛ ولم تنكر خَبَاثَةَ الخندريس، وأن تعريشَ الحَبَب على مائها عَرْشُ إبليس.

في الكأس: والكأسُ هلالٌ مالت شفَتُه، وأفقٌ محمرُّ الشَّفَق تمَّت صفتُه؛ شبَّ في الكفِّ والتَهَب، والكأسُ من فضَّة والراح من ذهب؛ كأنه تعريقَةُ نُون في يد الكاتب، أو معدن أصبح به حامل الكأس الكاسب.

في القَدَح: تكوَّن من جوهر مكنون، وتجسَّد من هواء مظنون؛ وآتُّخذ خِدْراً

---

(١) ضبطه في صبح الأعشى بفتح الشين. والذي في القاموس انه بكسر الشين، ولا يفتح أوّله. وفي لسان العرب أن الكسر فيه أجود ليكون من باب «جِرْدَحْل». وحجارة الشُّطرنج ستة انواع هي: الشَّاه أو الملك، والفرزان، والفيل، والفرس، والرُّخ، والبيدَق.

لآبنةِ العنب، وطاف به السَّاقي فأصبح منه في راحة وهو في تعب؛ فهقه عليه الإبريقُ فصَدَح، وطار منه شرار المُدام فقيل قَدَح.

في الإبريق: ولم يبقَ في ذلك المجلس إبـريقٌ حتى أتْلع[1] جِيدَه، ومـلأ من وَدَج الـراووق[2] وريـدَه؛ حتى غـرَّدَت في دوحـه البـلابـل؛ وطُعنت الهمـومُ بتلك الذَّوابل؛ وتنبَّهت بها المسرَّات وهي نيام، ومالت رقابها كأنها إوَزٌّ بأعلى الرَّقْمَتين[3] قيام؛ ولم يزل يُدار حتى خَفَّت الأوقار[4]، ولم يبقَ في الإبريق إلا لواثٌ فمـه كأنمـا تناول ياقوتاً بمنقار.

في ذَمِّ الحَشيش[5]: -وهي لا تُحمَد في حال-: وهي وإن كـانت ممـا تُنبت الأرضُ من قـواتل السُّمـوم، والمضنيات للجُسـوم، فإنهـا حَـرامٌ وإن لم يُنصّ على تحريمها، حطامٌ وإن رعىٰ قومٌ في هشيمها؛ ضررُها لا يُعدّ، وإن لم يجب الحدُّ فيها فإنه يجب التَّعزير وربما كان أمضىٰ من الحدّ؛ ومن رآها وقـذر منها علم أنها نجسة العين، وأن آكلَها لاستيلاء السوداء عليه مثل غراب البَيْن؛ وقد أساء آكلُها لنفسه مـا آختار، وأشبَهَ البهائم فإن الحشيش ما يأكله إلا الحمار.

---

(١) أتلَع جيده: أظهر عنقه.

(٢) الراووق: الكأس. والوَدَج: عِرق في العنق.

(٣) الرَّقمتان: قريتان بين البصرة والنباج بعد ماوية تلقاء البصرة. وقيل: هما روضتان إحداهما قرب البصرة والأخرى بنجد؛ وقيل: إحداهما قرب المدينة والأخرى قرب البصرة.
(انظر معجم البلدان: ٣/٥٨).

(٤) الأوقار: جمع وِقْر، وهو الحمل الثقيل.

(٥) أو الحشيشة؛ ويقال لها اليوم: حشيشة الكَيْف؛ وسمّاها أطباء العرب: الشَّهْدانج؛ وعبَّر عنها ابن البيطار بالقِنَّب الهندي.

الفصل الثاني

في الحيوان وأنواعه

النوع الأول

في الحيوان المُذَلَّل المعدّ للركوب.

في الخيل: اعلم أنَّ صفات الخيل المستَحْسَنة كثيرة امتلأت بها الكتب، وكثرت بها المعرفة حتى بقيت لا تكاد تُجهل؛ وجماعُها في الفرس أن يكون من عِظَم خلقه كالبُنيان، وفي سرعة انعطافه مثل العنان، وفي اشتداد جَرْيه مثل الطيران؛ ويكون رقيقَ لحم الخدَّين، واسعَ الشِّدقين، جاحظَ العينين، حديدَ الحدَقتين، مؤلَّل[1] الأذنين، عريضَ الجنبين، ناتيءَ الصَّدر، قصيرَ الوَظِيف[2]، طويلَ[3] النَّسا، قصيرَ المَطا، واسعَ الخُطى، عريضَ الكَفَل[4]، سائلَ الذَّيل، قصيرَ عَجْمِ[5] الذَّنب، صَلْبَ الحافر مُقَبْقَبَهُ كأنه قَعْبُ الحالب، ليِّنَ الجلد، ناعمَ البشرة، كأن دُهناً سُكب عليه.

وأزينُها الشُّهْبُ، وأصبرُها الكُمْتُ، وأسبقُها الشُّقْرُ، وأحدُّها الدُّهم[6]. وما

---

(١) أي محدّد الأذنين منتصبهما.

(٢) الوظيف: مستدق الذراع والساق من الخيل والإبل وغيرها.

(٣) في صبح الأعشى عن ابن قتيبة: قصير النّسا. والنَّسا: عرقٌ في الساق مستبطن الفخذ.

(٤) الكَفَل: العجز للإنسان والدابّة.

(٥) عَجْم الذنب: أصله، ويُضمّ.

(٦) الدُّهم: شديدة السّواد، مفردها: أدهم؛ والأشقر: الذي يكون قليل الحمرة وعُرفه وذيله أشقران؛ والكُميت: هو الذي يخالط حمرته سواد؛ والأشهب: الذي غلب في لونه البياض.

سَلم فيها من الوَضَح[1] كان أشدَّ ـ والغُرَّةُ والحُجول من الوَضح ـ.

وهي نوعان: عِراب وهَماليج[2].

ويُقال فيها: وقد أتحفناه من الخيل بكل سابق تقصَّر عنه الرياح، ويقصُّ الطيرُ وراءَه الجناح؛ تظنُّ السُّحبَ عن مباراته مشغولة، والبروقَ عند مجاراته مشكولة؛ لا يُسمع للرعد وراءَه إلا الأنين، ولا يرى النهارَ في ليل عَجاجه إلا حَمْلٌ أو جنين.

فمن أشهبَ جوّادٍ بما في يده، سابقٍ يعدُّ يومه الأبيضَ لغده، كأنما قمصه النهار بردائه، أو سمح له البدرُ التَّمامُ بروائه؛ قد صِيغ من لُجَيْن، وصِينَ نورُ البصر منه بسواد العين. ـ ومعه شَهْباءُ من جنسه لا تحدَّث عن غيرها محاسِنُ الأنباء، ولا تُعرف لخَلْبٍ زُبدةٌ إلا لكونها حَكَتْها وتسمَّت بالشهباء.

ومن أخضرَ لم يبعد عليه أرَب، أخضرَ الجلدِ من بيت العَرَب؛ يطلع في أكمام اللَّبس نوّاراً، ويقدح من الشجر الأخضر ناراً؛ إذا أمَّ نازحاً اقترب؛ وإذا بلَّله الركضُ جرَّ ذيلَه على المجرَّة وملأ الدَّلوَ إلى عقد الكَرَب[3]. ـ تتلوه خضراءُ عُجِّلت بالشراء، وأقامت عذرَ بني أميَّةَ في حبِّ الخضراء[4].

ومن أدهَمَ كم دَهَم الأعداءَ رُعْبُ غُرَّته المطلَّة، ودَهَى الأنواءَ بما أبكى سُحُبَها المستهلَّة، وسلب الظلماءَ حُلَّتَها ثم دار على هلالها ومعه تتمَّةُ أربعة أهِلَّة؛ أو عنَّ

---

(١) الوَضَح: هو البياض المخالف للونها. فإن كان البياض في وجه الفرس فهو الغُرَّة، وإن كان في الرجلين فهو التحجيل.

(٢) العِراب: التي توجد في بلاد العرب، وهي تطلب للسبق واللحاق. والهماليج: التي تجلب من بلاد الترك والروم، وغالب ما توجد مشقوقة المناخر، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشي؛ وتُعرف الهماليج بالبراذين وبالعجميات والأكاديش. وهناك نوع ثالث مولَّد بين العراب والهماليج: فإن كان الأب عجمياً والأم عربية قيل له: الهَجين، وإن كان بالعكس قيل له: المُقْرِف.

(٣) الكَرَب: الحبلُ يشدُّ في وسط خشبة الدلو فوق الرشاء ليقوِّيه. والجمع: أكراب.

(٤) أي الراية الخضراء، وكانت شعارهم.

لعنترةَ خيالُه لم يذكُرْ لَبَانَ[1] أدهمه، أو رأى البدرُ غرَّته لـزرَّر في الليل جيبَه على درهمه؛ إذا بلغ قبل آرتداد الطَّرْف مداه كان قد آقتصر، وإذا قصَّر به أمدُ السرور زيد فيه سوادُ القلب والبصر.

ومن كُميت، كم حيٍّ على تمنِّي مثله كَمَيْت؛ وقد [أسجَفَ][2] سوادُ الليل ذيلَ شفقه، وذرَّ فَتِيتَ المِسْك على وردِ أُلقِه؛ وخرطَ كالعقيقه، ورخص بملء العليقه، وأشْبَهَ الروضَ فإن لم يكنه كان شقيقَه.

ومن أشقَرَ أغرَّ كأنه قبسٌ يتلهَّب؛ وقد قُيِّد بحُجولة لئلا يذهب؛ كأنما سلب البرقُ رداءَه الموشَّع، ووقفت له الشمس كما وقفت ليوشَع؛ وقرَّ له كلُّ سابق بأنه مسبوق، وأذعن له في الميدان لما جاء وعليه أثرُ الخَلوق؛ ـ يُجنب إلى جانبه شقراءَ طارت من زندةِ شراره، وأتت ما بين شقيقه وبَهاره؛ لا يُدانيها جوادٌ ليس له معها يدان، ولا يباريها إذا قيل له: هذه الشقراء وهذا المَيْدان[3].

ومن أصفرَ حَبَشيٍّ[4] كأنما عُلِّق سَبَجٌ[5] بديناره، أو آمتدَّ خيطٌ من الليف في أصيل نهاره؛ لا يفوته ما أراد من التحصيل، ولا ينكر له إذا كان كريماً وهو أصيل.

---

(١) الإشارة إلى قول عنترة في معلقته:

يدعون عنترَ والرماحُ كأنها ... أشطانُ بئر في لَبَان الأدهم

(٢) في ط ق «سنجف» وهو غير موجود في معاجم اللغة. وأسجفه أو سجفه: أرخى عليه السَّجْف، أو أظلمه.

(٣) كان النبيُّ ﷺ يستحبّ من الدواب الشُّقر ويقول: «لو جمعت خيل العرب كلها في صعيد واحد ما سبقها إلا الأشقر». وينقل عنه قوله: «عليكم بإناث الخيل فإن ظهورها حِرْزٌ وبطونها كنز» ـ عيون الأخبار لابن قتيبة: ١/٢٤٢.

(٤) الأصفر الحبشيّ: هو ما كان عُرفه وذيله أسودين، ويقال له أيضاً: أصفر مطرَّف. وإن كان عُرفه وذيله أصهبين مائلين إلى البياض قيل: أصفر خالص؛ وإن كانا أبيضين قيل: أصفر فاضح؛ وإن كان أصفر ممتزجاً ببياض قيل: أشهب سوسنيّ.
(صبح الأعشى: ٢/١٩ ـ وانظر أيضاً: بلوغ الأرب: ٢/٩٥).

(٥) السَّبج: خرز أسود.

ـ ويدانيه صفراءُ فاقعٌ لونُهـا تسرُّ النـاظرين، وتسـوء المناظـرين؛ كأنهـا سبيكةُ ذهب أُفرغت، أو في وَرْش[١] المغرب قد صبغت؛ لا تزال تتجمَّل بها الكتائب المنصورة، وتتقدَّم الجنائبَ منها صفراءُ كأنها رايةُ السلطان المنشورة.

ـ ومن ذي بَلَقٍ[٢] كأنما هو لابسٌ بُرْدَين، أو جامعٌ لضدَّين؛ إلا أنه قد ضمَّ بُرداً وأرخىٰ بُـردا، وامتدَّ فيـه جَنْحُ الليـل والنهارُ قـد تبـدَّى. ـ ويليـه بَلْقَـاءُ تسـوِّي مبلغ خراجها، وتدلُّ على تمام الحُسن باعتدال مزاجها؛ قـد جاءت وفق مـا أراد، وازداد حسنُها بما جمعت من البياض والسواد.

ـ ومن الأكاديش الزَّهاوين[٣] كلُّ سابقٍ يبلغ الأَمَد القَصِيّ، ويخـدم ركابَـه منه الخادمُ الخصيّ؛ يتمشَّى مِشْيَةَ المتمايل، ويظهر على بقيَّة الخيل وهـو المتخايـل؛ أهونُ ما تَمُرُّ به الوحول، وأسهل عليه قِنَنُ الجبال التي لا تتقحَّم مشاقَّها الوعول؛ قد أعرق في بني الأصفر[٤] فجاء كأنه دينار، وأقام في الروم سَنَاقَبَسٍ فتلهَّب كأنه نار؛ وتكفَّل براحة راكبه فكأن صهوتَه أوطأ المهود، وأخفَّ ظهراً من الجياد العربية في قَطْع العَقَبة الكَؤود؛ كم حام في قُلَّة شاهق من النُّسور، ونزل إلى قرارة واد لا يظن مستوطنه منه النُّشُور؛ يتحدَّر تحدُّر الماء، ويصعد صعودَ الدعاءِ المتقبَّل فلا يزال حتى تُفتَح له أبوابُ السـماء.

في البغـال: وأكرِمْ بهـا بغلةً لا تغلو بقيمة، ولا تفخـر إلا بنفسها لا بـالأصول القديمة[٥]؛ يعتبر في الحسن جميعُ أحوالها، ويُعتذر لها إذا قصَّرت العُمومةُ بما طال من شرف أخوالها؛ ذروةٌ أُعدَّت لعالِم، وصَهوةٌ لخليفةٍ أو وزير أو حاكم؛ تتدفَّق كالسَّيل،

---

(١) كذا في ط ق بالشين المعجمة. ولعلَّه «وَرْس» بالمهملة. وورس المغرب: أصفراره.

(٢) الأبلق من الخيل: الذي فيه بياض وسواد. وفي صبح الأعشى: هـو الذي عـلا البياضُ حنـوَي رجليه ومرفَقَي يديه.

(٣) أي السـريعة المتتابعة السير، جمع: زَهْوان.

(٤) أي أهل بلاد الروم.

(٥) باعتبارها تتولَّد بين حصانٍ وأتان، أو بين حمار وجَجْرَة، وهي الفرس الأنثى.

وتترقّق ولا يعجزها مطلع سهَيل ؛ لا يلحقها ما يلحق الخيلَ من الزَّهو، ولا ترتاد إلا للجدِّ لا للهو؛ ذلَّت سكينةً كأنما سمعت إنذاراً، أو قدَّمت أعذاراً، وأناةً كأنما تراقب في دَوْسِ الأرض حذاراً، وتبلغ الأقصى ولا يبلُّ لها الركضُ سالفاً ولا عِذاراً.

في الحُمُر: وبعث إليه بحمار صَعيديّ[1]، لا يُنسَب راكبُه إلى كِبْر، ولا ينقص عما يتعالى إليه جياد الخيل إلا قدرَ شبر؛ ولم يزل على راكبه السَّكينة، وهو أحد الثلاثة التي نوَّهَ الله بذكرها في قوله: ﴿**والخَيْلَ والبِغَالَ والحميرَ لتركبوها وزينَة**﴾ [النحل: ٨]؛ يُبلغ عليه المدى البعيد، ويُيَمَّمُ به الساري حيثِ شاء لأنه من الصَّعيد؛ مَؤونتُه خفيفة، ومقتنيه يُسرجه ولا يجد عليه جِيفة؛ وقد ركبت مثلَه الأنبياء، ولم يقتنِ غيره الأولياء؛ يؤمَن منه النِّفار، وتُقنعه النُّغْبَةُ من الجِفار[2]؛ لا يخشى راكبُه بُعْدَ المهوَى إذا سقط، ولا يعدم من محاسن البغال إلا عين الحاسد فقط؛ يحصل به ما يراد من الفرس في طول الأسفار، ويطمئن مودعه به إذا كان هو المثل فيما يحمل من الأسفار[3].

في الإبلِ: وهي نوعان: عجم[4] وعِراب؛ ثم العِراب رواحل وجمال أثقال.

وقد [أعددنا][5] لبلوغ الغاية من الإبل ما اقتدنا به كلَّ صعب، وحملنا عليه معنا كلَّ صَحْب؛ وقدَّمنا منها سفائرَ ليل، وسفائنَ آلٍ هي أقدر على قطع تيَّاره من سوانح الخيل؛ واخترنا منها رواحلَ تطوي بها المراحلَ، وتساق سحبها التي هي كالإبل إلى البلد الماحلِ؛ وارتدنا منها كل طائر في الزِّمام، ضامرٍ كالقِسيّ يرمي بقَتَبه[6]

---

(١) قال القلقشندي: وخيرها حُمُر الديار المصرية، وأحسنُها ما أتي به من الصعيد. وهي تنتهي في الأثمان إلى ما يقارب أثمان أوساط الخيل؛ والأحسن فيها ما كان غليظ القوائم، تامَّ الخَلق، حديد النَّفَس. (صبح الأعشى: ٢/٣٨).

(٢) واحدتها: جَفْر، وهي البئر الواسعة التي لم تُبنَ بالحجارة. والنُّغبةُ: الجرعة.

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿كَمَثَل الحمارِ يحملُ أسفاراً﴾ ـ الجمعة: ٥.

(٤) قال في صبح الأعشى: وهي جمال جفاة القدود، طويلة الوبر، تجلب من بلاد الترك؛ ويقال لها: البَخاتيّ.

(٥) في ط ق: «أعدّ» وما أثبتناه يناسب السياق.

(٦) القتب: الرَّحل الصغير على قدر سَنام البعير.

كالسهام؛ في هيئة جبال وهي جِمال، وتَمايُلِ دوحة فرعاءَ وهي في سرعة التنقُّل ظلال؛ لا تباري الرياحُ خِفافَها، ولا تمكن على الأرض من حافر الحركة أخفافَها؛ قد طويت طيَّ الأنابيب، ووَسَمت الأرضَ ببدور حولها من حوافر الخيل محاريب؛ ومعها برَسْم حمل الأثقال كلُّ عِبادِيٍّ[1] لو رآه عَبْدَةُ ابن الطبيب[2] لقصَر عليه القول، أو الراعي[3] لما انصرف بعده إلى الشَّوْل؛ أو زُيِّن به فِناء ابن زَبانة[4] لم تلقه في النعم الغارب، أو حُميت به [رواحِلُ][5] امريء القيس لما سمعَ قولَ العائب؛ يحمل الجملُ منها ما لو حمل الجبلُ بعضَه لتصدَّع، ويكابد جهدَ السُّرى لا يشكو ولا يتوجَّع؛ قد ألِفَ باديةَ الأعراب فلا ينفكُّ بين حِلٍّ ومرتَحل، ولا يبالي حيث شدَّ راكبُه وحلّ؛ قد طوى على الظَّماء أحشاءَه، وذُلِّل وما كان يعجزه عزُّ الآباء لو شاءه؛ ومعه من العُجم البَخاتيِّ ما يقطع الأرض بسارٍ يُساريك نَزَل معه النجمُ في أُفقه، ويدكُّ الصخرةَ في طُرقه؛ ويغنَى بحلي أَوْبارٍ عما يُضاهى به من الحُلَل، وتباهي به ذواتُ القباب الخشبِ ربَّاتُ الكِلَل[6]؛ عزَّت نُفوساً، وطلعت من المشرق شُموساً؛ وقصرت أيديها واشتدَّت زنودُها، كأنما تهمُّ بمواثبة عدوٍّ يكيدها؛ تنصبُّ في أقطار الأرض كأنها الغيومُ السَّواجِم، وتُقلَّد من أوبارها بأطواق [زَيَّنَ البَراجم][7]؛ لا تمتدُّ معها سوائمُ العرَب، ولا تسري معها إذا مَدَّ السَّحابُ رُواقَ أنوائه وضَرَب؛ ولا يستطيع

---

(١) العباد: قوم من قبائل شتّى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فأنفوا أن يتسمَّوْا بالعبيد وقالوا: نحن العباد، والنَّسب إليه عِباديّ كأنصاريّ. (لسان العرب: عبد).

(٢) هو عَبْدة بن يزيد الطبيب: شاعر فحل من مخضرمي الجاهلية والإسلام. توفي نحو ٢٥ هـ. (الأعلام: ١٧٢/٤).

(٣) هو الراعي النُّميري: عبيد بن حصين بن معاوية: شاعر من فحول المحدثين. كان من جلَّة قومه، ولقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل. توفي سنة ٩٠ هـ. والشَّوْلة: البقيَّة من اللّبن في الضَّرع. وانصرف إلى الشَّوْل: كناية عن انصرافه إلى وصف الإبل. (الشعر والشعراء: ٢٠١؛ والأعلام: ١٨٨/٤).

(٤) كذا في ط ق. ولم نعثر على هذا الاسم في كتب التراجم والأدب التي بين أيدينا.

(٥) في ط ق: «راحل». والرواحل جمع راحلة وهي من الإبل الصالحة للأسفار والأحمال.

(٦) واحدتها: كِلَّة، وهي ستر رقيق مثقَّب يتوقَّى به من البعوض وغيره. وربّات الكِلل: المرفَّهات المنعَّمات.

(٧) في ط ق «أو زين ببراجم» والتصحيح من عندنا. والبراجم: مفاصل الأصابع، واحدتها: بُرْجُمة.

معها سلوك الوحول، ولا يحصل منها إلا على حوالات المحال إذا حصلت هي على حقيقة الوصول؛ تتباعد منها خُطًى وهي مثل أختها، وتتدانىٰ منها شبهاً وإنما فضلت عليها البخاتيّ بآستحقاقها لا ببختها.

النوع الثاني
في جليل الوحوش، سِباعِه وغير سِباعه.

في الأَسَد: وإذا بغابة تَزْأر أسودُها، وتَجْأر منها حُمْرُ المنايا وسودُها؛ قد دَمِيَت براثنُها، وعطفت مثل الأثافيّ محاجِنُها؛ وتلظَّت كبودُها الحِرار، وأُمن معها الاغترار؛ قد دارت حَماليقُ[1] حَدَقها، وظهرت عليها أسايرُ حَنَقها؛ ولوَتْ أذنابَها وأقعت، وأعجلت الواصفَ أن ينعت؛ كأنما سُرْبِلَت بالدماء، وٱقتطعت ذلك الغابَ دون أُسْدِ السماء؛ لا تتباطأ المنايا عن وثَباتِها السِّراع، ولا يبعد مدى الآجال وليس بينها وبينه إلا قَدْرُ ذراع؛ لو نزل به العوَّام لأنكر نسبَه في بني الأسد، أو أبو القِرى لرأى ٱدِّعاءَ أُبوَّته رأياً فسد؛ قد وقفت تحامي عن تلك الفريسه، وتمنع كل ضرغام منها أن يدخل خِيسَه[2]؛ فخاف كلُّ واحد تلك الغابة ومن دونها الكثيب الفرد، وصار إذا ذُكر له الوَرْدُ عطس قبل أن يشمَّه منذ قيل: الأسد الوَرْد[3].

في النَّمِر: ووثب من تحت أَكَمة هناك نَمِرٌ ما يدعىٰ مثله لقاسط[4]، ولا يتمطر مثله لقانط؛ قد سَمَر إهابَه، ووقف وهو يوهم أنه يريد ذهابَه؛ قد رابَ لونه المنمَّر، وعاب كل كَلِف برقَّة الخصر لما رأى خصرَه المزنَّر، لا يرجىٰ خيرٌ لديه، ولا يطمع خفيف الجري بالفرار من بين يديه؛ لو شاء أن يثب الجبلَ لوثب، أو يكسر الصخر الأصمَّ وسمع حِسّاً[5] لقيل وَجَب؛ لا ينفع منه حِذار، ولا يحول بينه وبين غنيمته من

---

(١) واحدتها حِمْلاق. وحملاق العين: ما يسوِّده الكُحل من باطن أجفانها.

(٢) الخِيسة: موضع الأسد.

(٣) الورد: من أسماء الأسد.

(٤) القاسط: العادل.

(٥) الحِسُّ: الصوت الخفيّ.

الغِنم علـوُّ جدار؛ يفزع الرجل الجليد من نُونه الأرقط، ويظن أنه من دماء الكسائر ما تنقَّط[1].

في الذئب: وقد قيل إن بمنعَرَج اللّوىٰ[2] ذئباً قد أخاف كلَّ سائمة، وآوىٰ إلى وكنها كل هائمة؛ وأخاف السَّرح[3] فلم يمتدّ، وهاجم القطيع ولم يرتد؛ حتى فعل الفظيع، وقطع القطيـع؛ وتوقَّـدت حماليقُـه توقُّـدَ السُّرْج، وتمـوَّجت أعضاؤه تمـوُّجَ الخُلْج؛ وزان نَحفَه بوَبَره، وفتقت براثنُه ما خاط بإبره، وطالما أبعد النُّجْعَة[4]، وزار في الليل بعد هَجْعَة؛ وفتن بخدِّه الأسيل، وقعد على المائدة مع الإكليل؛ هذا وربما تجسَّس، وأبغض لأجله كلَّ ديباجٍ لكونه يسمَّى بأطْلَس.

في الفيل: ومن فيلٍ كأنه ليلٌ ضاحكٌ عن نهار، وطَوْرٌ خرطومُه منه شفيرٌ منهار؛ كأنه راقصٌ جاء يرقص بكُمِّه، أو داخلٌ على ملك عاجَلَ الأرضَ بلثمـه؛ له نـابٌ لا يبالي بما ناب، لمع منه برقٌ في سحاب، وانقضَّ في الليل منه شهاب؛ بناءٌ مَشيد، من حجر أو حديد؛ لا يطاوله بُنيان، مشيَّدٌ على أربعة أركان؛ يموج كـأنه سكـران، ويمور كأنه ثعبان؛ ويصول كأنه إنسان، ويهـول كأنـه جان؛ سـائسٌ مَسوس، رئيس مرؤوس؛ مطيع مُطاع، يطلُّ بين عينيه شجاع، يخفُّ إلى الحرب حاملاً على صهوته بعض القلاع..

في الكرْكَدَنّ[5]: وأنى بكَرْكَدَنٍّ لو نارٌ شَبَّ في معقله لما نزَح، ولو ثار له الكبش في الهيجاء لنَطَح؛ طالما رعىٰ في بطن أمِّه، وجهد له الفيلُ ولم يقدر على سِلْمه؛ قد

(١) لعلَّه: «من دماء الكواسر إنما تَنقَّط»، فتأمَّل.

(٢) اللِّوى في الأصل منقطع الرمل. وهو ايضاً موضع بعينه قد أكثرت الشعراء من ذكره وخلَّطت بين ذلك اللِّوىٰ والرمل فعزَّ الفصل بينهما. وهو وادٍ من أودية بني سليم. (انظر معجم البلدان: ٥/٢٣).

(٣) السَّرح: الماشية.

(٤) النُّجْعة: طلب الكلأ ومساقط الغيث.

(٥) الكركدنّ: حيوان ثدييّ من ذوات الحافر، عظيم الجثة، كبير البطن، قصير القوائم، غليظ الجلد، له قرن واحد قائم فوق أنفه، ولذلك يقال له: وحيد القرن. وهو هندي وإفريقيّ.

عدم على كثرة ذوات الأوراق ما يباريه، وأقبل في بحر الآل كالمركب وقرنُه ساريه؛ من شبَّهه قال هذا جبلٌ غُرس عليه وتَدٌ من الأوتاد، ومن نظره بين عينيه قال عمود سرب نِشْوةٍ عند مقتاد.

في الزَّرافة: قال الجاحظ: زعموا أن الزرافةَ خلقٌ تولَّد بين الناقة من نوق الحُبوش [أي نوق الحبشة] وبين البقرة الوحشية وبين الذِّيخ ـ وهو ذكر الضِّباع ـ قالوا: إن الذِّيخَ يعرض للناقة من الحبوش فيَسْفِدها فتَلْقَح بولد يجيء خلقه بين الناقة والضَّبُع، فإن كان الولد أنثى يعرض لها الثور الوحشيّ فيضربها فيصير الولد زَرَافة، وإن كان ذكراً تعرَّض للمَهَاة[1] فألقحها فتلد زرافة [أيضاً]. قال: ومنهم من زعم أنه لا تلقح الزَّرافة الأنثى من الزَّرافة الذكر، وإنما هو مركَّب. قال: وقالوا إن هذا مشهور باليمن والحبشة؛ وأسنان الذكور أكثر من أسنان الإناث؛ وإذا كانت أسنانُها سوداً دلَّت على هَرَمها، وإذا كانت بيضاً دلَّت على الفَتَاء. و [من] أمراضها: الكَلَب؛ [وهو كالجنون يعتريها كما يعتري الكلبَ فيقتلها ـ وكل من عضَّته وهي على هذه الحالة قتلته][2] إلا ابن آدم فإنه ربما عولج فسَلِم؛ [ومن أمراضها أيضاً]: الذَّبحة والنِّقْرس. ـ ويُقال في وصفها:

كأنها كأسُ خمر جال عليه حَبَب، أو فضَّةٌ نقِّط بها ذهب؛ قد ارتفع هاديها[3] على ذَنَبها، وعلا رأسها على رقبتها حتى كاد يبلغ السماءَ بسببها؛ ليست لِلْمَهَا ولا للبقر، وإن لم تكن مما يُجلُّ فإنها ليست مما يُحتقَر.

في الحمارة العتابيَّة[4]: وقد تساوىٰ [فيها] الليل والنهار، واعتدل البياض

---

(١) المهاة: أنثى البقر الوحشيّ.

(٢) عبارة ط ق: «وأمراضها الكلب وهو الجنون تقتله وتقتل كل ما عضَّته...» وما أثبتناه هو عبارة صبح الأعشى عن الجاحظ، وهي أوضح.

(٣) الهادي: العنق.

(٤) قال القلقشندي: وهي حيوان في صورة البرذون موشَّى الجلد بالبياض والسواد يروق الناظر حسنُها. وقد كان أهدي للظاهر برقوق حمارة من هذا النوع، فأقامت مدة، ثم أعطاها فقيراً من فقراء العجم فكان

والسواد بمقدار؛ واستقامت خطوطُها، وتدفقت فيها أنهار قَدَرُها شطوطُها؛ فتشمَّخت إعجاباً، وجمعت شَيْباً وشباباً؛ وراقت حُلَّتُها المسَهَّمة[١]، وتخاطيطها المقسَّمة؛ وغدت روضةً تفتَّح نُوَّارُها، وليلةً يتخلَّل بين الظلماء أنوارها؛ قد فُضِّض سَبَجُها[٢]، وكثرت في أثناء لياليها الجُون فُرُجُها؛ وغدت وكأن النهار قد قدَّ إهابَها، وكأن البرق قد شقَّق سَحَابَها؛ هذا على أنها لم تعد أمثالها في صورتها، ولا تخالفت أغصان الخطوط في شجرتها؛ حتى تلاقت عند طرف آذانها، وكفت شجراء الشجر بصحة تقسيم أغصانها.

في الحمار الوحشيّ: وعنَّ حمارٌ وحشيٌّ قد شمَّر فضل إهابه ليذهب، وجرى في مدَى شوطه حتى كاد يتلهَّب؛ قد أسبلَ ذنباً كأنه من حرير ملوّن، وداس بحافر كأنه من قَعْب مكوَّن؛ وسنَّ ضرساً طبع على خصيّ الذكور غَيْرَةً على الأُتُن[٣]، وقلب عينيه لفهم ما تؤدّي إليه خُبْرةُ الأذن؛ فقتل بالسهم الصائل منه جِدّ غيور، ورُدِّيَ منه قتيل طالما ردَّ الإناث وأردىَ بالذكور.

في البقر الوحشيّ: وجرت على يمناه بقرة وحشيَّة قد اشتبكت أغصان قرونها، وأطلق آسمُها على كرائم النساء لحسن عيونها؛ فقصدها برمحه، وعدَّها من ربحه؛ هذا وقد كثر في السِّرْب أمثالها إلا أنها كانت أقرب إليه، والمقصودة منه على كثرة البقر الذي تشابَه عليه.

في المَهَا[٤]: وصادف في ذلك المَهْمَهِ[٥] مَهاً لا تُردي الفوارسَ إلا بعيونها، ولا

= يركبها كما تركب الخيل والحمير ويمشي بها في القاهرة، ثم عوَّضه الناصر بن الظاهر سلطان العصر عنها عوضاً واعتادها منه، وأرسلها في هدية لابن عثمان صاحب بلاد الروم غربي الخليج القسطنطيني.

(١) أي المخططة بما يشبه السهام.

(٢) السَّبَج: خرز أسود ـ والليالي الجون: السُّود.

(٣) قال القلقشندي: «ويوصف الحمار الوحشيّ بشدة الغيرة على أُتُنه حتى يقال إن منها ما إذا ولد له ولدٌ ذَكَرٌ كَدَمَ قَضيبَه وخصيبه حتى يقطعهما».

(٤) لم يكن بحاجة إلى هذا العنوان الجديد فالمها هي نفسها البقر الوحشيّ.

(٥) المهْمَه: المفازة البعيدة.

تُحبُّ أبكارُ النساء إلا لشَبَه عُونها[١]؛ قد لبست من الديباج حُلَلاً، وآكتست بالوبر فلم تبقِ خَلَلاً؛ فلو فطنت لها الغواني لما خرجت لبيوتهـا من كِسْرٍ ولا فتنت بعيونها بين الرُّصافة والجِسْرِ[٢].

في الغزال: وسَنَحَ غزالٌ سَبى بحسن خَفَرِه، وسمح بإعطاء الرياح بعضَ خَبَرِه؛ قد تلفَّت بجيده، وآنفتل يهزأ بالكلب في وَصيده[٣]؛ لو عنَّ للعشَّاق لهاموا، ولَعَذَلوا لصائده ولاموا؛ ولما نصبوا بيوت أشعارهم لغيره على طريق، ولا قال قـائل منهم: أنت منهم لليلى ما حييت طليق؛ ووراءه أمُّ طَلًى[٤] لم تخف إلا على طَلاهـا، ولم تحل إلا أن مِسْكاً غلَّف رَوْقَها[٥] وأنَّ كافوراً طلاها؛ لم يفت العامريَّة معناها، على أنه لم يشبهها منها إلا جيدها وعِنَاها.

في الأرنب: ولم يُكْسَ مثلَ وَبَرها، ولا سمع مثل خبرها؛ تحلَّت بصفات الذكور والإناث، وكادت لخفَّة جريها تكون ذات أجنحة مثنًى وثلاث؛ لا يظنُّ كلُّ ذي وَثْب من الظِّباء معها إلا أنه يَخْجَل، ولا يطمع في اللَّحاق بهـا وقد طـارت بها أيـدٍ سِرَاعٌ وأرْجُل؛ لا تُدْرَك إلا إذا تحدَّرت من صَبَب[٦]، أو كانت في مجال الخيل فيه ركضٌ وخَبَب؛ فأما إذا تعلَّقت بالجبال، أو تَرَدَّت في مقتبل الخريف بُرْدَ الظلال، فطائـرٌ لا يُمسك، وأملٌ لا يُدرك، ولا تصبر النفس عليه فيترك.

في الثعلب: ومرَّ ثعلبٌ ظنَّه الكلبُ من أبناء جنسه، خرج بعد تحصُّنه بالوجار

---

(١) مفردها: عانَة، وهي القطيع من بقر الوحش.

(٢) إشارة إلى قول عليّ بن الجَهْم، الشاعر البغدادي (ت ٢٤٩ هـ):

عيـونُ المهـا بين الـرُّصـافـة والجِسْـرِ جَلَبْنَ الـهـوى من حيث أدري ولا أدري

(٣) الوصيد: بيت كالحظيرة من الحجارة في الجبال؛ وفناء الدار والبيت؛ وعتبة الباب. وفي التنزيل العزيز: «وكلبُهم باسِطٌ ذِرَاعَيْه بالْوَصيد».

(٤) **الطَّلى**: ولد الظبية.

(٥) **الرَّوْق**: مقدَّم كل شيء.

(٦) **الصَّبَب**: ما انحدر من الأرض.

وطـول خَبْـه؛ فنبّهت عليه الكلاب، وأُطلقت وراءه في الطَـلاب؛ فلم يـزل يتلوّى عليها في المطاردة مثل العنان، ويـراوغ الكلبَ مراوغـة البطل في الحـرب العوان؛ ويهزأ بالقانص ببصبصة ذنبه، ويطفر كل طفرة يخاف فيها عنقودُ الثريَّا على عنبه.

في الهرَّة: ومن هرّة تنفق ما كَسَد، وتحكي في انتفاخها صَـوْلَةَ الأسـد؛ ذاتُ أُنْـس في الدار، وأسّ[1] للغار؛ تخالس مخالسةَ الذئاب، وتسطو بأظفار وأنياب؛ طالما ساورت الأرقم، وتجرَّعت منه مُرَّ العلقم؛ وأكلت منه السمَّ الذُّبّاح، واستوطنت البيوت وتركت ظاهرها للكلب النَّباح.

النوع الثالث
في معلَّمات[2] الصَّيد.

أوَّلُ من صادَ بالكلاب الفُرس، وأول من اتَّخذها «دارا»؛ وكذلك الفهد، وأول من اتَّخذه كسرى أنـوشـروان؛ وأوَّل من صـاد بالعُقـاب أهلُ المغـرب، ولا يعدُّ في الصقور ولا البُزاة. وأول من صاد بالصقور الحْرث بن معاوية بن كندة والسُّنْقُر منها، والعهد بجلبه إلى بلادنا قريب؛ وأول من صاد بالبازيّ البطالسةُ ملوك مصر.

في الفَهد: ومعه من الفهود رديفٌ يبرز على الغزال الموت من مكمنه، ويأخذ في وسط السِّرب من مأمنه؛ يثب عليه وَثْباً، ويخالسه إمَّا رأى شجراً أو كثباً؛ لا ينظرِ منه حيث التفتَ حركه، ولا يظن لحاقه ولا دَرَكه؛ لا يزال يمهله حتى إذا أمسكه لم يكد يفلته، ولم يعد يسلطه مرسله وسكّينُه معه لم يُصلته؛ فلم يستطع الظبيُ أن يفرَّ لديه، ولا يتخفَّى منه وما فيه جارحة إلا وفيها عين تنظر إليه؛ وقـد أعجَبَ منه جِـرزٌ

---

(١) لعله «وبأس».

(٢) وقد يعبّر عنها بالضواري. وهي كل ما يقبل التعليم من الوحوش كائناً ما كان، حتى حكيَ عن السودانيّ القنّاص أنه بلغ من حذقه أنه ضرَّى ذئباً حتى اصطاد به الظِّباء وما دونها، وضرَّى أسداً حتى اصطاد به حُمُرَ الوحش. ويقال إن ابن عِرْس يُجعل حبلٌ في عنقه ويُدخل على الثعلب فلا يخرج إلا به. (صبح الأعشى: ٢/٤٢).

أحداقه، وذائبُ الكُحل من آماقه، وحسنُ ما يروق في جيده من قلائده وأطواقه؛ هذا إلى لينِ جلدته، ورونق جِدَّته، وما جمع من سواد وبياض، وكمائمَ لم تفتح في نوَّار رياض.

في [الكلب][1]: وهو نوعان: السَّلوق والزُّغاريّ. فأما السَّلوقيَّة فمنسوبةٌ إلى «سَلُوق»، وهي [من] بلاد اليمن؛ ولها سلاح جيد وكلاب فُرْهٌ[2]. وإناث الكلاب أسرع تعلُّماً من ذكورها. قالوا: تتولَّد السَّلوقيَّة بين الثعالب والكلاب، ولا يقبل التعليمَ إلا البطنُ الثالث [منها]. قال الجاحظ: وخيرُ الكلاب ما كان لونُه يذهب إلى لون الأسد بين الصُّفرة والحمرة، ثم البيضُ إذا كانت عيونُها سوداء. قال: ويُستدلُّ فيها على الفَراهة بطول ما بين يدي الكلب ورجليه، وبقِصَر ظهره؛ ويكون صغيرَ الرأس، طويل العنق، غليظه، يشبه بعضُ خلقه بعضاً، قصيرَ اليدين، طويلَ الرجلين، غليظ العضُدين، أزرق العينين، عظيم المقلتين، ناتيءَ الحَدَق، طويل الخَطْم[3] لطيفَه، واسع الشِّدقين، ناتيءَ الجبهة عريضَها، طويل الصدر غليظه، مضموم الأصابع، دقيق الوسط. وُيكره في ذكورها طولُ الذنب، ولا يُكره في إناثها.

في السَّلوقيَّة: وأطلقت من قَدَاتها[4] فانبثَّت تولول أنيابُها، وتلوي أذنابُها؛ وتحسب أنها مما طويت خصورُها أنابيب، ومما مطَرَها الجري شآبيب؛ خرجت تبتغي رزقا، وتطلب عَسْفاً لا رِفْقا؛ لا تدع كِناساً[5] إلا كنست، ولا سربَ وحش إلا آنست؛ تمسك لصائدها، وتمسي وأقطار الأرض من مصائدها؛ لا تعدُّها الظباء إلا حُتُوفاً، ولا تقرأ من مفرقاتها سطور سربها إلا حروفاً؛ تجهَد في فَنَائها، وتجدُّ في إخراجها من

---

(١) في ط ق «في الزُّغاري». والتصحيح من المقام.

(٢) من الفراهة، وهي الجمال والحسن، والخفَّة والنشاط، والحذق والمهارة، فهو فارهٌ.

(٣) الخَطْم: الأنف، أو مقدَّمه.

(٤) القدا والقداة: الرائحة الطيِّبة تنبعث من اللحم عادة. ولا نرى استعمال هذا اللفظ هنا مناسباً. ولعله تصحيف عن «وأطلقت من أقْدُها»: جمع قِدّ، وهو للكلب بمثابة الزمام للفرس. فتأمَّل.

(٥) الكِناس: المكان الذي يستتر فيه الظبي.

فِنائها؛ وتزداد عليها كَلَباً لا يرطّبه شحومُها، ولا ينالها منها إلا دماؤها لا لحومُها.

في الزُّغاريَّات[1]: ولديه زُغاريَّاتٌ منها كـل صغير الحجم، ينقضّ كـالنجم، يسلك كـلَّ طريق لا يُسلك فَجُّه، ويملك منه مـا لا يملك من السَّلوقيِّ المُضـاعَف نَسْجُه[2]؛ يُخرج كلَّ ذاتِ وكْر، ويَطأ إليها كلَّ أرض يفتضُّ منها عُذْرَةَ البِكْر؛ لـولاه لما حصل الصيد، وإذا فاته البطش باليد لم يفُتْه بالكيد.

[النوع الرابع]
الجوارح

ويُستحبُّ في الجوارح كِبَرُ هامتها، ونتوءُ صدرها، واتِّساع حماليقها، وقـوَّةُ إبصارها، وحِدَّةُ مَنَاسرها، وصفاء ألوانها، ونعومة رياشها، وقوَّة قوادمها، وتكاثُف[3] خوافيها، وثقل محملها، وخِفَّةُ وَثَباتها، واشتدادها في الطَّلب، ونَهَمُها في الأكل.

ثم اعلم أن الطيور الجوارحَ نوعان: صقورٌ وبُزاة.

فـالصَّقْر مـا كان أسـود العين، والبازيُّ مـا كان أصفـر العين، على اختـلاف المسَمَّيات. ثم اعلم أن أشرفَ الجوارح المسمَّاةُ في وقتنا: السَّنَاقِر[4]، وليس لها ذِكْرٌ في القديم؛ وهي مجلوبةٌ من البحر الشاميّ، مُغَالًى في أثمانها. وقد كان الواحد منها يبلغ ألف دينار، ثم نزل عن تلك الرُّتبة، وانحطَّ عن تلك الهضبة؛ وهو معـدودٌ في الصقور.

واعلم أن الصقـور هي: المختصَّـة الآن بتسميـة الصَّقـر، وتسمِّيها العـرب:

---

(١) قال القلقشندي: وهي الطف قدّاً من السَّلوقيَّة. قال: ولم أدرِ إلى ماذا تُنسب.

(٢) المراد بالسَّلوقيّ هنا: الدرع. وهو منسوبٌ أيضاً إلى سَلوق من اليمن. وفي ذلك يقول النابغة:

تَقُدُّ السَّلوقيَّ المضَاعَفَ نَسْجُهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ

(٣) في ط ق: «تكاشف»؛ والتصحيح من صبح الأعشى. والخوافي: ريشات أربع إذا ضمَّ الطائر جناحه خفيت. ونقل القلقشندي عن «المصايد والمطارد» لكُشاجم أن عدد ريش جناح البازيّ عشرون ريشة: أربعُ قوادم، وأربع مناكب، وأربع أباهر، وأربع كُلَى، وأربعُ خوافٍ. والخوافي أخفُّ من القوادم.

(٤) واحدُه: سُنْقُر.

الحُرّ[1]، [ومنها] الشَّاهين، والكُوهيَّة[2] ـ وهي بحريَّة ـ والسَّقاوه[3]، والجَلَمة[4].

والبُزاة هي: البازيُّ، والزُّرَّق[5]، والباشق ـ ويسمَّى اليؤيؤ[6] ـ وأما العُقاب فقد قدَّمنا أنه لا يعدُّ في الصقور ولا في البُزاة، وهو معدود في الجوارح وفي الطير الجليل[7]؛ ونبهنا على ذلك لموضع الفائدة فيه، فليُعلم ذلك.

في العُقاب: وأظلَّتها عُقابٌ ربما أحسنت السِّهام بريشها عند المناب، وأضحت وكأن قلوبَ الطير حالين لدى وَكْرِها الحَشَفُ البالي والعُنَّاب[8]؛ لا ينجو طريد من مِخلبها، ولا يأمن وهو في الهواء بؤسَ منقَلَبها؛ تخاف الشمس في أفق السماء من شدَّة حرصها، ومُذْ تسمَّت بالغزالة[9] ونظرت نار عينيها ما تحرَّت تجرُّ النار إلى قرصها؛ قد أردفت بأمثالها من كل ذات إقدام لا يقدم عليها جبان، ولا تنشر الأعلامُ مثلَ أجنحتها وإن قيل لها عُقبان؛ تتطامن[10] لها الظِّباءُ كأنها إليها تضرع، وتتخبَّط لها حين تُصرع.

---

(١) قال في صبح الأعشى: «ويقال لها: الأكدر، والأجدل».

(٢) وهي موشّاةٌ بالبياض والسواد، يخالط لونها صُفرة.

(٣) في صبح الأعشى: «وهي قريبة الشكل من الصقر».

(٤) قال في صبح الأعشى: هو اليُؤيُؤ؛ وتسميه أهل مصر والشام: الجلم. وهو طائر صغير أسود اللون يضرب للزرقة. وسمّوه الجلَم أخذاً من الجلَم وهو المقصّ تشبيهاً به لأن له سرعة كسرعة المقصّ في قطعه. ـ وقد زاد في صبح الأعشى على أصناف الصقور المذكورة أعلاه: الكُونسج. قال في حياة الحيوان: ونسبته إلى الصقور كنسبة الزُّرَّق إلى البازيّ. وهو يصيد أشباء من طير الماء ويعجز عن الغزال لصغره.

(٥) وهو ذكر البازيّ.

(٦) تقدَّم معنا أن اليؤيؤ هو الجلمة ـ كما ذكر القلقشندي ـ وقد عدَّه في الصقور وليس في البُزاة. وذكر القلقشندي من البزاة: الفقيمي.

(٧) سيأتي ذكره بعد بضعة صفحات.

(٨) الصورة مأخوذة عن بيت أمريء القيس:

كأنَّ قلوبَ الطير رَطباً ويابساً ... لدى وكْرِها العُنَّابُ والحشفُ البالي

(٩) الغزالة: من أسماء الشمس.

(١٠) تطامن: سكن وأنخفض.

في الصَّقر: ومن صَقر لا تؤسىٰ له جراح، ولا يدع من وحش يسرح ولا طائر يطير بجناح؛ أينما وُجِّه لا يأتي إلا بخير، وحيثما أُطلق كان حَتْفَ الوحش والطير؛ يدع أقطار الفَلاة مجْزرَة، أو روضةً بالدماء مزهرة؛ يجدُّ إلى الطير في عنقه[1]، ويحلّق إلى السماء فيرجع وطائره في عُنُقه؛ تخافُه العُفْرُ[2] على نفوسها، وتخضع له ولأمثاله فما تخرج إلا والطيرُ على رؤوسها؛ يزيد خبره في مَظانّ الصيد على الخَبَر. وتخرج الظباء وقد آنسجنت خوفاً منه في مَلاءة من العَجَاج مَخيْطَة من قرونها بالإبر؛ شديدُ الأيْد[3]، قد بنىٰ على الكسر حروف الصيد؛ يحمَدُ مُقتنيه أيامَه الغُرّ، ويقول له إذا تلفَّت إلى الصيد: إن جلبتَ ضيفاً فأنت حرّ؛ لا يصحب مستصحِبُه معه إلا مَزاده، وأينما سار حامِلُه وهو على يده كأنَّ معه زاده.

في السُّنْقُر: وبينها سُنْقُرٌ هو فيها ملكٌ متوَّج، ورزقٌ مروَّج؛ تجرَّأ على سفك الدماء، وأبىٰ أن يطلب رزقه إلا من السماء؛ يودُّ الكُرْكِيُّ لو خلص من مخاليبه، ويخاف أن يسلم من خرط الشبكة ويقع في كلاليبه؛ يدرك الصيدَ ولا يؤجِّله، ويدفع صدره ثم يومي إليه برأسه كأنه يستعجله؛ قد جمع من المحاسن كلَّ الصُّنوف، وكُتبت عليه أسطرٌ تُقْرا بما تُقرىٰ به الضيوف.

في الشَّاهين: ومن شاهين مُذْ حلَّق وراء الطير شاهت به الوجوه، وشاهدت الآمالُ به ما ترجوه؛ قد أصبح كلُّ محلِّق بجناحِه رهينَ يده، وكلُّ ساربٍ من الوحش طعامَ يومِه أو غده؛ لا يُتعبه خَلْفَ الطريدة بُعد المدىٰ، ولا يردُّه خوفُ مسافةٍ ولا تقَحُّمُ رَدَىٰ؛ رِيبةُ عام لم يمنع بطول دهر، وممتدٌ منه في الطَّلْق مثلُ ريح سليمان التي غدوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شهر.

في الكُوهِيَّة: وتَبِعَتها كُوهيَّة، هي بالمحاسن حَرِيَّة، ولكثرة الأقدام مجريَّة؛ قد وَكَل بها أمرَ مطبخه، وأمدَّ بها من الطير من ليس بمُصْرِخِه؛ لا تعفُّ عن دم، ولا تُرىٰ

---

(١) العَنَق: ضربٌ من السير فسيحٌ سريع، وهو للإبل والخيل أصلاً: وقد استعاره هنا للطير.

(٢) مفردها: أعْفَر، وهو الظبي يعلو بياضه حُمْرةٌ.

(٣) الأيد: القوّة. من آدَ أيْداً وآداً فهو أيِّد وذو أيْد.

أطرافُها إلا مثمرةً بعُنَّابٍ أو مخضَّبةً بعَنْدَم؛ قد أَخْلَتْ[1] من كلِّ سانِح، ولبست زِيَّ الراهب المتعبِّد وفتكت بكل سائح.

في السَّقاوَة: وأطلَّ عليها بلاءٌ آسمُه السَّقَاوة، وحنَّت عليها مخاليبُها وهي كالحديد أو أشدّ في القَسَاوَة؛ حتى سالت الدماء كالمَذانب، وكَسَتِ الأرضَ حبراً من رِياش الحُبَارىٰ وفرًى[2] من جلود الأرانب؛ وجَعلت في قبضة الكلب ما كانت عليه العين تدور، وتكفَّلت بكفاية المطبخ وملأت القدور.

في الجَلَم: وخرج ومعه من الجَلَم كلُّ صغير لا يُحتَقر، وصائدٍ إلى سواه لا يُفْتَقر؛ كأنما خُلقت من داجي الظُّلَم، وطُبعت من حديد السيوف وإن سُمِّيت بالجَلَم؛ فأخذت دِقَّ[3] الطير أخذاً بغير رِفْق، وتسلَّطت عليها فما كانت إلا حُمَّى الدِّقِّ[4]؛ ثم آنفرد منها بآثنين أرسلهما على كُرْكيٍّ شذَّ عن رفاقه، وقارنه نَحْسَان لسُوءِ آتِّفاقه؛ فأخذاه عن اليمين وعن الشمال، وتَبّا[5] له من الحياة الآمال؛ فهوىٰ لديهما هويًّا، وغُلب بهما ـ وضعيفان يغلبان قويًّا.

في البازيّ: وأُطلق منه بازيٌّ مهما لقيَ لَقِف، ومهما خطا لديه خطف؛ كأنما خُطَّ جؤْجُؤُ[6] بقلم، أو رشَّ عليه من الصباح والظُّلَم؛ قد آعتَدَّ للطَّوارق، وآدَّرأ بمثل الطَّوارق[7]؛ قد دحَضَ حُجَجَ الحَجَل، وكسرها حتى أبان عليها حُمرةَ الخَجَل؛ لا

---

(١) أي اخلت الأرض من كل سانح. قال في لسان العرب: أخليتُ أي خلوتُ، وأخليتُ غيري، وهو يتعدّى ولا يتعدّى. قال عُتَيّ بن مالك العقيلي:

أتيتُ مع الحُدَّاث ليلَىٰ فلم أُبِنْ — فأخليتُ، فآستعجمتُ عند خَلائي

قال الزجاجي في أماليه: أخليت أي أخليتُها، ومفعول أخليتُ محذوف. (لسان العرب: خلا).

(٢) كذا في ط ق. وفرًى جمع فِرْية وهي الكذب؛ والمعنى غير مناسب هنا. ولعل الصواب: «وفِراء»، جمع «فَرْو» أو «فروة».

(٣) أي صغير الطير.

(٤) حُمّى الدِّقّ: حُمّى معاودة يومياً تصحب غالباً السُّلَّ الحاد.

(٥) تَبَّ الشيءَ: قطعه.

(٦) الجؤجؤ: مجتمع رؤوس عظام الصدر؛ وصدر السفينة.

(٧) الطوارق الأولى بمعنى الحوادث، و «الطوارق» الثانية غير مناسبة هنا. ولعلها: «المطارق».

يُسأل من الصيد عمّا نَهب، ولا تُعرف له قيمةٌ إلا أنَّ له عيناً من ذهب.

في الزُّرَق: وحلَّق الزُّرَقُ تحليقَ البازيّ المُطِلّ؛ والبطل المُدِلّ؛ قد تقاضى الطيورَ بغير دَيْنِه، وآقتدر على ضعافها قدرة القويّ ذي الذهب بعينه؛ وأضحت كلُّ لائذةٍ لا تُغاث، والبُزاةُ لا تفخر لأن الذكور لا تقاومها الإناث؛ وعطف من مخلبه حرفَ صِلَةٍ وجناحُه العائد، وأوقد من مُقلته ناراً لو شاء لشوىٰ عليها الصائد.

في الباشِق: وآنقضَّت البواشِقُ على تلك الحانيات(١)، ولقَفَت ما قدرت عليه من تلك الحائمات؛ ثم حطَّت على [ما] لبَدَ منها في مَكْمنه، وأخذته بالخوف من مَأْمَنه؛ وتهاوت من كل ناحية تلك السهام، وفعلت ما أمكنها وكان أكثر فعلها بالأوهام؛ ولم يبقَ ذو جناح منها حتى قشَّ منها ما وقع تحت الأشجار، وبنَّج في الطَّلَق الواحد عدَدَ البَنْج(٢) وجَار؛ ولم يُخْطِ شيءٌ من تلك السِّهام الرَّوَاشق، ولا رجعت منها إلا بقوت الجماعة وقد قيل إنَّ ما فيها قوت الباشق.

النوع الخامس

الطير الجليل(٣)

آعلم أن الطير الجليل المعتدَّ به في الواجب عند رُماة البُندق أربعة عشر طيراً: منها ثمانية تُحمل عندهم بأعناقها، وستة تُحمل بأسياقها(٤).

فأما الثمانية الأولى فهي: التَّمُّ، والكُيُّ، والإوزَّةُ، واللَّغْلَغَةُ، والأنيسةُ، والحُبْرُجُ، والنَّسْرُ، والعُقابُ.

---

(١) الحانية من الإبل والغنم: التي تلوي عنقها.

(٢) البَنْج بالفارسية هو العدد خمسة؛ ولعلَّ المقصود بلفظ «جار»: جَهار، وهو العدد أربعة بالفارسية. وبنَّجه: خدَّره.

(٣) قال القلقشندي: وهو المعبَّر عنه بطير الواجب؛ وبه تعتني رماة البندق ونحوها، ونفتخر بإصابته وصرعه؛ ويُحتاج إليه في الرسائل الصيديّة، وفي كتابة قدمات البندق ونحوها.

(٤) لم نعثر على هذا الجمع في كتب اللغة التي بين أيدينا؛ ولعله استعمله هنا مكان «سيقانها» لضرورة التسجيع.

وأما السِّتَّةُ الثانية فهي: الكُرْكيُّ، والغِرْنَوْقُ، والمُرْزِمُ، والصُّوغُ، والشُّبَيْطَرُ، والعُنَّاز[1].

وهذه الطيور منها عشرةُ طيورُ الشتاء وهي: الكُرْكيّ، والإوزَّة، واللَّغْلَغة[2]، والأنيسة، والحُبْرُج، والتَّمّ، والصُّوغ، والعُنَّاز، والعُقاب، والنَّسر. والأنيسةُ أشرفُها.

والأربعة الباقية طيور الصَّيف وهي: الكُيّ، والغِرْنَوْق، والمرزم، والشُّبَيْطَر.

وقال بعضهم: الإوزُّ شتويّ صيفيّ؛ وإنما قيل: طيور الصيف وطيور الشتاء بحسب الوجدان.

ومن شرطهم أستتمام خِصال[3] ثمانٍ وهي: الأدب، والصِّدق، والشجاعة، والمروءة، والكرم، والمودَّة، والوفاء، والفتوَّة.

فأما قولهم: «الوجوه» فهو أن تقف الرماة إذا خرجوا إلى «البَرْز» مع طلوع الفجر ـ وهو أول وقت خروج الطائر من الماء ـ إلى حين طلوع الشمس؛ فما يصرعه في ذلك الوقت يسمّى: «وَجْهَ غَدَاة»؛ فإذا طلعت الشمس خرجوا من المقامات، وصبَّح بعضُهم بعضاً؛ فإذا خرج الطيرُ وصُرع في ذلك الوقت شيءٌ يسمَّى: «وَجْهَ صباح» و «وَجْهَ مَصْبَح»؛ فإن كان لهم طائرٌ يدخل الماء ويخرج منه فذلك يسمَّى: «وَجْهَ خوارج» و «وَجْهَ رَوَاجع»؛ وأما «وَجْهُ العشاء» فهو أن لا يبقىٰ من الطير في الصحراء شيءٌ إلا ويأتي، وهو أوسعُ الوجوه وقتاً.

وإذا خرجوا من «المقامات» باركوا في المصروع و «حملوه».

والتَّبْريك والحَمْل أن يقول الرجل للطير المصروع: «بارَكَ اللّه فيك» ثم يرفعه بيده. و «الحَمْلُ» يقوم للصارع مقام الشَّهادة.

---

(1) سنأتي على التعريف بكل منها في موضعه فيما يأتي مما يقال فيها.

(2) في ط ق «الغلغلة».

(3) مراده أن هذه الخصال مطلوبة في الصائد أو الرامي.

والمقامات على قدر ما يقع في الخطة؛ ويقال لمن جاء في آخرها: بـطيحة ـ والوقوفُ في مقام التحمُّل على قدر القِدْمة في الرَّمي.

ولا يُقبل عندهم إلا شهاداتُهم؛ والشاطر عندهم من كانت له صروعٌ كثيرة وإحسانٌ ونُكَتٌ.

والإحسانُ أن يصرع الرامي طيرين من جَفَّة[1]، أو طيرين من زُمْزُوم، أو طيرين من خمسة، أو من أربعة، أو من ثلاثة، أو أن يصرع «المصطَحَب»: وهو أن يمرَّ بـه طائران فيصرعهما جميعاً.

والنُّكَتُ[2] هي صِراع الأطيار الكثيرة من زُمزوم وما أشبهَه.

ومن اقترف منهم ذنباً عُقد له مجلسٌ: فإذا قطع الحاكم فيه ـ أي حكم [عليه] ـ نزل عن قِدْمته، ونُوديَ عليه، وهذا هو «الإقعاد».

في ذكر البَرْز: وبرزنا للرَّمي ومعنا قِسِيٌّ لا تتشكَّى معها الأوتار، ولا تزال طالبةً للطير بالأوتار[3]؛ في رفقة قد خرجوا في طَلَق[4]، وإخوان صدقٍ أحدقوا بالمَلَق؛ آثروا التَّغرُّبَ على حب الديار، وبدَوْا أقماراً طالعة في سُحُب الغبار؛ في [وجوه][5] ما منها إلا ما ليس له شبيه، وعرف بأن يومَه ذو الوجهين وهو وجيه. مرّةً والشمس ما طلعت، ولا سرحت الغزالة في فضاء النهار ولا رتعت؛ ومرةً غدا اليوم مع أمس، والْتَقَم المغربُ قرصَ الشمس؛ بينا ترى الطير سائرة، إذا هم من عينها بالسَّاهرة[6]؛

(١) الجَفَّة في الأصل هي جماعة الناس؛ وهنا جماعة الطير. والزُّمزوم: خلاصة الناس وخيارهم؛ وهنا جماعة من خلاصة الطير.

(٢) من نَكَتَ الشيء: رماه إلى الأرض. والنُّكَت هنا الطيور التي يرميها الصائد.

(٣) الأوتار الأولى جمع وَتَر (بالتحريك) وهو للقوس معروف. والثانية جمع وِتْر، من وَتَره، يتره وَتْراً وتِرةً أي قتل حميمه.

(٤) الطَّلَق (بالتحريك) الشوط. والملق: ما استوى من الأرض.

(٥) في ط ق: «وجهين». وما أثبتناه يقتضيه السياق.

(٦) التعبير مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فإنما هي زَجْرَةٌ واحدةٌ فإذا هم بالسَّاهرة﴾ ـ **النازعات: ١٤**. والساهرة: وجه الأرض. والساهرة أيضاً: عين الماء الجارية. (انظر لسان العرب: سهر).

وبينما تكون رُتَّعاً، إذا بهم في محاريب قِسيِّها رُكَّعاً؛ وقد أعددنا معنا من الجراوات كلّ حمراء تكونُ موتاً أحمر، وتقذف نجوماً تظلُّ بها ذوات الأجنحة تقْسر؛ قد أكنَّت من البُنْدُق[١] كلَّ مرميَّة مومِوقة، متفرِّقة وكلها من طينة واحدة مخلوقة؛ كأنها من حصى الجمار حيث تُحذف، أو من شهود الزُّور ـ والعجبُ أن منها الجَرْحَ وهي تُقذف؛ حتى أخذنا مواضعنا وللطير في الماء مواقع. كأنها من فوقه فواقع؛ فلم تنزل حتى نكّدنا لطيب عيشنا سرورها، ونقطنا بالبُنْدُق سطورها؛ ولم نعد حتى عدم بيننا الإعسار، وأثرينا بما كسبت أيدينا ملء اليمين نحمل قِسِيَّنا باليسار؛ ولم يك بأسرع مما عاجلنا تلك الصرعى فحصلت، ولم نسأل بأيِّ ذنْبٍ قُتلت؛ ولم يبقَ منا إلا من عرف منهجه القويم، وعاد إلى مستقرِّه يروي الحديث عن قديم.

فمن تَمٍّ[٢] تَـمَّ خَلْقُه، وقُدِّم على الطير المعتدّ به في الواجب بما أوجبه حقُّه؛ قد تميَّز شِيْدُه[٣] من قاره، وخاض منه النهار في الليل وغَالى فيه فعلق برجله ومنقاره؛ حسن في خلقه المستتمّ، وحقَّ لسَناه المشرقِ أن يسمَّى بَدْرَ التَّمّ؛ فرماه بِبُندقةٍ طال عليه بعدها الأسف، وأسقط عليه كسفاً وهكذا البدرُ إذا قابل كرة الأرض انكسف.

ومن كُـيٍّ[٤] أزرق الجلباب، قد أطرق إطراق الشيوخ وخفَّ خفَّة الشباب؛ كأنه في تخييمه ثُمامة[٥]، وفي تحويمه غَمَامَة؛ قد مسح بجناحه على الماء، وأكل كلَّ حُوتٍ إلا حُوتَ السماء؛ فصوَّب إليه صائبةً أصابه مقتُها، ولم تَعْدُهُ لما ألمَّ وقتُها.

ومن إوَزٍّ يمشي مشيةَ المتمايل، ويهتزُّ هـزَّةَ المتخايل؛ قد تمايل إعجاباً، ولبس من بياض ريشه وزرقته سنجاباً؛ ينظر النظر الشَّزْرَ لكثرة الارتقاب، ويلتفت[٦]

(١) هي حبَّات من طين تشبه حبَّ البندق وتوضع في كيس جلدي يسمَّى الجراوة، جمع جراوات.

(٢) هو طائر في قدر الإوزّ، أبيض اللون، طويل العنق، أحمر المنقار. وهو أعظم طيور الواجب وأرفعها قدراً. (صبح الأعشى: ٢/ ٧٢).

(٣) الشِّيد: كل ما طلي به البناء من جصّ وغيره؛ وهنا اللون الأبيض. والقار هنا اللون الأسود.

(٤) طير أغبر اللون إلى البياض، أحمر المنقار والحوصلة، رجلاه تضربان إلى السواد. (الصبح: ٢/ ٧٤).

(٥) أي صغير؛ والثُّمام نوع من العشب الصغير. يقال: الغريق يتشبَّثُ بثمامة أي يتلمس أقل شيء للنجاة.

(٦) لعله «ويتلفَّت تلفُّتَ» أو «ويلتفت التفاتَ».

تلفَّت الظباء إلا أنها زادت عليها بلين الرِّقاب؛ فلسعتها عقربُ قوسه، وقلَّ لديها أنصارُه على كثرة خزْرجه لديه وأوْسه.

ومن لغْلغٍ[1] رَفلت في جلابيب أخَواتها[2]، وآشتملت على أكثر أدَواتها؛ قد تطاير منها رمادٌ عن لهب، وفتنت بعيون أحسنَ من ذي عين من الذهب؛ تحارب بسحر الحذق، وتشهد ـ لمشابهتها للتُرك ـ أن من قال: «شبيهُ الشيء منجذبٌ إليه»، صَدَق؛ فلم يكن بأعجل مما رماها، وصرعها وكانت تظن أنه يتحاماها.

ومن أنيسةٍ[3] قد لبست من كل الألوان، وقلَّ وجودها في كل أوان؛ لا توجد مثلها آنسة، ولا يلقى شبيهها ظبية كانِسة؛ قد أصبحت لا تحدَّثُ إلا أخبارها، ولا يُخَيَّر رامٍ بينها وبين جليل الطير إلا يترك الكُلَّ ويختارُها؛ فرماها ببُندقةٍ ألقتها يديه، وأصابتها في المقتل مع عزَّتها عليه.

ومن حُبْرُجٍ[4] كأنه زهرُ روض منمَّق بين الزروع، أو فارسُ حرب خرج وعلى أكتافه صدأ الدُّروع؛ لا يجزع لطول بينه، ولا يخاف إذا سرح أن يصيبه الوتر بعينه؛ كأنه على ذهب يدرُج، وإذا ذُكر كل جليل كان حقيراً في جنب الحبرُج؛ فأقصدته رميةٌ عجَّل بها الرامي سريعاً، فخرَّ لديه صريعاً.

وطار عليه نَسْرٌ قد آصْحَرَّ[5] على إلْفِ مثله للبيوت، وفرَّ على أنه يسلم ولم

---

(١) طائر هو دون الإوزّ في المقدار؛ لونه كلون الإوزّ الحبشيّ إلى السواد، أبيض الجفن، أصفَر العين، ويعرف في مصر بالعراقيّ.

(٢) ذلك أنها تطير جماعات جماعات، يتقدّمها دليل منها.

(٣) قال الدَّميري في «حياة الحيوان الكبرى»: بذلك تسمّيه الرماة، وإنما اسمه الأنيس. قال: وهو طائر حاد البصر، يشبه صوته صوت الجمل، ومأواه قرب الأنهار والأماكن الكثيرة المياه الملتفَّة الشجر، وله لون حسن. والأنيسة عزيزة الوجود.

(٤) هو طائر في قدر الديك كثير الريش، ويقال له: دجاجة البرّ. وقيل إن الحبرج هو ذكر الحُبارى. وقال في حياة الحيوان: يقال لذكر الحبارى: الخَرَب.

(٥) آصْحرّ وصَحر صَحَراً وصُحْرَةً: أُشرِب لونه حمرة خفيفة، فهو أصْحرُ وهي صحراء.

يدر أنه يموت؛ قد شمَّر فاضل السربال، وأوى إلى الجبل ليعتصم به فلم يعصمه شيءٌ من الجبال؛ عُرف لعفافه عن الدماء بالخير، ونُسبت إليه القبَّةُ المعروفة[1] به فأصبح صاحبَ القُبَّة والطير؛ لو صارعه كلُّ طويل الباع لصرعه، أو حنّق مع أخويه: النَّسر الطائر والواقع لما طار واحد منهما معه؛ فتصدّى له الرامي حتى رماه من قِنّته، وأخرج ملكه المحجب من قبّته.

ثم طارت عليه عُقابٌ من العقبان فتْخاءُ[2] كاسرة، مُدَّرعة حاسرة؛ ما أمَّت سِرباً إلا آنشعب، ولا حُملت على يد إلا وأصبحت ترمي بطِلٍّ ذي ثلاث شُعب؛ قد فتكت بكل طائر حتى لم يدع لها قِرْنا، وسطت على الظباء فكم أهلكت قَرنا. فرماها بحَيْنٍ من بُنْدُقه، وأراح منها كلَّ ظبي في كِناسه وطائرٍ في أفقه.

ومرَّ على إثْرها كُرْكيٌ[3] آنسلَّ من خيطه، وأقبل يَسْتَنُّ[4] في شوطه؛ كأنما جلَّلته السماء بردائها، أو كسته لون الماء من تساقط أنْدائها؛ قد شفَّ لوناً عن العنبر الورد، وزيَّن الأفقَ لما حلَّق في شَفَقَيْه بذهب ولازَوَرْد؛ فعاجله الرامي في تعرُّضه، وعاجله ببندقةٍ خرَّ لديها - وأزرقُ الصبح يبدو قبلَ أبيضه.

فتبعه غِرْنَوْقٌ[5] حَسَنُ المجتلا، مقدَّمٌ على الغرانيق العُلا[6]؛ قد آدَّرع مثل

---

(١) مراده: مجموعة النجوم المعروفة بالنَّسر الطائر؛ وهناك مجموعة ثانية تشبه النسر أيضاً تسمّى الشّلياق، وأولها نجم يسمّى النَّسر الواقع. وكلا النَّسرين في النصف الشمالي من القبة السماوية.

(٢) فتخت الرِّجلان: طال عظمهما وقلَّ لحمهما. ويقال فتِخ الرجلُ وفتِخ الأسد ونحوه، فهو أفتخ وهي فتخاء.

(٣) طائر أغبر، طويل الساقين، في قدر الإوزّة؛ ويجمع على كَراكيّ.

(٤) آستنَّ الطائر: طار نشيطاً على سَنَنه في جهة واحدة.

(٥) الغِرْنَوْق: طائر أبيض من طير الماء، طويل العنق والساق، له قُنْزُعة ذهبية اللون؛ وهو ضرب من الكراكيّ؛ ج: غرانيق. وفي اللسان: غُرْنوق وغُرْنَيْق.

(٦) الغرانيق العُلا: هي الأصنام في الجاهلية. وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم إلى الله وتشفع لهم إليه، فشبهت بالطيور التي تعلو وترتفع في السماء. وفي الحديث: «تلك الغرانيقُ العُلا...». قيل: ويجوز أن تكون الغرانيق في الحديث جمع الغُرانق وهو الحسن.

(انظر لسان العرب: غرنق).

الزَّرد، وتوقَّد صَرَمُه ثم بَرَد؛ كأنما أطبقت أجفانه على جَمْر، أو عصر من عنقود الثُّريَّ ما أوعاه في مقلته من خَمْر؛ فأصابه الرامي في جناحه، وعدَّ تحصيله من أوّل نجاحه.

ثم حلَّق عليه صُوْغٌ[1] كأنه رقيق غيم، أو متدرِّعٌ بسلخ أَيْم[2]، كأنَّ بقيَّة نَرْجس بفيه، أو ليل[3] ذُرَّ على الصباح بين قوادمه وخوافيه؛ قد أتعب الرامي، وأبعد عليه المَرَامي؛ إلا أنَّ أجلَه أعجله، وأتاه على يده ما أجلَّه ولا أجَّله.

ثم عارضَ مُرْزما[4]،وعاين منه مثل نونه منسجما؛ قد أبرز كُمَّيْه بين درعَيْه، وتوقَّى من الصدر والجناح مصرَعَيْه؛ فظلَّ يدلُّ بما عليه من جَوْشَنٍ[5] موزَّد، وجُؤْجُؤٍ عَبْلٍ عليه دِرْعٌ مزرَّد؛ فلم يدافع حذارة ما حلَّق إليه، ولا أقبل إلا ورَشاشُ الدماء عليه؛ فقام إليه على فَرَقه، ورماه فلم يُخْطِ ما بين مغرزه ومفْرقه.

ثم استقبله شُبَيْطَرٌ[6] بِنْيَتُه سَوِيَّة، وآيتُه في تَلَقُّف الثعبان موسويَّة؛ يأكل الحيَّة ولا يتشكَّى أوجاعاً، ويلقم كل بطل ولا يدع شجاعاً؛ قد تقاصر كل جليل عن قدره؛ وألقى جوشنه من جناحيه من وراء ظهره؛ وتلقى بصدره فقعد له وهو مرتفق. وسقاه بصوائبه كأساً منه لم يفِق؛ فلما لم يبقَ إلا آنصرافه من مقامه، وعَوْدُه بعد بأسائه في الطير وآنتقامه

عنَّ له عُنَّازٌ[7] قد تجلَّل بذوائبه، وأضاءَ بَرْقُه في جُوْنِ سحائبه؛ وقد طلع في السواد منه مثل بدره، وتجلبب به إلا ما قلَّ منه عن صدره؛ فتحلَّى من رياشه بما لم

---

(١) طائر مختلط اللون من السواد والبياض، أحمر الصدر. وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار.
وهو في اللسان والقاموس: الصُّرَد.

(٢) الأيم: الحية الذكر.

(٣) أي: بقيَّة ليل.

(٤) طير أبيض في أطراف ريشه حمرة، طويل الرجلين والعنق.

(٥) الجوشن: الصدر ـ والجؤجؤ العَبْل: الصدر الضخم.

(٦) ويسمَّى أيضاً: اللَّقلق؛ ويعرف بالبلارج. وكنيته عند أهل العراق: أبو خديج. وهو طائر أبيض، أسود طرفي الجناح؛ ورجلاه ومنقاره حمر. وهو يأكل الحيَّات. ويوصف بالفطنة والذكاء.

(٧) طائر أسود اللون، أبيض الصدر، أحمر الرجلين والمنقار.

تجده العُفْر، وأشرق ببياضه في السواد مثلَ نورِ هدى في كُفْر؛ فعجَّل له باستقباله الحِمام، وكان لطيوره التَّمام.

النوع السادس[1]

طيور مختلفة

الحمامُ الهَدْيُ[2]: وهو الرَّسائلي. وأجودُه الخضرُ والغرّ؛ فإذا آسودَّ الحمام حتى يدخل في الاحتراق صار مثل الزنجيّ الشديد البطش القايل المعرفة. والأبيض وما ضرب فيه البياض لا يجيء من الغاية لضعف قوَّته؛ وعلى قدر ما يعتريه من البياض يعتريه من الضَّعف.

ويختار منها كل قصير المنقار، طويل العنق، طويل القوادم من غير إفراط، ولُحُوق الخوافي بعضهن ببعض، وصلابة القصب من غير آنتفاخ ولا يُبس، وعِظَم الفخدين، وقِصَر الساقين، [وغلظ][3] الأصابع، وقصر الذنب، وتوقُّد الحدقتين، وصفاء اللون[4].

ويُقال فيه: وهو حمام عُلِّم منه ما عُلِّمت الجوارح، وذُلِّل منه ما ذُلِّلت من الخيول الجوامح؛ وأخذت بالتَّدريج، وآنتُخب منها كلُّ زوجٍ بهيج؛ ونزلت الأبراج لأنها أمثال النجوم، وحلَّقت حتى لا تزداد عليها بتحليق البرق الغيوم؛ وجُعلت لآستطلاع الأخبار، وعُرف بها من العلم ما لم تُؤْتَ مثله الأحبار.

في سائر الحمام مما غبَّ وهَدَر: وشدَت الحمائم على تلك الأفنان، وبكت

(١) في ط ق «النوع الخامس». وما أثبتناه هنا يناسب الترتيب الذي اعتمدناه.

(٢) أي الذي له اهتداء في الطيران من مسافة بعيدة، ولذلك كان يستعمل في البريد لحمل الرسائل من بلد إلى بلد. وقد سبق الكلام على مطارات الحمام.

(٣) في ط ق: «واقتدان الأصابع». ولم نعثر على معنى مناسب لها. وما أثبتناه من صبح الأعشى.

(٤) وقد أطنب القلقشندي في ذكر ألوان الحمام، وعدد ريشه، وبيان صفة الفراهة والفراسة فيه. (انظر صبح الأعشى: ٢/٩٦ - ١٠٤).

بكاءَ آدمَ وما أُخرجت من الجنان؛ قد نبَّهت بعد هـدر كلّ نـائم، وسَلَت بعد طـول سُبَات كلَّ هائم؛ تارةً تغني وتارة تنوح، وتجمجم ويحقُّ لها أن تبوح.

في القَطَاة: وكم من قَطَاة علق بها شَرَكٌ باتت تجاذبه بجناحها وتغالبه بجماحها؛ لا يرد كدرٌ بها كَدَر الماء، ولا يبعد عليها تنائي بهماء، ولا يخفى عليها طريقٌ برٍّ مقفر ولا [ما] به ماء.

في الحَجَل: وأخرج من الحَجل كلَّ متولِّجة، وأظهر كلَّ متحرِّجة، وصاد منها كل مخبَّلةٍ من شدّة الخوف ومبنَّجة؛ وسبى منها كل ذات حلَّة دكناً مورّدة، وكلَّ هيفاء غادةٍ خصورُها ممنطقةٌ مشدَّدة.

في الدُّرَّاج[1]: ومن الدرَّاج كلُّ ذات رداءٍ مرقوم، وجلباب كأنه أوّل شفق فيه لآخر الليل رُقوم؛ طابت طعاماً، ولم يعدَّها الصائد إلا إنعاماً.

في الغُراب: وهو الذي ينعق بالخراب، ويؤْذن بـالاغتراب؛ ومـا زال يُنمى له الحَيْن، ويُنسب إلى الفراق ويُقال: غراب البَيْن.

في البَطّ: وقد لبست أحسنَ الرِّياش، وأكثرت شقَّ الأنهار فأضحى عليهـا منه مثـل الرَّشَـاش؛ قد تتـوَّجت بمثل أجنحـة الطواويس، وصفَّقت بـأجنحتها فـأشبهت أصوات النواقيس؛ وعقفت أذنابها كأنها أطـراف قِسِيِّ البندُق التي تصيبهـا، ولازمت زُرْقَةَ الجوِّ مما قلَّ منه نصيبُها؛ ورضيت بالعَلْقةِ من العَلَق حُبّاً بالقناعة، ووقفت على فرد رجلٍ زيادةً في الطاعة.

في الدِّيك: ووثب على أعلا الجدار، والفجرُ قد همَّ بالبدار؛ فصفَّق بالجناح، وشمَّر ذيله ليخوض غدير الصباح؛ هذا وقد آستشاط وآلْتهب، وصـاغ له منقـاراً من ذهب؛ وجناحُه قد حسُنَ تكوينُه، وحسب من نوَّار الربيع تلوينُه؛ وآختال لما صحَّت

---

(١) ضبطه في صبح الأعشى بفتح الدال المشدَّدة، وفي القاموس بضمها. وهو طائر على خلقة القطا إلا أنه الطف. ظاهر جناحيه أغبر وباطنهما أسود.

نقوشُه، وٱعتدل عليه شربوشُه[1]؛ وفضُل بـلا خلاف. وضفت عينُـه فلم تعدُ وصفَ السُّلاف.[2]

في الدَّجاج: وقد أشرف من ذلك الدجاج، على مثل قوارير الزجاج؛ من كل مسمرَّة الدستبان[3]، منها زهر الفول وسائرهن زهر البستان؛ مطعمات لهُنَّ برٌّ ممنون، ومتشابهات كأنهنَّ بيضٌ مكنون؛ كأنَّ في أعرافهنَّ ناراً تؤجّج، وكأن كل دجاجة منهن بطلٌ مدجَّج؛ يصلح بهنَّ المزاج، ويكتفى في العلاج؛ أجلُّ ما أكل الصحيح والسَّقيم، وراق الشرب منهن الديباج الرقيم.

---

(1) هو عُرف الدِّيك.

(2) السُّلاف: الخمر.

(3) كذا في ط ق. ولم نتحقق من معناها.

الفصل الثالث

في الأمكنة

في مدينة مسوَّرة: وهي مدينةٌ تُصرف عنها العين، وتصرف فيها العين[١]؛ وقد أضحت غُرَّةً في وجه الدَّهماء، وأمست في الأرض أخت البلدة التي في السماء؛ قد شدَّ بالسور على خصرها النِّطاق، ونجم بها طالع الأنجم النفاق؛ ذاتُ أزقَّةٍ وسيعة، وأدْوُر[٢] فيها لمنازل الأقمار وديعة، قد فُصِّلت منطقتها بالبروج، وفُضِّلت على كل بلد حَظُّ ساكنها منها الخروج.

في آثارِ دِمْنَة[٣]: فأصبحت لا تُرىٰ إلا آثارُ مساكنها، ولا تروي إلا أخبارَ ساكنها؛ قد غدت أطلالاً تجرُّ عليها الرياحُ أذيالَها، وتُسرِّح فيها النَّعامُ رئالَها[٤]؛ كأنها لم تكن ملعباً للحبائب، ولا مَرْأًى للربائب[٥]؛ قد تجدَّلت[٦] تلك الجدران، وأوقدت بالجوانح ما أطفيء منها من النيران؛ وانتضىٰ عليها البرقُ سيفَه فخرَّ ذلك البناءُ المشمخرّ، وصرخ في جَنَباتها جواد الرعد المُسْبَطِرّ[٧]؛ وفرط ذلك العِقْد المنضَّد، وفصل ذلك العَقْد المعضَّد؛ فشكَّها في خيطه الغمام، وحلَّ فيها عقد صبره

---

(١) العين هنا بمعنى الدنانير؛ وكل شيء نفيس. والعين الأولى هي عين الحسد.

(٢) جمع دار.

(٣) الدِّمنة: آثار الناس وما سوَّدوا؛ وآثار الدار.

(٤) الرِّئال: فراخ النَّعام؛ واحدها: رَأْل.

(٥) جمع ربيبة وهي مؤنث الرَّبوب. والرَّبوب: القطيع من بقر الوحش.

(٦) تجدَّل: انصرع. وهنا بمعنى تهدَّم.

(٧) اسبَطرَّ في السير: أسرع.

الإلمام؛ فهدّت تلك الأركان، وهدّمت ما كأنْ شيئاً منها كان؛ فأصبحت تُسقى بماء العَبَرات، وتُروّى بأجاج لا يروّيها العَذْبُ الفُرات.

في قلعة شاهقة: وهي أيُّ قلعة يُقصُّ دونها قوادمُ النَّسْر، وتعرف بضمِّها إلى النجوم أنَّ جميع القلاع غيرها مبنيٌّ على الكَسْر؛ قد ذلَّت الرياحُ عن طَرْقِها، ونزلت الكواكبُ دون أُفْقها؛ ومدَّت إليها البروق بأسباب لم تُقطع، وفُصِّل عليها ثوبُ السحاب لكنه مُذ وقع دونها ما توقَّع؛ قد آستعلت على قِنَّةِ جبلٍ آزداد بها رفعةَ منار، وأصبح بها - وهو صخرٌ - علماً في رأسه نار.

في حِصْنٍ شاهِق محصَّن: ودونَه جبالٌ رفيعة، وأوديةٌ منيعة؛ وقد بُنِيَ على قِنَّةٍ يقع دونَها النَسرُ الطائر، ويقنع بدون طيفها الخيالُ الزائر؛ قد آلت السُّحُبُ إلَّا تفرَّجت عنه فروجُها، والشُّهُبُ إلَّا مُيِّزت منه بروجُها؛ قد أذكى البرقُ فيه شُعَلَه، وغلَّقت عليه السماءُ أبوابَها المقفَلَه؛ وأنكرت الشمس فيه الأيام، وخَفِيت دونه الأهِلَّةُ فما رُئيت إلا في التَّمام؛ وتَمنطقت أسواره بالمجانيق التي حالت العهود، وحلَّت العقود؛ وهدرت في كل ناحية فَنِيقُها[1]، ونزلت في كل جهة فريقها؛ ورداء أسواره من المقاتلة أسوار[2]، ومن أهل النُّوَب من جرت معهم أطوار؛ وما عملت في صخوره المعاول، ولا دبَّت نُقوبُها في المفاصل، ولا نفذت منه المادة ولا آنقطع عنه الواصل.

في مُنَازَلة بَلَد: وأحدَق بذلك البلد، وقطع من نَسْله كلَّ ما ولد، وحسمت عنه موادُّ الحَلْب حتى قلَّ منه الجَلَد؛ وضُربت حولها الخيام، وكثر عليها القَتَام؛ ودارت بها العساكُر فكانت وشاحاً، وأحدقت بها إحداقَ الأجفان بالعين إلا أنها كانت وقاحاً؛ وصبرت على قطع المُدَد وقطع المَدَد حتى كادت تلقي بأيديها إلى السُّلَم، وتسقط من الضعف لعدم القُوت لا لوجود السَّقَم؛ ثم إن طائفةً منهم سَلِمت بالأمان، وسلَّمت بالإيمان؛ وطائفةً أصرَّت على الامتناع حتى أُخذت قَبْضاً، ووفَّى السيفُ منهم فَرْضاً؛

---

(١) الفَنِيق من الإبل: الفحل.

(٢) الأسوار الأولى معروفة: والثانية: كرام الإبل، واحدتها: سُورة.

ولو أسلموا سلموا. وهكذا يأخذ اللهُ الذين ظلموا؛ ونشب الفريقان، وشبّ الحريقان؛ فلما التقى الجَمْعان، وأنَّ الصَّدْعان[1]؛ أتوْا وقد غُليت مراجل صدورهم، وغلبت سُحُب الدغافر[2] على كوامل بدورهم؛ وألَدَّ[3] كلُّ ذي حَنَق، وجنَّ كلُّ ذي شَطَن[4] يقطع الحَلَق؛ وظلّل القَتام[5]، وطبع الموت فيه على الرِّقاب بخاتمه طابعاً ما يفكُّه الختّام؛ إلا أنَّ العاقبةَ كانت للمتَّقين، وكُتب لهم النصرُ ـ ولله الحمدُ ـ قد تحقَّق عن يقين.

في المسجد والمحراب: وأتى من المسجد بيتِ العبادة، ودارِ السعادة؛ وجهُهُ إلى بيت اللَّه الحرام، وميقاتِ الصلاة والإحرام؛ واستقبل المحرابَ فكان لصَدَفته دُرًّا، وبين أحناء ضلوعه سِرًّا؛ ثم قام وقَنت، وأطال متنفِّلاً[6] لم يخشى العَنَت.

في المِنْبَر: واخضرَّ به عودُ المِنْبَر، ونظر به إلى مَنْ بَرّ؛ وضَمَّخ طِيباً، إذ منه ضمَّ خطيباً؛ وأضاء في حُلَل السَّواد حتى كان يُشرق، واهتزَّ بالنَّدى حتى كاد يورق؛ وأطرب إذ ضُربِ منه عودٌ تُشجي نغماتُه الفصيحة، ونَفَح عودٌ يُشَبُّ بنار تلك القريحة.

في المئذنة: وقد رُفعت منها سَبَّابةٌ تتشهَّد، ومنارةٌ تشهد فيها النجوم لمن يتشهَّد؛ تُسبِّح فيها بالغُدُوِّ والآصال رجال، ويعرف بها الأوقاتُ والآجال؛ تذكرُ القانتَ في محرابه، وتنبِّه النائمَ لما هو أحرى به.

في حَيٍّ حَلول: وشاقَهُ تذكُّرُ اللِّقا، وساقَه إلى حيٍّ على أيمن النَّقا؛ فأشرف منه على بيوت قد أُشرعت إلى الرياح، وشُرِّعت حولها الرماح؛ وأكَنَّت لياليها السُّودُ

---

(١) الصُّدعان: الفريقان.

(٢) جمع مِغْفَر، وهو زَرد يُنسجُ من الدروع على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.

(٣) ألدُّ: اشتدَّت خصومته.

(٤) الشَّطَن: الحبل الطويل يُستقى به من البئر أو تشدُّ به الدَّابة.

(٥) القَتام: الغبار الأسود.

(٦) أي مصلِّياً النَّوافِل.

أقماراً، وأطلعت أيامُها الشُّموسَ نهاراً؛ ورتعت في جنباتها الجآذر، وصرف عنها صَرْفُ الزمان ما يُحاذِر؛ وأنبثّت إماؤها في تهيئة الأُهب[1]، والاستعداد لنَيل وصدرُ النهار ما ذهب؛ وقد حصلت لقِرى الضِّيفان الجفان، وفتكت بذوي الصَّبابة قبل قواتل السيوف الأجفان؛ وقد أطلَّت فِتْيَةُ الحيِّ تشدُّ بهم تلك السَّلاهِب[2]، ويتدارك بهم بقيَّة الليل الذَّاهِب؛ وقد قال وِلْدانُ الحيِّ: تعالَوْا - إلى أن يأتي الصيدُ - نحْتطِب، ورقبوا الطَّارِقَ وما نخاله إلا عَنْقَاءَ مُغْرِب[3]؛ فإذا هم به وقد حطَّ رَحْلَه والشمس قد انحطَّت للغروب، والفِتْيَةُ قد نزلوا من الركوب؛ فبات يُعلَّل[4] على نارهم، ويأخذ في التَّأهُّب للرحيل ووِدُّه لا يخرج من ديارهم؛ ثم لم يجد بُدّاً من الانصراف، حين ألقى الليل عنه الطِّراف[5]؛ هذا وخطيب الدُّجى لم يتمزَّق أُهَبُه، ولم يشرق دواء الصباح ذَهَبُه.

في مرجٍ أخضر: ونـزل بمَرْج كأنما فُرِش بإسْتَبْرق، وطَلع الصباحُ في ليله المتراكم فأشرَق؛ قد اتَّسع للرائد فيه مدى طَرْفِه، وامتدَّ إلى غايته أمدُ طَرْفه؛ واخضرَّ كأنما خلع عليه العِذار، وحسُن كأنما قُبلت به الأعذار؛ وقد نسجت ديباجته الأنواء، وقرَّطت زُمُرُّدَهُ الأنداء؛ كأنما عبثت بنسيمه فاراتُ[6] المسك فرَضَّها، أو عرضت عليه فضَّةُ الفضاء في تلك الجوانب ففضَّها؛ وقد طَرفه بزهر الربيع أوانُه، وصَلَّل عليه قوسُ السماء فنُقِّضت عليه ألوانُه، فما حلَّ في أكنافه إلا من أذَّكَره[7] خضرة العيش، وثبَّته ومع هذا وثب به الطيش.

---

(١) جمع أُهْبَة أي العُدَّة. يقال: أخذ للأمر أُهْبته.

(٢) جمع سَلْهَب، وهو الطويل من الناس والخيل.

(٣) عنقاء مُغرب: طائر عظيم يبعد في طيرانه. وقيل إنه من الألفاظ التي ليس لها مدلول حقيقي. وقيل: هي التي أغربت في البلاد فنأت ولم تُحسّ ولم تُرَ. والمراد هنا الطارق الذي يأتي ليلاً من مكان بعيد. ويقال: عنقاء.

(٤) علَّل فلاناً: سقى سقياً بعد سقي؛ وجنى الثمرة مرةً بعد أخرى. وهنا بمعنى يتناول مزيداً من الطعام والشراب.

(٥) الطِّراف: الحديث المستحسن.

(٦) فأر المسك: وعاؤه.

(٧) أذَّكره: ذَكَره. والمراد: طلبه.

في روضة غنَّاء: هذا وهو إلى جانب روضةٍ تولَّت خيوطُ الأنواء نَسْجَ غلائلها، ورَقْمَ خَمَايلها[1]؛ وتعليقَ سيوف الجداول من جَنَباتها المخضرَّة في خمائلها؛ وقد وشَّعَت مِرْطَها[2]، وحلَّت إلى الأنداء قِرْطَها؛ ونفَّضت عليها البُكَرُ والأصائل أصباغَها، وأطالت عليها ظلال الصباح والعشيِّ إسبَاغَها؛ فجاءت ببدائع الألوان، وأقبلت باكورةً تعدُّ من بداية الأوان.

في شجر بادية: وثَمَّ شجرٌ له دواءٌ وما له ثَمر، وسَمُرٌ[3] لا يجتنى منها إلا طرائف السَّمَر؛ وقد جَعلت تلك المَهَامِه أدْوَاحاً، وكانت لجسوم تلك القِفار أرواحاً؛ فلم يبقَ إلا من توقَّى بها حرَّ الهَجير، وتعلَّق بذمَّة ظلالها من نار الرَّمضاء يستجير؛ فأطالت ذَمَاء[4] كلِّ روح، وطابت مَقيلاً أنِست لمفارق الخيام بذي طُلُوح[5].

في بَرٍّ مُقْفِر: وآستقبل بَرّاً لا تسلك فيه القَطَا، ولا يُستعجَل فيه البَطَا، وقد بَعُدَ ما بين جنبَيْه، وعلقت دون أقصاه المطِيُّ فلا تنتهي إليه؛ لو سلكه النجمُ لَضَلّ، أو آقتحمه الريحُ المتشامخُ لَذَلّ؛ أو سقته السَّيَّارةُ لما آهتدت إلى الماء ببيت آمريء القيس، أو دليل خالدٍ لما نُسِبَ في أمره إلى الكَيْس؛ لا تعرف فيه اليَعَافيرُ[6] كيف تتَّجه، ولا العصافيرُ في أي قطر هي لأمره المشتَبِه؛ يفني في أقلِّ مداه الزَّادَ والظَّهْر[7]، ويفنىٰ الجديدان: اليومُ والليلةُ، ويقصر المديدان: المقام والشَّهْر.

---

(١) الثياب ذات الخَمْل.

(٢) المِرْط: كساء من خزٍّ أو صوف أو كتَّان يؤتزر به وتتلفَّع به المرأة.

(٣) السَّمُر: ضربٌ من شجر الطلح؛ واحدته: سَمُرَة.

(٤) الذَّماء: بقيَّة الروح.

(٥) ذو طُلوح: موضع بين الكوفة وفَيْد. وقد ذكر الخيام بذي طلوح كل من جرير في قوله:

متى كان الخيامُ بذي طُلوحٍ ... سُقيتِ الغيْثَ أيتها الخيامُ

وأبي نواس في قوله:

ومُسمِعةٍ إذا ما شئت غنَّت ... متى كان الخيامُ بذي طُلوحٍ؟

تمتَّع من شبابٍ ليس يبقى ... وصِلْ بعُرى الغَبُوق عُرى الصَّبوحِ

(٦) اليَعْفُور: ظبي لونه كلون العَفَر، أي التراب.

(٧) أي الدَّابة التي تركب.

في مَفَازة: وقطع مَفَازَةً لا يقطعها كل حديد، ولا تَذْرَعُها أيدي المطيِّ مثل كل البيد؛ يلوكُ فيها العارفُ الحصا خوفاً من جَفاف فمه، ونَشاف ماء حياته ودمه؛ لا يفيد في سلوكها النَّادِمَ العضُّ على الأصابع، ولا يدري القادِمُ عليها ما اللَّهُ به صانع؛ لا ينهل فيها الماء المحمول إلَّا نَهْلَةَ الطائر، ولا يعلم فيها المنقطع للبْس نعله أين يقدم السائر؛ لا يُدرَك فيها مأمول، ولا يقتل العيسَ إلَّا الظَّماءُ والماءُ فوق ظهورها محمول.

في رَمْل: ودخل تلك الرِّمالَ فنسَفَها نَسْفا، وأوطأها حافِراً وخُفًّا؛ ولم يَرُعْهُ شوامخُ تلك الكُثبان، ولا لَوَافِحُ نار الهجير في وجوه الرُّكبان؛ والرملُ قد طار شَرَرُه، وظهر أثرُه؛ وسالت في تلك الشِّعَاب أوديتُه، ولُفَّت في مَعَارف تلك الطُّرق أرديتُه؛ وعقدت منه كل عقدةٍ لا تحلُّها الأنامل، ونسجت من رماله كل شِقةٍ لا تفتل خيوطها الأنامل؛ وقد آمتنع جانبُه فلا يَقدر وارِدُ مائه على نَهْل، ولا يزال يحدِّث منه عن أبي ذَرٍّ ويسلكه أبو جَهْل.

في كَثِيب: وكم عاجت المطايا على كَثيب، وكم عادت على أيمنه وذكرت حاجةَ كئيب؛ ماجت في الأرض تلك الرَّوَادِف، ومالت فأمسكتها من الرَّوَاجف؛ ونَهَدت في أعالي بطون تلك الأودية كأنها نُهود، ونُظمت كاللآلىء في أجياد تلك السُّفوح كأنها عُقود؛ وعَلَت كأنها لتلك المذلَّلَة[1] أسْنِمة، وظلَّت عن تلك القُلَل كأنها مسلمة؛ قد آمتدَّت للزَّلْزَال أسباباً دون الأوتاد، وعُدَّت من صغار الجبال فكانت لها كالأولاد؛ ودارت نطاقاً بذلك الفضاء كأنها مخيِّمة، وتقاصرت عن مدى الجبال كأنها بغير الثُّريَّا مختِّمة.

في جبل شاهق: وكم دونه من جبل لا يبلغ الطَّرْف أدناه، ولا يقطع النَّسْرُ المحلِّقُ منه إلا دونَ مُناه؛ لا تظنُّ الشمسَ عليه إلا إكليلاً، ولا يُرى البدرُ المعلَّقُ في ذراه إلا قنديلاً؛ تقع دونه السرياحُ ظُلَّعاً[2]، وتزْوَرُّ النجوم حتى تغدو عيونُها حُولاً ولا تستطيع إليه تطلُّعاً.

---

(١) **المذلَّلة: الطرق الممهَّدة**. وذلَّت الدابَّة: سهلت وانقادت. والأسنمة: جمع سَنام.

(٢) **ظَلَع ظَلْعاً**: عَرَج وغمز في مشيه.

في وادٍ عميق: ونزل قرارةَ وادٍ لا تُرى فيه الشمسُ إلا عند زوالها، والأقمارُ إلا بعد تمام هلالها؛ لـو تهدر إلى مَهَـوَاتِه[1] الـريح لخـرَّ صاعقـاً، أو الرَّعـد لشقَّ ثوبَ السَّحاب ونزل زاعِقاً.

(١) المَهَوات: البقر الوحشيّ. واحدتها: مَهَاة. وتجمع أيضاً على مهاً.

الفصل الرابع

في المياه ولوازمها

في البحر: والبحرُ سماءٌ يمشي في مَناكبها، ويمتطي كواهِلَ كواكبها؛ أفلاكُها الدائرة، فُلْكُها السَّائرة؛ وملائكتُها المسبِّحَةُ بأسمائها، حيتانُها السابحةُ في مائها؛ تنشأ منه السَّحائب، ويخرج الدرُّ منه بين الصُّلب والتَّرائب؛ تجري فيه السُّفنُ في موجٍ كالجبال آياته لا تُحتَجَب، وكُلُّه عجبٌ حتى ليس فيه عَجَب.

في تَنَكُّر البحر: وتنكَّر البحرُ بعد إصحابه، ونكر معروفَه لأصحابه؛ وأقبل عليهم بوجه مكفهرٍّ قد قَطَّبه، وخَرْقٍ في جنب السفينة قد قطبه؛ والريح قد شرَّد باللُّجج شَرْدَها، والأمواج قد أحكم في التقدير سَرْدَها؛ وقد تزاحمت الأفواج، وتلاحمت الأمواج، وتلاطمت الحيتانُ بعضها ببعض، وقد كشفت الريحُ البحرَ حتى كادت تبين قرارة الأرض؛ والخوفُ متوقِّع، والموتُ منتظَرٌ ولكن أين حدث في البَلْقع.

في إصحاب البحر: وقد أصحبَ البحرُ بعد آمتناع جانبه، وتَلَوِّي مَجانبه؛ وأصحَبَ وكفّ[1]؛ وغدت السُّفُنُ كأنها سُرُرٌ مرفوعة، والقِلاعُ منشورةً كأنما السماءُ بها مرفُوعة؛ وقد لانَ من الرياح ما آخشَوْشَن، وبانَ البحرُ لتكسُّر موجه كأنه لابِسٌ جَوْشَن؛ وصَفَتْ سريرةُ مائه وكانت قد تكدَّرت تكدُّرَ الخُبّ[2]، وتسهَّلَت عريكةُ ريحه، وكانت قد تعسَّرت تعسُّر الخُبّ. وهو الآن طَيِّعُ العِنان، حَسَنُ العيان، كيفما أخذتَ به أصحب، وآنقاد بعدما كان قد آستصعب.

(١) لعلَّ سقطاً بعد هذا قد وقع، وهو لازم من باب تمام التسجيع، مثل أن يقول: «وسامَحَ وَعفّ».

(٢) الخُبُّ: الغامض من الأرض.

في نهرٍ جارٍ: فطَنَّبَ[1] بجانب نهر يتلوّى أَرْقَمُه[2]، ويمرُّ النسيمُ على ديباجه السّاذج فيرقِّمُه؛ يروع حَصَاهُ حاليةَ العذارى؛ ويُظهر صفاءُ باطنه لظاهره آعتذارا؛ كأنما ذاب فِرِنْدٌ[3] في مائه، أو تَفَرَّى[4] ليلٌ عن سمائه؛ فجاء بدمع العين، وغَسَل حتى صدأ البَيْن.

في غُدُرٍ: وفي تلك الفِيح[5] غُدْران كأنها عُشورٌ في مصاحف، ووجوهُ حِسانٍ في بيضٍ مَلاَحِف؛ كلُّ غدير منها كأنه دِرهم، وكل أتيٍّ[6] كأنه يجمع أرقم؛ قد آمتدَّت في ذلك الفضاء، وسالت في إنائها المصُوغِ من الذهب الأحمر بالفضَّة البيضاء؛ وقد صقلت عليها الرياحُ سوالِفَها، وتذكَّرت حولها فِتيةُ الحيِّ مآلِفَها؛ وأرخت عليها الرياضُ خُضْرَ برودها، وحامت النفوسُ الظِّماءُ منها على ورودها.

في مَنْهَلٍ مورود: ووردنا منه نُطفَةً زرقاءَ تُرَوِّي الصَّديّ، وتروي بأقرب سَنَدٍ حديثَ السَّحاب من طريق النَّديّ؛ يُرشف من حُبَابها مثل الثغور، ومن رِضابها ما تقلُّ به الخمور؛ قد نشرت منه شُققاً بيضاءَ وقصَّرتها الشمس، وحمتها مسافتها البعيدة من اللَّمس؛ تحدَّرت من غُرِّ طوال الذوائب، ونزلت على صفاء الأرض من صَفْو السحائب؛ وتولَّت الريحُ نفيَ قَذاتها، ونَفْعَ شاربيها بدَفْع أذاتِها؛ فكانت مثلَ صفاء الدَّمعة، ورقَّةِ الشمعة، وثياب أهل الإيمان البيض يوم الجمعة.

في ماءٍ آجِنٍ[7]: ولم تجد الإبِلُ على تحرُّق أكبادها، وتخرُّق أكتادها[8]، وآمتداد لياليها وأيامها بأُوامها[9]، وذهاب مددها، بعطش كبدها، إلَّا ماءً سار من حَمْأَةٍ

---

(١) طنَّب بالمكان: أقام.

(٢) الأرقم: ذكر الحيَّات أو أخبثها.

(٣) الفِرِنْدُ: السيف.

(٤) تفرَّى: آنشقَّ. وفي ط ق «تعري» وهو خطأ.

(٥) فاحَ فَيْحاً: آتَّسع، فهو أفيح وهي فيحاء. والجمع: فِيحٌ.

(٦) الأتيُّ: السَّيل يأتي من بعيد.

(٧) أَجِنَ الماء: تغيَّر لونه وطعمه ورائحته.

(٨) الكَتَد: مجتمع الكتفين من الإبل.

(٩) الأُوام: مرارة العطش.

كدَر، وعلا رأسَه المشيبُ مما بلغ من كِبَر؛ كأنما صُبَّ الزيتُ على مائه، أو غُشِّيَ صباحُ غديره بظلمائه؛ وقد أصبح كأنه نقيعُ حِنَّاء، وبقيَّةُ ما علَّ أرفقه من زمان حوَّاء؛ لا تقربُه الدَّواب ولا كثيرٌ من الناس، ولا تهونُ المصيبةُ به إلا إذا وجد بعد الإياس.

في السُّفُن: وأطار من السُّفن كلَّ خفيفة الجناح، خفيَّة الجماح؛ تمدُّ من القلوع أجنحة، وتُعدُّ من المجاذيف أسلحة؛ تُجلُّ أن تُقاس بدُهم الخيل، أو تُشَبَّه نُجُبُ قلوعها المنشَّرة بنهار أو ليل؛ قد اتَّخذت سماء البحر مَيْدانا، وحطَّت على موجة البحر غربانا[1]؛ وشالت أنفها تتنسَّم الأرواح، ومدَّت كفَّها وكتب على الماء ما خطَّت في الألواح؛ فكأن كل واحدة منها على البحر ثوبٌ فيه قِصَر، وكأنَّ الماء عينٌ محدقةٌ وهو فيها سواد البصر.

في السَّمك: وثَمَّ من عجائب المخلوقات ما يتجاوز طور العقل، ويتجوَّز فيه أهلُ النَّقل؛ ومنها نوع السمك الذي تنوَّعت مخلوقاته، واجتمعت في البحر متفرِّقاته؛ وحسن في ذلك المُهْرَق منه تعريف كل نون[2]، واجتلاءُ كل حسناء كأنها بَيْضٌ مكنون؛ وتنوُّعُ ما يخرج من البحر من ذلك اللحم الطَّري، وطلوعُ كل حوت ما يُعْوِزُه إلا المشتري؛ وبيان كل بُنِّيَّةٍ[3] كأنما يقشر منها سبيكة فضَّة، أو تخرج منها جُمَّارةٌ[4]

---

(١) الغراب: سفينة حربية قديمة مدببة الحيزوم ذات أشرعة ومجاذيف. وقد ورد هذا المصطلح في كثير من المصادر القديمة مثل الروضتين لأبي شامة، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، وقوانين الدواوين لابن مماتي، وتاريخ الجبرتي.

واللفظ في التركية: «غراب» بكسر الغين. وقد قيل إنها من الفرنسية Corvette، ويرى دوزي أن الذي ينطبق على الغراب هو Brigantin وليس Corvette. ومن السفن الحربية التي كانت معروفة: الطرائد والشواني.

(انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١٥٤).

(٢) النون: الحوت.

(٣) البُنِّيّ: ضرب من السمك أبيض، يكثر في النيل؛ ظهره أصفر قاتم إلى زيتوني، وبطنه فضي اللون، وزعانفه برتقالية إلى حمراء.

(٤) الجُمَّار: قلب النخل، واحدته: جُمَّارة.

غضَّة، على آنبعاثها في صفحة الماء، وآنبثاثها كالنجوم في السماء، وتَلَبُّبها بأمثال الجواشن، وإطلالها في مثل الخُود من تلك الرَّوَاشِن[1]؛ وتلك الظهور الجُوْجُؤيَّة، والقُمُص اللُّؤْلؤيَّة؛ والبطون التي كأن لَمْسَها من حرير، والأذناب[2] التي لو سحبت في خطة الأخطل لجرى وراءها جَرير.

(١)من الفارسية «رُوشَن» بضم الراء وفتح الشين بمعنى النافذة؛ وتكون أيضاً بمعنى الشُّرفة. وأكثر استعمالها في المصادر العربية العائدة إلى العصر المملوكي والتركي بمعنى الشرفات أو المشربيَّات، وهي غير الشبابيك. ـ والخُود: جمع خَوْد، وهي الشابة الجميلة.

(انظر: تأصيل الدخيل: ١١٨؛ ورسوم دار الخلافة: ١٦ حاشية: (٥)).

(٢) في ط ق «الأذنان».

الفصل الخامس

في الكواكب

في الشمس: وقد طلعت الشمس الغائبة، وحال الذهب في تلك البُودَقة[1] الذائبة؛ وأسفرت تلك المخدَّرة، وأطلعت تلك الشارقةَ المنوَّرة؛ وأفلتت من شر النجوم تلك الغزالة[2]، وأقبلت تحت قناع الشَّفَق وما عليها إلا غلالَة.

في الهلال: وقد جرىٰ في تلك اللُّجج الغِزار زورقُه، وورَّثه[3] أصيلُه أو وَرَّ شفَقُه؛ وتقوَّس كأنه حاجب، وانشقَّ كأنه نونٌ أجادها كاتب.

في القمر: وقد أوقد في الليل ذلك السِّراج، وزيَّنت قبَّة الفلك تلك الجَامَةُ[4] الزجاج؛ وأتمَّ تَمَامَه، واستدار كأنه هامَه - أستغفر اللّٰه - بل عَمَامَه.

في النجوم: وقد طَفَتْ على ذلك اللُّجِّ[5] مواقع النجوم، وتفرَّقت مواقع تلك الأنواء السُّجوم؛ وقذف ذلك البحرُ لُؤْلُؤه، وأنْهَد ذلك البازيُّ جُؤْجُؤه؛ ومدَّت تلك الشبكة، ووقع فيها الحوتُ فخافت السمكة؛ وقد طعنت أسِنَّتُها النَّوافِذُ الليلَ حتى أنْهَرَت[6] فَتْقَه، وهلهلت ثوبَه ولولا الحسنُ لما أظهرت عتْقَه.

---

(١) لغة في البُوتقة.

(٢) الغزالة: من أسماء الشمس.

(٣) كذا في ط ق. ولعلَّ الصواب «وورَّسه» أي صبغه بالوَرْس، والمراد به اللون الأصفر الضارب إلى الحمرة.

(٤) الجامُ والجامة: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها. والجام والجامة مؤنثة.

(٥) اللُّجُّ: معظم الماء حيث لا يدرك قعره؛ ولُجُّ الليل: شدَّة ظلمته وسواده، وهو المعنى المراد.

(٦) أنْهَرَ الفتقَ: وسَّعه.

في المجرَّة[1]: وقد رَكَدَ نهرُ المجرَّة، وآنهار جَرْفُها وصار كلُّ ناحية ذَرَّة، وكأنه حديقةُ نوَّار، فصار لما آلْتَأَمَ كله أنوار.

في الثُّريَّا[2]: والثُّرَيَّا عنقودُ منوَّر، وقدحُ مصوَّر؛ وخاتمٌ في بَنان حَبَشيّ، ونَوَّارٌ في حدائق الصباح والعشيّ؛ ولم يطل الليلُ مُذ قِيسَ بشبرها، وأحسن ما شُبِّهت بصفحة مُهْرَقٍ رَشَّت عليها الظَّلماء من حبرها.

في الجوزاء[3]: وقد زادت الجوزاءُ في الطَّوْل، وشالت عصاها على الشَّوْل[4]؛ وآمتدَّت كأنها ذراع، وطالت كأنها باع؛ وشدَّت كأنها طنبٌ ممدود، وآنفصلت كأنها جيدٌ محدود؛ وتهدَّلت فَرْع، ودرَّت كأنها ضَرْع؛ تُعرف بين النجوم، وتُسفر على البقيَّة وجوم.

---

(١) مجموعة كبيرة من النجوم تركزت حتى تراءت من الأرض كوشاح أبيض يعترض في السماء.

(٢) الثُّريَّا: مجموعة من النجوم في صورة الثور. وكلمة «النجم» علَمٌ عليها؛ وبه فُسِّر قوله تعالى: ﴿**والنَّجْم إذا هَوَى**﴾ [النجم: ١].

(٣) من بروج السماء؛ وهو التَّوْأم. قال في صبح الأعشى: والتوأم على خط وسط السماء، جسدان ملتصقان برأسين، يظهر لكل واحد منهما يد واحدة ورجلٌ واحدة. والرأسان في جهة المشرق، ورجلاهما في جهة المغرب.

(صبح الأعشى: ٢/١٧٠)

(٤) الشَّوْل والشَّوْلة: كواكب متقاطرة على تقويس في برج العقرب، أشبه شيء بذنب العقرب إذا شالته، ولذلك سميت بالشَّوْلة.

(المصدر السابق: ص ١٧٨).

الفصل السادس

في الأزمِنة

في الصباح: وقد رقَّت تلك البُكَر، ووضحت تلك الغُرر؛ وحسنت تلك الصُّبُح المسفرة، وأصبحت بها الأيامُ ضاحكة مستبشرة؛ وقد أخذت سجامع الحُسن تلك المبادي، وأولت بيضَ الأيادي؛ وجليت تلك السماء الفضِّيَّة، وجُليت تلك المرآة التي كانت من بقايا الليل صَدِيَّة؛ ودبَّت حُمرةُ الشفق في وجه النهار، وتوقَّدت جمرةُ الصباح إلا أنها من نورٍ لا نار؛ وكان آنفتاقُ الضوء في أُخريات الليل مثل شجر ياسمين ينفَضّ، وأقبل النهارُ في شبابه إلا أنَّ شبابَ النهار أبيض؛ وباكر الصباح بالصَّبوح، ودفَنَ الهمومَ والزِّقُّ[1] لديه مذبوح؛ وشرب على ورد الشفق مثله من المُدام، وجاهر النهار ولم يخشَ الملام.

في شدَّة الحرّ: وحمِيَ وطيسُ الهجير، وقُيِّد الراكبُ بحبل الشمس مثل الزَّنْجير[2]؛ ووَدَّ الماشي على الأرض لو وقَىٰ قدمَه بأمِّ راسه، والمتلظِّي في ذلك الحرِّ لو وصَلَ الرياحَ بأنفاسه؛ كأنَّ كلَّ حَصَاةٍ من جمرةٍ تتوقَّد، وكأن مدَى ما بين كل خطوتين ما بين الأرض والفَرْقَد؛ شموسُه السُّمُّ المذاب، ونُطَفُه العِذابُ العَذاب؛ لا يُمسَّك له إلا بآلٍ من آل، وذمَّتُه من شُعلةِ رمل يشبُّ لها ذُبال؛ أَلْفَحُ من نار العِتاب، وأشدُّ لَظًى في القلوب من فراق الأحباب.

في شدَّة البرد: وآشتدَّ البردُ حتى أرقَّ العظامَ ودقَّها، وفرَّق الأجسامَ وشقَّها؛

(١) الزِّقُّ: وعاء من جلد للشراب وغيره. والصَّبوح: شراب الصباح، وهو خلاف الغَبُوق.

(٢) لفظ فارسي، وهو الجَنزير و السلسلة المعدنية.

وعجل النَّافِض[١] لمن ودَّ أن تعقبه الحُمَّى، والرِّعدة حتى فصَّص[٢] الأجسام عظماً عظما؛ وفعل في الأبدان ما يفعله الموتُ في الجمود، وفي المواقد ما يفعله طول المكث من الخمود؛ وترك الرِّيقَ في الفم لا يذوب؛ والمدَّعيَ أنه يقدر أن ينطق لا يظنُّ إلا أنه كذوب.

في الغَبُوق: وأخَّرَ الغَبُوقَ حتى خفق جناح الشمس للغروب؛ وأنحلَّ مِسْكُ المساء حتى كاد في ما ورَّدَ الشَّفَقُ يذوب؛ ثم عَبَّ في غبوقه، ووصله بالليل حتى ضرب الشجر ببوقه.

في العَشايا: وزاد نُحولُ الأصيل ورقَّ مُدامُه فكاد وجَنح العصرُ للطَّفَل[٣]، وأعتلَّ نَيِّرُ النهار إلا أنه ما أَفَل؛ وقد كادت الشمس تتوارى، وتفتح في روض المغرب نَوَّارا؛ إلا أنَّ دينارَها ما سقط؛ وغرابُ الليل لحَبِّ أشعتها ما لقط.

في شدَّة الظلماء: وأشتدَّ الظلامُ فلم يتوضَّح غَلَسُه، ولا زُنِّرَ بالنجوم أطلسُه؛ كأنه أستعار سواد قلب العاذِل، وعَرَضَ الغنيِّ الممْسِكِ عن الباذل؛ قد آلىٰ الصباحُ أنه فيه ما ينير، وحَرَنَ فخيَّم وقعد على أنه لا يسير.

---

(١) يقال: اخذته حُمَّى نافِضٌ، وحُمَّى بنافضٍ، وحُمَّى نافِضٍ: أي حُمَّى ذات رِعدة.

(٢) فصَّص الشيءَ: فصله وانتزعه من غيره.

(٣) الطَّفَل: إقبال الليل على النهار بظلمته؛ والوقت قبيل غروب الشمس.

الفصل السابع

في الأَنْوَاء

في الرياح: وصفَّقت قوادمُ الرياح، وخفَّت السفنُ بها للرَّوَاح؛ وخفيت على العيون فما تُعرف إلا بخَفْقِها، ولا تشكر صَنَائع السُّحب إلا إذا تغاضت لها عن حقِّها؛ فإنها هِيَ التي تنشئها في السماء، وتنشرها فتبسط جناحَها المبلولَ بالماء؛ لا يُعرف مركزها فيتبَع، ولا يُعرف إلا أنها ما بين آثنتين إلى أربع[1].

في ريح عاصف: ثم آستحالت ريحاً تدمِّر كلَّ شيء أتت عليه، وتقتلع دون الجبل المطلِّ كلَّ ما لديه؛ رَغَتْ رعودُها القواصِف، وعنست[2] زعازعها العواصف؛ فلم تدع طريقاً [ما] أنكرت معارِفَه، ولا ذا رياش ما سلبت مطارِفَه؛ ولا بحراً لم يصعب جانبُه، ويقطع المركب الذي يُجرُّ باللَّبان جاذِبُه؛ فجأَرَ إلى ربِّه الرُّبَّان، ولم يَسْطع على مُجْمِرِ البرقِ العُوْدُ ولا نفع اللُّبان[3].

في السَّحاب: وأما السَّحابُ فقد تراكمت ضُلَلُه[4]، وصُبغت صبغة المفارق

---

(١) ذهبوا إلى أن أصول الرياح أربعة: الأولى الصَّبا، وهي التي تأتي من المشرق؛ والثانية الدَّبور، ومهبُّها من مغرب الشمس إلى حدّ القطب الجنوبي، وتسمَّى العربية؛ والثالثة الشَّمال، ومهبُّها من حدّ القطب الشمالي إلى مغرب الشمس؛ والرابعة الجنوبية، وتسمَّى أيضاً القِبليَّة، ويقال لها أيضاً: المَريسيَّة.

(صبح الأعشى: ٢/ ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٢) كذا في ط ق. ولم نهتدِ إلى وجه استعماله هنا.

(٣) لم يسطع أي لم يستطع. والعود: كل خشب؛ واللُّبان: الصنوبر أو خشبه.

(٤) كذا في ط ق بالضاد. ولعل الصواب: ظُلَلُه. والظلّة ما أظلّك من شجر وغيم ونحو ذلك. وفي التنزيل: «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام ـ البقرة: ٢١٠».

حُلَلَه، قد ضَيّق ما بين الشرق والغرب، وأذِنت نبالُه الراشقةُ بالحرب؛ وكأنّ دون السماء سماء، وفوق الماء ماء؛ ولم يبقَ معهم إلى فريقٍ مَذْهب، ولا لطريق مَذْهب؛ قد أخذ من كلِّ جانب، وسال بالبحر لا بالمَذانب[1].

في الرَّعد: وأما الرَّعدُ فقد صرَخ، ونفَخ في أذن السماء حتى انتفخ؛ ولم يظنَّ سامعُه إلا أنَّ السماءَ قد شُقِّقت، وأن السَّحابَ قد مُزِّقت؛ وأن الجبال قد دُحيت، وأن صورة الوجود قد مُحِيَت؛ فترك القلوبَ واجفة، والأرضَ راجفة، والظُّنونَ لا تستبعد أن تتبعها الرَّادِفَة[2].

في البرق: والبرقُ قد نبض عِرْقُه، ووضح بين جُمَّـة[3] الليل السوداء فَرْقُه؛ وعُلِّقت منه سلاسِلُ من ذهب، وأوقدت مجامِرُ من لهب؛ ولم يُظَنَّ إلا أن أشهب الصباح قد رقد في أدهَم الليل، أو أن عموداً من فضَّةٍ قد تحدَّر في صَبَب السَّيْل.

في نزول المطر والبَرْد والثلج: وحَجَبت السماءَ السُّحبُ ثم أخذت في الانسكاب، وجاءت بأفواج المطر: بعضُه قد جمد وبعضُه قد ذاب؛ وأصبحت صبيحةَ ليلةٍ والناسُ بين ماءٍ وطين، وأنواع من ذائب طَلٍّ ومفْتَرٍّ ثغور وسقيط ياسمين؛ وأصبحت الأرض كلُّها قارورة، وذيولُ الأنواء المرفوعة عليها مجرورة، والثلجُ قد زاد في بَرْد رُضابها[4]، والبرقُ قد أرسلَ بُرُدَ[5] أنوائه إلى الآفاق بالرِّضى بها، والسَّحابُ قد مدَّ خيوطَه، [والمَحْلُ][6] قد أماتَه الثلجُ وذرَّ من الكافور حُنُوطَه[7].

---

(١) المِذْنب: مسيل الماء إلى الأرض؛ والجمع: مذانب.

(٢) الرَّادفة: النفخة الثانية في الصُّور يوم القيامة لمجيئها رادفة بعد الأولى.

(٣) الجُمَّة: الشعر. والفرقُ للشعر معروف.

(٤) الرُّضاب: ما تقطَّع من الندى على الشجر ونحوه.

(٥) جمع بريد.

(٦) في ط ق مكان اللفظ بياض. وما أثبتناه على وجه التخمين. والمَحْلُ: الجوع الشديد وإن لم يكن جَدْبٌ.

(٧) ما يذرُّ على الميت من مسك وكافور ونحو ذلك.

في الآل: وقد عبَّ عُبابُه[1]، وغزَّ سَرَابُه؛ وطبَّق أطباقَ الغَمام، وانتشر انتشارَ الظَّلام؛ وأفعم واديه بالخديعة، وعُدِمِ السياسة من ظنَّ أنه الشَّريعة[2]؛ ولم يطفح نهرُه إلا بالخراب، ولا أتت القِرَبُ لتملأ منه إلا راحت وهي فارغةُ الجِراب.

قال المُمْلي ـ أجزلَ الله له الثواب ـ: وهذا آخرُه وبتمامه تمَّ الكتاب؛ وليعذرْ مَنْ وقف عليه، فقد علِمَ اللَّهُ كيف كان يتلقَّف قلم الاستملاء، ويتخطَّفه مسارعة من لسان الإملاء، حتى كُتب في غاية الاستعجال، وحُسِبَ عند حاضريه مما يجري مجرى الارتجال، لخمود خاطري، وجمود ماطري، وإعراضي عن هذه الصناعة، التي قلَّت منها البضاعة؛ وعلمت أن إنفاقَ رأسِ مالي من العمر فيها كان إضاعة؛ على أنه ـ وإن لم يكن فيه طائل، عند ذوي الفضائل، فقد لا يقع ـ لتوسُّعهم في العلم ـ موقعُ النَّقص لديهم، لعلمهم إذا كَسَد عندهم أنَّ له قوماً ينفَق عليهم.

واللَّهُ يوفقنا لما هو أصلح، ويفتَحُ علينا ـ فقد قرعنا بابَه ـ واللَّهُ يفتح.

[انتهى كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» للعمري]

وجاء بالأصل ما نصُّه: فَرَغَ من تعليقه كاتبُه ومالكُه، العبدُ الفقير، المعترف بالعجز والتقصير، عليّ بن عبد الله بن الشبلي الحنَفي ـ عفا اللهُ عنه ـ بثَغْر طرابُلس المحروسة ـ حماه الله وكفاه ـ وكان تمامُه في تاسع الحجَّة الحرام سنة ٧٦٤ هـ.

الحمدُ للَّه وحدَه، وصلَّى اللَّهُ على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً؛ وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل.

---

(١) يقال: عبَّ عُبابُه لمن مرَّ في كلامه فأكثر. والمراد: كثرُ بريقهُ ولمعانه.

(٢) الشريعة هنا بمعنى النهر.

ثَبْت المصادر والمراجع

١ ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية ـ تأليف أبي الحسن علي بن محمد الماوردي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٢ ـ إسلام بلا مذاهب ـ تأليف مصطفى الشكعة ـ الدار المصرية للطباعة والنشر .

٣ ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ـ تأليف ابن شداد ـ الجزء الثالث تحقيق يحيى عمارة ـ منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق ـ ١٩٧٨ .

٤ ـ الأعلام (قاموس تراجم) ـ تأليف خير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .

٥ ـ أعمال الأعلام (تاريخ إسبانيا الإسلامية) ـ تأليف لسان الدين ابن الخطيب ـ تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال ـ دار المكشوف ـ بيروت ـ ١٩٥٦ .

٦ ـ الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ـ تأليف حسن الباشا ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٥٧ .

٧ ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار ـ تأليف ابن دقماق ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت .

٨ ـ الأوائل ـ تأليف أبي هلال العسكري ـ تحقيق محمد المصري ووليد قصّاب ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق .

٩ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ تأليف محمود شكري الآلوسي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٠ ـ تاريخ الإسلام ـ تأليف حسن إبراهيم حسن ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .

١١ ـ تاريخ الإسلام في الهند ـ تأليف عبد المنعم النمر ـ مكتبة دار العروبة ـ القاهرة.

١٢ ـ تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ـ تأليف أبي جعفر الطبري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٣ ـ تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ـ تأليف أحمد السعيد سليمان ـ دار المعارف ـ مصر.

١٤ ـ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ـ تأليف محيي الدين بن عبد الظاهر ـ تحقيق مراد كامل ومحمد علي النجار ـ منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بالجمهورية العربية المتحدة.

١٥ ـ تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ـ حقّقه وعلّق حواشيه: محمود محمد شاكر ـ راجعه وخرّج أحاديثه: أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف ـ مصر.

١٦ ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ـ دار الشآم للتراث ـ بيروت.

١٧ ـ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ـ تأليف محمد قنديل البقلي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٨ ـ التعريفات ـ تأليف علي بن محمد الجرجاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٩ ـ تقويم البلدان ـ للملك المؤيد صاحب حماه (أبو الفداء) ـ طبع باريس ـ ١٨٤٠.

٢٠ ـ تهذيب الأسماء واللغات ـ للنووي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢١ ـ جنى الجنتين في تمييز نوعي المثنيين ـ تأليف محمد أمين المحبِّي ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

٢٢ ـ الحلبة في أسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والإسلام ـ للصاحبي التاجي ـ ويليه فائت الحلبة ـ تحقيق حاتم صالح الضامن ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٨٥.

٢٣ ـ الحلّة السيراء ـ تأليف ابن الأبّار ـ تحقيق حسين مؤنس ـ الشركة العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٦٣.

٢٤ ـ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ـ تأليف علي باشا مبارك ـ الهيئة المصرية للكتاب.

٢٥ ـ الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار) ـ تأليف أحمد بن علي المقريزي ـ دار صادر ـ بيروت.

٢٦ ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ الطبعة العربية ـ منشورات كتاب الشعب ـ القاهرة.

٢٧ ـ دراسات في فقه اللغة ـ الشيخ صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين ـ ١٩٦٠.

٢٨ ـ الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري) ـ تأليف أنطوان خليل ضومط ـ دار الحداثة ـ بيروت ـ ١٩٨٠.

٢٩ ـ رسوم دار الخلافة ـ تأليف ابي الحسين هلال الصابيء ـ تحقيق ميخائيل عواد ـ مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٩٦٤.

٣٠ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار ـ تأليف محمد بن عبد المنعم الحميري ـ تحقيق إحسان عباس ـ مكتبة لبنان ـ بيروت.

٣١ ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ـ تأليف خليل بن شاهين الظاهري ـ اعتنى بتصحيحه بولس راويس ـ طبعة باريس ـ ١٨٤٠.

٣٢ ـ سفرنامة ـ (رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية) ـ نقلها إلى العربية يحيى الخشّاب ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ ١٩٨٣.

٣٣ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ تأليف ابن العماد الحنبلي ـ مكتبة القدسي ـ القاهرة.

٣٤ ـ الشعر والشعراء (طبقات الشعراء) ـ تأليف ابن قتيبة الدينوري ـ تحقيق مفيد قميحة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٣٥ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـ للقلقشندي ـ طبعة دار الكتب المصرية.

٣٦ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـ للقلقشندي ـ شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٧.

٣٧ ـ صفة جزيرة الأندلس (منتخب من الروض المعطار) ـ تحقيق ليفي بروفنسال ـ القاهرة ـ ١٩٣٧ .

٣٨ ـ صفة جزيرة العرب ـ تأليف لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ـ تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ـ منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ـ الرياض ـ ١٩٧٤ .

٣٩ ـ عيون الأخبار ـ تأليف ابن قتيبة الدينوري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٤٠ ـ الفهرست ـ تأليف ابن النديم ـ دار المعرفة ـ بيروت .

٤١ ـ فوات الوفيات ـ تأليف ابن شاكر الكتبي ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت .

٤٢ ـ القاموس المحيط للفيروز أبادي ـ المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت .

٤٣ ـ القرآن الكريم .

٤٤ ـ قضايا لغوية في ضوء القراءات القرآنية ـ الشيخ صبحي الصالح ـ منشورات الجامعة اللبنانية .

٤٥ ـ قوانين الدواوين ـ تأليف ابن مماتي ـ تحقيق عزيز سوريال عطية ـ مطبعة مصر ـ ١٩٤٣ .

٤٦ ـ الكامل في التاريخ ـ تأليف ابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت .

٤٧ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ تأليف حاجي خليفة ـ دار الفكر ـ بيروت .

٤٨ ـ الكلّيات ـ تأليف أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ـ تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ـ منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق ـ ١٩٨٢ .

٤٩ ـ لسان العرب ـ تأليف ابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت .

٥٠ ـ مذكرات جوانفيل (القديس بولس) ـ ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشي ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٦٨ .

٥١ ـ مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ـ تأليف عبد المؤمن البغدادي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية.

٥٢ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ للمسعودي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار المعرفة ـ بيروت.

٥٣ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين) ـ تأليف ابن فضل الله العمري ـ دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكي ـ المركز الإسلامي للبحوث ـ بيروت.

٥٤ ـ المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى ـ تأليف إبراهيم علي طرخان ـ نشر مؤسسة سجل العرب ـ القاهرة ـ ١٩٦٦.

٥٥ ـ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ـ تأليف ياقوت الحموي ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.

٥٦ ـ معالم الكتابة ومغانم الإصابة ـ تأليف عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي ـ علّق حواشيه الخوري قسطنطين الباشا المخلّصي ـ المطبعة الأدبية ـ بيروت ـ ١٩١٣).

٥٧ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ـ تأليف زامباور ـ أخرجه زكي محمد حسن بك ـ وحسن أحمد محمود ـ مطبعة جامعة فؤاد الأول ـ ١٩٥١.

٥٨ ـ معجم البلدان ـ تأليف ياقوت الحموي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٥٩ ـ معجم عبد النور المفصّل ـ تأليف جبور عبد النور ـ دار العلم للملايين ـ بيروت.

٦٠ ـ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ـ تأليف عمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٦١ ـ معجم ما استعجم ـ تأليف عبد الله بن عبد العزيز البكري ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٨٣.

٦٢ ـ المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية ـ القاهرة.

٦٣ ـ المُغرب في حُلَى المغرب ـ تأليف ابن سعيد المغربي ـ تحقيق شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصر.

٦٤ ـ منطلق تاريخ لبنان ـ تأليف كمال سليمان الصليبي ـ منشورات كارافان ـ نيويورك.

٦٥ ـ الموسوعة العربية الميسّرة ـ إشراف محمد شفيق غربال ـ دار الشعب ومؤسسة فرنكلين ـ القاهرة.

٦٦ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ تأليف ابن تغري بردي ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة.

٦٧ ـ النظم الإسلامية ـ تأليف صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين ـ بيروت.

٦٨ ـ نهاية الأرب ـ للنويري ـ دار الكتب المصرية.

٦٩ ـ هدية العارفين (أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) ـ تأليف إسماعيل باشا البغدادي ـ دار الفكر ـ بيروت.

٧٠ ـ وفيات الأعيان ـ تأليف ابن خلكان ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت.

الفهارس العامة

فهرس الموضوعات والمطالب

القسم الثاني من الكتاب
في عادات العهود والتقاليد والتفاويض
والتواقيع والمراسيم والمناشير

القسم الثالث ـ في نُسخ الأيمان

القسم الرابع ـ في الأمانات والدفن والهُدَن
والمواصفات والمفاسخات

القسم الخامس ـ في نطاق كل مملكة وما هو
مضافٌ إليها من المدن والقلاع والرساتيق

القسم السادس ـ في مراكز البريد والحمام
وهُجُن الثلج والمراكب المسفَرة به في البحر
والمناور والمُحْرِقات

القسم السابع ـ في أوصاف ما تدعو الحاجة إلى وصفه
مما يكثر ذكره في المكاتبات،
ويشتمل على سبعة فصول

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ش)

فهرس الجماعات والقبائل والأمم والطوائف

(أ)

(غ)

(ف)

فهرس الأماكن والبلدان

(أ)

(ب)

(ت)

(ذ)

(ر)

(ز)

فهرس الألفاظ الاصطلاحية والحضارية العمرانية العامة

(أ)

(ب)

(ح)

(خ)

(ص)

(غ)

(ق)

(م)

(ن)